أدب الرسائل في الأندلس

في القرن الخامس الهجري

تأليف

فايز عبد النبي فلاح القيسي

دار البشير
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار البشير
للنشر والتوزيع

بناية الددو
مقابل البنك العربي - العبدلي
عمان - الأردن

هاتف [٦٧٠٢٣٠] - [٦٦٤٤٢١]
ص. ب [١٨٣٩٨٢] - [١٨٢٠٧٧]
تلكس: ٢٣٧٠٨ / بشير

Dar - Albashir
For Publishing & Distribution

Al Dado Building
Opposite of Arab Bank
Amman - Jordan

Tel. (670230) - (664421)
P. O. Box (183982) - (182077)
Telex. 23708 Bashir

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿.... ربِّ أَوزعني أنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وأدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عِبَادِكَ الصَّالِحينَ﴾.

صدق الله العظيم

(سورة النمل ـ الآية ١٩)

الإهداء

إلى والديّ . . .

ثمرة من ثمار غرسهما .

المُقَـــدّمَـــة

تعدَّدت فنون النثر العربي وطرائقه في الأندلس، حتى أصبح يضم كلَّ فنون النثر التقليدية وطرائقها التي عرفها المشارقة، من خطب، ورسائل، ومقامات، ومناظرات، إلى جانب مازاده الأندلسيون عليها مما أملته ظروف حياتهم وبيئتهم الخاصة. وهم في هذا وذاك قد أضفوا على نثرهم طابعاً مميزاً، كان وليد أمزجتهم وثقافتهم وأوضاع مجتمعهم وطبيعة بلادهم.

وقد لاحظ الباحث أن الدارسين لم يولوا النثر الأندلسي العناية اللازمة، وخاصة أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري، إذ أنَّهم شغلوا أنفسهم بدراسة الشعر دون النثر.

ويعتقد الباحث أن هذه الرسائل تعتبر في الوقت ذاته مصدراً مهمًا لدراسة الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

وقد حظي أدب الرسائل في الأندلس في هذا القرن بكُتَّابٍ معظمهم من فرسان السياسة والأدب، أمثال ابن شُهَيْد، وابن بُرْد الأصغر، وابن حَزْم، وابن طاهر وغيرهم.

إن إيمان الباحث بأن التراث الأندلسي تراث إسلامي مشترك يجب إحياؤه وبعثه من جديد، لينير لنا بعض الجوانب من تاريخنا الأدبي والفكري التي مازالت بحاجة إلى الدراسة والبحث، قد دفعه لاختيار موضوع «أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري». وإن هناك لوناً آخر من الرسائل شاع في هذا القرن، وهو «الرسائل الشعرية، وقد استبعدها الباحث من مجال بحثه، لأنها رُبَّما تكون أقرب إلى الفنون الشعرية منها إلى الرسالة الأدبية.

وقد ظهرت بعض الدراسات في العصر الحديث تناولت النثر الأندلسي بصورة عامة. وأهم هذه الدراسات: دراسة الدكتور حازم عبد الله خضر «النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين»، فقد اهتمَّ بدراسة عدد من ألوان الرسائل الدينية والاجتماعية والإخوانية والديوانية، ولم يقم بدراسة منفصلة ومستقلة تعنى بأدب الرسائل وأعلامه في القرن الخامس الهجري. ومنها دراسة الدكتور إحسان عباس في كتابه «تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطَّوائف والمرابطين»، فقد اهتمَّ بدراسة ألوان من الرسائل الأدبية، ولم يتطرق إلى الألوان والأنواع الأخرى من الرسائل، ووقف الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه «الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه» عند بعض الرسائل المشهورة في هذا القرن، ولم يلتفت لغيرها. ومن هذه الدراسات أيضاً دراسة الدكتور عبد العزيز عتيق في كتابه «الأدب العربي في الأندلس» التي ركَّز فيها على نماذج مشهورة من رسائل هذا القرن، وبين تأثّر أصحابها بأساليب المشارقة.

ولقد اهتمَّ هؤلاء الدارسون بالكُتَّاب المشهورين، ولم يلتفتوا إلى أولئك المقلين أو المغمورين، وجاءت بعض دراساتهم تكراراً لبعضها الآخر.

وتتكوَّن هذه الدراسة من تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة. درس الباحث في التمهيد الإطار السياسي والاجتماعي والفكري في الأندلس في القرن الخامس الهجري، وبيَّن أنه على الرَّغم مما شهده الأندلس في القرن الخامس الهجري من تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل، فقد ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس في هذا القرن ازدهاراً عظيماً ونهضت العلوم والآداب نهضة بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الإسلامي.

وفي ظل هذا الازدهار وجد الكُتَّاب اهتماماً كبيراً من قبل ملوك الطوائف، وأمراء المرابطين وولاتهم في الأندلس.

وفي الفصل الأول حدَّدَ الباحث مفهوم أدب الرسائل، فوقف عند مفهوم رسالة في الأدب، إلى جانب دراسة مرادفاته التي شاع استعمالها، ووضَّح علاقتها

بمفهوم لفظ رسالة. وخرج الباحث إلى القول بأنَّ أدب الرسائل لون من ألوان النثر الفني الجميل وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالاً ولا يكاد يختلف مفهوم أدب الرسائل عند الأندلسيين عن مفهومه عند المشارقة، فالأدب في عرفهم جميعاً ينقسم إلى أصلين أساسيين: منظوم ومنثور، والمنثور فيه الخطب والرسائل، وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلان الشعر.

وتحدَّث الباحث في الفصل الأول عن نشأة أدب الرسائل وأصوله في الأندلس، وبيَّن أن أدب الرسائل من أسبق ألوان النثر الفني إلى الظهور في الأندلس، فأهل الجزيرة كانوا متمكِّنين من الخطابة والشعر والكتابة منذ أوَّل قدومهم إلى تلك البلاد.

وختم الباحث هذا الفصل بالحديث عن تطوّر أدب الرسائل في الأندلس من الناحيتين الموضوعية والفنية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وبيَّن ما كان لذلك من أثر مباشر في أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري وتطوّره وتشعب موضوعاته.

أمَّا الفصل الثاني فقد تحدَّث الباحث فيه عن مكانة أدب الرسائل وعوامل تطوره وازدهاره، وبيَّن أن أدب الرسائل قد تطوّر تطوراً كبيراً وتشعبت موضوعاته وأغراضه تبعاً لتشعب أمور الحياة في المجتمع الأندلسي في هذا القرن، واقتحم على الشعر ميدانه وشاركه في أغراضه.

وقد صنَّف الباحث في هذا الفصل موضوعات الرسائل وأغراضها في مجموعات متجانسة بحسب مضامينها، وتقارب أغراضها، وجعل الباحث أولى هذه المجموعات التي درس نصوصها رسائل الاتجاه السياسي، ثم تلتها دراسة رسائل الاتجاه الاجتماعي، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، والرسائل الدينية، ورسائل المفاضلات والمفاخرات، ثم رسائل النقد الأدبي، ورسائل الفكاهة، والرسائل الديوانية، وأخيراً الرسائل الإخوانية، على أن هذه المجموعات لا تعني الحرفية في الدلالة على مضامين الرسائل، إذ أن وشائج القربى بين هذه المضامين قوية جداً.

أمَّا الفصل الثالث فقد تناول الباحث فيه الخصائص الفنية واللغوية لأدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ووقف عند تأثّر الكُتَّاب الأندلسيين بالمشارقة ومحاكاتهم، وبين المظاهر الفنية التي تميَّزت بها رسائلهم المشرقية من حيث البناء الفني والألفاظ وزخرفتها، والمعاني والتعبير عنها.

أمَّا الفصل الرابع فقد عقده الباحث على دراسة ثلاثة من أشهر الكُتَّاب المترسلين في الأندلس في القرن الخامس الهجري دراسة تحليلية، وهم ابن الدَّباغ وابن عبد البر وابن طاهر، فتحدَّث عن حياتهم، وتتبع موضوعات رسائلهم وأغراضها، وبين خصائصها وسماتها الفنية. وقد لاحظ في اختيار هؤلاء الكُتَّاب تمثيلهم لاتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته، هذا إلى جانب أنه لم يلتفت إليهم أحد من الدارسين.

أما الخاتمة فقد ضمَّنها الباحث النتائج التي توصل إليها من هذه الدراسة.

وأرفق الباحث بالدراسة فهارس عامة للأعلام والقبائل والطوائف والجماعات والأماكن والبلدان، والمصادر والمراجع والموضوعات.

وقد تنوَّعت مصادر هذا البحث، ومن أقدمها كتاب «البديع في وصف الربيع» «لأبي الوليد الحميري» المتوفى بحدود سنة ٤٤٠ هـ، ويتضمَّن هذا الكتاب عدداً من الرسائل الوصفية التي تعود إلى بداية القرن الخامس الهجري.

ومن هذه المصادر «رسائل ابن حزم الأندلسي»، ومن أشهرها «رسالة فضائل الأندلس وأهلها» و «رسالة طوق الحمامة» و «الرد على ابن النغريلة». وهذه الرسائل مهمة للباحث في الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية في القرن الخامس الهجري. وقد عالج فيها ابن حزم شتَّى أنواع المعرفة الإنسانية، فمنها مايبحث في الآداب والفقه والأخلاق، ومنها مايبحث في أحداث التاريخ والإمامة والسياسة، ومنها مايبحث في العشق والهيام، ومما يزيد من أهميتها أن صاحبها أحد فرسان الأدب والسياسة في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

ومنهـا أيضاً كتابا «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس» للفتح بن خاقان (ت ٥٢٩ هـ) ويتضمَّن هذان الكتـابان تراجم لعدد كبير من الكُتَّاب في القرن الخامس الهجري، وعدداً كبيراً من نصوص رسائلهم.

ومنها أيضاً كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بَسَّام (ت ٥٤٢ هـ). وهذا الكتاب من أهم مصادر الدراسة إذ أنه يشتمل على مجموعة كبيرة من رسائل هذا القرن لاتوجد في غيره من المصادر، ومّما يزيد من أهميته تعدد موضوعات الرسائل التي تضمَّنها وتنوع موضوعاتها.

ومنها أيضاً كتابا «إعتاب الكتاب» و «الحلة السيراء» لابن الأبَّار (ت ٦٥٨ هـ).

ومن مصادر هذا البحث أيضاً كتاب «نفح الطيب» للمقّري (ت ١٠٤١ هـ)، فهو موسوعة شاملة في تاريخ الأندلس الأدبي وحضارته، وهو مهم للباحث في القرن الخامس الهجري، إذ أنَّ صاحبه احتفظ بمجموعة كبيرة من المعلومات، نقل بعضها عن مصادر لم تصلنا.

وقد واجه الباحث في هذه الدراسة صعوبات عدة، منها ندرة المصادر، ومنها تداخـل أبـواب وفصول البحث بعضها مع بعض، وتشابك مضامين الرسائل وتمازجها، مما يجعل التفصيل والتقسيم وتبسيط المادة أمراً عسيراً ولاريب.

ويتوجَّه الباحث بعظيم تقديره، وجزيل شكره إلى الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة الذي تفضَّل برعاية هذه الدراسة منذ أن كانت فكرة وأحاطها بكلِّ رعايته وعنايته، ومنح صاحبها من وقته وعلمه وعطفه وجهده وحلمه ماعقل لسان الباحث وقبض بنانه، فإن أثنى فمقصرّ عن الثناء، وإن دعا فإلى الله يرفع الدعاء، فلله دره على ماأبداه من فضل، وأسرَّه من احترام، وجزاه اللهُ خير الجزاء.

ولاريب أن العرفان بالجميل يقتضي من الباحث أن يتوجَّه بعظيم تقديره، وجزيل شكره إلى الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت الذي لم يدَّخر ذرة من

جهده، وبذل كل مافي وسعه في سبيل إنجاز هذا العمل.

وأخيراً فإنَّ الباحث لايزعم أن هذا العمل بريء من العيوب والمآخذ، ولكنه لم يأل جهداً في تنقيحه وتهذيبه.

والله ولي التوفيق.

فايز عبد النبي القيسي

عمّان الخير في ١ / محرم / ١٤٠٧هـ
الموافق ٤ / ايلول / ١٩٨٦م.

التمّهيد

الإطار السياسي والاجتماعي والفكري
في الأندلس في القرن الخامس الهجري

الإطار السياسي

انتهت ثورة قُرْطُبَة التي تزعَّمها أول الأمر محمد بن هشام بن عبد الجبَّار سنة ٣٩٩ هـ بسقوط الدولة العامرية، وخلع الخليفة هشام المؤيَّد.[١] وكانت هذه الثورة بداية فتنة كبيرة اجتاحت قرطبة وانتشر تأثيرها في سائر الأندلس، وجاءت على الوحدة والنظام والهدوء والرَّخاء الذي عمَّ البلاد، وانتهت بسقوط الخلافة نهائياً[٢] حين أصدر أهل قُرْطُبَة منشوراً أعلنوا فيه زوال رسوم الخلافة سنة ٤٢٢ هـ،[٣] وأسندوا أمرهم إلى شيخ الجماعة الوزير أبي الحزم بن جهور.[٤]

ونتج عن ذلك أن دبَّت الفوضى في مختلف نواحي الأندلس وتناهب زعماء العرب والبربر والصقالبة البلاد، فاستولى بنو عبَّاد على إشْبِيلِيَة، وبنو الأفْطَس على بَطَلْيُوس، وبنو صُمَادح على المَرِيَّة، وبنو ذي النون على طُلَيْطُلَة، وبنو هود على سَرَقُسْطَة، وبنو زيري على غرناطة، وبنو عامر على بَلَنْسِية وغيرها.[٥]

---

(١) ـ انظر: أحداث الثورة في: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٥، البيان المغرب: ج ٣، ص ٥٢ ـ ٧٧، أعمال الأعلام: ج٢، ص ١٠٩ ـ ١١١، تاريخ ابن خلدون: ج ٤، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥، دولة الإسلام في الأندلس: ق١ م٢، ص ٥٨٠ ـ ٥٨٥.

(٢) ـ انظر عوامل سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في: ابن حزم ورسالة المفاضلة بين الصحابة: ص ١٢ ـ ١٨، إشبيلية في القرن الخامس الهجري: ص ٢١ ـ ٢٥، مجاهد العامري: ص ٣١.

(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٠٢، البيان المغرب: ج ٣، ص ١٥٠ ـ ١٥٢، أعمال الأعلام ج٢، ص ١٤٧.

(٤) ـ هو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكلبي، كان من موالي بني أمية ومن وزراء الدولة العامرية، تغلّب على قرطبة أيام الفتنة، وكان موصوفاً بالدّهاء والسياسة، توفي سنة ٤٣٥ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٨٨، المطمح: ص ٣٣ ـ ٣٩، المغرب: ج١، ص ٥٦).

(٥) ـ انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٦٧، صبح الأعشى: ج ٥، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٦.

ودخلت الأندلس بذلك في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف أو عصر الفرق[1] كما يسميه ابن الكردبوس،[2] وعلى الرَّغم من أن هذا العصر لم يطل أكثر من ثمانين عاماً فإنَّه يعدُّ من أكثر عصور التاريخ الأندلسي تشعباً واضطراباً، فقد كانت الشارة الغالبة عليه الانهيار السياسي،[3] وكثرة المشاحنات والخصومات بين ملوك الطوائف الذين طمع كل منهم في توسع أملاكه وامتداد سلطانه على حساب جيرانه، فشبَّت بينهم الحروب واشتعلت الفتن التي كانت سبباً في إضعاف قوة البلاد.[4]

وكانت إسبانيا النصرانية في هذا الوقت تشهد ميلا حركة جديدة بقيادة فرذلند ملك قشتالة وليون، تهدف إلى إعادة الأندلس إلى حظيرة النصرانية بمساعدة فرنسا البابوية وبتشجيع من الكنيسة الكلونية.[5] التي أخذت تثير روحاً صليبية لدى مواطنيها وتشجِّع القوى المسيحية على شنِّ حرب مقدسة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه.[6]

ولم يزل ثغر الأندلس يضعف، والعدو يقوى، والفتنة بين أمراء الأندلس

---

(١) ـ انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٧٨.

(٢) ـ هو أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري، مؤرخ تونسي، عاش في أواخر القرن السادس الهجري (انظر أخباره في: مقدمة كتاب تاريخ الأندلس لابن الكردبوس).

(٣) ـ انظر: الشعر الأندلسي: ص ٢٦.

(٤) ـ انظر دول الطوائف ص ٩٩، مجاهد العامري: ص ٢٩، ٤١.

(٥) ـ نسبة إلى مدينة كلوني في فرنسا، وقد أنشىء عندها دير كلوني للآباء البندكتيين، ومنه انبثقت نهضة دينية وثقافية في القرن الحادي عشر الميلادي لم تلبث أن عمت غرب أوروبا، وأخذت تحرض القوى المسيحية على شن حرب صليبية ضد المسلمين (انظر: في تاريخ المغرب والأندلس: ص ٢٨٣).

(٦) ـ انظر: أوروبا العصور الوسطى: ص ٥٦٠، دول الطوائف: ص ٣٨٢، في تاريخ المغرب والأندلس: ص ٢٨١.

تستعر إلى أن تغلّب العدو على جميعهم،(1) فأرغم ملوك إشْبِيْلِيَة(2) وبَطَلْيُوس(3) وطُلَيْطُلَة(4) على الخضوع ودفع الجزية صاغرين.(5)

ولم يتورّع بعض ملوك الطوائف عن الاستعانة بفرذلند لضرب إخوانهم والاستيلاء على ممالكهم.(6) وقد كان فرذلند يسارع إلى تقديم المساعدات محاولاً القضاء عليهم جميعاً، ففي الوقت الذي كان يساعد فيه المنصور بن أبي عامر الصغير(7) ضدَّ مجاهد العامري،(8) كانت قواته الأخرى تساعد ابن هود(9) لمحاربة

---

(1) - انظر: البيان المغرب: ج ٣، ص ٢٣٩.

(2) - إشبيلية: مدينة كبيرة بالأندلس غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخاً، وهي مدينة قديمة، ويقال إن الذي بناها يوليوس قيصر (انظر: معجم البلدان: ج١، ص ١٩٥، مراصد الاطلاع: ج١، ص ٨٠، الروض المعطار: ص ٥٨).

(3) - بَطَلْيُوس: مدينة جليلة بالأندلس من أعمال ماردة، تقع على نهر آنّه غربي قرطبة، وهي مدينة محدثة بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي بإذن من الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (انظر: معجم البلدان: ج١، ص ٤٤٧، مراصد الاطلاع: ج١، ص ٢٠٤، الروض المعطار. ص ٩٣).

(4) - طُلَيْطُلَة: ناحية بالأندلس، من أعمال أستجة، قريبة من قرطبة، وهي مدينة قديمة، وكانت دار الملك بالأندلس -حين دخلها طارق بن زياد، وقد سقطت بيد النصارى سنة ٤٧٨ هـ (انظر: معجم البلدان: ج ٤، ص ٣٩، الروض المعطار: ص ٣٩٣).

(5) - انظر: البيان المغرب: ج٣، ص ٢٢٨، ٢٧٩، أعمال الأعلام: ج٢ ص ١٨٤.

(6) - انظر: التاريخ الأندلسي: ص ٣١٦.

(7) - هو المنصور عبد العزيز بن الناصر بن المنصور بن أبي عامرالمعروف بالمنصور الصغير أمير بلنسية وكان من أوصل الناس لرحمه، وأحفظهم لقرابته، توفي سنة ٤٥٢ هـ (انظر: ترجمته في المغرب: ج ٢، ص ٣٠٠، أعمال الأعلام: ج٢، ص ١٩٤).

(8) - هو أبو الجيش مجاهد بن عبد الله، أمير دانية والجزائر الشرقية، كانَ مولى للمنصور بن أبي عامر، توفي سنة ٤٣٦ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م١، ص ٢٣، المغرب: ج٢، ص ٤٠١).

(9) - هو سليمان بن أحمد بن هود الجذامي، أمير سرقسطة، اشتهر ذكره في الأندلس، وبعد صيته إلى أن توفي سنة ٤٣٨ هـ (انظر ترجمته في: المغرب: ج٢، ص ٤٣٦، أعمال الأعلام: ج٢، ص ١٧٠).

ابن ذي النُّون،[1] وهو في نفس الوقت يعد حملات ضدَّ مملكتي إشْبِيْلِيَة وبَطَلْيُوس.[2]

وتغيَّرت موازين القوى في الجزيرة، فقد أخذت القوى الإسلامية تفقد قوتها وتتراجع حدودها، في حين أخذت القوى النصرانية تنمو وتقوى،[3] وكانت نتيجة ذلك أن سقطت بعض المدن والقواعد الأندلسية بيد دول إسبانيا النصرانية، ومن هذه المدن قُلُمْرِيَّةُ[4] وبَرْبَشْتَر[5] التي سقطت سنة ٤٥٦ هـ.[6]

وبعد وفاة فرذلند سنة ٤٥٨هـ، وتقسيمه أملاكه بين أبنائه الثلاثة الأذفونش وشانجة وغرسية، نشبت حرب أهلية في المملكة الإسبانية، وتعرَّضت البلاد لهزَّة عنيفة ومرحلة جديدة من الفوضى والاضطرابات.[7]

(١) - هو المامون يحيى بن اسماعيل بن ذي النون، أمير طليطلة، عظم سلطانه بين ملوك الطوائف، وكانت بينه وبين فرذلند مواقف مشهورة، وغلب على بلنسية وأخذها من يد بني عامر، وغلب على قرطبة وأخذها من يد المعتمد بن عباد، وقتل ابنه أبا عمرو، وتوفي سنة ٤٦٧ هـ (انظر ترجمته في: المغرب: ج٢، ص ١٢ أعمال الأعلام: ج٢، ص ١٧٨، النفح: ج١، ص ٤٤٠).

(٢) - انظر: البيان المغرب: ج ٣، ص ٢٧٩ - ٢٨٠، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٧٨، ١٩٥.

(٣) - انظر: التاريخ الأندلسي: ص ٣٢٦، دول الطوائف: ص ٣٨١ - ٣٨٢.

(٤) - انظر حوادث سقوط قُلُمْرِيَّة في: البيان المغرب: ج٣، ص ٢٣٨ - ٢٣٩، ٢٥٣، أعمال الأعلام: ج٢، ص ١٨٤ وقُلُمْرِيَّة من مدن الثغر الأدنى في الأندلس، فتحها المنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٥ هـ، وفي سنة ٤٥٦ هـ استطاع فرذلند احتلالها، وأخذها من يد المظفر بن الأفطس أمير بطليوس (انظر: معجم البلدان: ج٤، ص ٣٩١، مراصد الاطلاع: ج٣، ص ١١١٨، الروض المعطار: ص ٤٧١).

(٥) - بَرْبَشْتَر: من أمهات الثغور الأندلسية الحصينة، تقع شمال سرقسطة، وقد تعرضت لمحنة شديدة عندما استولى عليها الصليبيون سنة ٤٥٦ هـ، وقتلوا أهلها ونهبوا خيراتها، وفي سنة ٤٥٧ هـ استطاع أحمد بن هود أمير سرقسطة أن يستردها، ومنذ ذلك الوقت تسمَّى بالمقتدر (انظر: معجم البلدان: ج١، ص ٣٧٠، الروض المعطار: ص ٩٠ - ٩١).

(٦) - انظر حوادث سقوط بَرْبَشْتَر واستردادها في: الذخيرة: ق ٣ م١، ص ١٧٩، وما بعدها، البيان المغرب: ج٣، ص ٢٢٥.

(٧) - انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٧٦، التاريخ الأندلسي: ص ٣٣٠، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: ج١، ص ٢٣ - ٢٥، دول الطوائف: ص ٣٨٩ - ٣٩٢.

ولم يحاول ملك الطوائف استغلال هذه الفرصة في جمع الكلمة وتوحيد الصف لردع عدوهم المشترك، كما أن سياستهم الداخلية لم تدع مجالاً لتحسين الأوضاع السياسة خاصة والاجتماعية والاقتصادية عامة لمواجهة الخطر الصليبي، فقد نهج بعضهم سياسة البطش والقوة مع رعاياهم، فكثر النفي والطرد والجلاء والتشرد والقتل وامتلأت السجون.(١) وقد روي أن المعتضد بن عبَّاد كان يحتفظ بجماجم أعدائه في خزانة في جوف قصره،(٢) وكان يضرب المثل بباديس بن حبوس في شدة القسوة وسفك الدماء.(٣) وقد أدَّى ذلك إلى تردِّي الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الأندلس.

وكانت سياسة بعض ملوك الطوائف تقوم على اصطناع اليهود والنصارى والاستعانة بهم في إدارة شؤون المسلمين، فعظم شأنهم في بعض المدن الأندلسية وخاصة في غرناطة التي عرفت بغرناطة اليهود لكثرة من كان يسكنها منهم،(٤) حتَّى كادوا للإسلام، وعملوا على تدبير الدسائس وبثّ الفتن والاضطرابات داخل إمارات الطوائف والاتصال بملوك الصليبيين، والضغط على أمراء الطوائف لمحالفتهم ودفع الأتاوة لهم.(٥)

وقد تولَّى ابن النغريلَّة(٦) اليهودي الوزارة بغرناطة لباديس بن حبوس، وحكَّم اليهود في الشؤون العامة، فكتب الشاعر الزاهد أبو إسحق الإلبيري قصيدة بعث بها إلى باديس يعبِّر فيها عن سخط الناس على الوزير ويفضح جناياته وتقديمه قومه وإيقاعه الأذى بالمسلمين وفيها يقول:(٧)

---

(١) - انظر: الذخيرة: ق ٤ م١، ص ١٦٤.

(٢) - انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٥٠.

(٣) - انظر: المغرب: ج٢، ص ١٠٧.

(٤) - انظر: الروض المعطار: ص ٤٥.

(٥) - انظر: دول الطوائف: ص ٤١٣، تاريخ الفكر الأندلسي: ص ١٠٨.

(٦) - هو يوسف بن اسماعيل بن النغريلَّة: انظر أخباره في الذخيرة: ق١ م٢، ص ٧٦٦ - ٧٦٩، المغرب: ج٢، ص ١٣٣، البيان المغرب: ج٣، ص ٢٦٤ - ٢٦٥، الاحاطة: ج١، ص ٤٣٩.

(٧) - ديوان أبي اسحاق الإلبيري: ص ٨٩.

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور النَّديِّ وأسد العرين
لقد زلَّ سيدكم زلَّةً تقرُّ بها أعين الشامتين
تخيَّر كاتبه كافراً ولو شاء كان من المسلمين
فعزَّ اليهود به وانتخوا وتاهوا وكانوا من الأرذلين

وكانت ردة الفعل لهذه القصيدة ثورة عارمة ضد اليهود اهتزت لها جنبات غِرْنَاطة سنة ٤٥٩ هـ، وأراحت الناس من الوزير.(١) كما تولَّى أبو الفضل بن حَسْدَاي(٢) الوزارة للمقتدر بن هود.

واشتهر من النصارى أبو عامر بن غرسية(٣) الذي عاش في بلاط مجاهد العامري بدانية،(٤) وكان شعوبياً يكره العرب ويتعصَّب للإسبان، فقد كتب رسالة ذمَّ فيها العرب، وافتخر بقومه العجم، لكن بعض كُتَّاب عصره ردُّوا عليه وألجموه حتَّى أسكتوه.(٥) واشتهر أيضاً ابن المرعزي الإشبيلي الذي ظهر أيام المعتمد بن عبَّاد وكان من المقربين إليه.(٦)

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م٢، ص ٧٦٩، المغرب: ج٢، ص ١٣٣، البيان المغرب: ج٣، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، أعمال الأعلام: ج٢، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٦، النفح: ج٤، ص ٣٢٢.

(٢) ـ هو أبو الفضل حَسْدَاي بن يوسف بن حَسْدَاي الإسرائيلي (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ١١٥، الذخيرة: ق ٣ م١، ص ٤٥٧، المطرب: ص ١٩٦، عيون الأنباء: ص ٤٩٩، المغرب: ج٢، ص ٤٤١.

(٣) ـ هو أبو عامر أحمد بن غَرْسية، من أبناء البشكنس، سبي صغيراً وعاش في كنف مجاهد العامري، وكان من كبار أدباء عصره، وقد خاطب في رسالته المشهورة الأديب أبا جعفر بن الخراز معاتباً له لتركه مدح ملك بلاده مجاهد العامري، واقتصاره على مدح أمير المرية المعتصم بن صمادح (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق٣ م٢، ص ٧٠٤، المغرب: ج٢، ص ٤٠٦).

(٤) ـ دانية ـ مدينة بشرق الأندلس، وهي من أعمال بلنسية وعلى ضفة نهرها الشرقي (انظر: معجم البلدان: ج ٢، ص ٤٣٤، مراصد الاطلاع: ج٢، ص ٥١٠، الروض المعطار: ص ٢٣١).

(٥) ـ انظر رسالة ابن غرسية والردود عليها في: الذخيرة: ق ٣ م٢، ص ٧٠٥ ـ ٧٥٥، نوادر المخطوطات: ج٣، ص ٢٤٦ ـ ٣٥٤.

(٦) ـ انظر: المغرب: ج١، ص ٢٦٩، النفح: ج٣، ص ٥٢١.

وكان لليهود والنصارى دور كبير في معاونة الصليبيين في محاصرة المدن والقواعد الإسلامية في الأندلس والاستيلاء عليها، كما عملوا بكل جهدهم على تحطيم امارات الطوائف التي تقوم بحمايتهم ورعايتهم، والتمهيد للقضاء عليها وسقوطها بيد الصليبيين، فأدوا بذلك خدمات جليلة للحركة الصليبية التي تستهدف استعادة الأندلس للحظيرة النصرانية.(١)

ولم تلبث البلاد الإسبانية أن نهضت من عثرتها، إذ بعد حرب قصيرة بين أبناء فرذلند نجح الأذفونش بمساعدة أخته اوركا في توحيد مملكتي قشتالة وليون وبسط نفوذه على الممالك الإسبانية الأخرى.(٢)

وتعدُّ هذه الفترة التي جاء فيها الأذفونش للحكم من أخطر مراحل الصراع بين المسيحية والإسلام في الأندلس في القرن الخامس الهجري،(٣) فقد صادف أيام ملكه نفاقاً كبيراً بين المسلمين واختلافاً عظيماً،(٤) وكانت سياسته ترمي إلى تهديد الوجود الإسلامي في الأندلس بضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض، وبالإغارة على أراضيهم ومطالبتهم بالأموال لإضعافهم عسكرياً واقتصادياً ليتسنى له استخلاص الأندلس لنفسه، وتحقيق أحلام أجداده في استعادة الأندلس إلى حظيرة النصرانية.(٥)

وكان ملوك الطوائف يسايرون الأمور ويدافعون الأيام بدفع الأتاوة إلى الأذفونش، إذ لم تكن بهم قدرة على مواجهته «وبزعمهم أنه من هنا إلى أن تتم الأموال، وتهلك الرعايا يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين».(٦)

---

(١) ـ انظر: دول الطوائف: ص ٤١١ ـ ٤١٤، في تاريخ المغرب والأندلس: ص ٢٨٣.

(٢) ـ انظر: دول الطوائف: ص ٣٩١ ـ ٣٩٤، في تاريخ المغرب والأندلس: ص ٢٨١.

(٣) ـ انظر: أوروبا العصور الوسطى: ص ٥٦١.

(٤) ـ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٧٧.

(٥) ـ انظر: مذكرات الأمير عبد الله: ص ٦٣، في تاريخ المغرب والأندلس: ص ٢٨٣.

(٦) ـ مذكرات الأمير عبد الله: ص ٧٣.

ولّما أيقن أذفونش من ضعفهم وعدم قدرتهم على مواجهته استدعى المسيحيين من مختلف أنحاء البلاد،[1] وبدأ في سنة ٤٧٤ هـ حملة صليبية ضد المدن الأندلسية، وتحرَّك بجيوش كبيرة من البُشْكَنس[2] والجَلاَلِقة،[3] فشقَّ بلاد الأندلس شقاً، وكان يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرِّبُ ويقتل ويسبي ثم يرتحل إلى غيرها، ويبعث إلى كلِّ قاعدة من قواعد الأندلس جيشاً لحصارها والتضييق عليها،[4] فلم يعد يقنع بجزية ولاهدية، وإنَّما أصبح يروم أخذ القواعد،[5] وقد توّج مشاريعه الصليبية باحتلاله طُلَيْطُلَة قاعدة الثغر الأدنى وعاصمة القوط القديمة وذلك سنة ٤٧٨ هـ، بعد حصار دام سبع سنين، خرَّب خلالها أحوازها وانتسف زروعها وعاث فيها سفكاً وتخريباً.[6]

وكان سقوط طُلَيْطُلَة كارثة كبرى للإسلام في الأندلس، أيقن على أثرها الشعب الأندلسي وعلى رأسه الفقهاء أن ماأصابهم هو عقاب من الله لانصراف ملوك الطوائف عن أمور دينهم وشؤون رعيتهم وانهماكهم في ملذات الدُّنيا.[7]

---

(١) ـ انظر: دول الطوائف: ص ٣١٩، المرابطون: ص ١٠٨.

(٢) ـ البُشْكَنس: هم النصارى الإسبان الذين سكنوا في الجزء الغربي من جبال البرانس وكان مركزهم مدينة بانيلونا التي أصبحت فيا بعد عاصمة نافار. وقد خضعت منطقتهم للحكم الإسلامي منذ دخول موسى بن نصير الأندلس، إلا أنّهم شقوا عصا الطاعة وانضموا لألفونسو الأول سنة ١٨٢ هـ (انظر: الروض المعطار ص ٥٠، و Encyclopaedia of Islam, Vo. 1, p. 1079)

(٣) ـ الجَلاَلِقَة نسبة إلى جِلِّيقِيَّة، وهي منطقة تقع شمال غرب الأندلس، وقد خضعت للحكم الإسلامي فترة قصيرة في العهد الأموي، وكان الجلالقة أصحاب كد وأجسام قوية (انظر: الروض المعطار: ص ٥٠، و Encyclopaedia of Islam, Vol. 2, p. 541)

(٤) ـ انظر: الأنيس المطرب: ص ١٤٣ ـ ١٤٤، أعمال الأعلام: ج٣، ص ٢٣٩، الاستقصاء: ج٢، ص ٣٢.

(٥) ـ انظر: مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٠١، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٨٩.

(٦) ـ انظر حوادث سقوط طليطلة في: الذخيرة: ق ٤ م١، ص ١٦٤ ـ ١٦٩، أعمال الأعلام: ج٢، ص ١٨١، النفح: ج٤، ص٣٥٢، ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٧) ـ انظر: الرد على ابن النغريلة: ص ١٧٣ ـ ١٧٧، البيان المغرب: ج٣، ص ٢٥٥، النفح: ج٤، ص ٤٥٢.

ولعل المعتمد بن عبَّاد أعظم ملوك الطوائف قد أدرك مسؤوليته عمَّا حدث لطُلَيْطُلَةَ،[1] وفداحة الأخطار التي تردَّى فيها بمصانعته الأذفونش ومحالفته واستعدائه على إخوانه ملوك الطوائف، ولاحت له بوادر المصير المروِّع الذي سوف ينحدر إليه إذا لم تتداركه يد القدر بعون أو غيره،[2] عندما أيقظه رسل أذفونش حاملين إليه طلب سيدهم بتسليمه بعض الحصون زيادة على الضريبة المعتادة، والسماح لزوجته بأن تلد في مسجد قرطبة الجامع.[3]

وقد أساء السفير القَشْتَالي ابن شالب اليهودي التصرف مما أغاظ المعتمد فقتله واعتقل بقية الوفد،[4] ولَمَّا بلغ ذلك أذفونش أقسم بأيمان مغلظة أن لا يرفع يده عنه، وأن يحشد من الروم عدد شعر رأسه لمحاربته، فكان له ذلك، وسار بجيوشه نحو إشبيلية،[5] فتعاظم الخطر، وبلغت الحالة في الأندلس أقصى درجات الضعف والفساد، وقد وصف الكُتَّاب هذه الحالة في رسائل مختلفة سنعرض لها في فصل قادم.

وفي ظل هذه الظروف العصيبة نضجت فكرة كانت تراود الأندلسيين منذ فترة بعيدة، وهي الاستعانة بالمرابطين في العدوة المغربية،[6] حيث أقاموا فيها دولة مجاهدة بزعامة يوسف بن تاشفين تستهدف إعادة القوة للإسلام والحفاظ على مبادىء الدين الحنيف،[7] فعقد الفقهاء الأندلسيون اجتماعاً في قرطبة،[8] اجتمع رأيهم

---

(١) - انظر عن دور المعتمد بن عباد في احتلال طليطلة في: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: ج١، ص٦٠، تاريخ العرب العام: ص ٣٢٤.

(٢) - انظر: دول الطوائف: ص ٧٤.

(٣) - انظر: وفيات الأعيان: ج٥، ص ٢٨، الروض المعطار: ص ٨٨، النفح: ج٤، ص ٣٥٧.

(٤) - انظر: أعمال الأعلام: ج٢، ص ٢٥٩، الحلل الموشية: ص ٤٢، النفح: ج٤، ص ٣٥٨.

(٥) - انظر الحلل الموشية: ص ٤٢.

(٦) - انظر: الأنيس المطرب ص ١٤٤، الروض المعطار: ص ٨٦، أعمال الأعلام: ج٢، ص ٢٤٣، الحلل الموشية: ص ٣٣، النفح: ج٤، ص ٣٦٠.

(٧) - انظر: أعمال الأعلام: ج٢، ص ٢٤٣.

(٨) - انظر: الكامل: ج١٠، ص ١٥١ - ١٥٢، وفيات الأعيان: ج٥، ص ٢٨.

فيه على الاستعانة بالمرابطين، وتوجَّه زعيمهم القاضي عبيد الله بن أدهم[1] إلى المعتمد ابن عباد الذي عقد مؤتمراً اتخذ فيه قراراً بإرسال وفد من كبار القضاة يمثل مختلف الممالك الأندلسية للاستنجاد بالمرابطين[2] على الرَّغم من معارضة ابنه الرشيد[3] وتحذير ملوك الطوائف لعاقبة هذا القرار،[4] فردَّ عليهم بأنه يفضل رعي الجمال على رعي الخنازير، وإرضاء الله بالاستنجاد بالمرابطين على إسخاطه في اللجوء إلى النصارى.[5]

فلمَّا عبر الوفد إلى العدوة المغربية استجاب زعيم المرابطين لدعوة أمراء الطوائف بعد مشاورات مع كبار الفقهاء،[6] واعتبر صريخ ملوك الطوائف دعوة إلى المشاركة في الجهاد والذود عن الدين المشترك. وجهز ابن تاشفين جيشاً كبيراً عبر به إلى الأندلس، وانضم إلى الجيوش الأندلسية،[7] فلمَّا علم أذفونش بعبور المرابطين فك حصاره عن سَرَقُسْطَةَ،[8] وبدأ يستعدّ للقاء، واستدعى الجيوش من مختلف أنحاء إسبانيا النصرانية، فتدفقت عليه سيول الفرسان المتطوعين من جنوب فرنسا وإيطاليا، وسار أذفونش بجيشه مزهواً بتفوقه في العدد والعدة والإمكانات الفنية لقواته.[9]

---

(١) ـ هو أبو بكر عبيد الله بن محمد بن أدهم، كان قاضي الجماعة بقرطبة، استقضاه المعتمد بن عباد سنة ٤٦٨ هـ، وكان قد نظر قبل ذلك في أحكام المظالم، وشوور في الأحكام، توفي سنة ٤٨٦ هـ (انظر ترجمته في: الصلة: ج١، ص ٣٠٤).

(٢) ـ انظر الكامل: ج١٠، ص ١٥١، الروض المعطار: ص ٨٦، النفح: ج٤، ص ٣٥٩.

(٣) ـ انظر: الإحاطة: ج٢، ص ١٠٩، الحلل الموشية: ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٤) ـ انظر النفح: ج٤، ص ٣٥٩.

(٥) ـ انظر: وفيات الأعيان: ج٧، ص ١١٥، الاحاطة: ج٢، ص ١٠٩، النفح: ج٤، ص ٣٥٩.

(٦) ـ انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٩٠، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٤٥.

(٧) ـ انظر: المعجم: ص ١٩١، الأنيس المطرب: ص ١٤٥.

(٨) ـ سَرَقُسْطَة: قاعدة من قواعد شرقي الأندلس، وتعرف بالمدينة البيضاء لأن أسوارها القديمة من حجر الرخام الأبيض (انظر: معجم البلدان: ج٣، ص ٢١٢ ـ ٢١٤، مراصد الاطلاع: ج٢، ص ٧٠٨، الروض المعطار: ص ٣١٧).

(٩) ـ انظر: التاريخ الأندلسي: ص ٤٠٥، دول الطوائف: ص ٣٢٢.

وجرت بين الطرفين مراسلات عرض فيها ابن تاشفين على أذفونش الإسلام أو الجزية أو الحرب، [1] فاستشاط غضباً ورد على ابن تاشفين بكتاب غليظ يفيض بالوعيد، [2] فاكتفى ابن تاشفين بأن ردَّ إليه كتابه ممهوراً بتلك العبارة المشهورة «الذي يكون ستراه»، [3] فلمَّا كان صباح الجمعة الحادي عشر من رجب على الأرجح سنة ٤٧٩ هـ، [4] كانت معركة الزلاَّقة، [5] وأحرزت فيها القوات الأندلسية والمرابطية نصراً مؤزراً مشهوداً من أيام الإسلام أوقف تيار الغزو الصليبي، ومدَّ في عمر الإسلام في الأندلس أربعة قرون أُخرى. [6]

وعاد ابن تاشفين إلى المغرب عقب معركة الزلاقة وترك الأمير سَيْر بن أبي بكر[7] للمرابطة في الثغور الأندلسية، وبعد عامين من معركة الزلاقة أخذت قوات أذفونش تغير من جديد على المدن الأندلسية من حصن لييط، [8] فاستنجد المعتمد ابن عبَّاد بابن تاشفين الذي جاز الأندلس مرة ثانية، فكتب إلى ملوك الطوائف

---

(١) -انظر: وفيات الأعيان: ج٧، ص ١١٦، الأنيس المطرب: ص ١٤٦، النفح: ج٤، ص ٣٦١.

(٢) - انظر الرسالة في: الحلل الموشية: ص ٤٢ - ٤٣.

(٣) - النفح: ج٤، ص ٣٦١.

(٤) - انظر: الأنيس المطرب: ص ١٥١.

(٥) - الزلاقة: بطحاء من إقليم بطليوس في غرب الأندلس، وفيها حدثت المعركة (انظر: معجم البلدان: ج٣، ص ١٤٦، مراصد الاطلاع: ج٢، ص ٦٦٩، الروض المعطار: ص ٢٨٧).

(٦) - انظر: نتائج معركة الزلاقة في: مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٠٤، الذخيرة: ق ٢ م١، ص ٢٤١ - ٢٤٣، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٩٣ - ٩٥، الروض المعطار: ص ٢٩١، أعمال الأعلام: ج٣، ص ٢٤٤، الحلل الموشية: ص ٦٦.

(٧) - هو أحد كبار قواد يوسف بن تاشفين، اشترك في معركة الزلاقة، وأظهر فيها شجاعة فائقة، وقد تولى في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ولاية اشبيلية إلى أن توفي بها سنة ٥٠٧ هـ (انظر أخباره في: الأنيس المطرب: ص ١٤٧، ١٥٣، النفح: ج ٤، ص ٣٧٠).

(٨)- انظر: (الأنيس المطرب: ص ١٥٢، ولييط: حصن من أعمال لورقة بينه وبينها اثنا عشر ميلاً (انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٨٦، ١٧٥).

يستدعيهم للجهاد، ولكن لم ينضم إليه غير المعتمد بن عبَّاد وابن رشيق[١] الذي انسحب فيما بعد نتيجة اختلافه مع المعتمد،[٢] ولم يستطع المرابطون اقتحام الحصن، وعاد ابن تاشفين إلى المغرب وقد تغيَّر على ملوك الطوائف لما رآه من تباغضهم وفرقتهم وتقاعسهم عن الجهاد.[٣]

وساءت الأحوال في الأندلس مرة ثانية، فقد عاد ملوك الطوائف إلى الاختلاف من جديد والتحالف مع أذفونش ضد المرابطين، عند ذلك أدرك ابن تاشفين أن بقاء ملوك الطوائف في إماراتهم قد يذهب بآثار كل جهد بذله في سبيل استعادة البلاد، ويمهِّد الطريق لاستيلاء الصليبيين على جميع أنحاء الأندلس،[٤] فاستفتى الفقهاء في المغرب والأندلس في أمر ملوك الطوائف، فأفتوا بخلعهم جميعاً،[٥] فجاز ابن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثالثة في أوائل سنة ٤٨٣ هـ،[٦] واحتلَّ غرناطة

(١) ـ هو عبد الرحمن بن رشيق، قائد جيوش المعتمد بن عباد الذي سيطر على مرسية واستقل بها، وقد حدث بينه وبين المعتمد نزاع أثناء حصار المرابطين لحصن لييط، فشكاه المعتمد إلى يوسف بن تاشفين، فألقى سير بن أبي بكر القبض عليه وأسلمه للمعتمد فسجنه بإشبيلية، وبقي معتقلاً إلى أن خلع المعتمد (انظر أخباره في: الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٣٥، ١٤٠، ١٧٥، الأنيس المطرب: ص ١٥٣، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٥٧).

(٢) ـ انظر: الأنيس المطرب: ص ١٥٢ ـ ١٥٣، أعمال الأعلام: ج ٣، ص ٢٤٩.

(٣) ـ الأنيس المطرب: ص ١٥٣، أعمال الأعلام: ج٣، ص ٢٥٠، الحلل الموشية: ص ٧١.

(٤) ـ انظر التاريخ الأندلسي: ص ٤٢٢.

(٥) ـ انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ١٠٦، تاريخ ابن خلدون: ج ٦، ص ٣٨٤، أعمال الأعلام: ج ٣، ص ٢٥٠.

(٦) ـ انظر: الأنيس المطرب: ص ١٥٣، الإحاطة: ج ٤، ص ٣٥٣، أعمال الأعلام: ج ٣، ص ٢٥٠، الاستقصاء: ج ٢، ص ٥٣.

وخلع أميرها(١) عبد الله بن بلقين (٢) الذي اقتيد أسيراً إلى أَغْمات. (٣)

وغادر ابن تاشفين غرناطة، وجاز إلى العدوة المغربية في شهر رمضان من سنة ٤٨٣ هـ (٤) تاركاً قائده سَيْر بن أبي بكر يتمُّ عزل بقية أمراء الطوائف والاستيلاء على ما بيدهم من البلاد، (٥) ولم يلبث سَيْر بن أبي بكر أن استولى على إشْبِيْلِيَة سنة ٤٨٤ هـ وخلع أميرها المعتمد بن عباد الذي اقتيد أسيراً إلى أغمـات(٦). ثم استولى على جميع إمارات الطوائف ماعدا دولة بني هود التي أبقاها المرابطون حداً فاصلاً بينهم وبين قوى الشمال النصرانية. (٧)

وفي سنة ٤٩٠ هـ(٨) عبر ابن تاشفين إلى الأندلس عبوره الرابع، وفي رواية أنه لم يعد إلى الأندلس إلاّ بعد ذلك بعدة أعوام. (٩) ومهما يكن الأمر فقد جهز جيشاً

(١) - انظر: مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٧٠، الأنيس المطرب: ص ١٥٤، الاحاطة: ج ٣، ص ٣٨٠.

(٢) - هو الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس الصنهاجي، آخر ملوك غرناطة من بني زيري، توفي بأغمات سنة ٤٨٣ هـ، وقد كتب مذكراته أثناء إقامته في منفاه بمدينة أغمات تحت عنوان «التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة»، وقد نشرها بروفنسال بعنوان «مذكرات الأمير عبد الله الصنهاجي» (انظر ترجمته في: المغرب: ج ٢، ص ١٠٨، الإحاطة: ج ٣، ص ٣٧٩، أعمال الأعلام: ج٢، ص ٢٣٣، النفح: ج ٣، ص ٥٦٨).

(٣) - أغمات - ناحية في المغرب، قريبة من مراكش، وهي مدينتان متقابلتان احداهما تسمى أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانة وبينهما نحو ثمانية أميال (انظر: معجم البلدان: ج ١، ص ٢٢٥، مراصد الاطلاع: ص ٩٨، الروض المعطار: ص ٤٦).

(٤) انظر: الأنيس المطرب: ص ١٥٤.

(٥) - انظر: المصدر السابق نفسه: ص ١٥٤، أعمال الأعلام: ج ٣، ص ٢٥٠ - ٢٥١، الاستقصاء: ج ٣، ص ٥٣.

(٦) انظر: مذكرات الأمير عبد الله: ص ٧٠، الأنيس المطرب: ص ١٥٥.

(٧) - انظر: مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٦٤ - ١٧٤، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ١٠٥ - ١٠٧، الأنيس المطرب: ص ١٥٤ - ١٥٦، الحلل الموشية: ص ٧٢ - ٧٧.

(٨) انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ١٠٧.

(٩) انظر: الأنيس المطرب: ص ١٥٦، الحلل الموشية: ص ٧٧.

عظيماً من المرابطين والأندلسيين بقيادة محمد بن الحاج[١] ووجهه صوب طُلَيْطُلَةَ التي أصبحت عاصمة قشتالة، والتقى بالقشتاليين بقيادة أذفونش قرب كنشرة[٢] فانهزم القشتاليون متكبدين خسائر كبيرة.[٣]

وفي سنة **٤٩٥ هـ** استعاد المرابطون بلنسية من أيدي النصارى بعد احتلال دام عشرة أعوام[٤]، وبذلك دانت الأندلس كلها لسلطان المرابطين وأصبحت ولاية مغربية.

وفي سنة **٤٩٦ هـ** توجَّه ابن تاشفين إلى قرطبة لأخذ البيعة لابنه أبي الحسن علي،[٥] وقد اشترط في هذه البيعة لعلي أن ينشيء بالأندلس جيشاً مرابطياً ثابتاً موزعاً على سائر القواعد الأندلسية،[٦] وأوصى علياً بأمور تتعلق بحسن السياسة والرفق والعناية بالأندلسيين.[٧]

وفي سنة **٥٠٠ هـ** توفي يوسف بن تاشفين في مراكش[٨] بعد جهاد طويل أحرز فيه أعظم انتصار أوقف الغزو الصليبي للأندلس، وأفضى الملك لعلي بن

---

(١) ـ هو أبو عبد الله محمد بن سموين بن محمد بن ترجوت المعروف بابن الحاج، وهو ابن عم يوسف بن تاشفين، وقد لعب دوراً كبيراً في المعارك التي دارت بين المرابطين والصليبيين في الأندلس، واستشهد في معركة البورت سنة ٥٠٨ هـ (انظر أخباره في: المعجم: ص ١٣٨، الأنيس المطرب: ص ١٦٠ ـ ١٦١، تاريخ ابن خلدون: ج ٦، ص ٣٨٣).

(٢) ـ لم يذكر اسم هذا الموضع غير ابن الكردبوس، ويرجح محقق كتابه تاريخ الأندلس أن المقصود به بلدة كنسويجرا من أعمال طليطلة وفي جنوبها الشرقي كما تشير المصادر التاريخية المسيحية (انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ١٠٨).

(٣) ـ انظر المصدر السابق نفسه: ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٤) ـ انظر: البيان المغرب: ج ٤، ص ٤١ ـ ٤٢، الروض المعطار ص ٩٧.

(٥) ـ انظر: الأنيس المطرب: ص ١٥٦، الاحاطة: ج ٢، ص ٥٢١، الحلل الموشية: ص ٧٧.

(٦) ـ انظر: الحلل الموشية: ص ٨٠.

(٧) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٨٣.

(٨) ـ انظر: وفيات الأعيان: ج ٧، ص ١٢٥، الأنيس المطرب: ص ١٥٦، أعمال الأعلام: ج ٣، ص ٢٥٢، الحلل الموشية: ص ٨٣.

يوسف بن تاشفين الذي سار على نهج والده في إنفاذ الجيوش والدفاع عن الأندلس وصدِّ غارات الصليبيين.[1]

(١) - انظر: المعجب: ص ٢٣٥، أعمال الأعلام: ج ٣، ص ٢٥٣.

الإطار الاجتماعي

بعد أن سقطت الخلافة الأموية في الأندلس، وتجزأت البلاد إلى دويلات مستقلة أخذ ملوكها يتطلعون إلى حياة الترف والبذخ التي عرف بها خلفاء بني العباس، فتحوَّلت عواصم ملكهم إلى بغدادات صغيرة كثيرة[1] تعجُّ باللهو والترف والبذخ والمجون، وصاروا يتنافسون في اجتذاب العلماء والأدباء والراقصين والراقصات والمغنين إلى قصورهم، ويتباهون في انتحال الألقاب السلطانية،[2] فانتشرت ألقاب التفخيم والتشريف كالمعتصم والمعتضد والمعتمد والناصر والمنصور والقادر والمقتدر وغيرها،[3] وسخر كثير من الشعراء من هذه الألقاب المزعومة، فهذا ابن رشيق يقول:[4]

مِمَّا يُزَهِّدُني في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ سَماعُ مُقْتَدِرٍ فِيْهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا كالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ

لقد انصرف هؤلاء الملوك عن مصلحة الأمة إلى المظاهر الكاذبة، والانشغال بشرب الخمور، واقتناء القيان، وارتكاب المعاصي، وسماع العيدان، وبناء القصور، والتنافس في التقرب إلى الأذفونش بدفع الأتاوة إليه وتقديم الهدايا، حتّى ذلت الأمة، وافتقرت الرعايا،[5] وفسدت الأحوال الاجتماعية نتيجة الضرائب الباهظة

(١) ـ انظر: الشعر الأندلسي: ص ٤٤.

(٢) ـ انظر: النفح: ج ١، ص ٢١٣.

(٣) ـ انظر: أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٤٤.

(٤) ـ ديوان ابن رشيق: ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٥) ـ انظر: تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٧٧ ـ ٧٨، المعجب: ص ٢٢٦.

التي يفرضها ملوك الطوائف على رعاياهم لسدِّ النفقات الطائلة التي تتطلبهاحياتهم الخاصة، والمبالغ الكبيرة التي يفرضها الأذفونش.[1]

وقد انتشرت آيات الترف والبذخ والغنى في سائر جوانب المجتمع الأندلسي وتعددت مظاهرها وأشكالها، وقد ساعد على ذلك مافي جزيرة الأندلس من أسباب الغنى، فالأندلس «بقعة كريمة طيبة التربة كثيرة الهواء، وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والزئبق واللازورد والشب والتوتيا والزاج والطفل».[2]

وكانت طبقة الفلاحين التي تمثّل الأكثرية الساحقة من أبناء المجتمع الأندلسي أكثر الطبقات الاجتماعية تأثراً بهذا الاضطراب الاجتماعي، إلى جانب معاناتها من آثار القحط والمجاعات، وما كان ينتج عن الحروب الداخلية أو الخارجية من حرق للمزارع وخراب للبساتين،[3] فقد أشار صاحب كتاب الذيل والتكملة[4] إلى حدوث مجاعة عام ثمانية وأربعين وأربعمائة في إشْبِيلِيَة، وبيَّن أنها كانت مريعة لدرجة خطيرة اضطر الناس فيها إلى دفن كل ثلاثة أو أربعة أشخاص في قبر واحد، وخلت المساجد من الناس.[5]

ومن مظاهر الترف الذي ساد الأندلس في القرن الخامس الهجري أن ملوك الطوائف كانوا في غاية الاحتفال ببناء القصور الخاصة بهم، ففي طُلَيْطُلَةَ «كانت المباني الذَّنُّونيَّة الجليلةُ، منها قبةُ النَّعِيم التي صُنِعَتْ للمَأمُون بن ذي النُّون تَنْسَابُ فيها خَيْمَةٌ من ماء، يَشْرَبُ في جَوْفِها مَع من أَحَبَّ من خواصِهِ في أيام الصَّيْفِ، فلا تصلُ إليه ذُبابَةٌ، وهي في بُسْتانِ الناعورة، وفيها القصرُ المُكَرَّمَ الذي بناه، واحتُفِلَ فيه، وأَطْنَبَتْ البلغاء والشعراء في وَصْفِهِ»[6].

---

(١) - انظر: الرد على ابن النغريلة: ص ١٧٦، مذكرات الأمير عبد الله: ص ٧٦ - ٧٧، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٥٢، ق ٣ م١، ص ١٥.

(٢) - الروض المعطار: ص ٣٢.

(٣) - انظر: إشبيلية في القرن الخامس الهجري: ص ٤٨.

(٤) - هو عبد الملك المراكشي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري.

(٥) - انظر: الذيل والتكملة: ق ٥ م ١، ص ٣٣.

(٦) - المغرب: ج ٢، ص ٩.

وفي ضواحي المَرِيَّة[١] كان قصر الصُّمادحية الذي اشتهر بمجلس الحافة الذي شيده المعتصم بن صمادح.[٢]

وفي غرناطة[٣] كان قصر باديس بن حَبُّوس،[٤] «وليس ببلاد الإسلام والكفر مثله»،[٥] ومن قصور العباديين التي شيَّدوها بإشْبِيلِيَة: المبارك والثريا والزاهي،[٦] وكان بسَرَقُسْطَة قصر دار السرور ومجلس الذهب[٧] للمقتدر بن هود.[٨]

---

(١) - المَرِيَّة: مدينة محدثة بالأندلس، أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة ٣٤٤ هـ، وهي من أشهر مراسي الأندلس (انظر: معجم البلدان: ج ٥، ص ١١٩، مراصد الاطلاع: ج ٣، ص ١٢٦٤، الروض المعطار: ص ٥٣٧).

(٢) - هو أبو يحيى المعتصم محمد بن معن بن صمادح التجيبي، من بني صمادح ملوك المرية، تولى الحكم بعد والده سنة ٤٤٤هـ وهو ابن أربع عشرة سنة، وتوفي وهو محاصر بجيش المرابطين سنة ٤٨٤ هـ (انظر ترجمته في: القلائد: ص ٤٧، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٢٩، المطرب: ص ٣٤، الحلة السيراء: ج ٢، ص ٧٨، وفيات الأعيان: ج ٥، ص ٣٩ - ٤٠).

(٣) - غرناطة: من أقدم مدن إلبيرة من أعمال الأندلس (انظر: مراصد الاطلاع: ج ٢، ص ٩٩٠، الروض المعطار، ص ٤٥، وذكر ياقوت الحموي أنه يقال أن الصحيح أغرناطة بالألف في أوله أسقطها العامة (انظر: معجم البلدان: ج ٤، ص ١٩٥).

(٤) - هو باديس بن حبُّوس بن ماكس بن زيري الصنهاجي، أمير غرناطة، وكان من أبطال الحروب وشجعانها، ويضرب به المثل في شدة القسوة وسفك الدماء، ومع ذلك فقد كان حسن السياسة عادلاً، توفي سنة ٤٦٧ هـ (انظر ترجمته في: المغرب: ج ٢، ص ١٠٧، البيان المغرب: ج ٣، ص ٢٦٢، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٣٠).

(٥) - النفح: ج ١، ص ١٦٩.

(٦) - انظر: الحلة السيراء ج ٢، ص ٦٩، المغرب ج ١، ص ٣٨١.

(٧) - انظر النفح: ج ١، ص ٥٣٤.

(٨) - هو المقتدر أحمد بن سليمان بن هود، أمير سرقسطة، كان بينه وبين النصارى حروب عظيمة استرد فيها بربشتر سنة ٤٥٧ هـ، واستولى على دانية من يد إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، توفي سنة ٤٧٥ هـ (انظر ترجمته في: المغرب: ج ٢، ص ٤٣٦، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٧١، النفح: ج ١، ص ٤٤١).

ومن مظاهر الترف والبذخ اهتمام الأندلسيين بإنشاء المتفرَّجات والمتنزَّهات والجنائن، وفيها من ضروب الأزهار والرياحين والأشجار مايسُّر الناظرين ويبهج النفوس، وكانوا يقصدونها للنزهة والراحة ولإقامة مجالس الأدب ومجالس الأنس والطرب.

ومن المدن التي اشتهرت بمتفرَّجاتها المريَّة. ومن مُتَفَرَّجاتِها مُنى عبدوس، ومُنى غسَّان، والنَّجاد، وبركة الصُّفر، وعين النَّطية، وبَرْجَة ودلاية.[1]

وفي رياض بَرْجَة يقول الشاعر أبو الفضل بن شرف القيرواني:[2]

رياض تعشَّقها سندس توشَّت مَعَاطِفُها بالزَّهَر
مَدَامِعُها فَوْق خدَّيْ ربىً لها نَضْرَةٌ فَتَنَتْ من نَظَر
وكلُّ مَكانٍ بها جَنَّةٌ وكلُّ طريقٍ إليها سَقَر

ومن متنزَّهات قرطبة المشهورة فَحْصُ السُّرَادق، وهو «مقصود للنزهة يسرح فيه البصر وتبتهج فيه النفس»،[3] ومن متنزهاتها أيضاً السُّدُّ والمنبر،[4] وكان ببلنسية[5] منازه ومسارح، أشهرها الرُّصافة ومُنية ابن أبي عامر ومتنزَّه باب الحنش،[6] ذكر ابن

---

(١) - انظر: المغرب: ج ٢، ص ١٩٤، النفح: ج ١، ص ٦٦٧.

(٢) - النفح: ج ١، ص ١٥١، وأبو الفضل هو جعفر بن أبي عبد الله بن شرف القيرواني، كان شاعر وقته غير مدافع، اتَّصل بالمعتصم بن صمادح أمير المرية ومدحه ونال لديه مكانة رفيعة حسده عليها بعض أدباء عصره، وتوفي سنة ٥٣٤ هـ (انظر ترجمته في: القلائد: ص ٢٥٢، الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨٦٧، الخريدة: ج ٢، ص ١٧١، المغرب: ج ٢، ص ٢٣، النفح: ج ٣، ص ٣٩٥).

(٣) - النفح: ج ١، ص ٤٧٥.

(٤) - انظر: المصدر السابق نفسه: ج ١، ص ٤٧٥، ٤٧٨.

(٥) - بلنسية: مدينة مشهورة بالأندلس، تقع في مستوى من الأرض شرقي قرطبة، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار، وتعرف بمدينة التراب (انظر: معجم البلدان: ج ١، ص ٤٩٠ - ٤٩١، الروض المعطار: ص ٤٧).

(٦) - انظر: النفح: ج ١، ص ٤٧٥، ٤٧٨.

طاهر[1] أنَّه خــرج مرة إلى باب الحنش فوجد الشاعر أبا طالب عبد الجبار الجزيري[2] واقفاً أمام ظبي وهو ينشد شعراً في الغزل:[3]

مَعْشَرَ النـــاسِ ببــاب الحـنشِ   بدرُ تِمّ طالــع في غَبَش
علق الـقُــرْطَ على مِسْــمَــعِــه   مَنْ عليه آفــة الـعــين خشي

ولقـد أبدع الكُتَّاب الأندلسيون في وصف هذه المتنزهات وماأتَّصل بها، فظهرت الرسائل التي يتناظر فيها الكُتَّاب بألسنة الأزهار والرياحين، وسنعرض لذلك في فصل قادم.

ومن مظاهر الترف أيضاً الإسراف والتبذير في إقامة الاحتفالات، فقد ذكر ابن بسام أن المأمون بن ذي النُّون أقام حفلاً بمناسبة ختان حفيده يحيى، «فَحَشَدَ أمراء البلاد، وَجُمْلَةَ الوزراء والقُوَّاد، فأقبلوا إليه كالقَطَا القارب أرْسَالاً...»[4] وقد بلغ من روعته وفخامته حداً جعله مضرب الأمثال عند أهل المغرب.[5] وأقام بنو

---

(١) ـ هو أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن اسحق بن طاهر، أمير وكاتب مشهور، خلعه المعتمد ابن عباد عن مرسية، فانتقل إلى بلنسية وعاش فيها، وله رسائل تشهد بفضله، وتدل على نبله وبلاغته، وقد وضع ابن بسام فيه كتاباً سماه «سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر»، وتوفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمته في: القلائد: ص ٥٦، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٤ ـ ٩٢، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٦ ـ ١٢٧، المغرب: ج ٢، ص ٢٤٧، النفح: ج ١، ص ٦٧٠).

(٢) ـ يعرف بالمتنبي، وهو من أهل جزيرة شقر، ومن أبرع أهل وقته أدباً وعلمًا، وله أرجوزة في التاريخ، وقد عاش إلى مابعد الخمسمائة (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٩١٦ ـ ٩٤٤، الخريدة: ج ٢، ص ٢١٠، المغرب: ج ٢، ص ٣٧١، المسالك: ج ١١، ص ٤١٥).

(٣) ـ النفح: ج ١، ص ٦٧٠.

(٤) ـ ق ٤ م ١، ص ١٢٨.

(٥) ـ انظر: النفح: ج ١، ص ٤٤٠.

عبَّاد الأفراح العظيمة لمدة سبعة أيام[١] بمناسبة زواج المعتضد بن عباد[٢] من بنت مجاهد العامري.

ومن هذه المظاهر تنافس ملوك الطوائف في اقتناء القيان والجواري المغنيات الشاعرات، فنشطت لذلك تجارة الرقيق، وحرص النخّاسون على أن يعلموا الجواري الغناء والموسيقى إلى جانب علوم اللغة ودراسة الطب وعلم التشريح وعلم الطبيعة ليكسبوا في بيعهن مالاً وفيراً.[٣]

وكان ملوك الطوائف وأثرياء الأندلس يدفعون المبالغ الباهظة في اقتناء القيان والجواري، ويطلبوهن بكل جهة، فقد دفع ابن رزين[٤] في شراء جارية أبي عبد الله بن الكتاني ثلاثة آلاف دينار، وكانت واحدة القيان في عصرها من حيث الجمال وطيب الغناء وجودة الكتابة والمعرفة بعلوم اللغة والنحو والطب.[٥]

وكان للمعتضد بن عبَّاد أكثر من سبعين جارية،[٦] أشهرهن العبَّادية[٧] التي أهداها مجاهد العامري للمعتضد، وكانت شاعرة كاتبة حافظة لكثير من اللغة.[٨]

---

(١) ـ انظر: مجاهد العامري: ص ٥٠.

(٢) ـ هو المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن محمد بن عباد، وهو والد المعتمد بن عباد، حكم إشبيلية من سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة إلى سنة أربع وستين وأربعمائة (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م١، ص ٢٣ ـ ٤١، المعجب: ص ١٥١، الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٩، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٥٥، النفح: ج ٤، ص ٢٢٧).

(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م١، ص ٣٢٠، مجلة أبحاث: س ١٦ ع١، أخبار الغناء والمغنين في الأندلس: ص ١٢.

(٤) ـ هوأبو محمد هُذيل بن خلف بن لب البربري، صاحب السهلة، كان بارع الجمال، حسن الخلق، طيب اللسان، وكان أرفع الملوك همة في اكتساب الآلات، وهو أول من بالغ الثمن في الأندلس في شراء القيان المشهورات، فكانت ستارته أرفع ستارات الملوك بالأندلس (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٠٩ ـ ١١٢، المغرب: ج ٢، ص ٤٢٧، البيان المغرب: ج ٣، ص ١٨٣ ـ ١٨٤).

(٥) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١١٢.

(٦) ـ انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٤٣.

(٧) ـ انظر ترجمتها في: النفح: ج ٤، ص ٢٨٣، الدر المنثور: ص ٣٢٧.

(٨) ـ انظر: الدر المنثور: ص ٣٢٧.

ومن الجواري اللواتي اشتهرن في القرن الخامس الهجري الغسَّانِيَّةُ البَجَّانِيَّةُ[١] الأديبة الشاعرة التي مدحت الملوك، وعارضت ابن دَرَّاج القسطلي[٢] في قولها: [٣]

أَتَجْـزَعُ أَنْ قَالـوا سَتَرْحَـلُ أَظْعَـانُ ... وَكَيْفَ تُطِيقُ الصَّـبْرَ وَيْحَـكَ إِذْ بانـوا

فَمَا بَعْـدُ إلاَّ المـوتُ عِنْـدَ رحيلهم ... وإلاَّ فَصَـبْرٌ مثـل صبر وَأَحْـزَانُ

ومنهن غاية المُنَى[٤] جارية المعتصم بن صمادح ومحظيته، اشتراها بمائة ألف درهم، وقد تخرَّجت في فنون الغناء، وكانت لها معرفة جيدة بالأصوات. [٥]

واشتهرت إشراق العروضيّة[٦] مولاة عبد الرحمن بن غلبون التي أخذت عنه النحو واللغة وفاقته فيهما وبرعت في العروض. [٧]

وكانت الجواري تقوم بالتدريس[٨] أو الغناء والرقص وتوزيع كؤوس الخمر بين أيدي أسيادهن لتسليتهم وجلب الراحة والهدوء والسرور إلى نفوسهم، [٩] ومن هؤلاء سعدى التي كانت تغنّي في قصر المعتمد بن عبَّاد، [١٠] وكان بعض الجواري وخاصة كبيرات السن منهن يقمن بخدمة سيدات القصور. [١١]

(١) - انظر ترجمتها في: الجذوة: : ص ٤١٣، بغية الملتمس: ص ٥٤٥، المغرب: ج ٢، ص ١٩٢، النفح: ج ٤، ص ١٧٠.

(٢) - هو أبو عمر أحمد بن درَّاج القسطلي، من فحول شعراء الأندلس، وهو عندهم كالمتنبي بالمشرق، توفي سنة ٤٢١ هـ (انظر مصادر ترجمته في: مقدمة ديوانه، وانظر ترجمته في: الجذوة: ص ١١٠، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٩، وفيات الأعيان: ج ١، ص ١٣٥ - ١٣٩).

(٣) - المغرب: ج ٢، ص ١٩٢.

(٤) - انظر ترجمتها في: النفح: ج ٤، ص ٢٨٦، الدر المنثور: ص ٣٥٥.

(٥) - انظر: الدر المنثور: ص ٣٥٥.

(٦) - انظر ترجمتها في: بغية الوعاة: ج ٢، ص ٤٥٨، النفح: ج ٤، ص ١٧١.

(٧) - انظر: بغية الوعاة: ج ٢، ص ٤٥٨.

(٨) - انظر النفح: ج ٤، ص ١٧١.

(٩) - انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٥٥.

(١٠) - انظر: المسالك: ج ١١، ص ٣٩٧.

(١١) - انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٥٥.

وقد تشارك الجواري الرجال أحياناً في تقديم الألعاب والحركات المطربة في قصور الأمراء، فقد ذكر ابن بَسَّام أن المعتصم بن صمادح خرج يوماً مع ندمائه، وأظهر صبية متصرِّفة في أنواع من اللعب المطرب، وحضر لاعب مصري هنالك.(١)

ومن مظاهر الترف والبذخ أيضاً ولع ملوك الطوائف بتقليد خلفاء بني العباس، فقد كان بنو حَمُّود(٢) في مَالقة(٣) إذا حضرهم شاعر أو زائر أو صاحب حاجة يتكلم من وراء حجاب أو ستر، والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة.(٤) ومن ذلك مارواه المقَّري أنه لما حضر الشاعر ابن مقانا الأشبوني(٥) أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمُّودي،(٦) وأنشده قصيدته المشهورة النونية التي منها قوله:(٧)

وكـأنَّ الـشَّـمْـسَ لَمَّا أشْرَقَـتْ ... فانْـثَـنَـتْ عَنْهَـا عيونُ الـنَّـاظـرِيْنْ

وَجْـهُ إدريس بن يحيى بن علي ... بن حَمُّودٍ أمـيرِ المـؤمـنـيـنْ

---

(١) ـ انظر الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٢١ ـ ٧٢٢.

(٢) ـ بنو حُمود: فرع من الأدارسة الحسنيين في المغرب، ويعتبر علي بن حمُّود بن ميمون أول أمرائهم بالأندلس (انظر: أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٢٨).

(٣) ـ مالقة: مدينة بالأندلس من أعمال ريَّة، وهي على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، وكانت عامرة آهلة كثيرة الديار، وقد أحاط بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، وكان يحمل إلى مصر والشام وغيرها (انظر: معجم البلدان: ج ٥، ص ٤٣، الروض المعطار: ص ٥١٧ ـ ٥١٨).

(٤) ـ انظر: النفح: ج ١، ص ٢١٤.

(٥) ـ هو أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني، شاعر مشهور، وله شعر يعرب عن أدب غزير، تصرف فيه تصرف المطبوعين المجيدين، وكان حياً أيام المعتمد بن عباد (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٢٧٩، الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٨٦ ـ ٧٩٦، المغرب: ج ١، ص ٤١٣).

(٦) ـ يلقب بالعالي، وهو أمير مالقة، توفي سنة ست وأربعين وأربعمائة أو سبع وأربعين وأربعمائة (انظر أخباره في: الجذوة: ص ٣٣ ـ ٣٦، البيان المغرب: ج ٣، ص ٢٩١، النفح: ج ١، ص ٤٣٢).

(٧) ـ النفح: ج ١، ص ٢١٤.

إلى أن قال:

انْـظُرُونَـا نَقْـتَـبِسْ مِنْ نُورِكـم   إنَّـه مِن نور رَبِّ الـعـالمـينْ

وعندئذ رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: انظر كيف شئت، وأمر له بجائزة عظيمة. (١)

لقد تسرَّبت بعض مظاهر الترف والبذخ من قصور الحكام والأمراء إلى مجالس الأغنياء وعامة الشعب، فكانت الدار تكلف بعض الأغنياء مائة ألف دينار وفوقها، وتزدان بعجائب من غالي الأثاث مالم يُرَ مثله في قصور الأمويين أيام عزّهم. (٢)

وقد انتشر الفساد، وغشي حب الشهوات والترف والبذخ جميع طبقات المجتمع الأندلسي، وقلَّت الموارد والمصادر، وارتفعت الأسعار، وطمع الفقير في الغني، واجترأ الضعيف على القوي.

واحتلت المرأة الأندلسية في القرن الخامس الهجري منزلة عظيمة فظهرت في ميدان الحياة العامة، وكانت تخالط الرجال وتجالسهم، ونالت حظاً وافراً من التعليم، فنبغ عدد كبير منهن في العلوم والآداب والفنون، (٣) وكان يعهد إليهن بتربية وتأديب أبناء الأمراء والأغنياء، فهذا ابن حزم قد تلقَّى ثقافته الأولى على يد نساء قصر أبيه. (٤)

وظهر في هذا القرن عدد كبير من النساء المشهورات، منهن الشاعرة أم الكرام(٥) بنت المعتصم بن صمادح التي اشتهرت بحبها للفتى المشهور بالسَّمار، وقالت فيه الموشحات، (٦) ومن شعرها فيه: (٧)

---

(١) - انظر: المصدر السابق نفسه: ج ١، ص ٢١٤.

(٢) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧ - ١٨.

(٣) - انظر: البيئة الأندلسية: ص ٥٨، ابن حزم الأندلسي: ص ٩٢.

(٤) - انظر: طوق الحمامة: ص ٥٠.

(٥) - انظر ترجمتها في: المغرب: ج ٢، ص ٢٠٢، نزهة الجلساء: ص ١٨، النفح: ٤٠، ص ١٧٠.

(٦) - انظر: نزهة الجلساء: ص ١٨.

(٧) - النفح - ج٤، ص ١٧٠.

يَامَعْشَرَ النَّاسِ ألا فاعجبوا مِمَّا جَنَتْهُ لوعةُ الحُبِّ
لولاهُ لم يَنْزِلْ ببدرِ الدُّجَى مِن أفقِه العلوي للتُّرْبِ
حَسْبِي بِمَنْ أهْوَاهُ لو أنَّهُ فارَقَني تَابَعَهُ قَلْبِي

ومن النساء المشهورات في هذا القرن مريم بنت أبي يعقوب،(1) الشاعرة التي كانت تعلِّم الأدب للنساء، وتحتشم لدينها وفضلها،(2) ومنهن مُهْجَة بنت التيَّاني،(3) وذكر ابن سعيد أن لها شعراً تقدَّمت به فحول الذكران.(4) ومنهن نزهون بنت القلاعيّ(5) وكانت ذات جمال فائق، تحفظ الشعر والأمثال، ولها مساجلات ومراسلات مع بشَّار الأندلس،(6) ومنهن أم العلاء الحِجَاريَّة(7) وكانت أديبة شاعرة، ومما تفخر به بلدها وقبيلها،(8) ومنهن اعتماد(9) الرميكية التي تملكت زمام المعتمد بن عبَّاد، وكانت أديبة ظريفة كاتبة شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة، معدودة في علماء إشْبِيلِيَّة، وأفرط المعتمد في الميل إليها، وغلبت عليه واختار لنفسه لقباً يشبه

(1) - انظر ترجمتها في: الجذوة: ص ٤١٢ - ٤١٣، الصلة: ج ٢، ص ٦٩٤ - ٦٩٥، نزهة الجلساء: ص ٦٩، النفح: ج ٤، ص ٢٩١.

(2) - انظر: الجذوة: ص ٤١٢.

(3) - انظر ترجمتها في: المغرب: ج ١، ص ١٤٣، النفح: ج ٤، ص ٢٩٣.

(4) - انظر: المغرب: ج ١، ص ١٤٣.

(5) - انظر ترجمتها في: المغرب: ج ٢، ص ١٢١، نزهة الجلساء: ص ١٧٤، النفح: ج ٤، ص ٢٩٥.

(6) - هو أبو بكر محمد المخزومي، شاعر هجاء مقذع، استوطن غرناطة، وكان أعمى شديد الشر، سريع الجواب، سابقاً في ميدان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره، وكان حياً بعد الأربعين وخمسمائة (انظر ترجمته في: المغرب: ج ١، ص ٢٢٨ - ٢٣١، الإحاطة: ج ١، ص ٤٣٢ - ٤٣٥، النفح: ج ١، ص ١٩٠ - ١٩٢).

(7) - انظر ترجمتها في: المغرب: ج ٢، ص ٣٨، نزهة الجلساء: ص ٢٠، النفح: ج ٤، ص ١٦٩.

(8) - انظر: المغرب: ج ٢، ص ٣٨.

(9) - انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٦٢، الإحاطة: ج ٢، ص ١١٠، أعمال الأعلام ج ٢، ص ١٥٩، النفح: ج ٤، ص ٢١١، ٢٧٢.

اسمها، (١) وهي التي أغرته بقتل ابن عمّار. (٢) وأشهرهن ولادة بنت المستكفي (٣) التي اشتهرت بقصتها مع ابن زيدون، (٤) وكانت في غاية الأدب والظرف، وكان مجلسها في قرطبة منتدى لفرسان النظم والنثر. (٥)

واحتلَّ القضاة والفقهاء في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مكانة رفيعة عند الخاصة والعامة، فعندما عزم ملوك الطوائف على الاستنجاد بالمرابطين اجتمعوا بكبـار القـاضة واستشاروهم في ذلك(٦)، ومن أمثلة احترام الخاصة للفقهاء ما روي عن المعتمد بن عبَّاد أنه نزل عن دابته عندما لقي الفقيه ابن الطَّلاع، (٧) احتراماً له ولعلمه. (٨)

(١) - انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٦٢.

(٢) - انظر: النفح: ج ٣، ص ٢١٢، وابن عمّار هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد ابن عمّار، كان أديباً شاعراً وعصامياً سياسياً وصديقاً للمعتمد بن عباد، استبد بمرسية مخالفة للمعتمد، وتقلبت الأيام فوقع في يد المعتمد فقتله بيده سنة ٤٧٧ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٦٨، الخريدة: ج ٢، ص ٧١، بغية الملتمس: ص ١١٣، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٣١، وفيات الأعيان: ج ٤، ص ٤٢٥، المغرب: ج ١، ص ٣٨٩، النفح: ج ١، ص ٦٥٢).

(٣) - انظر ترجمتها في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٢٩، نزهة الجلساء: ص ١١٠، النفح: ج ٤، ص ٢٠٥).

(٤) - هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي القرطبي، شاعر وكاتب مشهور، اختص بمدح ابن جهور، وتغير عليه فسجنه، ثم انتقل إلى إشبيلية، ووزر للمعتضد بن عباد، وتوفي سنة ٤٦٣ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٣٠، القلائد: ص ٧٠ - ٨٣، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٣٦، الخريدة: ج ٢، ص ٤٨، المطرب: ص ٦٤، إعتاب الكتاب: ص ٢٠٧، وفيات الأعيان: ج ١، ص ١٣٩، المغرب: ج ١، ص ٦٣).

(٥) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٢٩.

(٦) - انظر: الكامل: ج ١٠، ص ١٥١، الروض المعطار: ص ٨٦، النفح: ج ٤، ص ٣٥٩.

(٧) - هو أبو عبد الله محمد بن الفرج، كان من كبار العلماء بالحديث ومذهب مالك، وله تواليف كثيرة منها كتاب «نوازل الأحكام النبوية»، توفي بواسط سنة ٤٩٧ هـ (انظر ترجمته في: الصلة: ج ٢، ص ٥٦٤ - ٥٦٥، بغية الملتمس، ص ١٢٣. المغرب: ج ١، ص ١٦٥).

(٨) - انظر: المغرب: ج١، ص ١٦٥.

واحتلَّ الكُتَّاب أيضاً منزلة رفيعة لاتقل حظاً في الرفعة والسمو عن مكانة القضاة والفقهاء في نظر الخاصة والعامة، وتعود شهرة الكُتَّاب في الأندلس إلى ارتباط خطة الكتابة بالرئاسة والسلطان، (١) فقد كانت حاجة السلطان إلى كاتب يعينه في تصريف أمور الدولة أكثر من حاجته إلى شاعر يتغنَّى بمحاسنه، لهذا كان الكاتب في الغالب رجل دولة ومن فرسان السياسة، وكان الكُتَّاب في الأندلس على ضربين كما يذكر المقَّري «أعلاهما كاتبُ الرَّسَائِل وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرفُ أسمائه الكاتب، وأهلُ الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة، لايكادون يغفلون عن عثراته لحظة. . . والكاتبُ الآخرُ كاتبُ الزّمام». (٢)

ومما زاد من أهمية الكتابة وأعلامها أنها كانت الأداة التي تمنح صاحبها حق الوصول إلى المناصب العليا في الدولة، وقد استطاع عدد من الكُتَّاب من أمثال: ابن زيدون وابن عمَّار وابن عَبْدون(٣) وغيرهم أن يبلغوا مرتبة الوزارة وذلك لما كانوا يبدونه من براعة في الكتابة وتصريف أمور الدولة، وكان شعرهم ميزة أعانتهم على ذلك، لكنهم لو انفردوا بالشعر دون الكتابة لما استطاعوا أن يبلغوا تلك المراتب، (٤) وقد عرف من أحسن النظم والنثر من الوزراء بذي الوزارتين. أمَّا من أتقن النثر وحده منهم فقد عرف بالوزير الكاتب، وكان معظم كُتَّاب الأندلس في القرن الخامس الهجري يجمعون بين النثر والشعر، ويجيدون فيهما على حد سواء.

---

(١) - انظر مقدمات التراجم في: القلائد، الذخيرة، وكيفية إضفاء الألقاب: ذو الوزارتين، الوزير الكاتب، الوزير الفقيه.

(٢) - النفح: ج ١، ص ٢١٧.

(٣) - هو أبو محمد، عبد المجيد بن عبدون الفهري، أديب وشاعر ومترسل مشهور، من أهل مدينة يابُرة بالأندلس، استوزره بنو الأفطس إلى انتهاء دولتهم، ثم انتقل إلى خدمة المرابطين بعد خلع ملوك الطوائف، واشتهر بقصيدته البسامة التي قالها في رثاء بني الأفطس، توفي سنة ٥٢٧ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٦٨ - ٧٢٧، الخريدة: ج ٢، ص ١٠٣، بغية الملتمس: ص ٥٣٩، المطرب: ص ١٨٠ - ١٨٣، المعجب: ص ١٢٨، ٢٢٨، التكملة: ج ١، ص ٤٠٧، المغرب: ج ١، ص ٣٧٤، صلة الصلة: ص ٤٢، فوات الوفيات: ج ٢، ص ٣٨٨).

(٤) - انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٨٢.

وفي هذا القرن ازدهر فن الغناء ازدهاراً عظيماً، وأقبل الأندلسيون عليه إقبالاً كبيراً، فانتشرت مجالسه في مختلف نواحي الأندلس. وكان لكل أمير ووزير مجلس خاص به لايكاد يمرُّ يوم دون أن يقام فيه الغناء،[1] وقد وصف ابن حزم هذه المجالس، وذكر ماكان يردد فيها من شعر.[2]

ولم تقتصر إقامة مجالس الغناء والأنس على الأمراء والوزراء وحسب بل شملت جميع طبقات المجتمع الأندلسي، ومما يدل على ذلك مايروى عن أبي الطاهر التجيبي[3] أنه قال: «كنت بمدينة مالقة من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، واعتللت بها مديدة انقطعت فيها عن التصرف وكنت إذا جنّني الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم».[4]

وكثرت الدعوات إلى مجالس الغناء والطرب، وانطلق الكُتّاب يصفون تلك المجالس ومافيها من شراب ولهو وطرب. وقد اشتهر في القرن الخامس الهجري عدد كبير من المغنين في قصور الأمراء منهم: محمد بن الحمامي الذي نبغ في بلاط بني حمُّود[5] وقد غنّى يوماً في مجلس إدريس بن يحيى بشعر لعبدالله بن المعتز[6]:

هل يُزيلُ البينَ محتالُ ... أن غَدَتْ للبين أجْمالُ

ومنهم الحكيم النديم أبو بكر الإشبيلي الذي كان مغنياً بقصر الرشيد بن

---

(١) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٦٣، ق ٢ م ١، ص ٣٨٥، النفح: ج ٣، ص ٦١٤ - ٦١٥، ج ٤ - ص ٩٤ - ٩٦.

(٢) - انظر: طوق الحمامة: ص ٣١، ١١٠.

(٣) - هو أبو طاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي، من أهل القيروان، سكن المهدية، ثم صار إلى مصر، وكان شاعراً عالماً بالآداب مستبحراً فيها، وهو من أهل التأليف مع دقة الضبط (انظر: التكملة: ج ١، ص ١٨٩).

(٤) - المختار من شعر بشار: ص ١٤.

(٥) - انظر الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٦٣.

(٦) - الذخيرة: ق ١ م٢، ص ٨٦٣، وانظر أيضاً: النفح: ج ٣، ص ٦١٤ - ٦١٥.

المعتمد، نقل عنه ابن بسام أنه قال: حضرت مجلس أنس مع أبي بكر بن عمّار بقصر الرشيد بن المعتمد، فلما دارت الكأس، وتمكّن الأنس، وغنيته أصواتاً وذهب به الطرب كل مذهب، قال ابن عمار ارتجالاً: (١)

ماضرَّ أن قيلَ إسحاق وَمَوْصِلُه ... هَا أنْتَ أنْتَ وذي حمصٌ وإسحاقُ

ونتج عن ازدهار فن الغناء تقدم علم الموسيقى والألحان، وظهر في القرن الخامس الهجري عدد من الملحِّنين وعلماء الموسيقى منهم: ابن الحداد القيسي(٢) الذي وضع تأليفاً في العروض سمّاه «الامتعاض للخليل» مزج فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، (٣) ومنهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الإشبيلي(٤) الذي لحَّن الأغاني الإفريقية، (٥) وقد عرف الأندلسيون عدداً من الآلات الموسيقية منها: العود والأرغن والرباب والقانون والبوق وغيرها. (٦)

وازدهر فن الرقص مثلما ازدهر فن الغناء والموسيقى، وكان يقوم به الجواري والقيان والغلمان وموزعو الخمر، وافتنّ الشعراء الأندلسيون في وصف الراقصين

---

(١) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٩٥، وحمص هنا هي إشبيلية.

(٢) - هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن الحداد القيسي، أصله من وادي آش سكن المرية، وكان شاعراً فيلسوفاً موسيقياً، وهو من أعظم شعراء المعتصم بن صمادح وقد استفرغ معظم شعره فيه، وحظي عنده بمكانة رفيعة، توفي سنة ٤٨٠ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٩١، أخبار وتراجم أندلسية: ص ١٧، الخريدة ج ٢، ص ٢٧١، المحمدون من الشعراء: ص ٩٩، التكملة: ج ١، ص ٣٩٨، وفيات الأعيان: ج ٥، ص ٤١).

(٣) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٩٢.

(٤) - هو أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي، ولد بدانية سنة ٤٢٠ هـ ثم رحل إلى مصر وسجن فيها مدة، ثم عاد إلى المغرب وسكن المهدية إلى أن توفي فيها سنة ٥٢٩ هـ، وكان طبيباً شاعراً فيلسوفاً، ومن مؤلفاته «الرسالة المصرية» نشرها عبد السلام هارون (انظر ترجمته في عيون الأنباء: ص ٥٠٥، وفيات الأعيان: ج ١، ص ٢٤٣، المغرب: ج ١، ص ٢٦١، النفح: ج ٢، ص ١٠٥/، نوادر المخطوطات: ج ٢، ص ٦).

(٥) - انظر: النفح: ج ٢، ص ١٠٦.

(٦) - المصدر السابق نفسه: ج ٣، ص ٢١٣.

والراقصات. وقد وصف ابن حمديس(1) راقصة وبيَّن حركاتها وماتشير إليه بأناملها وهي ترقص إلى كل عضو وما يحلُّ به من تعذيب الهوى بقوله:(2)

وراقصـةٍ بالسحـر في حركـاتهـا تقيمُ به وَزْنَ الـغنـاء على حَدِّ
وتحسبهـا عمَّا تشيرُ بأنمـلٍ إلى مايلاقي كلُّ عضـوٍ من الـوجد
بنـا لابهـا ماتشتكي من جَوَى الهوى وأدمـع أشـواقٍ مُخَدِّدَةِ الخـد

وانتشر الغزل بالغلمان في الأندلس في هذا القرن حتى أصبح ظاهرة اجتماعية، وقد أسرف الشعراء الأندلسيون في تصويرها، ومن أشهرهم ابن عمَّار وابن الأبار(3) وأبو الأصبغ بن عبد العزيز،(4) وأورد ابن بسام كثيراً من المساجلات الشعرية التي دارت بين بعض الشعراء حول وصف الغلمان.(5)

وانتشر الخمر والشَّراب لدى سائر الناس وخاصة في مجالس الأنس والطرب، وكان الملوك والوزراء يستهدونه ويهدونه وينعمون بشربه، فقد ذكر المقَّري أن ذا

---

(1) - هو عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي، ولد بسرقوسة سنة ٤٤٧ هـ، هاجر إلى الأندلس، ووفد على المعتمد بن عباد وأصبح من كبار مداحه إلى أن خلع عن ملكه سنة ٤٨٤ هـ فغادر الأندلس إلى المغرب وبقي متنقلاً بين ملوكها إلى أن توفي سنة ٥٢٧ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م١، ص ٣٢٠، الخريدة: ج ٢، ص ١٩٤، المطرب: ص ٥٤، وفيات الأعيان: ج ٣، ص ٢١٢).

(2) - ديوان ابن حمديس: ص ١٣٣.

(3) - هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن الأبار الخولاني، من شعراء إشبيلية زمن المعتضد بن عباد، ذكر ابن بسام أنه ممن صنف وأبدع، توفي سنة ٤٣٣ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١١٥، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٣٥، المغرب: ج ١، ص ٢٥٨، وفيات الأعيان: ج ١، ص ١٥١).

(4) - هو أبو الأصبغ بن عبد العزيز، أديب شاعر، عاش زمن المعتضد بن عباد (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٣٩١، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٠٦ - ٢٠٨).

(5) - انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٠٧ - ٢٠٩.

الـوزارتـين أبا عامر بن الفرج (١) وزير المأمون بن ذي النُون كتب إلى أحد غلمانه يستهديه خمراً: (٢)

ابـعـثْ بِهَا مِثْـل وُدِّكْ أرقَّ مِنْ ماء خدِّكْ
شقـيقـة الـنـفسِ فانـضـح بها جَوَى ابـني وعَـبْـدِكْ

وشاع الزهد بين مختلف الطبقات الاجتماعية كرد فعل لهذه الحياة اللاهية الماجنة التي عرفها المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري. وظهر عدد من الأدباء اشتهروا بالزُّهد وبالمناداة بالابتعاد عن ترف الحياة وملذاتها، وجعلوا أدبهم وسيلة لنقد المجتمع وللمطالبة بالإصلاح السياسي والاجتماعي، ومن هؤلاء: أبو إسحق الإلبيري(٣) والعسَّال(٤) وبكَّار المرواني. (٥)

وكان الشعب الأندلسي في القرن الخامس الهجري يتألف من عناصر سكانية

---

(١) - هو أبو عامر ابن الفرج، من أعيان بلنسية، وقد أخرجه منها أميرها أبو بكر بن عبد العزيز، فسار إلى المأمون بن ذي النون أمير طليطلة وأصبح وزيراً له ثم لابن ابنه القادر (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٠٣ - ١٠٤، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٧١، المغرب: ج ٢، ص ٣٠٣، النفح: ج ٣، ص ٥٣٤).

(٢) - النفح: ج ٣، ص ٤٠٨.

(٣) - هو أبو اسحق ابراهيم بن مسعود التجيبي، من أهل غرناطة، وقد نفي إلى إلبيرة، واشتهر حتى نسب إليها، وكان فقيهاً زاهداً وشاعراً مجوّداً، وتوفي سنة ٤٦٠ هـ، وله ديوان شعر نشره محمد رضوان الداية (انظر ترجمته في: بغية الملتمس: ص ٢١٠، التكملة: ج ١، ص ١٣٦ - ١٣٧، المغرب: ج ٢، ص ١٣٢ - ١٣٣، النفح: ج ٣، ص ٤٩١، ص ٣٢٢).

(٤) - هو أبو محمد عبد الله بن العسَّال الطليطلي، من أهل طليطلة، وهو مشهور بالكرامات وإجابة الدعوات، وقد رحل عن طليطلة عندما سقطت بيد الصليبيين سنة ٤٧٨ هـ، وبكاها بكاء مراً، وكان حافظاً للحديث وعارفاً بالتفسير، رشاعراً مفلقاً، وتوفي سنة ٤٨٧ هـ (انظر ترجمته في: الصلة: ج ١، ص ٢٨٥ - ٢٨٦، المغرب: ج ٢، ص ٢١).

(٥) - هو بكار بن داود المرواني، ولد سنة أربعين وأربعمائة في مدينة شنترة، وانتقل إلى قرطبة، ثم استوطن اشبونة، وكان غاية في الزهد، وقد استشهد في جهاد العدو (انظر ترجمته في: المغرب: ج ١، ص ٤١٥ - ٤١٦، النفح: ج ٣، ص ٣٣٤ - ٤٤٠).

مختلفة من العرب والبربر والموالي والمولدين والصقالبة،[1] وقد كان الطابع العربي الإسلامي هو الطابع السائد. وقد شاركت هذه العناصر المختلفة العرب في الحياة الفكرية والثقافية فكان منهم الأدباء والعلماء والفقهاء والقضاة وكُتّاب الملوك،[2] وأخذ كل عنصر منها حظه من الملك والسلطان، واستقلَّ بناحية من نواحي الأندلس بعد انهيار الخلافة، فكان البربر يحكمون جنوب الأندلس، والمولدون والصقالبة يحكمون شرق الأندلس، والعرب يحكمون أنحاء مختلفة من البلاد[3]، وقد شبَّت الخلافات السياسية واشتعلت الحروب بين هذه العناصر.

وقد عاش إلى جانب المسلمين أبناء الدِّيانات السماوية الأخرى في ألفة وانسجام، فقد تمتع اليهود والنصارى بقسط كبير من الحرية الفكرية والتسامح الديني،[4] ومارسوا حياتهم العامة في الأرياف والمدن،[5] كذلك فقد أسهموا في الحياة العلمية وألَّفوا في علومهم المختلفة.[6]

وتولَّى كثير من اليهود والنصارى في ظل التسامح الديني مناصب مهمة في المجتمع الأندلسي، فكان منهم الوزراء والكُتّاب والشعراء والعلماء والأطباء، وقد أشار الباحث إلى من اشتهر منهم في الحديث عن الأوضاع السياسية.

وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فقد انتشرت الزراعة في مختلف أنحاء البلاد حتى كانت بعض الأماكن لاتشمس لالتفاف أشجاره واشتباك غصونه.[7] وأصبحت الزراعة المصدر الرئيسي للاقتصاد الأندلسي،[8] وأصبح الأندلسيون من أنبغ الشعوب في زراعة الأرض وتربية الماشية،

(١) - انظر: جمهرة أنساب العرب: ص ٥٠، ١٣٢، ١٩٦، ٣٩٠، ٤٩٨ - ٥٠٢.

(٢) - انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٥٠٢.

(٣) - انظر: المعجب: ص ١٢٧، صبح الأعشى: ج ٥، ص ٢٤٨ - ٢٥٦.

(٤) - انظر: قصة الحضارة: ج ٣ م ٤، ص ٥٢.

(٥) - انظر: أوروبا العصور الوسطى: ص ٥٥٥.

(٦) - انظر: طبقات الأمم: ص ١١٤.

(٧) - انظر: الروض المعطار: ص ٥٩.

(٨) - انظر: إشبيلية في القرن الخامس الهجري: ص ٣٧.

فبرعوا في طرق الري وإقامة السدود والقناطر ومايتعلق بفنون الزراعة وخواص النبات.[1] وقد ساعد على انتشار الزراعة وازدهارها سعة الأراضي الزراعية وخصوبتها وكثرة المياه والأنهار، وقد جادت الأرض الأندلسية بأنواع مختلفة من الثمار والأشجار والنباتات.[2]

وعرفت الأندلس كثيراً من الصناعات التي تعتمد على المنتوجات الزراعية والمستخرجات المعدنية،[3] ومن هذه الصناعات: استخراج الزيت والنحت وآلات الحرب والذخائر والصياغة والسفن والفسيفساء وغيرها.[4] وذكر ياقوت أنه كان يعمل بالَمريَّة «الوشي والديباج فيجاد عمله، وكانت أولاً تعمل بقرطبة ثم غلبت عليها اَلمرِيَّة، فلم يُثْقَف في الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل المرية».[5]

وذكر الحِجاري أنه كان يصنع بطُلَيْطُلَةَ من آلات الحرب العجائب،[6] واشتهرت إشْبِيلِيَّة بنسيجها النفيس وكانت سلعة مطلوبة في أنحاء العالم،[7] وكان فيها دار لصناعة السفن والأسلحة وأدوات البناء.[8]

أمَّا الحركة التجارية فقد نشطت بين الأندلس ودول أوروبا، وبين الأندلس والمغرب، وبين الأندلس ودول المشرق العربي مثل مصر والشام والعراق، كما نشطت التجارة الداخلية بين الممالك الأندلسية،[9] ومما ساعد على ذلك وفرة الإنتاج الزراعي

---

(١) ـ انظر: دول الطوائف: ص ٤٤١.

(٢) ـ انظر: صفة المغرب: ص ١٨٦، ١٨٩، ١٩٤، ٢٠٤، الروض المعطار: ص ٤٦، ٥٩، ١٨٣، النفح: ج ١، ص ٢٠٠.

(٣) ـ انظر: الروض المعطار: ص ٣٢، النفح: ج ١، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٤) ـ انظر: النفح: ج ١، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٥) ـ معجم البلدان: ج ٥، ص ١١٩.

(٦) ـ انظر: المغرب: ج ٢، ص ٩.

(٧) ـ انظر: تاريخ العرب العام: ص ٤٨٥.

(٨) ـ انظر: رحلة الأندلس: ص ٧١.

(٩) ـ انظر: صفة المغرب: ص ١٩٧، ٢٠٠، تاريخ العرب العام: ص ٤٨٥.

والصناعي، وكانت مراسي الأندلس نشطة بحركة السفن التجارية التي تقصدها من مختلف أنحاء العالم محمَّلة بالبضائع من كل نوع ثم تعود محمَّلة بالبضائع الأندلسية،(١) ومن ذلك ميناء المَرِيَّة الذي كان «لمراكب التجار من مسلم وكافر»،(٢) وكانت تصدر من مُرْسية(٣) «آلات الصُّفر والحديد والسكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ومايبهر العقل».(٤)

ومن أشهر الصادرات الأندلسية المواد الغذائية وخاصة الزَّيت الذي كان يعد من أطيب أنواع الزيوت، ذكر الحِمْيَرِيُّ عن إشبيلية أن «أهْلَهَا مياسير، وجلُّ تجارتهم بالزيت، يتجهَّزون به منها إلى أقصى المشارق والمغارب براً وبحراً».(٥) وقد جنى الأندلسيون من تجارتهم أرباحاً طائلة.

وقد استمرت البلاد على هذه الحالة حتَّى جاء المرابطون، فخلعوا ملوك الطوائف وأراحوا الناس من ظلمهم ووحَّدوا البلاد واتجهوا للجهاد ضد الصليبيين، فساد الأمن وانتشر الهدوء، وإلى ذلك يشير صاحب الأنيس المطرب بقوله: «وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن... ولم يكن في عمل بلادهم خراج ولامعونة ولاتقسيط ولاوظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر، وكثرت الخيرات في دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم نفاق ولاقطاع ولامن يقوم عليهم».(٦)

---

(١) - انظر: دول الطوائف: ص ٤٤٢.

(٢)- النفح: ج ٣، ص ٥٧١.

(٣) - مُرْسية: مدينة بالأندلس وهي قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم (انظر: مراصد الاطلاع: ج ٣، ص ١٢٥٨، الروض المعطار: ص ٥٣٩ - ٥٤٠).

(٤) - النفح: ج ١، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٥) - الروض المعطار: ص ٥٩.

(٦) - الأنيس المطرب: ص ١٦٧.

الإطار الفكري

ازدهرت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس في القرن الخامس الهجري ازدهاراً عظيمًا، ونهضت العلوم والآداب نهضة بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الإسلامي،(1) على الرَّغْم مما شهده الأندلس في هذا القرن من تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل.

لقد آتت النهضة الفكرية التي شهدها الأندلس في القرن الرابع الهجري أكلها في هذا القرن،(2) فنضجت وازدهرت حتى غدت بلاد الأندلس مركز إشعاع حضاري وثقافي وفكري، وإلى ذلك يشير صاحب المعجب بقوله: «إنَّ عامَّةَ الفضلاء من أهل كلِّ شأنٍ منسوبون إليها معدودون منها، فهي مطلع شموس العلوم وأقمارها ومركز الفضائل وقطب مدارها»،(3) ومما ساعد على ذلك تعدّد مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس بعد انقسام الدولة الكبيرة إلى دويلات صغيرة يتنافس أصحابها في اجتذاب العلماء ورعاية العلم تنافساً حامياً،(4) إلى جانب روح التسامح النسبي الذي أباحوه وخاصة فيما يتعلق بالدراسات القديمة،(5) فقد أبيحت تلك العلوم بعد أن اضطهد المنصور بن أبي عامر الفلسفة وأصحابها تحبباً إلى عوام الأندلس.(6)

---

(1) ـ انظر: ابن زيدون: ص ١٣، تاريخ الفكر الأندلسي: ص ١٣، في الأدب الأندلسي: ص ١٦٢.

(2) ـ انظر: البيئة الأندلسية: ص ٤٢ ـ ٤٣، تاريخ الفكر الأندلسي: ص ١٣.

(3) ـ المعجب: ص ١٢٧.

(4) ـ انظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ص ١٣.

(5) ـ انظر: الأدب الأندلسي: ص ٥٦، الحركة اللغوية في الأندلس: ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

(6) ـ انظر: طبقات الأمم: ص ٨٦.

وكان معظم ملوك الأندلس في القرن الخامس الهجري من كبار العلماء والأدباء والمؤلفين، محبين للعلم، فقرَّبوا أهله ورفعوا مراتبهم وشجَّعوهم، وأغدقوا الصلات بمثابة مجامع للعلوم والآداب والفنون يحجُّ إليها كلُّ طالب للعلم وراغب في الأدب.[1]

فقد كان المعتصم بن صُمَادح أمير اَلمرِيَّة معنيًّا بشؤون الدين، وإقامة أحكام الشريعة، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة، ويجلس يوماً في كلِّ أسبوع للفقهاء والخواص، يتناظرون بين يديه في كتب الحديث والتفسير.[2] وكان للقاضي محمد ابن عبَّاد[3] «في العلم والأدب باع ولذوي المعارف عنده بها سوق وارتفاع»[4] أمَّا المعتمد بن عبَّاد فكان ملكاً جليلاً، وعالماً ذكياً، مقتصراً من العلوم على علم الأدب، ومايتعلَّق به وينضم إليه،[5] وكان يراسل العلامة اللغوي الأعلم الشنتمري[6] ويناقشه مناقشة لغوية.[7]

وكان المقتدر بن هود أمير سَرَقُسْطَةَ من أكبر المعنيين بالعلوم والمشاركين فيها، وكان ابنه المؤتمن رجلاً عالماً قد طالع الكتب[8] وعني بالفلسفة والرياضيات حتى بلغ

(١) ـ انظر: دول الطوائف: ص ٤٢٣، مجاهد العامري: ص ٤٤.

(٢) ـ انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٨٢.

(٣) ـ هو أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد، أول ملوك بني عباد بإشبيلية، توفي سنة ٤٣٣ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة ص ٨٠، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٣، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٥٣ ـ ١٥٥).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٣.

(٥) ـ انظر: المعجب: ص ٧١.

(٦) ـ هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى، من أهل شَنْتَمَرِيَّة الغرب، وبها ولد سنة ٤١٠ هـ، ورحل إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية وأقام بها مدة درس فيها، وتوفي سنة ٤٧٦ هـ، ومن مؤلفاته المطبوعة «أشعار الستة الجاهليين» و «شرح ديوان زهير» (انظر: ترجمته في: الصلة: ج ٢، ص ٦٨١، معجم الأدباء ج ٢، ص ٦٠، وفيات الأعيان: ج ٧، ص ٨١ ـ ٨٢، مرآة الجنان: ج ٣، ص ١٥٩، بغية الوعاة: ج ٢، ص ٣٥٦، النفح: ج ٤، ص ٧٥).

(٧) ـ انظر: النفح: ج ٤، ص ٧٥.

(٨) ـ انظر: مذكرات الأمير عبد الله: ص ٧٨.

شأواً كبيراً فيهما، وألّف رسالة سمّاها «الاستكمال»، (١) وغدت سَرَقُسْطَة في عهدهما مركزاً للعلوم والرياضيات والفلسفة. (٢) وكان أبو الجيش مجاهد العامري أمير دانية من أكبر العلماء في عصره ولاسيّما في علم العربية، «فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب، وألفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير». (٣)

ولقد ازدهرت الدراسات العلمية المختلفة في هذا القرن، ونبغ فيها عدد كبير من العلماء الأفذاذ، ففي مجال العلوم الدينية بلغ علماء الأندلس الغاية، ونبغ كثيرون منهم: ابن الصَّيرفي(٤) الذي كان من كبار المقرئين في عصره، وابن حزم الأندلسي الذي كان فقيهاً مؤرخاً فيلسوفاً متبحراً في العلم والأدب والعقائد وأصول المذاهب والنِّحل وغيرها، (٥) ومنهم أبو عمر بن عبد البَرّ(٦) وكان إمام عصره وواحد دهره في الفقه، (٧) ومنهم أبو الوليد الباجي، (٨) قال عنه ابن حزم: «لم يكن للمالكية بعد

(١) ـ انظر: النفح: ج ١، ص ٤٤١.

(٢) ـ انظر: دول الطوائف: ص ٢٩٤.

(٣) ـ البيان المغرب: ج ٣، ص ١٥٦.

(٤) ـ هو أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، من أهل دانية، وولد بها سنة ٣٧١ هـ، رحل إلى المشرق فحج وزار مصر، ثم رجع إلى الأندلس وسكن دانية، وتوفي سنة ٤٤٠ هـ، وله مؤلفات حسان وأرجوزة مشهورة في القراءات (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٣٠٥، الصلة: ج ١، ص ٣٩٨، بغية الملتمس: ص ٣٩٩، النفح: ج ٢، ص ١٣٥.

(٥) ـ انظر: الجذوة: ص ٣٠٨ ـ ٣١١.

(٦) ـ هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، مالكي ومن كبار حفاظ الحديث، ومؤرخ أديب بحاثة، ولد بقرطبة، ورحل إلى المشرق، ثم عاد إلى الأندلس وولي قضاء عدد من المدن منها لشبونة وشنترين، وتوفي بشاطبة سنة ٤٦٣ هـ، ومن مؤلفاته المطبوعة «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» و «الإنباه على قبائل الرواة» (انظر ترجمته في: ترتيب المدارك: ج ٤، ص ٨٠٩، الصلة: ج ١، ص ٦٧٧، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٧، تذكرة الحفاظ: ج ٣، ص ١٢٨، شذرات الذهب: ج ٣، ص ٣١٤).

(٧) ـ انظر: الصلة: ج ٢، ص ٦٧٧.

(٨) ـ هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد التجيبي القرطبي، من كبار أئمة المسلمين =

عبد الوهاب مثل أبي الوليد»، [1] ومنهم ابن الطَّلاَّع الذي كان مفتي الأندلس في عصره ومحدِّثها. [2]

وحظيت العلوم اللغوية في هذا القرن بمكانة رفيعة، وظهر عدد من كبار علماء اللغة والنحو في الأندلس منهم: ابن التيَّاني، [3] وابن سيّده، [4] والأعلم الشنتمري الذي كان إمام النحاة في زمانه، [5] ومنهم ابن سراج النحوي [6] إمام اللغة

= بالأندلس، ولد في باجة سنة ٤٠٣ هـ، ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى الأندلس وتولى القضاء في بعض أنحائها، وتوفي بالمرية سنة ٤٧٤ هـ، (انظر ترجمته في الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٤٩٤، ترتيب المدارك: ج ٤، ص ٨٠٢، وفيات الأعيان: ج ١، ص ٤٠٨، النفح: ج ٢، ص ٧٥ - ٧٧).

(١) - ترتيب المدارك: ج ٤، ص ٨٠٣، وعبد الوهاب هو أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر، من كبار علماء المالكية رحل من بغداد واستقر بمصر وحمل لواء المالكية فيها (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٤ م ٢، ص ٥١٥، ترتيب المدارك: ج ٤، ص ٦٩١، وفيات الأعيان: ج ٣، ص ٢١٩، فوات الوفيات: ج ٢، ص ٤١٩).

(٢) - انظر الصلة: ج ٢، ص ٥٦٤.

(٣) - هو أبو غالب تمام بن غالب بن عمر المُرْسي. من أعلام اللغة المشهورين بالأندلس، سكن مرسية، وعرف بالديانة والورع والعفة، توفي بالمرية سنة ٤٣٦ هـ (انظر ترجمته في: فهرسة ابن خير: ص ٣٥٩، معجم الأدباء: ج ١٧، ص ٣٥، إنباه الرواة: ج ١، ص ٢٥٩، المغرب: ج ١، ص ١٦٦، بغية الوعاة: ج ١، ص ٤٧٨ - ٤٧٩).

(٤) - هو أبو الحسن علي بن اسماعيل ابن سيده، العلامة اللغوي الأعمى المشهور، وصاحب كتاب «المخصص»، ولد بمرسية سنة ٣٩٨ هـ، ثم انتقل إلى دانية، وانقطع للأمير مجاهد العامري، توفي سنة ٤٥٨ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ١٠٠، وفيات الأعيان: ج ٣، ص ٣٠٣، بغية الوعاة: ج ٢، ص ١٤٣).

(٥) - انظر: بغية الوعاة: ج ٢، ص ٣٥٦.

(٦) - هو أبو مروان عبد الملك بن سراج، وزير من بيت علم ووقار، ولد بقرطبة سنة ٤٠٠ هـ، وكانت الرحلة في وقته إليه، وقد أحيى كتباً كثيرة كان يفسدها الرواة منها كتاب « البارع في اللغة» للقالي و «النبات» لأبي حنيفة، واستدرك أوهام مؤلفيها أنفسهم، توفي سنة ٤٨٩ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٠٨، الصلة: ج ٢، ص ٣٦٣، بغية الملتمس: ص ٣٨٠، المغرب: ج ١، ص ١١٥، بغية الوعاة: ج ٢، ص ١١٠).

بالأندلس ومحيي علم اللسان بها.[1] ومنهم أيضاً ابن السيِّد البَطَلْيَوْسي[2] الذي كان عالماً باللغات والآداب متبحراً فيها.[3] ومنهم ابن الطراوة[4] نحويّ المَرِيَّة الذي لم يكن في علم العربية مثله.[5]

وازدهر في هذا القرن علم التاريخ، واحتفل به لأنه كان يعتبر من أنبل العلوم عندهم،[6] وبرزوا فيه وكأنهم أرادوا بذلك إظهار ما لهذا الصقع النائي من فضيلة يتميَّز بها بين بلاد العالم الإسلامي.[7] وظهر عدد كبير من العلماء في شتَّى فروع علم التاريخ، فقد نبغ في تاريخ الأندلس العام: أبو عامر بن مسلم[8] الذي ألَّف كتاباً سمَّاه «حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح» وأهداه للمعتصد بن عبَّاد،[9]

---

(١) - انظر الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٠٨، المغرب: ج ١، ص ١١٥.

(٢) - هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيِّد، أصله من بَطَلْيَوْس وولد بها سنة ٤٤٤ هـ، سكن بلنسية ولم يخرج من الأندلس، وقد رحل إليه كثيرون للأخذ عنه، وقد توفي سنة ٥٢١ هـ، ومن مؤلفاته المطبوعة «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب»، و «الانتصار ممن عدل عن الاستبصار». (انظر ترجمته في: الصلة: ج ١، ص ٢٩٢، بغية الوعاة: ج ٢، ص ٥٥ - ٥٦، أزهار الرياض: ج ٣، ص ١٠١).

(٣) - انظر: بغية الوعاة: ج ١، ص ٥٥.

(٤) - هو أبو الحسين سليمان بن محمد السبائي المالقي، نحوي وأديب، تجول كثيراً في الأندلس، وأخذ عنه عدد من أئمة العربية بالأندلس، وله كتاب «المقدمات على سيبوية»، وقد توفي سنة ٥٢٨ هـ (انظر ترجمته في: المغرب: ج ٢، ص ٢٠٨، الوافي بالوفيات: ج ٢، ص ٧٩ - ٨٠، بغية الوعاة: ج ١، ص ٦٠٢).

(٥) - انظر: المغرب: ج ٢، ص ٢٠٨.

(٦) - انظر: الشعر في ظل بني عباد: ص ٦٤.

(٧) - انظر: الإسلام في إسبانيا: ص ٦٦.

(٨) - هو محمد بن عبد الله بن مسلمة، أحد جهابذة الكلام، وجماهير النثار والنظام، اختص بمدح المعتضد بن عباد، واشتهر بمراسلاته مع أدباء عصره مثل ابن الأبار، وإدريس بن اليمان وغيرهما (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٦٥، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٠٥ - ١٢٤، المغرب: ج ١، ص ٩٦ - ٩٧).

(٩) - انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٠٦.

واشتهر أيضاً ابن حيان[١] الذي يعد عميد مؤرخي الأندلس.[٢]

واشتهر في تاريخ العلوم صاعد الأندلسي،[٣] ونبغ في تاريخ الدول الأمير عبد الله بن بَلْقِين الـذي سجـل في مذكـراته تاريخ دولة بني زيري في غَرْنَاطَة[٤]، وممَّن اشتهر في تاريخ المدن ابن علقمة[٥] الذي وضع كتاباً سمّاه «البيان الواضح في العلم الفادح»[٦] وهو في أمر بلنسية وحصارها في فترة الاحتلال القشتالي لها في نهاية القرن الخامس الهجري،[٧] واشتهر في تاريخ السير والتراجم الحُمَيْدِيُّ[٨] صاحب كتاب «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس».

---

(١) ـ هو أبو مروان حيان بن خلف بن حيان، من أهل قرطبة، ولد سنة ٣٧٧ هـ، وتوفي سنة ٤٦٩ هـ، وهو صاحب كتاب المقتبس في أخبار الأندلس (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٨٨، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٧٣ ـ ٦١٤، الصلة: ج ١، ص ١٥٣ ـ ١٥٤، كشف الظنون: ج ١، ص ٤٥٦).

(٢) ـ انظر: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس: ص ١٠١.

(٣) ـ هو أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي، ولد بالمرية سنة ٤٢٠ هـ، وكان فقيهاً مشهوراً وعالماً كبيراً، وقد تولى القضاء في طليطلة لبني ذي النون إلى أن توفي سنة ٤٦٢ هـ، ومن مؤلفاته المطبوعة «طبقات الأمم» وهو في تاريخ العلوم عند الأمم المختلفة (انظر ترجمته في: الصلة: ج ١، ص ٢٣٦، بغية الملتمس: ص ٣٢٣).

(٤) ـ انظر: مقدمة مذكرات الأمير عبد الله.

(٥) ـ هو أبو عبد الله محمد بن خلف الصدفي، من أهل بلنسية، وممن عاصر الاحتلال القشتالي لها، توفي ببلنسية سنة ٥٠٩ هـ (انظر ترجمته في: التكملة: ج ١، ص ٤١١، البيان المغرب: ج ٣، ص ٣٠٦، الوافي بالوافيات: ج ٣، ص ٤٥).

(٦) ـ ضاع هذا الكتاب ولم يصل إلينا، واحتفظ عدد من المصادر بنقول منه انظر: التكملة: ج ١، ص ٢٣، ٢٤٠، ٤٨٦، النفح: ج ٤، ص ٣٥٤.

(٧) ـ انظر التكملة: ج ١، ص ٤١٢.

(٨) ـ هو أبو عبد الله محمد بن أبي نصر بن فتوح الحميدي، من أهل جزيرة ميورقة بالأندلس، رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨ هـ فحج وسمع بمكة ودمشق وغيرها، واستوطن بغداد، وكان فقيهاً محدثاً متبحراً في الآداب والعربية، توفي سنة ٤٨٨ هـ (انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ: ج ١، ص ١٢١٨، العبر: ج ٣، ص ٣٢٣، الوافي بالوفيات: ج ٢، ص ٥٢، النفح: ج ٢، ص ١١٢).

ونبغ في الجغرافيا عدد من العلماء منهم ابن فيَّاض [١] الذي وضع كتاباً عن الطرق والأنهار في الأندلس، [٢] ومنهم ابن الدَّلائي [٣] الذي ألَّف كتاباً في الجغرافيا سمَّاه «نظام المرجان في المسالك والممالك»، [٤] ومنهم أيضاً أبو عبيد البكريّ [٥] الذي وضع أوَّل معجم جغرافي في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب سمَّاه «معجم ما استعجم». [٦]

ونبـــغ من الفـــلاسفـة في القـرن الخـامس الهجـري سعيد بن فتحـون

---

(١) - هو أحمد بن سعيد بن محمد، أصله من استجة، سكن المرية، وله تأليف في الخبر والتاريخ، توفي سنة ٤٥٩ هـ (انظر ترجمته في: المعجب: ص ٤٣١، ٤٥٦، الصلة: ج ١، ص ٦٠، النفح: ج ٣، ص ١٨٢).

(٢) - انظر: المعجب: ص ٤٣١، وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصل إلينا.

(٣) - هو أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي، من أهل دلاية من أعمال المرية، ولد بسبتة سنة ٣٩٣ هـ، وهو محدث وحافظ وجغرافي مشهور، توفي سنة ٤٧٨ هـ (انظر ترجمته في: بغية الملتمس: ص ١٩٥ - ١٩٧، شذرات الذهب: ج ٣، ص ٣٥٧).

(٤) - حقق نصوصاً منه عبد العزيز الأهواني، انظر فهرس المصادر في اخر البحث.

(٥) - هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، عالم لغوي ومؤرخ جغرافي وشاعر سياسي، ولد في شلطيش غربي اشبيلية ثم انتقل إلى دانية ثم سار إلى المرية فاصطفاه أميرها المعتصم بن صمادح إلى أن سقطت دول الطوائف فغادر المرية إلى قرطبة، وتوفي سنة ٤٨٧ هـ، من كتبه المطبوعة: «سمط اللآلىء» و «فصل المقال» (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٣٢، الصلة: ج ١، ص ٢٨٧، عيون الأنباء: ص ٥٠٥، فوات الوفيات: ج ١، ص ٢١٢).

(٦) - انظر: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس: ص ١٢٤، والمعجم مطبوع ومنشور.

السرقُسْطي،[1] وابن البغونش،[2] وإسحاق بن قسطار[3] وابن خلدون،[4] وابن جيروال.[5]

وعرفت الأندلس تقدماً ملموساً في حقل العلوم التطبيقية ونشاطاً ملحوظاً في ميادينه المختلفة، فنبغ في الطب عدد من الأطباء منهم: ابن الذهبي[6] والكرماني،[7] وابن جناح[8]. . . . .

---

(١) ـ هو أبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار، كان إماماً متحققاً في علم النحو واللغة والفلسفة والمنطق وله تأليف في الموسيقى ورسالة في المدخل إلى علم الفلسفة، توفي بصقلية سنة ٤٣٦ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ٨٩، الجذوة: ص ٢٢٣، بغية الملتمس: ص ٣١١، الذيل والتكملة: ج ٤، ص ٣٠، النفح: ج ٣، ص ١٧٥).

(٢) ـ هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش، من أهل طليطلة، ولد سنة ٣٦٩ هـ، ورحل إلى قرطبة وطلب العلم بها، ثم عاد إلى طليطلة واتصل بأميرها اسماعيل بن ذي النون، وحظي عنده بمكانة رفيعة، وقد ترك آخر حياته قراءة العلوم ومال إلى الزهد، توفي سنة ٤٤٤ هـ (انظر: ترجمته في: طبقات الأمم: ص ١٠٧، عيون الأنباء: ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦).

(٣) ـ هو اسحق بن قسطار اليهودي، كان خادماً لمجاهد العامري ولابنه إقبال الدولة علي، وكان بصيراً بأصول الطب وله معرفة كبيرة بالمنطق وآراء الفلاسفة، توفي بطليطلة سنة ٤٤٨ هـ)انظر ترجمته في: طبقات الأمم ص ١١٤، عيون الأنباء: ص ٤٩٩).

(٤) ـ هو أبو مسلم عمر بن أحمد الحضرمي المعروف بابن خلدون، من أشراف أهل إشبيلية، كان متصرفاً في علوم الفلسفة والنجوم والهندسة والطب، توفي سنة ٤٤٩ هـ (انظر ترجمته في طبقات الأمم: ص ٩٣، عيون الأنباء: ص ٤٨٥، النفح: ج٣، ص ٣٧٦).

(٥) ـ هو سليمان بن يحيى بن جيروال، من أهل سرقسطة، ومن كبار علماء اليهود بها، كان مولعاً بصناعة المنطق ومن أهل الاعتناء بالفلسفة، توفي سنة ٤٥٠ هـ (انظر: طبقات الأمم: ص ١١٤).

(٦) ـ هو أبو محمد بن عبد الله بن محمد، من كبار المتقنين لصناعة الطب في الأندلس، توفي سنة ٤٥٦ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ١٠٩، عيون الأنباء: ص ٤٩٧).

(٧) ـ هو أبو الحكم عمر بن عبد الرحمن بن أحمد، من الراسخين في علم الهندسة والطب، رحل إلى المشرق واستقر بحران، ثم عاد إلى الأندلس واستوطن سرقسطة، وقد جلب معه رسائل إخوان الصفا، وتوفي سنة ٤٥٨ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ٩٢، أخبار الحكماء: ص ١٦٢، النفح: ج ٣، ص ٣٧٦).

(٨) ـ هو أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي، طبيب وعالم يهودي، كانت له عناية كبيرة بصناعة =

وابن وافد اللخمي،[1] وأبو العلاء بن زُهْر.[2]

ونبغ في علم النبات عدد من العلماء منهم: ابن بصّال[3] الذي ألّف كتاباً في الفلاحة، واعتمد فيه على تجاربه الشخصية،[4] ومنهم أبو عبد الله محمد بن مالك.[5]

وظهر في الفلك والرياضيات والهندسة عدد من العلماء منهم: ابن

= الطب والأدوية (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ١١٤، عيون الأنباء: ص ٤٩٨ - ٥٠٠).

(١) - هو أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير، ولد بطليطلة سنة ٣٩٨ هـ ووقف على كتب جالينوس وأرسطو وغيرهما، وله تأليف في علم الأدوية المفردة مازال مخطوطاً في مكتبة الاسكوريال (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ١٠٧ - ١٠٨، التكملة: ج ٢، ص ٥٥١، فهرس مخطوطات الاسكوريال: مخطوط رقم ٨٢٨).

(٢) - هو أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الأيادي، شاعر طبيب نشأ بإشبيلية ومال إلى علم الطب منذ الصغر، وله رحلات كثيرة، وكان من أطباء المعتمد بن عباد ثم أصبح طبيباً ليوسف بن تاشفين بعد نكبة المعتمد، وتوفي بإشبيلية سنة ٥٢٥ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢١٨ - ٢٣١، عيون الأنباء: ص ٥١٧ - ٥١٩، وفيات الأعيان: ج ٤، ص ٤٣٦، النفح: ج ٣، ص ٢٤٦، ٤٣٢).

(٣) - هو أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن بصال، من أهل طليطلة، كان يشرف على حدائق بني ذي النون في طليطلة، ولما سقطت طليطلة في أيدي النصارى غادرها إلى إشبيلية وأشرف هنالك على حدائق بني عباد (انظر أخباره في: مقدمة كتاب الفلاحة: ص ١٢، المغرب: ج ٢، ص ٩، النفح: ج ٣، ص ١٥١).

(٤) - انظر: مقدمة كتاب الفلاحة: ص ١٤.

(٥) - هو أبو عبد الله محمد بن مالك الطغنري، من أهل غرناطة، كان أديباً شاعراً، ومن أهل الفضل والخير والعلم، وله عدة مؤلفات منها كتاب في الفلاحة سماه «زهرة البستان ونزهة الأذهان»، كان حياً سنة أربعمائة وثمانين للهجرة (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٨٠٥، الإحاطة: ج ٢، ص ٣٧٩ - ٣٨٢).

السمح،[1] وابن الحنَّاط،[2] وابن سيد الكلبي،[3] وأبو الوليد الوقَّشي،[4] وولد الزرقيال[5] الذي يعتبر من أعظم علماء الفلك عند العرب.[6]

وقد تعدَّدت مظاهر نشاط الحركة الفكريـة في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ومن هذه المظاهر وفرة الانتاج الفكري وتنوّعه. وقد تميز هذا الإنتاج الفكري بالتجويد والإحكام في التأليف، ووفرة الإنتاج المنسوب إلى كل علم من الأعلام.[7]

ومن أشهر مؤلفات هذا القرن: «البديع في وصف الربيع» لحبيب،[8] و«جمهرة

(١) ـ هو أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح، مهندس فلكي، ولد بغرناطة سنة ٣٧٠ هـ، له عدة مؤلفات منها كتاب «ثمار العدد»، توفي سنة ٤٢٦ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ٩٠ ـ ٩١، النفح، ج ٣، ص ٣٧٥).

(٢) ـ هو أبو بكر يحيى بن أحمد بن الحناط، برع في علوم النجوم والهندسة، توفي بطليطلة سنة ٤٤٧ هـ (انظر ترجمته في: عيون الأنباء: ص ٤٩٧).

(٣) ـ هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن سيد الكلبي، من أهل بلنسية، ويقال أنه لم يعدله أحد في زمانه في الهندسة والحساب، توفي سنة ٤٥٦ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ٩٨، التكملة: ج ٢، ص ٥٥٠).

(٤) ـ هو أبو الوليد هشام بن خالد الوقشي، من أهل طليطلة، كان عالماً فلكياً مشهوراً وقد أحاط بكثير من العلوم الدينية واللغوية، وأجاد الشعر توفي بدانية سنة ٤٨٦ هـ (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ٩٦، الصلة: ج ٢، ص ٥٩٢ ـ ٥٩٣، النفح: ج ٣، ص ٣٧٦).

(٥) ـ هو أبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقَّاش، ولد سنة ٤٢٠ هـ، واشتهر بابتكاراته الفلكية، ومنها صحيفة في الرصد تعرف بالزرقيالة (انظر ترجمته في: طبقات الأمم: ص ٩٨، تاريخ الحكماء: ص ٥٧).

(٦) ـ انظر: تاريخ الفكر الأندلسي: ص ٤٥١.

(٧) ـ تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس: ص ١٦٥.

(٨) ـ هو أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر الملقب بحبيب، من أهل إشبيلية، كان آية في الذكاء والفهم والبلاغة والشعر، توفي سنة ٤٤٠ هـ وهو ابن اثنتين وعشرين سنة (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٦٢، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٢٤، التكملة: ج ١، ص ١٨٠، النفح ج ٣، ص ٤٢٧).

أنساب العرب» و «الفصل في الملل والأهواء والنِّحل» لابن حزم و «المخصص» لابن سيده و «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» و «بهجة المجالس وآنس المجالس» لابن عبد البرّ، و«تسهيل السبيل إلى تعلُّم الترسيل» للحُميْدي.[١]

ومن هذه المظاهر أيضاً انتشار المجالس العلمية، وهي نوعان: مجالس تعقد حلقاتها في المساجد للتدريس، ومجالس تعقد للمناظرة والمناقشة، أمَّا الأولى فقد غصَّت بها المساجد الأندلسية، وكانت تدرَّس فيها أكثر علوم العصر، واستأثرت علوم اللغة والشريعة معظم نشاطها،[٢] ومن أشهر العلماء الي تصدروا هذه المجالس: الهدهد بن الصَّنَّاع[٣] الذي أقرأ آخر دهره بجامع بَلَنْسِيَة، وأخذ عنه به جماعة كبيرة.[٤] وأبو علي الصَّدفيُّ[٥] الذي جلس في مُرْسِية يحدث الناس بجامعها، ورحل الناس إليه من مختلف البلدان.[٦]

أمَّا الثانية فكانت تعقد للمناقشات والمناظرات في المسائل العلمية والفكرية وخاصَّة في الفقه والمذاهب، ومنها تلك المجالس التي شهدتها بَلَنْسِية في عهد مظفرٍ

---

(١) - جميع هذه الكتب مطبوعة ومنشورة عدا كتاب «تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل» فهومازال مخطوطاً، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم (٢٣٥٠ أدب).

(٢) - انظر: الحركة العلمية في بلنسية: ص ٢١٧.

(٣) - هو أبو بكر محمد بن ابراهيم الصَّناع، الملقب بهدهد، كان من كبار المقرئين في عصره ومن المشاركين في الأدب واللغة والحفظ للأشعار والأخبار، توفي ببلنسية سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمته في: التكملة: ج ١، ص ٤١١).

(٤) - انظر التكملة: ج ١ ص ٤١١.

(٥) - هو أبو علي حسين بن محمد ويعرف بابن سُكَّرة الصدفي، وهو من أهل سرقسطة، سكن مرسيه، رحل إلى المشرق ثم عاد واستوطن مرسية، كان فاضلاً دَيِّناً عالماً بالحديث وطرقه عارفاً بعلله وأسماء رجاله، وكان حسن الخط جيد الضبط، وقد شهد وقعة كتنبذة سنة ٥١٤ هـ واستشهد فيها: (انظر ترجمته في: الصلة: ج ١، ص ١١٤، مقدمة كتاب المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، النفح: ج ٢، ص ٩٠).

(٦) - انظر: النفح: ج ٢، ص ٩١).

العـامريّ،[1] وكانت تدور فيها المناظرات حول مذهب الإمام مالك،[2] ومنها أيضا تلك المجـالس التي شهدت مناظرات ابن حزم مع فقهاء المالكية بالأندلس، وخاصة مع أبي الوليد الباجيّ.[3]

ومن هذه المظاهر أيضاً الرحلة في طلب العلم، فقد نمت وازدهرت وتهيَّأت لها كلُّ الأسباب رَغم الانقسامات السياسية الظاهرة في الأندلس والمشرق، فلم تُعْرَف الحدود المصطنعة التي تحد بشكل أو بآخر من حرية انتقال العلمـاء وطلاب العلم في ديار الإسلام، وذلك أن الأمة تمتَّعت بوحدة ثقافية نادره، وغدت الرحلة في طلب العلم عرفاً علمياً إسلامياً،[4] وكانت على نوعين: داخلية وخارجية، كانت الداخلية إلى العـواصم الأندلسية[5] التي غدت حواضر للعلم يؤمُّها العلماء وطلّاب العلم من كل حدب وصوب، أمَّا الخارجية فكانت تتَّجه إلى المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق.[6] كذلك فقد كثر الوافدون إلى الأندلس من المشرق،[7] فزادوا الحضارة الإسلامية في الأندلس نمواً وازدهاراً، وكان يتردد على المدن الأندلسية عدد من علماء أوروبا وطلّابها لدراسة العلوم العربيَّة وتراث اليونان الذي نقل للعربية.[8]

---

(١) ـ من فتيان بني عامر، وقد اشترك مع مبارك العامري في حكم بلنسية، بعد أن ترقيا من وكالة الساقية ببلنسية إلى ملك الحضرة، وإقامة رسوم السلطان بها، وقد توفي مظفر بعد مقتل مبارك ببلنسية سنة ٤٠٨ هـ (انظر أخباره: في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٣، المغرب: ج ٢، ص ٢٩٩، البيان المغرب: ج ٣، ص ١٥٨، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٢٢).

(٢) ـ انظر: سير النبلاء ـ جزء خاص بترجمة ابن حزم الأندلسي: ٢٩.

(٣) ـ انظر: الذخيرة ق ٢ م ١، ص ٩٦.

(٤) ـ انظر: الحركة العلمية في بلنسية: ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

(٥) ـ انظر: طبقات الأمم: ص ١٠٧، عيون الأنباء: ص ٤٩٥.

(٦) ـ انظر: طبقات الأمم: ص ٩٢، الصلة: ج ١، ص ٢٢٨، ج ٢، ص ٢٣٦، النفح: ج ٢، ص ٧٥ ـ ٧٧، ١٣٥.

(٧) ـ انظر: الجذوة: ص ٣٥٦، الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٦٩، ٢٤٥، الصلة: ج ٢، ص ٦٠٣.

(٨) ـ انظر: تراث الإسلام: ج ١، ص ٥٦.

ومن هذه المظاهر انتشار المكتبات، فقد شغف الأندلسيون في اقتناء الكتب حتى أصبح اقتناء الكتاب والسعي للحصول عليه مفخرة،[1] فبعد انهيار الخلافة الأموية، واجتياح قُرْطُبَة، وزعت خزائن كتبها على حواضر الأندلس واندفع كثير من المثقفين والعلماء والملوك والوزراء والكُتّاب إلى اقتناء الكتب، فانتشرت المكتبات الخاصة والعامة[2]، وممّن اشتهر بجمع الكتب: أبو جعفر بن عَبّاس[3] الذي جمع من الدواوين العلمية مالم يكن عند ملك،[4] ومجاهد العامري. الذي جمع من دفاتر العلوم خزائن جمة،[5] وكان المظفَّر بن الأفْطَسْ[6] صاحب بَطَلْيُوس جمّاعة للكتب ذا خزائن عظيمة،[7] وكان لأبي محمد الأروشي[8] همة عالية في اقتناء الكتب وجمعها،

---

(١) - انظر: النفح: ج ١، ص ٤٦٢.

(٢) - انظر: الحركة اللغوية في الأندلس: ص ٢٦٤.

(٣) - هو أبو جعفر أحمد بن عباس، وزير زهير الصقلي ملك المرية في مطلع القرن الخامس الهجري، كان حسن الكتابة، جميل الخط، غزير الأدب، مشاركاً في الفقه، وقد بذ الناس في وقته في أربعة أشياء: المال، البخل، العجب والكتابة، وقد قتله باديس بن حبّوس ملك غرناطة سنة ٤٢٧ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٦٤٢، المغرب: ج ٢، ص ٢٠٥، الإحاطة: ج ١، ص ٢٥٩، النفح: ج ٣، ص ٥٣٥).

(٤) - انظر: الإحاطة: ج١، ص ٢٥٩.

(٥) - انظر: البيان المغرب: ج ٣، ص ١٥٦.

(٦) - هو أبو بكر المظفر محمد عبد الله بن مسلمة بن الأفطس، تولى حكم بطليوس بعد والده سنة سبع وثلاثين وأربعمائة، وكان من أعلم ملوك الأندلس بالنسب وأيام العرب، وأجمعهم لغرائب الأخبار ومحاسن الأشعار وله تأليف بديع سماه «المظفري»، ويقع في خمسين مجلداً، وقد توفي سنة ستين وأربعمائة للهجرة (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٤٠، المطرب: ص ٢٢، المغرب: ج ١، ص ٣٦٤، البيان المغرب: ج ٣، ص ٢٣٦، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٨٤، النفح: ج ٣، ص ٣٨٠).

(٧) - انظر: النفح: ج ٣، ص ٣٨٠.

(٨) - هو أبو محمد عبد الله بن حيان الأرْوَشي، فقيه محدث، ولد سنة ٤٠٩ هـ، سكن بلنسية، وقد تعرضت مكتبته لنكبة، ولايعرف سبب ذلك، وذكر المؤرخون أن المأمون بن ذي النون طليطلة، أخذ كتب الأرْوَشي من داره وسيقت إلى قصره في مائة وثلاثة وأربعين عدلاً من أعدال الحمالين، وتوفي سنة ٤٨٧ هـ (انظر ترجمته في: الصلة: ج ١، ص ٢٨٨، بغية الملتمس: ص ٣٤٣).

وجمع من ذلك شيئاً عظيمًا،[1] وقد ساهمت هذه المكتبات في ازدهار الحركة الفكرية وخلق وعي علمي شامل في الأندلس.

ولعناية الأندلسيين بالكتابة ازدهرت عندهم صناعة الوراقة التي تعنى بنسخ الكتب وتجليدها وتصحيحها بالضبط والرواية والتنميق، وقد ساعد ذلك على إثراء المكتبات بالكتب الأندلسية والمشرقية، وانتشرت مصانع الورق في بعض المدن الأندلسية مثل: بَلَنْسِيَة وشَاطِبَة[2] وطُلَيْطُلَة وغَرْنَاطَة،[3] واشتهرت بعض المدن الأندلسية بأسواق الكتب التي كان يتردد عليها رجال الأدب بحثاً عن النسخ النادرة من المؤلفات المختلفة.[4]

ولمع في هذا القرن عدد من الورّاقين منهم: الأخْفَش بن عمر[5] الذي كان ورّاقاً محسناً ضابطاً يتنافس في مايكتب ويغالي به،[6] وابن سارة الشنتريني[7] الذي كان مليح الكتابة، وقد نسخ الكثير بالأجرة.[8]

---

(١) ـ انظر: الصلة: ج ١، ص ٢٨٨.

(٢) ـ شاطبة: مدينة جليلة بالأندلس، تقع في شرق قرطبة، وكانت حاضرة آهلة بالسكان (انظر: مراصد الاطلاع: ج ٢، ص ٧٧٤، الروض المعطار: ص ٣٣٧).

(٣) ـ انظر: الحركة العلمية في بلنسية: ص ٢٧١.

(٤) ـ انظر: مجلة معهد المخطوطات العربية: م ٥ ج ١، المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية: ص ٧٨.

(٥) ـ هو أبو القاسم الأخفش خلف بن عمر، من أهل جزيرة شقر، سكن بلنسية وكان يعلّم العربية والآداب، وقد توفي سنة ٤٦٠ هـ (انظر ترجمته في التكملة: ج ١، ص ٢٩٧).

(٦) ـ انظر: التكملة: ج ١، ص ٢٩٧.

(٧) ـ هو أبو محمد عبد الله بن سارة، ويقال ابن صارة الشنتريني، ناثر شاعر مفلق، سكن إشبيلية، وتعيش فيها بالوراقة، وتجول في بلاد الأندلس مادحاً، وتوفي سنة ٥١٧ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٨٣٤، المغرب: ج ١، ص ٤١٩، المسالك: ج ١١، ص ٣٨٣، بغية الوعاة: ج ٢، ص ٥٧).

(٨) ـ انظر: بغية الوعاة: ج ٢، ص ٥٧

ومن المظاهر العلميـة التي تلفت النظر في هذا القرن ولع الأندلسيين بأصول الثقافة المشرقية: دراسةً وشرحاً ومعارضةً ورداً واختصاراً ومشاكلةً وحفظاً، فقد كانت إشراق العروضية تحفظ «الكامل» للمبرد، و «النوادر» للقالي.[١] وكان ابن عَبْدون يحفظ «كتاب الأغاني»[٢] وشرح ابن الإفليلي[٣] «ديوان المتنبي»،[٤] وشرح الأعلم الشنتمـري «الأشعار الستة الجاهلية»،[٥] وعارض ابن بَسَّام في الذخيرة كتاب «اليتيمة» للثعالبي.

كذلك فقد نشطت الحركة الأدبية، ولقيت تشجيعاً من ملوك الطوائف، فقد اصـطنعـوا الأدبـاء والشعراء وتنافسوا في اجتذابهم إلى عواصم ملكهم للمباهاة بمدائحهم لهم، وليضفوا على شخصياتهم الشهرة[٦]. وأخذ الشعراء والكُتَّاب يقـطعـون الأنـدلس طولاً وعـرضـاً ينتجعون قصور الملوك للظفر بصلاتهم والفوز بأعطياتهم،[٧] وإلى ذلك يشير الشقنديُّ بقوله: فنَفَّقُوا سوق العلوم، وتَبَاروا في المَثُوبَةِ على المنثورِ والمنظوم، فما كان أعظمَ مباهاتِهِم إلَّا قول: العَالِمُ الفلاني عِنْدَ الملك الفلانِّي، والشاعرُ الفلانُّي مختصٌ بالملك الفلاني».[٨]

---

(١) ـ انظر: بغية الوعاة: ج١، ص٤٥٨.

(٢) ـ انظر: المعجب: ص ١٤٣.

(٣) ـ هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن زكريا المعروف بابن الإفليلي، ولد سنة ٣٥٢ هـ، وكان عالماً بالنحو واللغة، وبذ أهل زمانه في اللسان العربي والضبط لغريب اللغة، وألفاظ الشعر، توفي سنة ٤٤١ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٥١، الذخيرة: ق ١ م١، ص ٢٨١، بغية الوعاة: ج ١، ص ٤٢٦).

(٤) ـ مازال شرح ابن الافليلي على ديوان المتنبي مخطوطاً، وقد ذكر بروكلمان في تاريخه أن لهذا الشرح خمس مخطوطات موزعة في مكتبات العالم (انظر: Brock: S. I. 142, G. I. 88).

(٥) ـ هذا الشرح مطبوع ومنشور، انظر فهرس المصادر فى نهاية البحث.

(٦) ـ انظر: الشعر الأندلسي: ص ٤٥، عصر الطوائف والمرابطين: ص ٧١ ـ ٧٧، في الأدب الأندلسي: ص ١٦٢.

(٧) ـ انظر: الشعر الأندلسي: ص ٤٦.

(٨) ـ النفح: ج٣، ص ١٩٠.

وازدهر الشعر في هذا القرن ازدهاراً عظيًما، حتى عرفت فيه الأندلس أكبر إشراق شعري في تاريخها الأدبي[1] وظهر عدد كبير من الشعراء الذين صاغوا أحاسيسهم ومشاعرهم في قصائد رائعة تردِّدها الأجيال جيلاً بعد جيل. وأصبحت المدائح تجارة رائجة، حتى أنَّ أحدهم وهو إدريس ابن اليمان[2] لايمدح أحداً بقصيدة إلاَّ بمائة دينار،[3] وقد سأله المعتمد بن عَبَّاد أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها آل حَمُّود فقال له «إشارتي مفهومةٌ، وبناتُ صَدْرِي كريمةٌ، فَمَن أرَادَ أن يَنْكَحَ بِكْرَهَا، فقد عَرَفَ مَهْرَهَا». [4]

لقد كان الشعر أمراً مشتركاً بين ملوك الطوائف جميعاً،[5] فازدهر في الممالك الأندلسية بصفة عامة، ولكن امتازت ثلاثة من بين بلاطات ملوك الطوائف بصفة خاصة بمشاركتها في النهضة الأدبية والشعرية، وهي: بلاط بني عَبَّاد بإشْبِيلِيَة، وبلاط بني الأفْطس ببَطَلْيَوْس، وبلاط بني صُمَادح بالَمرِيَّة. فقد كان بنو عبَّاد أعظم ملوك الطوائف «هم وبنوهم ووزراؤهم صدوراً في بلاغتي النظم والنثر»،[6] وصارت إشْبِيلِيَة في عهد المعتمد رائدة الحركة الفكرية والثقافية التي سادت ذلك القرن «فلم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعر وأفاضل الأدباء ماكان يجتمع ببابه». [7] وغدت الدولة العَبَّادية في ازدهارها العلمي والأدبي «أشبه شيء بالدولة العبَّاسية ببغداد، سعة مكارم، وجمع فضائل»،[8] ووصف الشقندي أيامهم

---

(١) ـ انظر: سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس ص ١٤.

(٢) ـ هو أبو علي إدريس بن اليمان العبدري، من أهل جزيرة يابسة، مدح ملوك الطوائف، ولم يكن بعد ابن درَّاج القسطلي من يجري عندهم مجراه غير ابن اليمان (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٧٠، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٣٦، المغرب: ج ١، ص ٤٠).

(٣) ـ انظر: الذخيرة ق ٣ م ١، ص ٣٣٦.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧، وانظر النفح: ج ٤، ص ٧٥.

(٥) ـ انظر: الشعر الأندلسي: ص ٤٥.

(٦) ـ النفح: ج ٣، ص ١٩١.

(٧) ـ وفيات الأعيان: ج ٥، ص ٢٤.

(٨) ـ النفح: ج ٤، ص ٢٥٥.

بأنها «لم تزل بهم كأعياد، وكان لهم من الحنو على الأدب مالم يَقُم به بنو حمدان في حلب». [1]

وكان من شعراء بني عَبَّاد: ابن زيدون، وابن عمَّار، وابن وهبون،[2] وابن اللبَّانة،[3] وابن حمديس، ومن كُتَّابهم: ابن عبد البر،[4] وابن القصيرة[5]

وكان بنو الأفْطَس ملوك بَطَلْيَوْس «ملجأ لأهْلِ الآداب، خُلِّدت فيهم ولهم قصائد شَادَتْ مآثِرَهُم، وأبْقَتْ على غَابِرِ الدَّهْرِ حَمِيدَ ذكرهم»،[6] وكان عميدهم المظفَّر أديب ملوك عصره، شغوفاً بالشعر والآداب، ناقداً لها، ومَّما يدلُّ على بصره

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٣، ص ١٩١.

(٢) ـ هو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المُرْسي، شاعر مشهور، كان حسن الشعر، لطيف المأخذ، حسن التوصل إلى دقيق المعاني، وقد جمع ابن بسام شعره في كتاب سماه «الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل» (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٤٧٣، الخريدة: ج ٢، ص ٩٥، المعجب: ص ١٥٩، النفح: ج ١، ص ٦٥٧).

(٣) ـ هو أبو بكر محمد بن عيسى بن اللبَّانة الدَّاني، من جلَّة الأدباء وفحول الشعراء في الأندلس، وقد عرف بالوفاء لبني عباد بعد ذهاب دولتهم، وزار المعتمد في منفاه بأغمات، وله عدة مؤلفات منها «سقط الدر في لقيط الزهر» و «نظم السلوك في وعظ الملوك». توفي سنة ٥٠٧ هـ، (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٦٦٦، الخريدة: ج ٢، ص ١٠٧، التكملة: ج ١، ص ٤١٠، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٩، فوات الوفيات: ج ٤، ص ٢٧١).

(٤) ـ هو أبو محمد عبد الله بن عبد البر، من أعلام الكتابة في عصره، وقد كتب للمعتضد بن عباد الرسالة البديعية في مقتل ابنه اسماعيل، وقد كتبها دون روية ثم تخوف منه، ورحل عنه، و وكتب عن أكثر ملوك الطوائف، وتوفي سنة ٤٧٤ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٥، إعتاب الكتاب: ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٢).

(٥) ـ هو ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو بكر محمد بن سليمان بن القصيرة كان من أهل التفنن في العلوم كاتباً بارع الخط، وكان سفير المعتمد بن عباد إلى ملوك الطوائف، واستدعاه يوسف بن تاشفين بعد خلع ملوك الطوائف وولاه ديوان الكتابة، وتوفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٣٩، المحمدون من الشعراء: ص ٣٥٨ أعتاب الكتاب: ص ٢٢٢، المغرب: ج ٢، ص ٣٥٠، النفح: ج ٤، ص ٣٦١ ـ ٣٦٥).

(٦) ـ المعجب: ص ١٢٨.

بالشعر أنه كان ينكر الشعرَ على قائله في زمانه، ويقبل رأي من ارتسم في ديوانه، ويقول: «من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي والمعري، فليسكت ولايرضى بدون ذلك»، [1] وكان ابنه المتوكل[2] من أهل الرأي والحزم والمهارة في النظم والنثر، وكان في بَطَلْيَوْس كالمعتمد في إشْبِيلِيَة، فشدت الرحال إليه، وأصبحت المدينة في عصره دار أدب وشعر ونحو وعلم، [3] وكان من شعرائهم: ابن البين[4] وابن عبدون، ومن كُتَّابهم ابن قزمان، [5] وابن القَبْطُرْنَة. [6]

وكان بلاط المعتصم بن صُمَادح بالَمرِيَّة منتدى للشعراء وأهل الأدب، فقد كان المعتصم بن صُمَادح من أهل الأدب والمعارف، وكان لأهل الشعر عنده سوق نافقة، [7] وكانت دولته «مشرعاً للكرم ومطلعاً للهمم... فنفقت في بلاطه أقلامُ

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٤١.

(٢) ـ هو المتوكل عمر بن المظفر، حاصره المرابطون في بطليوس، وقتل هو وابناه سنة ٤٨٧ هـ (انظر ترجمته في: القلائد: ص ٥٦، الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٤٦، الحلة السيراء: ص ٩٢، المغرب: ج ١، ص ٣٦٤).

(٣) ـ انظر: المغرب: ج ٢، ص ٣٦٤، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٨٥.

(٤) ـ هو أبو عبد الله محمد بن البين، أحد الشعراء المجيدين، كان بحضرة بطليوس مستظرف الألفاظ والمعاني، وكان يميل إلى طريقة محمد بن هانىء (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٩٩، المغرب: ج ١، ص ٣٧٠، المسالك: ج ١١، ص ٤٤٠، النفح: ج ٣، ص ٤٥٣).

(٥) ـ هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان، من أهل البلاغة والبيان، كان كاتباً للمتوكل بن الأفطس: توفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٧٤، الصلة: ج ٢، ص ٥٤٠، المغرب ج ١، ص ٩٩).

(٦) ـ هو أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي، أحد فرسان العلوم والكلام، وحملة السيوف والأقلام، كان كاتباً مترسلاً، كتب للمتوكل بن الأفطس ثم ليوسف بن تاشفين من بعده، توفي سنة ٥٢٠ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٥٣، المطرب: ص ١٨٦، المغرب: ج ١، ص ٣٦٧، الاحاطة: ج ١، ص ٥٢٨).

(٧) ـ انظر: البيان المغرب: ج ٣، ص ٣٦٨.

الأعلامِ ، وتدفقت بحار الكلام»،[1] ولزم بلاط المعتصم عدد من الشعراء والكُتَّاب منهم الأسعد بن بَلِّيطة،[2] وأبو حفص بن الشَّهيد،[3] وابن الحدَّاد، وابن عُبادة القزَّاز،[4] وأبو الفضل بن شرف القيرواني.

وقد استمر نشاط الحركة الأدبيـة في الأندلس في اندفاعه بعد خلع ملوك الطوائف، ووحد الكُتَّاب اهتماماً كبيراً من قبل ملوك المرابطين وأمرائهم في الأندلس، فقد ذكر صاحب المعجب في حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وابنه علـي بن يوسف أنه «اجْتَمَعَ لَهُ وَلابنِهِ من أعيانِ الكُتَّاب وفُرْسان البَلاَغَةِ مَالَم يَتَّفِق اجْتِماعهُ في عَصرٍ من الأعْصـار، فَمِمَّن كَتَبَ لأمـير المُسلِمـينَ يوسف بن تاشفين: كاتبُ المعتمدِ على الله أبو بكر المعروفُ بابنِ القصيرة أحدُ رجالِ الفَصَاحَةِ والحائزُ قَصَبَ السَّبْق في البلاغة . . . ثم كَتَبَ لَهُ أَو لِابْنِهِ بَعْدَ هذا أبي بكر هذا ـ الوزيرُ الأجلُّ أبو محمدٍ بن عبد المجيد بن عَبْدون»[5].

وقـد تعدّدت مظاهر نشاط الحركة الأدبية في الأندلس في القرن الخامس الهجـري، ومن هذه المظاهر: انتشار المجالس الأدبية في طول البلاد وعرضها،

---

(١) ـ القلائد: ص ٤٧.

(٢) ـ هو الأسعد بن ابراهيم بن بَلِّيطة، من أهل قرطبة، شاعر ناثر تردد على ملوك الطوائف وخاصة على المعتصم بن صمادح، كان حيا سنة ٤٤٠ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٩٠، الخريدة: ج ٢، ص ٧٩، المطرب: ص ١٢٦، المغرب: ج ٢، ص ١٧).

(٣) ـ هو الوزير الكاتب أبو حفص عمر بن الشهيد، من أئمة أدباء المريَّة، وفرسان الشعر والنثر فيها، اشتهر بمدح المعتصم بقصائد رائعة، ولقيه الحميدي سنة ٤٤٠ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٣٠٢، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٧٠، بغية الملتمس: ص ٤٠٧).

(٤) ـ هو أبو عبد الله محمد بن عبادة القزاز، من مشاهير أدباء المرية، وشعرائها في القرن الخامس الهجري، برع في نظم الموشحات، وتوفي في حدود سنة ٥٠٠ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٠١، أخبار وتراجم أندلسية: ص ٧٦، المغرب: ج ٢، ص ١٣٤، الوافي بالوفيات: ج ٣، ص ١٨٩، أزهار الرياض: ج ٢، ص ٢٥٢، النفح: ج ٣، ص ٤١١، ٤٩٢.

(٥) ـ المعجب: ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

وكان أكثر المجالس الأدبية يعقد في بلاطات الملوك والوزراء،(١) وقد يعقدها نبهاء الأدباء والشعراء وسط الرياض والمتنزَّهات،(٢) وكانت هذه المجالس ميادين للمطارحات الأدبية والنظرات النقدية، يجتمع فيها الأدباء والشعراء للمذاكرة في الأخبار الأدبية ومدارسة الشعر، فيتعاطون المنظوم والمنثور، وكان الشعر يقرض في هذه المجالس ارتجالاً وعلى البديهة، لذلك جاء معظمه على شكل مقطوعات شعرية قصيرة في الوصف والغزل والخمر وأحياناً في المدح، ومع ذلك فقد أجادوا فيه، وقد أبدع الشعراء والكُتَّاب في وصف المجالس الأدبية والدعوة إليها، ومن هذه المجالس الأدبية تلك التي كان يعقدها المعتضد بن عبَّاد يوم الإثنين من كل أسبوع.(٣)

ومن هذه المظاهر أيضاً انتشار الشعر على ألسنة كثير من أهل الأندلس على مختلف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية، حتَّى شمل الفلاحين والتجار والصنَّاع والنِّساء والجواري وغيرهم، ومما يدلُّ على ذلك ماروواه القزويني عن أهل شلب(٤) بقوله: «قلَّ أن ترى من أهلها من لايقول شعراً، ولايعاني أدباً، ولو مَرَرْتَ بالفلاحِ خَلْفَ فدانه، وَسَأَلْتَهُ عَنِ الشِّعرِ قَرَضَ مِن سَاعَتِهِ مَا اقْتَرَحْتَ عَلَيْهِ، وأيّ معنى طَلَبْتَ مِنْه».(٥)

ومن مظاهر نشاط الحركة الأدبية أيضاً نبوغ أسر كاملة في الأدب والشعر، فقد شاع الشعر والنثر بين عدد من أفراد الأسرة الواحدة كأسرة بني عَبَّاد،(٦) وأسرة

---

(١) ـ انظر: القلائد: ص ٤٤، ٤٩، المطرب: ص ٣٦، النفح: ج ٣، ص ٢٤٣، ٢٦٥، ج ٤، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) ـ انظر القلائد: ص ١٥٠، النفح: ج ١، ص ٦٣٨، ٦٥٧ ـ ٦٥٩، ٦٦٧ ـ ٦٦٩.

(٣) ـ انظر النفح: ج ٤، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٤) ـ شلب: قاعدة ولاية إشكونية بغربي الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام، وهي غربي قرطبة (انظر: مراصد الاطلاع: ج ٢، ص ٨٠٨، معجم البلدان: ج ٣، ص ٣٥٧، الروض المعطار: ص ٣٤٢.

(٥) ـ معجم البلدان: ج ٣، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٦) ـ انظر ذكر عدد من أفراد هذه الأسرة ممن اشتهر بالأدب في القلائد: ص ٤ ـ ٣٥، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٣، ٢٣، ٤١، الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٤ ـ ٧٦.

بني صُمَادح[1] التي كانت «بيت العلوم الفائقة والآداب الرائقة». [2]

وكان بنو الطُّبْني بين أدب وشعر،[3] وكان بنو القَبْطُرْنَة[4] عيوناً من عيون الأدب الأندلسي. [5]

ومن هذه المظاهر أيضاً نبوغ الأندلسيين في فن التوشيح، فبعد أن ظهرت الموشحات في أواخر القرن الثالث الهجري، وشهدت إقبال الشعراء عليها والتفاتهم إليها في القرن الرابع الهجري،[6] نبغ الأندلسيون فيها في هذا القرن وذلك على يد ابن عُبَادة القزَّاز[7] شاعر المعتصم بن صمادح أمير المَرِيَّة الذي يعدُّ أول من برع في هذا الفن، وزعموا أنه لم يسبقه وشاح من معاصرية الذين كانوا زمن ملوك الطوائف. [8]

---

(١) - انظر ذكر عدد من أفراد هذه الأسرة ممن اشتهر بالأدب في: القلائد: ص ٤٧، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٢٩ - ٧٣٧، المطرب: ص ٣٣، الحلة السيراء: ج ٢، ص ٧٨ - ٩٦، المغرب: ج ٢، ص ١٩٥ - ٢٠٣، النفح: ج ٤، ص ١٧٠.

(٢) - المطرب: ص ٣٤.

(٣) - انظر ذكر عدد من أدباء هذه الأسرة في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٣٥ - ٥٤٨، المغرب: ج ١، ص ٩٢ - ٩٣.

(٤) - بنو القبطرنة: ثلاثة أخوة يعرفون ببني القبطرنة، وهم أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي، وقد مرت ترجمته في صفحة سابقة، وأبو محمد طلحة بن سعيد البطليوسي، الذي كان أحد الأدباء الأذكياء في القرن الخامس الهجري، توفي قبل سنة ٥٢٠ هـ، وأبو الحسن محمد بن سعيد البطليوسي الذي كان كاتباً للمتوكل بن الأفطس (انظر تراجم الثلاثة في: القلائد: ص ١٤٨، الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٣٥ - ٧٧٣، المطرب ص ١٨٦ - ١٨٧، المغرب: ج ١، ص ٣٦٧، الإحاطة: ج ١، ص ٥٢٨).

(٥) - انظر: الاحاطة: ج ١، ص ٥٢٨.

(٦) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٦٨ - ٤٧٠، ق ١ م ٢، ص ٨٠١ - ٨٠٢، تاريخ ابن خلدون: ج ١، ص ١١٣٧ - ١١٣٨.

(٧) - انظر موشحاته في: دار الطراز: ص ٧٠، ٨١، ٨٨، ٩٣، ٩٧.

(٨) - انظر تاريخ ابن خلدون: ص ١١٣٨.

ومن اشتهر من الوشاحين في هذا القرن: الأبيض،(١) وابن رافع رأسه،(٢) والجَزَّار السَّرَقُسْطي،(٣) والكُمَيْتُ البَطَلْيَوْسي،(٤) وابن اللَّبَّانة.(٥)

ومن خصائص الأدب الأندلسي في هذا القرن أنه كان انعكاساً للبيئة الأندلسية بكل أبعادها الطبيعية والسياسة والاجتماعية والثقافية، فقد برع الأندلسيون في فنون الوصف والغزل والحب والطبيعة إلى جانب ازدهار فنون أخرى كان لقيام دول الطوائف والتنافس فيما بينها أكبر الأثر في ازدهارها، ومن هذه الفنون المديح والاعتذار والفخر وأحياناً الهجاء، وماتبع ذلك من رثاء دول الطوائف والتفجُّع عليها بعدما انهارت وذهب ملوكها. كذلك فقد انعكست على صفحات الأدب الأحداث التي شهدها الأندلس في القرن الخامس الهجري من انقسام الأمة، واختلاف كلمتها

---

(١) ـ هو أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بالأبيض، من فحول شعراء الأندلس، أصله من همذان، وتأدّب بإشبيلية وقرطبة، وكان وشاحاً مشهوراً، وتوفي بعد سنة ٥٢٥ هـ، (انظر ترجمته وموشحاته في: زاد المسافر: ص ١٠٨، المطرب: ص ٨١، المغرب: ج ٢، ص ١٢٧، جيش التوشيح: ص ٤٨ ـ ٥٨، تاريخ ابن خلدون: ص ١١٤٠ ـ ١١٤٢).

(٢) ـ هو أبو عبد الله محمد بن رافع رأسه، ويقال ابن أرفع رأسه، من أهل طليطلة، اتصل بأميرها المأمون بن ذي النون ومدحه، وكانت له موشحات مشهورة يغنى بها في بلاد المغرب (انظر ترجمته وموشحاته في: المغرب: ج ٢، ص ١٨، جيش التوشيح: ص ٧٣ ـ ٨٥.

(٣) ـ هو أبو بكر يحيى الجزار السرقسطي، كان في دكان يبيع اللحم فتعلقت نفسه بقول الشعر فبرع فيه، وله أشعار مدح بها ملوك بني هود ووزراءهم ثم ترك الأدب والشعر واعتكف على القصابة، فأمر المقتدر بن هود وزيره ابن حسداي أن يوبخه على ذلك (انظر ترجمته وموشحاته في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٩٠٥، المغرب: ج ٢، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥، جيش التوشيح: ص ١٤٧، النفح: ج ٣، ص ٦٠٩).

(٤) ـ هو أبو بكر محمد بن الحسن المشهور بالكميت البطليوسي شاعر أديب كان من شعراء عماد الدولة أبي جعفر بن المستعين بن هود بسرقسطة (انظر ترجمته وموشحاته في الجذوة: ص ٣٣٤، المغرب: ج ١، ص ٣٧٠، جيش التوشيح: ص ٨٦).

(٥) ـ انظر موشحاته في: دار الطراز: ص ٦٨، ٧٣، ٧٥، ٧٦، جيش التوشيح: ص ٥٩ ـ ٧٢.

وسقوط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى بيد النصارى، فظهر أدب النكبات[1] - شعراً ونثراً - يبكي الأمة ومدنها المتساقطة، ويدعو إلى استثارة الهمم للالتئام والوحدة، وينبِّه على مواطن الخطر المحدقة بالأمة.

وممن اشتهر في أدب النكبات الأديب الفقيه أبو حفص الهَوْزَني[2] الذي كتب رسالة إلى المعتضد بن عبَّاد بعد نكبة بَرْبَشْتَر يحثُّه فيها على الجهاد،[3] ومنهم الشاعر الزاهد ابن العسَّال الذي بكى بَرْبَشْتَر بكاء مرّاً عندما سقطت بيد النصارى سنة ٤٥٦ هـ.[4]

ومن خصائص الأدب الأندلسي في هذا القرن تأثر الأدباء الأندلسيين بشعراء المشرق وكُتَّابه في أساليبهم ومعانيهم، وقد أضافوا إليها مما أملته عليهم ظروف بيئتهم، فجدّدوا في معاني وأساليب الغزل والرِّثاء والزهد والحديث عن الطبيعة وغيرها.[5]

ومن هذه الخصائص ظاهرة الانتقاء من التراث، فقد كانوا يضمِّنون قصائدهم ورسائلهم أقوال السابقين وأشعارهم وأمثالهم وأخبارهم وماصادف هوى في نفوسهم.

ومن هذه الخصائص أيضاً الميل إلى التأنُّق والتحسين واستعمال الألوان البديعية المختلفة من تورية وجناس وطباق وغيرها، فقد كتب ابن اللبَّانة قصيدة طويلة جعلها

---

(١) - انظر أدب النكبات في الأندلس في: عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٧٨ - ١٨٨.

(٢) - هو أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني، عالم فقيه أديب، أخذ العلم عن عدد من علماء الأندلس، ثم رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨ هـ، وأخذ عن علماء المشرق، ثم عاد إلى الأندلس، واستوطن مرسية سنة ٤٥٨ هـ ثم رحل عنها إلى إشبيلية بطلب من المعتضد بن عباد الذي قتله بيده سنة ٤٦٠ هـ. (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٨١ - ٩٤، الصلة: ج ١، ص ٣٨١، المغرب ج ٢، ص ٢٣٩، النفح: ج ٢، ص ٩٣).

(٣) - انظر الرسالة في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٨٣ - ٨٩.

(٤) - انظر قصيدة ابن العسَّال في رثاء بربشتر في: الروض المعطار: ص ٩١ - ٩٢.

(٥) - انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٠٧ - ٢١٥.

من أولها إلى آخرها صدر البيت غزل وعجزه مدح.[1] ومال الكُتَّاب إلى السجع والتنميق والتحبير حتى كانت أكثر رسائلهم بالمنظوم أشبه منها بالمنثور.

(١) ـ انظر: المعجب: ص ٢١٢.

الفصل الأول

أدب الرسائل في الأندلس حَتَّى نهاية القرن الرابع الهجري

- مفهوم أدب الرسائل
- نشأته وأصوله
- موضوعاته وأغراضه

مفهوم أدب الرسائل

لم يتناول أحد من النقاد العرب القدامى مفهوم أدب الرسائل بالتفصيل، وجلُّ مانجده عن أدب الرسائل آراءً متناثرة في عدد من مصادر النقد الأدبي القديمة. إن تحديد مفهوم أدب الرسائل يستدعي من الباحث أن يقف عن مفهوم لفظ رِسَالَة في الأدب، إلى جانب دراسة مرادفاته التي شاع استعمالها، وتوضيح علاقتها بمفهوم لفظ رسالة.

لقد اشتقَّ لفظ رسالة من المادة اللغوية «رَسَلَ» التي تدل على معان حسية كثيرة أفاضت أمهات المعاجم العربية القديمة الحديث عنها وهي: «القطيع من كلِّ شيء»، أو «القطيع من الإبل والغنم»، أو «الإبل. . . . قطيع بعد قطيع». [1]

وقد تطوَّر مفهوم لفظ رسالة من الاستعمال الحسي إلى الاستعمال المعنوي، فقد ذكر ابن منظور أن الإرسال يعني التوجيه، والاسم الرِّسالة والرَّسالة، [2] ثم تطوَّر هذا المفهوم للفظ رسالة وانطلق من المجال اللغوي ليدل على كل كلام يراسل به من بعيد. [3]

وقد اصْطنع الأدباء الأندلسيون لفظ رسالة في كتاباتهم على اختلافها منذ عهد مبكر كما يشير إلى ذلك كثير من النصوص الأدبية والتاريخية الأندلسية، [4]

(١) ـ انظر: الصحاح، القاموس المحيط، اللسان: (مادة: رسل).

(٢) ـ اللسان: مادة رسل.

(٣) ـ انظر: البرهان في وجوه البيان: ص ١٩٣.

(٤) ـ انظر: إعتاب الكُتَّاب: ص ٧١، ١٩٦، الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٧٣.

وماذكرته المصادر عن نشأة ديوان الرسائل ومايصدر عنه من مكاتبات في الأندلس،[1] فكان لفظ كتابة إذا أطلق لايراد به غير كتابة الرسائل.[2]

وكان الأدباء الأندلسيون يطلقون لفظ رسالة على ماينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويوجِّهه إلى شخص آخر، ويشمل ذلك الجوابَ والخطاب، ومن ذلك ماورد في الرسالة الجوابية التي بعث بها أبو جعفر أحمد بن عباس لأبي المغيرة بن حزم،[3] إذ كتب إليه يقول: «وَرَأَيْتُ مانحلْتَه الرِّسَالَةَ الْمُعْرِبَة عن فنونِ البرَاعةِ، وأَعَرْتَهَا من بَدَائعِ الصِّنَاعةِ، التي لو رَامَ نُبَذاً منها بديعُ الزمانِ، أو عمرو بن عثمان، لتردَّدَا يخبطان عشواء، وأصبحا في خجلةٍ يطلبانِ النَّجاءَ..».[4]

فظاهر سياق الكلام يدل على أن أبا جعفر بْن عباس قد أطلق على ماكتبه إليه أبو المغيرة بن حزم نثراً لفظ رسالة. ومن ذلك أيضاً ماجاء في كتاب «البديع في وصف الربيع» من أن «للوزير أبي حَفْصٍ بْن بُردٍ... قطعةَ نثر مقطعة من السِّحْرِ في رسالة كَتَبَ بها عِنْدَ صَدَرِهِ من دَانِيَةَ إلى الوزير الكاتب أبي إسحق بن حمام...».[5]

وجاء على لسان أبي الوليد بن عامر الحميري في معرض حديثه عن رسالة بعث بها إلى أبيه مانصه: «وخَاطَبْتُ أبي - وَقَاهُ اللهُ بي - برسالةٍ فيها بعضُ أصناف

(١) - انظر: الحلة السيراء: ج ١، ص ١٣٩، ج ٢، ص ٣٧٤، مقدمة ابن خلدون: ص ٤٢٤.
(٢) - انظر الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٨٦، ٤٩١، النفح: ج ١، ص ٢١٧.
(٣) - هو الوزير الكاتب الشاعر أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن حزم، أحد أبناء عم الفقيه محمد بن حزم، كان من المقدمين في الأدب والشعر والبلاغة، وقد شجر الأمر بين أبي المغيرة وابن عمه محمد بن حزم، وجرت بينهما هنات ظهر فيها أبو المغيرة، وبكته حتى أسكته، وتوفي سنة ٤٣٨ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٢٩١، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٣٢، المغرب: ج ١، ص ٣٥٧، النفح: ج ١، ص ٦١٦).
(٤) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٥٤.
(٥) - البديع: ص ٢٢، وأبو إسحق بن حمام وزير وكاتب قرطبي مشهور بالأدب ذو قدم في النظم والنثر، وقد كان حياً بعد الأربعمائة (انظر: الجذوة ص ٣٩١).

هذه الأوصاف، أسألُهُ إباحةَ الخروج لي، فَبَلَّغَني أملي، والرسالة بعد صَدْرِها. . »[1]
وهي نثر.[2]

إن ظاهر سياق الكلام فيما تقدَّم يبين بأنَّ مدلول لفظ رسالة إنَّما يعني مايدبِّجه الكاتب ويبعث به إلى غيره.

وكان الأدباء الأندلسيونَ يطلقون لفظ رسالة أحياناً على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موجَّه إلى صديق أو غيره في أي موضوع، ويبدو ذلك واضحاً في عدد من الأخبار والنصوص الأدبية التي انتهت إلينا، ومن ذلك ماجاء في الذخيرة من أنَّ أبا مروان الحِجاري[3] كتب إلى المأمون ابن ذي النُّون «رسالة السجن والمسجون والحزن والمحزون» وأودعها قصائد مطولات ومقطوعات أبيات.[4]

وقد تضمَّنت بعض النصوص الشعرية في ثناياها إشارات صريحة إلى إطلاق لفظ رسالة أحياناً على القصائد التي يبعث بها الشعراء إلى غيرهم، ومن ذلك ماجاء في إحدى قصائد ابن زيدون التي وجهها من السجن إلى أبي الحزم بن جَهْور، وفيها يشير إلى كثرة رسائله الشعرية إليه قائلاً:[5]

أفِي العَــدْلِ أَنْ وَافَتْــكَ تَتْرَى رَسَــائِــلِي
فَلَمْ تَتَّرِكْ وَضْــعَــاً لَهَا في يَدَيْ عَدْلِ

ولعل تعلق الكُتَّاب الأندلسيين ولاسيما أن معظمهم كانوا من الكتبة الشعراء

(1) - البديع: ص ٢٨.
(2) - انظر الرسالة في: المصدر السابق نفسه: ص ٢٨ - ٢٩.
(3) - هو أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجاري، كان فقيهاً أديباً شاعراً، امتحنه المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، فسجنه مدة ثم أطلقه من معتقله فسار إلى بلنسية، وتوفي بقرطبة سنة ٤٥٤ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٣٧٨، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٣١، إعتاب الكتاب: ص ٢١٨، المغرب: ج ٢، ص ٣٣).
(4) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٣٢.
(5) - ديوان ابن زيدون: ص ١٥.

ومن صيارفة النثار والنظام ـ بالكتابة أو بعملهم الديواني، وحماستهم لكتابة الرسائل من أهم حوافز نظم هذا اللون من الرسائل، والرأي عند الباحث أن هذه الرسائل أقرب إلى الفنون الشعرية منها إلى الرسائل النثرية، حيث أن لفظ رسالة غالباً ماكان يختصُّ بالنثر دون الشعر، حتى لايكاد ينصرف إلاّ إليه، ومما يؤكِّد ذلك ماجاء في مقطوعة شعرية بعث بها الناقد الشاعر ابن شُهَيْد[1] إلى الوزير أبي مروان الجزيري[2] ويقول فيها: [3]

ياسـيِّداً أرجَـتْ طِيبـاً شمائِـلُهُ　　　وَشَـاكَلَتْ شِعـرَهُ حسنـاً رَسَـائِلُهُ

فواضح أن ابن شُهَيْد قد ميَّز بين الشعر والرسالة، وأطلق لفظ رسالة على ماكتبه إليه ممدوحه نثراً لاشعراً.

ومن الألفاظ المرادفة لمصطلح رسالة في الأدب الأندلسي لفظ كتاب، فقد دل هذا اللفظ منذ البداية الأولى لأدب الرسائل في الأندلس على ماكان يدلُّ عليه لفظ رسالة، وهو الإشارة إلى النص المكتوب الذي يبعث به الكاتب إلى غيره في أي موضوع، ومن ذلك ماجاء في الرسالة الجوابية التي بعث بها الوليد بن عبد الرحمن[4]

---

(١) ـ هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأندلسي، كاتب وشاعر وناقد مشهور، وقال عنه ابن بسام: هو شيخ الحضرة العظمى وفتاها . . . ونادرة الفلك وأعجوبة الليل والنهار، وأطنب في الثناء على نظمه ونثره وأدبه، وقد توفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٣٣، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٩١، بغية الملتمس: ص ١٩١، اعتاب الكتاب: ص ٢٠٣، وفيات الأعيان: ج ١، ص ١١٦).

(٢) ـ هو أبو مروان عبد الملك بن ادريس الجزيري، كان من وزراء الدولة العامرية وكُتَّابها، وكان معدوداً في أكابر البلغاء في المنثور والمنظوم في وقته، وقد اعتقله المنصور بن أبي عامر مدة، ثم رضي عنه وأطلقه، وتوفي سنة ٣٩٤ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٢٧٠، الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٤٦، إعتاب الكتاب: ص ١٩٣، المغرب ج ١، ص ٣٢١).

(٣) ـ ديوان ابن شهيد: ص ١٤٦.

(٤) ـ هو الوليد بن عبد الرحمن بن غانم، كان من كبار وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن وأقدرهم وأعظمهم مروءة، وكان كاتباً مترسلاً بليغاً، وقد اختص بصداقة هاشم بن عبد العزيز فخاطبه برسالته المذكورة وهو في موضع أسره، وقد توفي سنة ٢٧٢ هـ (انظر ترجمته في: المقتبس: ج ٢، ص ٢١٢، الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٧٤).

إلى الوزير الأسير هاشم بن عبد العزيز، [1] إذ كتب إليه يقول: «وَرَدَ كِتَابُكَ يَاسيِّدي، فسكَّن من حرقي بك، وأطفأ من علتي فيك، وهدَّأ مِن عَويلي عَلَيْكَ..» [2]

وقد شاع استعمال لفظ كتاب وكثر اتخاذ الكُتَّاب المترسلين له في مكاباتهم المختلفة الرسمية الخاصة، حتى صار مرادفاً للفظ رسالة وموازياً له في المعنى والدلالة، ومما يؤكدُ ذلك ماورد في إحدى رسائل الوزير أبي محمد بن عبد البر التي يقول فيها: «وما زلْتُ أفضُّ كُتُبَك عن بَدَائع دونها السِّحْرُ، ولآلِيء يُزْهَى بهَا النَّحْرُ، وغَرَائِبَ يعْذُبُ بها لو مَازَجَتْهُ البحرَ، فأعترفُ بالتَّقْصير... حين قَابَلتني بما لو قوبلَ به النجومُ لانحطتْ إليه من سمائها، أو الغيومُ لتَرَقْرَقَتْ عليه من أرجائِهَا. وذلك ما أبْدَيْتَهُ، مما أدَّيْتَهُ، بل أهْدَيْتَهُ، من تلك الرسالة المُسْتَبِينَة الإعجاز..» [3] فقد أطلق أبو محمد بن عبد البر لفظ كتاب على ما كتبه إليه صديقه نثراً، ثم اردف ذلك بلفظ رسالة... وهذا يؤكد أن هذين اللفظين قد استعملا بمعنى واحد، وأنهما من باب الألفاظ المترادفة.

ونظير هذا أيضاً ماورد في رسالة طوق الحمامة لابن حزم التي تعدُّ من الرسائل الطوال التي تجري مجرى الكتب المصنفة، يقول ابن حزم في صدر تلك الرسالة: «... وكلفتني - أعزَّك الله - أن أُصَنِّفَ لَكَ رسالةً في صفةِ الحُبِّ وَمَعانيه وأسبابِهِ وأعْرَاضِهِ، وَمَا يَقَعُ فيهِ وله على سبيلِ الحقيقةِ.... فبدرتُ إلى مرغوبكَ، ولولا الإيجابُ لك لما تكلفته، وسأوردُ في رسالتي هذه أشعاراً قُلْتُهَا فيها شَاهَدْتُهُ، فلا تنكرْ

---

(١) - هو أبو خالد هاشم بن عبد العزيز، من كبار رجال الموالي المروانيين بالأندلس، كان من وزراء الأمير محمد بن عبد الرحمن، ومن أهل السماحة والبلاغة، وقد وقع أسيراً في غزوة خرج إليها تحت قيادة المنذر بن محمد ولي العهد للقضاء على ابن مروان الجليقي، واستطاع صديقه الوليد بن عبد الرحمن أن يخلصه من الأسر في غزوة لاحقة، وقد غضب عليه الأمير منذر فقتله سنة ٢٧٣ هـ (انظر ترجمته في: المقتبس: ج ٢، ص ٣٧٨، الحلة السيراء: ج ١، ص ١٣٧).

(٢) - المقتبس: ج ٢، ص ٣٨٩.

(٣) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٩٧ - ١٩٨.

أَنْتَ ومَنْ رَآها ـ علَّي أنِّي سَالِكٌ فيها مسلَكَ حاكي الحديث عن نَفْسِهِ. . . والتَزَمْتُ في كِتَابِي هذا الوقوفَ عِنْدَ حدِّكَ. . ». [1]

ومن الألفاظ المرادفة أيضاً لمفهوم لفظ كتاب لفظ صحيفة، إذ كان يراد به أحياناً مايراد به لفظ كتاب كما يظهر واضحاً فيما ورد في بعض رسائل الأندلسيين ومكاتباتهم المختلفة، ومن ذلك ماجاء في رسالة ابن بُرْد الأكبر[2] التي كتبها عن المستعين إلى جماعة العبيد، وفيها يقول: «زَعَمَ كَاتِبُ صحيفتكم أنَّه مادَامَتْ خلافةُ سَلَفِنَا إلاَّ بِطَبَقَتِكُمْ، وَلاَ عَزَّتْ إلاّ بدعوتِكُمْ. . ». [3]

ومن ذلك أيضاً ماذكره أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري في معرض حديثه عن إحدى رسائله التي كتبها على لسان الأزهار، يقول: «فأَوَّلُ مَنْ رَأى ذلك الكِتَابَ وَعَايَنَ الخطابَ نواويرُ فصلِ الرَّبيعِ الَّتي هِي خيَرةُ الوردِ في الوَطَنِ وصحابَتُهُ في الزَّمَنِ، فلمَّا قَرَأَتْهُ أكْبرَتْ مافِيهِ وبَنَتْ[4] على هَدْم مبانيهِ وبعضِ معانيهِ. . فَكَتَبَتْ إلى الأقحُوان والخيريّ[5] ـ كتاباً ـ منه «وأمَّا من عقد تلك البيعة وكَتَبَ تلك الصَّحِيفَةَ فَلَم يُر له قطُّ صُورة. »[6]. ويتَّضح للباحث من سياق الكلام في الرسالتين السابقتين أن الكاتبين قد أطلقا لفظ صحيفة على الكتاب، واستعملاهما بمعنى واحد.

ولابد أن يشير الباحث هنا إلى أنه لم يشع استعمال لفظ صحيفة كثيراً في الأندلس، فقد توارى خلف لفظي رسالة وكتاب.

---

(١) ـ رسائل ابن حزم: ج ١، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) ـ هو أبو حفص بن بُرد الأكبر، كان من أعلام النثر والنظم في وقته، وقد تقلد ديوان الإنشاء في الدولة العامرية بعد الجزيري، ثم كتب عن الخليفة سليمان المستعين وغيره، وتوفي سنة ٤١٨ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١١١، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٠٣، بغية الملتمس: ص ٣٨٧).

(٣) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١١٢.

(٤) ـ لعلها (عزمت).

(٥) ـ البديع: ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٦) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٥٩.

ويخرج الباحث من هذا وذاك إلى القول بأنَّ لفظ رسالة في الأدب الأندلسي إنَّما كان يقصد به الرسالة النثرية الفنية أي القطعة النثرية التي يدبجها الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويبعث بها إلى شخص آخر، وإلى ذلك يشير ابن بسَّام بقوله: «فَإنَّ ثمرةَ هذا الأدب، العالي الرُّتَب، رسالةٌ تُنْثَر وتُرْسَلُ، وأبياتٌ تُنْظَمُ وتُفْصَلُ، تَنْثَالُ تلك انثيَال القِطار على صفحاتِ الأزهار، وتتَّصِلُ هذه اتِّصَالَ القلائد على نحور الخرائد». (1)

فالرسالة هي لون من ألوان النثر الفني الجميل، وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالاً، ولايكاد يختلف مفهوم الرسالة الفنية عند الأندلسيين عن مفهومها عند المشارقة، فالأدب في عرفهم جميعاً ينقسم إلى أصلين أساسيين: منظوم ومنثور، والمنثور منه الخُطَبُ والرسائلُ، وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلان الشعر. (2)

وقد أشار ابن حزم، إلى ذلك في معرض حديثه عن الطريقة الفنية التي ابتكرها ابن دَرَّاج في الكتابة عند الأندلسيين بقوله: «وقد كان أحدث ابن دَرَّاج عندنا نوعاً من البلاغة مابين الخطب والرسائل». (3)

كما أن بعض النقـاد المشارقة قد ربطوا في تعريفهم للرسالة بين الرسالة والخطبة، أو بين الرسالة والقصيدة.

فابن طباطبا(4) العلوي كان قد وجد أن هناك علاقة قوية بين القصيدة والنثر الذي يقوم عنده مقام الرسالة، ويقول «فمن الأشعار أشعار محكمة أنيقة، الألفاظ،

(1) ـ الذخيرة: ق 1 م 1، ص 11.

(2) ـ انظر: البرهان في وجوه البيان: ص 191، كتاب الصناعتين: ص 136، 161، الذخيرة: ق 1 م 1، ص 11، ص 14.

(3) ـ التقريب لحد المنطق: ص 205.

(4) ـ هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن طباطبا العلوي، شاعر مفلق، وعالم محقق، ولد بأصبهان وبها توفي سنة 322 هـ (انظر ترجمته في معجم الشعراء: ص 427، وفيات الأعيان: ج 1، ص 129، المحمدون من الشعراء: ص 26، الوافي بالوفيات: ج 2، ص 79).

عجيبة التأليف، وإذا نقضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها». [(١)]

فالرسالة عنده قصيدة محلولة متحررة من الوزن، والقصيدة رسالة معقودة ولاسيما أن الشاعر عنده يسلك كمنهاج كاتب الرسائل، فهو يقول: «ويسلك - الشاعر - منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم، فإنَّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل فيحتاج إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح.. بأفضل تخلص، وأحسن مكانة، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متَّصِلاً به، وممتزجاً معه». [(٢)]

وربط أبو هلال العسكري[(٣)] في تعريفه للرسالة بين الرِّسالة والخُطْبَة، فهو يرى أن الرِّسالة تقابل الخُطْبَة، إذ لافرق بينهما إلَّا بالتَّسمية فقط، وذلك على أساس تشاكل الألفاظِ والفواصلِ، وما إلى ذلك من سهولة وعُذُوبة وتحرر من الأوزان والقوافي، إلَّا أنّ الخُطْبَةَ تلقى مشافهة على الجَمْعِ من الناس، والرِّسالة تحبر ثم يبعث بها، ومن السَّهْل أن تُجْعَلَ الرِّسالة خُطْبَةً والخُطْبَةُ رسالةً[(٤)].

ومهما يكن الأمر، فإنَّ الرسالة باب من أبواب النثر الفني الجميل الذي يعدُّ نداً للشعر وكفؤاً له، كما يؤكد ذلك ابن قتيبة[(٥)] في معرض حديثه عن الأوقات التي ينهال فيها النثر الفني الجميل على القرائح، ويرد فيها الشعر على الخواطر حيث

---

(١) - عيار الشعر: ص ٧.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ص ٦ - ٧.

(٣) - هو الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري، كان موصوفاً بالعلم والفقه والغالب عليه الأدب والشعر، له تصانيف كثيرة منها: كتاب الصناعتين، ولحن الخاصة، وجمهرة الأمثال، وقد توفي سنة ٣٩٥ هـ (انظر ترجمته في معجم الأدباء: ج ٨، ص ٢٥٩ - ٢٦٧، بغية الوعاة: ج ١، ص ٥٠٦).

(٤) - انظر: كتاب الصناعتين: ص ١٣٦.

(٥) - هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين، ولد ببغداد ونشأ بها، ثم ولي قضاء الدينور مدة فنسب إليها، وتوفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ، ومن مؤلفاته المطبوعة: المعارف، وأدب الكاتب (انظر ترجمته في طبقات النحويين: ص ١٨٣، وأنباه الرواة: ج ٢، ص ٤٦٣، وفيات الأعيان: ج ٣، ص ٤٢).

يقول: «وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذّر على الكاتب الأديب، والبليغ الخطيب»[1].

وللرسالة الفنية بناء خاص، وشكل فني معروف، وسمات معينة هي بمثابة الأركان الأساسية التي تبني عليها الرسالة، والتي لا بدَّ من توافرها وإيداعها في كل قطعة نثرية تنتمي إلى أدب الرسائل الفنية، فالرسالة الفنية قطعة نثرية واحدة تتجزأ في ثلاثة أقسام وعناصر مختلفة، هي: البداية أو الصدر والمتن ثم النهاية أو الختام، ولكل عنصر من هذه العناصر طابعه الخاص، ففي البداية غالباً مايخاطب الكاتب فيه من أرسلت إليه الرسالة، وفي المتن يتناول الكاتب الموضوع الذي أنشئت من أجله الرسالة، وفي النهاية يدعو الكاتب بالسَّلام لمن كتب إليه الرسالة. وهناك اتِّصال وثيق بين هذه العناصر التي تكون الشكل الفني المميز للرسالة بين أشكال النثر الفني الأخرى.

والرسالة تقصر وتطول دون أن يؤثر ذلك على بنائها الفني، وهي تقع في ثلاثة أقسام: رسائل طوال تجري مجرى الكتب المصنفة، وهي تتيح لمنشئها أن يظهر مهارته الفنية وثروته الفكرية والثقافية، فيسرف في عرض المسائل والقضايا التي يريد أن يوضحها: ومن ذلك رسالة طوق الحمامة، ورسالة التوابع والزوابع. والثاني رسائل دون ذلك الطول كرسالة ابن غرسية في الشعوبية،[2] ورسالتي ابن زيدون الجدية والهزلية. والثالث رسائل قصار كنحو ماتجري به العادة في المراسلة والمكاتبة.[3]

وكتابة الرسائل الفنية تتطلب من منشئها أن يستخدم طاقات فنية مختلفة تتعلق بالدقة في اختيار الألفاظ، وحسن تنميقها، وحلاوة تركيب الجمل، وصياغة العبارات في تأليف المعاني، والموازنة، بينها وبين الكلمات التي تعبّر عنها إلى جانب توفير الإمتاع الفني لنفس القارى [4]

(١) ـ الشعر والشعراء: ج١، ص ٢٥.

(٢) ـ انظر الرسالة في الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٥ ـ ٧١٤.

(٣) ـ على هذا النحو قسم القدماء رسائل أبي العلاء المعري، انظر: إنباه الرواة: ج ١، ص ٦٥، معجم الأدباء: ج ٣، ص ١٦١.

(٤) ـ انظر: النثر الفني: ص ١٠.

ولابـدَّ أن يشـير الباحث هنا إلى أن هناك ألواناً من الرسائل تخرج من دائرة الرسائل الفنية، وهي تلك الرسائل التي تتسم بالطابع الفكري، ولانجد فيها أثراً للطابع الفني، أو لايلتفت منشؤوها كثيراً إلى استخدام الطاقات الفنية المختلفة التي سبق الحديث عنها، «كرسالة الانتصار» لابن السَّيد البَطَلْيَوْسي، و«الرسالة المصرية» لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز، ورسائل ابن حزم الفلسفية والجدلية.[١]

وتتميز الرسالة الفنية من بين ألوان النثر الفني الأخرى بالمرونة الفنية والأسلوبية التي تتيح لمنشئها مجالاً واسعاً لإظهار مقدرته على التفنن في أسلوبها والارتقاء به إلى درجة تجعلها شعراً منثوراً. ذلك أن تلك المرونة تسوِّغ للرسالة الفنية قبول خصائص الشعر من خيال وتصوير وتعبير عاطفي، وعناية بالزخارف المعنويّة واللفظية، عدا الوزن والقافية. ومما يؤكد ذلك ماجاء في «الذخيرة» من أنه عندما تولَّى ابن زيدون الكتابة في حضرة المعتضد بن عبَّاد، كان أهل مشرق الأندلس يقولون: «تأتي من إشبيلية كتب هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور».[٢]

وللرسائل الفنية أغراض متعددة لاتنجع فيها غيرها من ألوان النثر الفني الأخرى، إذ إنَّ لكل لون ميدانه الخاص به، فأغراض الرسائل في عرف النقاد القدامى تدور حول السلطانيات من: «الأحماد، والأذمام، والثناء، والتقريظ، والذم والاستصغار، والعدل وما إلى ذلك..»[٣]، إلى جانب ما يكتبه العمَّال والولاة إلى أمرائهم[٤]، وتدور أيضاً حول الإخوانيات من: استعطاف، ووعيد، واعتذار، وعتـاب، وشكـر، وشوق وغيره[٥]، وتدور أيضاً حول موضوعات أخرى تتعلق بالمجتمع وجوانبه المختلفة، وبالنفس الإنسانية وخصالها، أي أن الرسائل تعالج موضوعات مختلفة: سياسية واجتماعية وخلقية وذاتية وأدبية وغيرها.

---

(١) ـ جميع هذه الرسائل منشورة انظر فهرس المصادر في نهاية البحث.

(٢) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣٣٧.

(٣) ـ كتاب الصناعتين: ص ١٥٦.

(٤) ـ انظر: البرهان في وجوه البيان: ص ١٩١، كتاب الصناعتين: ص ١٥٧.

(٥) ـ انظر: حسن التوسل: ص ٣٨٢، صبح الأعشى: ج ٩، ص ٥ ـ ٢٢٩.

وأخيراً فإنّ الباحث ـ يخلص إلى القول بأنّ أدب الرسائل بالمفهوم الذي سيدرسه في هذا البحث هو ذلك اللون الأدبي الذي يشمل جميع موضوعات الرسائل النثرية الفنية المتبادلة بين الناس على اختلافها في الطول.

نشأته وأصوله

لقد كان فن الرسالة من أسبق ألوان النثر الفني إلى الظهور في الأندلس، [1] حيث اهتم الأندلسيون منذ الفتح الإسلامي لتلك البلاد بالمراسلات التي عرفت فيما بعد الرسائل الديوانية، ولاسيما أنهم كانوا متمكنين من الخطابة والشعر والكتابة منذ أول قدومهم إلى تلك البلاد، كما يؤكِّد ذلك ابن بسَّام بقوله: «إنَّ أهل هذه الجزيرة ـ مذ كانوا ـ رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة»[2]

وقد كان نشوء الدولة الإسلامية في الأندلس واختلاف مهامها، وتعدد وظائفها السياسية والاجتماعية والإدارية، دافعاً قوياً لنشوء فن الرسالة ليؤدي هذه المهام، وتلك الوظائف، ولعل العهد[3] الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لـ «تُدْمِير» ملك القوط، أبرز مايوضح ذلك.

وعندما أخذت هذه الدولة الجديدة من التمدن والتحضر بكل سبب، زادت حاجتها إلى كتابة الرسائل الديوانية لتواكب مهامها الجديدة، وتساهم في تثبيت دعائمها، وتسيير شؤونها، وتنظيم مجتمعها، وإلى ذلك يشير ابن خلدون بقوله: «وإنَّما أكَّد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية، شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد، فصار الكِتَاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية». [4]

---

(١) ـ انظر: الإمامة والسياسة: ج ٢، ص ٧٤، تاريخ افتتاح الأندلس: ص ١٤٠، وفيهما إشارة إلى رسالة من طارق بن زياد إلى موسى بن نصير، يطلب فيها المدد والعون.

(٢) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٤.

(٣) ـ انظر: بغية الملتمس: ص ٢٧٤.

(٤) ـ مقدمة ابن خلدون: ص ٤٣٦.

وقد اتخذ ولاة الأندلس وأمراؤه منذ بداية القرن الثاني الهجري كُتَّاباً[1] يكتبون لهم فيما يصدر عنهم من رسائل وعهود، وفيما يكاتبون به عمَّالهم وولاتهم، ويهدِّدون به الخارجين على حكمهم.[2]

وكان أولئك الكُتَّاب وإن لم يطلق عليهم اسم كُتَّاب ديوان الرسائل يقومون بشيء من متعلقاته، وهذا يدفع الباحث إلى القول بظهور ديوان الرسائل في الأندلس منذ نهاية النصف الأوَّل من القرن الثاني الهجري، وقد كان البذرة الأولى لتطور ديوان الرسائل فيما بعد حين دعت حياة الدولة المتطوّرة إليه.

ويظهر للباحث أن أدب الرسائل في الأندلس في القرن الثاني الهجري قد اقتصر على بعض المكاتبات الرسمية كرسائل التوجيهات والأوامر الإدارية، وعهود الأمان، ورسائل الزجر والاستصلاح للخارجين على الحكم،[3] إلى جانب النزر اليسير من الرسائل الخاصة التي كان يتبادلها أمراء الأندلس مع بعض ولاتهم ومواليهم.[4]

ويحسُّ الباحث أن الخصائص الفنية لهذه الرسائل تشبه إلى حد بعيد تلك

(١) ـ من أشهر الكتاب الذين نبغوا في الأندلس في القرن الثاني الهجري خالد بن زيد الذي كتب ليوسف الفهري آخر ولاة الأندلس، ثم كتب لعبد الرحمن الداخل من بعده (انظر ترجمته في إعتاب الكتاب: ص ٧١)، ومنهم أمية بن يزيد الذي كان من كبار كتاب عبد الرحمن الداخل، وقد توارث عقبة شرف الكتابة للمروانيين بالأندلس (انظر ترجمته في: إعتاب الكُتَّاب: ص ٧٢، الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٧٣، النفح: ج ٣، ص ٤٦).
ومنهم أبو سليمان فطيس بن سليمان، الذي دخل الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل، وكتب للحكم بن هشام، وولي الوزارة له، وتوفي سنة ١٩٨ هـ، (انظر ترجمته في: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٦٥، المغرب: ج ١، ص ٤٤).

(٢) ـ انظر: قضاة قرطبة: ص ٩ ـ ١١، البيان المغرب: ج ٢، ص ٤٤، ٤٥، ٥٣، ٥٨.

(٣) ـ انظر: قضاة قرطبة: ص ٩ ـ ١٠، البيان المغرب: ج ٢، ص ٤٤، ٤٥، ٥٣، ٥٨ النفح: ج ٣، ص ٣٩.

(٤) ـ انظر: النفح: ج ٣، ص ٤٠ ـ ٤١.

الخصائص الفنية التي اتَّسمت بها الرسائل في المشرق أيام الدولة الأموية، فهي تتَّسم بالبساطة والبعد عن التعقيد، والإيجاز في القول والقصد في التعبير، والابتعاد عن المحسنات البديعية إلَّا ماجاء فيها عفو الخاطر دون تكلف أو افتعال.[١] ولعل ذلك يعود إلى أن المشرق كان هو المصدر الأوَّل للاتجاهات الأدبية والثقافية.[٢] إضافة إلى أن معظم كُتَّاب هذا القرن كانوا مشارقة الأصل والثقافة،[٣] فساروا على ماعرف في المشرق من أساليب بيانية.

أمَّا في القرن الثالث الهجري فقد تطوَّر أدب الرسائل تطوراً ملحوظاً من الناحيتين: الموضوعية والفنية، وذلك بفضل التطوّر الأدبي والثقافي والحضاري الذي شهده الأندلس في هذا القرن.[٤]

فمن الناحية الموضوعية تعددت آفاق الرسائل الرسمية، واتَّسعت ميادينها، بتعدد مهام الكُتَّاب ومسؤولياتهم، فزادت تلك الرسائل التي تعالج الموضوعات الإدارية والتنظيمية والسياسية والعسكرية وغيرها.[٥] كذلك فقد نمت الرسائل الخاصة، وأخذت تعالج موضوعات ذاتية جديدة لم تعالجها من قبل كالشكوى والعتاب والذم والشكر وغيرها.[٦]

أمَّا من الناحية الفنية فقد مال كُتَّاب الرسائل إلى التأنُّق والتجميل في تحبير

(١) ـ انظر: رسالة عبد الرحمن الداخل إلى سليمان بن يقظان الأعرابي: النفح: ج ٣، ص ٣٩.

(٢) ـ انظر: الأدب الأندلسي: ص ١١٠.

(٣) ـ انظر: إعتاب الكتاب: ص ٧٢، الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٦٥، المغرب. ج ١، ص ٤٤، النفح: ج ٣، ص ٤٦.

(٤) ـ انظر: الدولة العربية في إسبانيا: ص ٢٦٧.

(٥) ـ انظر: المقتبس: ج ٢، ص ٢٢٣، ٢٢٥، البيان المغرب: ج ٢، ص ٨٩، ١٥٤، أخبار مجموعة: ص ١٥٢.

(٦) ـ انظر: أخبار مجموعة: ص ١٦٥، ١٤٨، المقتبس: ج ٢، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٢، البيان المغرب: ج ٢، ص ١٠٨، ١١٠.

رسائلهم باستعمال الألوان البديعية المختلفة،[1] مِمَّا سما بالرسالة إلى مرتبة الفن والإبداع، حتى اشتهرت عندهم بعض الرسائل لبلاغتها.[2]

وهناك أمر كبير الأثر في هذا التطوُّر الفني الذي أصاب أدب الرسائل، ذلك هو تأثر كُتَّاب الرسائل بأساليب النثر المشرقي ومذاهبه الفنية التي عرفت آنذاك، كأسلوب عبد الحميد الكاتب الذي يعدُّ مبتكر أدب الرسالة الفنية في المشرق في أواخر العصر الأموي،[3] وأوَّل من أطال الرسائل وأكثر التحميدات في فصول الرسائل.[4]

كذلك فقد تأثَّروا بطريقة الجاحظ ومدرسته الفنية، ولاسيما أن الجاحظ قد عرف في الأندلس منذ أوائل هذا القرن عن طريق كتبه ورسائله التي دخلت الأندلس ككتاب «البيان والتبيين» ورسالة «التربيع والتدوير» وغيرها[5] ممَّا حمله الوافدون إلى الأندلس من المشرق، كذلك فقد قصده بعض الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق طلباً للعلم ثم عادوا إلى الأندلس بألوان مختلفة من الثقافة العربية المشرقية، ومن هؤلاء أبو خلف سلام بن يزيد[6] الذي رحل إلى المشرق وتتلمذ على الجاحظ لمدة عشرين عاماً ثم عاد إلى الأندلس بعد وفاته.

وقـد أدَّى تطوُّر أدب الرسائل وازدياد أهميته في الأندلس في هذا القرن إلى نقلة جديدة في ديوان الرسائل لم تكن موجودة من قبل، تلك هي إفراد الأندلسيين للترسيل والإشراف على شؤون ديوان الرسائل وزيراً خاصاً، بعد أن قسَّموا خطة

(١) ـ انظر: البيان المغرب: ج ٢، ص ١٠٨.

(٢) ـ انظر: الحلة السيراء. ج ٢، ص ٣٦٩.

(٣) ـ انظر: تاريخ الأدب العربي: ج ٢، ص ١١٦.

(٤) ـ انظر: مروج الذهب: ج ٦، ص ٨١.

(٥) ـ انظر: معجم الأدباء: ج ١٦، ص ١٠٥ ـ ١١٠.

(٦) ـ هو أبو خلف سلام بن يزيد، رحل إلى المشرق طلباً للعلم وملاقاة الجاحظ والأخذ عنه، حيث كان طلب العلم بالمشرق يشرف عند ملوك الأندلس بلقاء الجاحظ (انظر أخباره: معجم الأدباء: ج ١٦، ص ١٠٤ ـ ١١٠).

من كُتَّاب الأمير عبد الرحمن بـن الحكـم، ومنهم الوليد بن عبد الرحمن بن غانم الذي كان أديباً مترسلاً بليغاً،[1] ومنهم أبو عثمان عبد الله بن الغمر،[2] ومنهم عبيديس الكاتب الشاعر،[3] ومنهم أيضاً عبد الله بن محمد الزَّجالي.[4]

ومن مظاهر ازدهار الكتابة وتطورها في هذا القرن نبوغ أسر كاملة في الكتابة، فقد شاعت الكتابة بين عدد من أفراد الأسرة الواحدة، كأسرة بني أمية بن يزيد التي كانت بيت الكتابة لبني مروان بالأندلس.[5] وكان بنو الزَّجالي كاتبين حادقين كلهم كتبوا للأمراء.[6]

ثم جاء القرن الرابع الهجري فكان مجيئه بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور أدب الرسائل، إذ أنَّه قد تطور تطوُّراً كبيراً فاق مامر به من تطوُّر في القرن السابق، مما يدفع الباحث إلى القول بأنَّه قد وضعـت في هذا القرن بذور نهضة أدب الرسائل في الأندلس التي بلغت أوجها في القرن الخامس الهجري، ومردُّ ذلك عوامل متعددة، يتعلق بعضها بالازدهار السياسي الذي بلغته الدولة الأموية في هذا القرن الذي يرتبط بقيام الخلافة الأموية بالأندلس،[7] واتِّساع رقعة الدولة، وامتداد سلطانها، وتعدد جوانب اختصاصها واتصالاتها ولاسيما الخارجية منها، ومايتطلبه

(١) - انظر: مقدمة ابن خلدون: ص ٤٢٤.

(٢) - انظر: البيان المغرب: ج ٢، ص ٨٠، ٩٣، ٩٥، ١١٣.

(٣) - انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٧٤.

(٤) - انظر: المصدر السابق نفسه: ج ١، ص ١٣٩.

(٥) - هو حامد بن محمد بن سعيد الزَّجالي، تولى الكتابة للأمير محمد بن عبد الرحمن لبلاغته وحسن معرفته، وقد لزمها وشهر بها إلى أن توفي سنة ٢٦٨ هـ (انظر ترجمته في: المقتبس: ج ٢، ص ٣٢، المغرب: ج ١، ص ٣٣١).

(٦) - تاريخ افتتاح الأندلس: ص ١٠٤.

(٧) - انظر: الجذوة: ص ٨٨.

(٨) - هو محمد بن سعيد الزَّجالي، يلقب بالأصمعي لعنايته بالأدب، وحفظه للغة، استكتبه الأمير عبد الرحمن إلى أن توفي سنة ٢٣٢ هـ (انظر ترجمته في: المقتبس: ج ٢، ص ٣١ - ٣٦، المغرب: ج ١، ص ٣٣٠).

الوزارة، وأفردوا لكل خطة وزيراً،[1] ومما يشهد بذلك ابن عذارى الذي أورد في ترجمة كلِّ أميرِ عدد كُتَّابه وذكر أسماءهم أيضاً.[2]

وقد تفرَّعت خطة الكتابة في هذا القرن إلى صنفين، أولهما: الكتابة العليا[3] ومهمتها الإشراف على جميع مكاتبات الدولة الرسمية. وثانيهما الكتابة الخاصة[4] وتعنى بمكاتبات الأمير ومخاطباته الخاصة.

وكانوا يختارون كتّاب الرسائل من أهل الأدب والثقافة، وممّن ملكوا تقاليد البلاغة والفصاحة، واتَّصفوا بالملكة البيانية وغيرها من أدوات الكتابة، فقد جاء في «تاريخ افتتاح الأندلس» أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط قال لكاتبه حامد الزَّجالي:[1] «تردني لك كتب تعجبني فهل تهممت بشيء من أمور الكتابة»[2]

وقد نبغ في هذا القرن عدد كبير من الكُتَّاب البلغاء، ووضعت فيهم بعض المصنفات التي قسَّمتهم إلى طبقات بحسب مقدرتهم الكتابية، وإجادتهم الفنية في تحبير الرسائل، ومن هذه المصنفات كتاب «طبقات الكتاب بالأندلس».[3] للأفشتين.

---

(١) - انظر الحلة السيراء: ج ٢، ص ٣٧٤.

(٢) - هو أبو عثمان عبد الله بن محمد ابن الغمر، ولي الكتابة الخاصة، والوزارة للأمير عبد الله بن المنذر، وكان مع افتتانه بالأدب واتصافه بالبلاغة ذا بأس وشجاعة، وكان له فتوح جمة (انظر: الحلة السيراء: ج ١ ص ١٤٦).

(٣) - انظر: المقتبس: ج ٣، ص ١٤٤، الجذوة: ص ٢٨٨، المغرب: ج ٢، ص ٦٩.

(٤) - هو عبد الله بن محمد بن سعيد الزَّجالي، كان كاتباً للأمير عبد الله بن المنذر، وقد امتد به العمر إلى صدر دولة عبد الرحمن الناصر فكتب له إلى أن توفي سنة ٣٠٢ هـ (انظر ترجمته في: المقتبس: ج ٢، ص ٣٢).

(٥) - انظر: المقتبس: ج ٢، ص ٣١.

(٦) - انظر: المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٣٢.

(٧) - انظر: البيان المغرب: ج ٢، ص ١٩٨.

ذلك من مراسلات متنوِّعة. ويتَّصل بعضها بالنهضة الاجتماعية والفكرية والأدبية التي شهدها الأندلس في هذا القرن.(١)

لقد كانت لهذه التطوُّرات الجديدة في الأندلس دورها الكبير في شيوع أدب الرسائل وتطوُّره، حيث أدرك المجتمع الأندلسي وعلى رأسه الخلفاء وكبار الكُتَّاب البلغاء أهمية أدب الرسائل، وضرورة الاهتمام بالقيم الجمالية والفنية فيه، باعتباره مرآة واقع الدولة ومستواها الحضاري.(٢)

ولمَّا كان الكاتب لسان الخليفة، فإن سمعة الخلافة والدولة ترتبط بما تتَّصف به الرسائل التي يدبِّجها الكاتب من فن أدبي وقيم جمالية، وأن أية عثرة قلم أو سهو بال من خطأ أو إعجام أو تصحيف ينقص من قدر الخلافة،(٣) لذلك فقد أصبح الاهتمام بالرسائل والخطوط جزءاً من سياسة الدولة الأدبية وخاصة في ختام القرن الرابع الهجري، ومما يشهد بذلك، تلك الرسالة التي دبَّجها ابن بُرْد الأكبر عن المظفر بن أبي عامر إلى ولاة الأقاليم وكُتَّاب الدولة موضحاً فيها مايجب على الكاتب أن يراعيه في الرسائل من إحكام الخط، وإقامة الحروف، حيث يقول: «وأن تكون صُدورُ كُتُبِ الاعتِرَاضَاتِ وعُنْواناتُهَا وَتَوارِيخُهَا والأعدادُ في رُؤوسِ رُسُومِهَا، بخطوطِ أيْدي القُوَّاد، والعُمَّالِ، مَنْ كان منهم كاتِبَاً فَبِيَدِهِ، ومَنْ لم يَكْتُبْ فَبِخَطِّ كَاتِبٍ له معروف، وأن تكونَ تَسْمِيَةُ طَبَقَاتِ الأجنادِ فيها قَائِمَةَ الخُطُوطِ بَيِّنَةَ الحُرُوفِ..»،(٤) ويبدو للباحث أن هذه الرسالة بمثابة دستور للكُتَّاب المترسِّلين في الأندلس.

وازدادت مكانة الكُتَّاب في هذا القرن رفعةً وسمواً، وشغل الكُتَّاب بشروط الكتابة وأدواتها المختلفة التي يجب توافرها فيمن أراد أن يشغل منصب الكتابة، وهي كتلك الشروط التي شغل بها كُتَّاب القرن السابق، إلاّ أنهم استحسنوا

(١) ـ انظر: دولة الإسلام في الأندلس: ج ١ ق ٢، ص ٣٩٥.
(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ١٠٦ ـ ١٠٧،
(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

من الكاتب في هذا القرن أن يكون مقبول الصورة، سليم الجوارح [1] ذلك أنه كان يجالس الخليفة ويلازمه، لهذا لم يصل ابن شُهَيْد إلى منزلة الكتابة عند المظفر ابن أبي عامر على شدة تشوفه إلى بلوغ هذا الشرف العظيم، إذ قعد به ثقل سمعه، كما قعد بالجاحظ إفراط جحوظ عينيه، وبأبي القاسم الإفليلي ورم أنف. [2] ويقول ابن شُهَيْد: «لابُدَّ للملك من كاتِبٍ مقبول الصُّورةِ، تَقَعُ عَلَيْهَا عَيْنُهُ، وأُذُنٍ ذكيَّةٍ تَسْمَعُ مِنْهُ حسَّهُ، وأنفٍ نقي لاتذمُّ أنفاسُهُ عِنْدَ مُقارَبَتِهِ له. . .» [3]

ونبغ في هذا القرن عدد كبير من الكُتَّاب منهم: ابن الجرْعم بن عثمان الذي ألَّف رسالة في مناقضة رسالة اليتيمة لابن المقفَّع [4] ومنهم الرَّازي أحمد بن موسى الذي كان كاتباً بليغاً[5]، ويوسف بن سليمان الذي كان كاتباً بليغاً عالماً بحدود الكتابة بصيراً بأعمالها[6]، ومنهم أيضاً محمد بن عبد الرؤوف الذي كان كاتباً بليغاً مترسلاً[7]، وممَّن نبغ في أواخر هذا القرن الجزيري، وابن بُرْد الأكبر، وابن دَرَّاج.

ونبغ في مطلع هذا القرن عدد من النساء الكاتبات منهنَّ مُزْنة[8] كاتبة عبد الرحمن الناصر، ولُبْنى[9] كاتبة الحكم بن عبد الرحمن الناصر.

وقد تطوُّر أدب الرسائل في هذا القرن تطوُّراً كبيراً من الناحيتين: الموضوعية والفنية. فمن الناحية الموضوعية زادت الرسائل الديوانية، وتدفقت سيولها وتنوعت أغراضها، فطفق الكُتَّاب يُنْشئون الرسائل الإدارية، والسياسية والحربية، ويصنفون

---

(١) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٤٣.

(٢) - انظر: المصدر السابق. نفسه: ق ١ م ١، ص ٢٤٣.

(٣) - المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٢٤٣.

(٤) - انظر: طبقات النحويين: ص ٣٠١.

(٥) - انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٣٠٢.

(٦) - انظر: طبقات النحويين: ص ٢٩٨.

(٧) - انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٣٠٩.

(٨) - انظر: الصلة: ج ٢، ص ٦٩٢.

(٩) - انظر: المصدر السابق نفسه: ٦٩٢.

المعارك، ويكتبون العهود والمواثيق وما إليها من الموضوعات.[1]

كذلك فقد أخذت الرسالة الإخوانية تعالج بعض موضوعات الشعر.[2] ولا بد أن يشير الباحث هنا إلى نشوء لون جديد من الرسائل لم تعرفه الأندلس من قبل، ذلك هو فن الرسالة الوصفية التي تتّخذ شكل المناظرة والمفاخرة على ألسنة الأزهار والورود،[3] وقد كانت هذه الرسائل هي البذرة الأولى لتطوُّر رسائل المفاخرات والمفاضلات في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

أمّا من الناحية الفنية، فقد استكملت الرسالة في هذا القرن قواعدها الفنية المعروفة، إذ صار الكُتَّاب يهتمون بعناصر البناء الفني للرسالة من حيث البداية والموضوع والختام، فظهرت الرسالة في بناء فني متكامل، وقد ارتقوا كذلك بأساليبهم البيانية، وعنوا باستعمال المحسنات البديعية المختلفة من سجع وجناس ومقابلة وازدواج، ومالوا إلى الإطالة والإطناب، وإلى تدعيم الرسائل بالشعر، وكثرت الألقاب والجمل الدعائية في مختلف الرسائل».[4]

ويجد الباحث في هذه المظاهر الفنية صدى واسعاً للأساليب الفنية المشرقية. كأسلوب الجاحظ الذي عرفه الأندلسيون منذ بداية القرن الثالث الهجري، وازداد تأثرهم به في هذا القرن، وأسلوب ابن المقفَّع،[5] وأسلوب ابن العميد وأتباعه.[6]

(١) ـ انظر رسائل مختلفة في طبقات النحويين: ص ٢٧١، الجذوة: ص ١١٢، المقتبس: ص ٧٧، ١١١، ١٣٥، المقتبس: ج ٥، ص ٢٦، ٢٢٦، ٤٣٨، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٠٤، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٧٢.

(٢) ـ انظر: أخبار مجموعة: ص ١٥٧، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٦٣، أزهار الرياض: ج ٢، ص ٢٦٢، ٢٨٣.

(٣) ـ انظر: البديع: ص ٧٨.

(٤) ـ انظر رسائل مختلفة في البديع: ص ٧٨ ـ ٧٩، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٦٣، ١٠٨ ـ ١٠٩، أزهار الرياض ج ٢، ص ٢٨٣، النفح: ج ١، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

(٥) ـ انظر: طبقات النحويين ص ٣٠١، وفيه إشارة إلى رسالة لابن الجرز ألفها في معارضة رسالة اليتيمة لابن المقفع.

(٦) ـ انظر رسائل أندلسية يظهر فيها أثر ابن العميد في: البديع ص ٧٨ ـ ٧٩، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٦٣.

ومن المظاهر الفنية المميّزة لأدب الرسائل في هذا القرن، التنوّع في أساليب الإنشاء عند الكُتَّاب، حتّى أن الباحث يستطيع أن يفرد عدداً منهم من أمثال الجزيري وابن درَّاج وابن بُرد الأكبر وغيرهم بأساليب إنشائية خاصة، فقد كان ابن دَرَّاج كاتباً مروِّياً لاينشىء إلَّا بعد الجهد والتنقيح والتجويد، أمَّا الجزيريُّ فقد كان على عكس ذلك. ومما يؤكدِّ هذا ماذكره الُحمَيْديُّ من أن المنصور بن أبي عامر عندما فتح شانت ياقوب،[1] استدعى ابن درَّاج والجزيريّ، وأمرهما بإنشاء كتب الفتح إلى قرطبة، «فأمَّا الجزيري فقال: سمعاً وطاعةً. وأمَّا ابن دَرَّاج فقال: لايتمّ لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة، وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة».[2]

(١) ـ شانت ياقوب: قلعة حصينة في شمال الأندلس، وهي تنسب إلى كنيسة عظيمة تقع بالقرب منها، وقد غزاها عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٧ هـ وأوسع أهلها قتلاً وأسراً، وقراها وأسوارها هدماً واحراقاً (انظر: معجم البلدان: ج ٣، ص ٣٦٨، الروض المعطار: ص ٣٤٨).

(٢) ـ الجذوة: ص ١١٢.

موضوعاته وأغراضه

يظهر للباحث من خلال كثير من النصوص الأدبية والتاريخية الأندلسية، أن أدب الرسائل في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري، قد تناول موضوعات إدارية وسياسية وحربية ووصفية مختلفة.

وعلى الرَّغم من طول الفترة التي يدرس الباحث رسائلها، وتعدد الموضوعات وتنوع الأغراض التي تناولتها، فإنه لايجد قدْراً وافراً من النصوص الأدبية التي تعطي صورة واضحة عن الرسائل عامة، والرسائل الإخوانية والرسائل المستقلة خاصة، مع أن المصادر الأدبية والتاريخية الأندلسية تشير بجلاء إلى ظهور عدد كبير من الكتَّاب البلغاء في هذه الفترة، وقد وضعت فيهم بعض المصنفات التي تتناول أخبارهم الأدبية ونتاجهم الفني. ومن هذه المصنفات كتاب «طبقات الكتَّاب بالأندلس» للأفشتين،[١] وكتاب «اللفظ المخْتَلَس من بلاغة كُتَّاب الأندلس» لعبيديس.[٢] وقد وصلتنا أسماء عدد كبير من هؤلاء الكُتَّاب البلغاء دون أن يصل إلينا شيء من رسائلهم أو أخبارهم الأدبية، ولعل ذلك يدل دلالة واضحة على وفرة الرسائل وتنوع موضوعاتها وتعدّد أغراضها في هذه الفترة.

ولكن القضية التي نطرحها هنا هي كيف نفسر عدم وصول جلِّ الرسائل التي أنشئت خلال القرون الثلاثة الأولى للفتح الإسلامي للأندلس. ومهما يكن من أمر، فإنَّ لدى الباحث العديد من الأدلة على ضياع جلِّ تلك الرسائل.

---

(١) ـ انظر: الجذوة: ص ٨٨.

(٢) ـ انظر: المقتبس: ج ٣، ص ١٤٤.

ومن هذه الأدلة، ضياع تلك الكتب التي أُلِّفت في الكتابة والكتَّاب في تلك الفترة، كما تشير إلى ذلك كثير من المصنَّفات الأدبية والتاريخية. ومن هذه الأدلة ماذكره الُحمَيْديُّ عن الرسائل التي أنشأها الجزيريُّ على لسان المنصور بن أبي عامر بشأن فتح مدينة «شانت ياقوب» سنة ٣٨٧ هـ، حيث يقول: «وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر»، (١) فهو يشير إشارة واضحة إلى ضياع رسائل كثيرة في زمن قريب من وقت إنشائها، على الرَّغم من أنَّها تعد وثائق تاريخية وأدبية على جانب كبير من القيمة، ذلك أنه لم يتح لها رواة ينقلونها أو كتَّاب يدونونها. وهذا يسوق الباحث إلى افتراض أن ذلك قد حدث لعدد آخر من الرسائل في تلك الفترة، مما حال دون وصولها إلينا.

ومما يعزّز ذلك أيضاً ماذكره ابن بسَّام في معرض حديثه عن شغف الأندلسيين بتراث المشارقة شغفاً شديداً، من أن ذلك قد أدَّى إلى ضعف عنايتهم بأدبهم وتدوينه، حيث يقول: «إلَّا أنَّ أهل هذا الأفق، أبَوْا إلَّا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوعَ الحديث إلى قَتَادة، حتى لو نَعَقَ بتلك الآفاق غرابٌ، أو طَنَّ بأقْصَى الشام والعراق ذُبابٌ، لَجَثَوا على هذا صنمًا، وَتَلَوْا ذلك كتاباً مُحْكَمًا: وأخبارُهم الباهرة، وأشعارُهم السائرة، مَرْمَى القَصِيَّة، ومُناخ الرذِيّة، لايعمر بها جَنَانٌ ولا خَلَد، ولايُصرَّف فيها لِسَانٌ ولايدٌ...» (٢)

على أن ابن بسَّام أيضاً يشير في معرض حديثه عن تأليفه «كتاب الذخيرة» أنه قد وجد هناك عدداً كبيراً ممن عني بجمع أخبار الأدب الأندلسي وتدوينها، إلا أنَّ عملهم هذا جاء ناقصاً قاصراً عن الحقيقة، لأنَّهم لم يكونوا مهيئين للبحث، مستكملين لأدواته، حيث يقول: «فإنّما جمعتُهُ بين صعبٍ قد ذلَّ، وغَرْبٍ قد فلَّ، ونشاطٍ قد قلّ، وشبابٍ ودَّعَ فاستقلَّ، من تفاريق كالقرونِ الخالية، وتعاليقَ كالأطلال البالية، بخط جُهّال كخطوط الرَّاح، أو مدارج النمل بين مَهاب الرياح، ضَبْطُهم

(١)- الجذوة: ص ١١٢.
(٢)- الذخيرة: ق ١ م ١: ص ١٢.

تصحيف، ووضْعُهم تبديلٌ وتحريفٌ، أيْأسُ الناسِ مِنْها طَالِبُها، وأشدُّهم استرابةً بها كاتِبُها. . ». [1]

ويبدو للباحث أنَّ هذه المظاهر التي ظهر فيها عدم عناية الأندلسيين بتدوين أدبهم العناية اللازمة، كانت وراء فقدان كثير من الرسائل. ومهما يكن من أمر، فقد وصلنا عدد من النصوص النثرية التي تشير إلى الموضوعات التي تناولها أدب الرسائل في الأندلس في القرون الثلاثة الأولى للفتح الإسلامي لها، وهذه الموضوعات هي:

الرسائل الإخوانية

وهي تلك الرسائل التي تصوِّر عواطف الكتَّاب وانفعالاتهم ومشاعرهم الخاصة، وقد اصطلحت كتب الأدب على تسميتها بالرسائل الإخوانية. [2] وموضوعات هذا اللون من الرسائل كثيرة ومتعددة، جعلها مؤلف صبح الأعشى في سبعة عشر نوعاً، منها: التَّهاني والتَّعازي، والعتاب والشكوى والاعتذار والاستمناح والشكر وما إلى ذلك من الموضوعات [3]، وهي على تعددها تندرج في مجموعتين، أولاهما: الرسائل الإخوانية شبه الرسمية، وهي تلك الرسائل التي تحتفظ بالبعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب، أي أنها تلك الرسائل التي يتبادلها الخليفة أو الأمير أو الوزير مع من دونه في المنزلة الاجتماعية في أمور خاصة. وثانيتهما: الرسائل الإخوانية الذاتية، وهي التي تتناول ما يدور بين الأصدقاء من عتاب وشوق وعزاء وما إلى ذلك من العواطف.

وتشغل الرسائل الإخوانية شبه الرسمية جزءً كبيراً مما انتهى إلينا من الرسائل الإخوانية في الأندلس حَتَّى نهاية القرن الرابع الهجري، وقد عالجت موضوعات مختلفة هي:

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ١٥.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٥١، ١٩١، حسن التوسل: ص ٣٨٢، صبح الأعشى ج ٩، ص ٩.

(٣) ـ انظر: صبح الأعشى: ج ٩، ص ٩ ـ ٢٢٥.

العتاب :

وهو يتمثَّل في تلك الرسائل التي تدور حول عتاب الكاتب للمخاطب في أمر ساءه منه، فأوجب عتابه له، وتتباين صور العتاب بين اللين والرقة والقسوة، وذلك بحسب نفسية الكاتب وحالته والغرض الذي استثاره فدبَّج رسالته فيه.

وكانت رسائل العتاب تبدأ بالحديث عن العلاقة التي تربط الكاتب بالمخاطب، ومافيها من معاني الصداقة والمودة والألفة، ومن ذلك ماجاء في صدر رسالة بعث بها الحكم بن عبد الرحمن الناصر بأمر والده إلى الفقيه أبي ابراهيم[1] يعاتبه فيها على تخلفه عن حضور حفل رسمي دعي إليه، وقد استهلها بإطراء الفقيه تمهيداً لغرضه وتوطئة للعتاب: «لَّما امْتَحَنَ أميرُ المؤمنينَ مولاي وَسَيِّدي ـ أَبْقَاهُ اللهُ ـ الأولياء الَّذِينَ يستعدُّ بهم، وَجَدَكَ مُتَقَدِّماً في الولايةِ، مُتَأَخِّراً عن الصِّلةِ، على أنَّه قد أَنْذَرَكَ ـ أَبْقَاهُ اللهُ ـ خُصُوصاً للمُشَارَكةِ في السّرور الَّذي كَانَ عِنْدهُ، لَا أعْدَمَهُ اللهُ توالِيَ المسَّرةِ، ثم أُنْذِرْتَ مِن قَبْلُ إبْلَاغاً في التَّكْرُمَةِ».[2]

ثم يتدرَّج الكاتب للحديث عن أسباب العتاب والملامة كما جاء في الرسالة السابقة حيث يقول: «فَكَانَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّه، من التَّخلُّفِ مَا ضَاقَتْ عَلَيْكَ فيه المعذرةِ، واسْتَبْلَغَ أميرُ المؤمنينَ في إنكارِه، ومِعَاتَبَتِكَ عَلَيْه، فَأَعْيَتْ عَنْكَ الحجَّةُ».[3]

وقد يستفسر عن عذره والأسباب التي أوجبت إساءته، كما جاء في الرسالة السابقة أيضاً: «فعَرِّفْني ـ أكْرَمَكَ اللهُ ـ ماالعُذْرُ الذي أوْجَبَ تَوَقُّفكَ عن إجابة دَعْوتِهِ، ومُشَاهَدَةِ السّرور الَّذي سُرَّ بهِ، ورغب المُشَارَكَةَ فيه، لنعرِّفَهُ ـ أَبْقَاه اللهُ ـ بِذَلكَ، فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ العزيزةُ إليه»[4].

(١) ـ هو أبو ابراهيم اسحق بن إبراهيم بن مسَّرة التجيبي، من أهل طليطلة، سكن قرطبة للعلم، ثم استوطنها، كان فاضلاً دَيِّناً مجتهداً من أهل العلم والبعد عن السلطان، وكان معظَّماً عند الناصر وابنه الحكم، وقد توفي سنة ٣٥٢ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: : ص ١٦٨، بغية الملتمس: ص ٢٣٥، شجرة النور: ج ١، ص ٩).

(٢) ـ أزهار الرياض: ج ٢، ص ٢٨٣.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٨، ص ٢٨٣.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٢٨٣.

ومن رسائل العتاب أيضاً تلك الرسالة التي بعث بها بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيِّده، عندما لمس تغييراً في معاملته له، حيث هجره وجفاه، مما أهانه في عيون أكفائه، وشمَّت به أعداءه، وأضعفه عند من يلوذ به من خدمه، على الرَّغم مما قدّمه في خدمة دولته، ومما جاء في تلك الرسالة «أما كان جزائي في قَطْعِ البَحْرِ، وَجَوْبِ القَفْرِ والإقدامِ على تشتيت نظامِ مملكةٍ، وإقامةِ أُخرى غَيْرَ الهَجْرِ الذي أهانني في عيونِ أكفائي، وأشْمَتَ بي أعدائي، وأَضْعَفَ أمْري ونهيي عِنْدَ مَن يلوذُ بي . . » .(١)

وبقدر مافي هذه الرسالة من حسرة وأسى ولوعة لهذا الجفاء والهجر، فإن فيها شدةً وعنفاً حيث يقول: «أظنُّ أعداءنا بني العباس لو حَصَلْتُ بأيديهم مابلغوا بي أكثرَ من هذا» .(٢)

وقد يصل العتاب في بعض الرسائل إلى حد الهجاء والتقريع واللوم الشديد، كما في الرسالة الجوابية التي بعث بها عبد الرحمن الداخل إلى مولاه بدر حيث كتب إليه يقول: «وَقَفْتُ على رقعتِكَ المُنْبِئَة عَن جَهْلِك وسوء خطابِكَ، ودناءةِ أدبِكَ، ولئيمِ معتقدِكَ، والعجب أنَّكَ مَتى أَرَدْتَ أن تبني لِنَفْسِكَ عِنْدَنا متاتاً أَتَيْتَ بما يهدمُ كلَّ متاتٍ مشيّدٍ مّما تمنُّ بِهِ، مِمَّا قد أضْجَرَ الأسْماعَ تكرارُهُ، وَقَدَحَتْ في النُّفوسِ إعادتُهُ» .(٣)

الاعتذار:

يعدُّ الاعتذار آية من آيات الوفاء والصَّداقة والمودة بين المتراسلين، وفي هذا اللون من الرسائل يعتذر الكاتب للمخاطب عن تقصير حدث منه ويحاول التقرب منه واستدرار عطفه ومحبته وعفوه.

ومن رسائل الاعتذار تلك الرسالة التي كتبها الفقيه أبو ابراهيم ردّاً على رسالة العتاب التي بعثها إليه الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وفيها يقول: «قرَأتُ أبْقَى

---

(١) ـ النفح: ج ٣، ص ٤٠.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٣، ص ٤٠.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٣، ص ٤٠.

اللهُ الأميَر- سيِّدي - هذا الكتابَ وفهمتُهُ. ولم يَكُن تَوقُّفِي لِنَفْسِي، إنَّمَا كَانَ لأمير المؤمنينَ سيِّدنا أبْقَى اللهُ سلطَانَهُ». (١)

ثم هو يعبّر عن اعتذاره، ويلتمس من سيرة الخليفة عبد الرحمن الناصر وأجداده من قبل، وموقفهم من الفقهاء والعلماء مبرراً لتخلفه عن حضور الحفل الذي دعي إليه حيث يقول: «لِعِلْمِي بِمَذهَبِهِ، وَلِسُكُونِي إلى تقواه، واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم، فإنَّهم يَسْتَبْقون من هذه الطبقةِ بَقِيَّةً لايَمْتَهنونها بما يَشِينُهَا، ولابما يغضُّ منها، ويَطرقُ إلى تَنَقُّصِهَا، فيستعدُّون بها لدينهم، ويتزيَّنون بها عِنْدَ رعاياهُم، ومن يَفِدُ عليهم من قُصَّادِهِم، فلهذا تخلَّفْتُ، ولعلمي بمذهبه توقَّفْتُ». (٢)

الشكوى والاستعطاف:

لقد كان بعض الوزراء والكُتَّاب والفقهاء وغيرهم يرفع إلى الخلفاء والأمراء رسائل مختلفة، يشكون فيها المصائب والمحن التي حلَّت بهم، أو يعرضون فيها مايلاقونه من ذلٍّ وهوان، أو مايتعرضون إليه من حسد أو ابتلاء في الأهل والنعمة والمنصب.

وقد اتّسمت تلك الرسائل بالإيجاز، ومن ذلك رسالة بَدْرٍ مولى عبد الرحمن الداخلِ التي بعثها إلى سيده يشكو فيها ماحلَّ به من ابتلاء في النعمة والمال، ومايلاقيه من ذلٍّ وهوان عندما أتى عيد وقد هجره سيّده وسلبه نعمته وماله، حيث يقول: «وَقَد أتَى هذا العِيْدُ وَأنَا سَلِيبٌ مِنْ النِّعْمَةِ، مُطَرَّح في حضيضِ الهوانِ، أيأس مِمَّا يَكُونُ، وأقرعُ السنَّ عَلَى ما كَانَ». (١)

ومن رسائل الشكوى والاستعطاف أيضاً ماكتبه بَقي بن مَخْلَد(٤) إلى الأمير

---

(١) - أزهار الرياض: ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٢٨٣.

(٣) - النفح: ج ٣، ص ٤١.

(٤) - هو أبو عبد الرحمن بقيّ بن مَخْلَد الأندلسي القرطبي، كان إماماً مجتهداً وحافظاً محققاً، رحل إلى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنَّة ورجع إلى الأندلس فملأها علمًا جَمّاً، وتوفي سنة ٢٧٦ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٧٧، الصلة: ج ١، ص ١١٦، بغية الملتمس: ص ٢٢٩، النفح: ج ٢، ص ١٨).

محمد بن عبد الرحمن يشكو إليه خصومه ويستعطفه ويسأله التثُّبَت في أمره، والجمع بينه وبين خصومه الذين وشوا به إليه.[1]

ومن هذا الضرب من الرسائل أيضاً ماكتبه الوزير محمد بن سعيد الزَّجالي إلى الأمير عبد الرحمن الناصر يشكو فيه تنكيد الحساد، وتكدير الوشاة لصفو حياته، وسعيهم لهدم منزلته، وعلى رأسهم نصر الخصيُّ،[2] ويصف حاله قائلاً: «قَد عَلِمَ ماخَصَّني به دون نظرائي من المنزلة الرفيعة التي أصْبَحَتْ عَلَمًا من أجْلِهَا محسوداً مرمياً بالحَدَق تسْلُقُني الألْسُنُ، وتجولُ فيَّ الأفكارُ، وعندما اسْتَوى بناؤها، وقَامَ عمودُها، واسْتَرْخَتْ أطنابُهَا، سَعَى في هَدْمِها مَن لا أزالُ أُوَّثِلُ شَرَفَ ذِكْرِهِ، وأُجلُّ رَفِيعَ قَدْرِهِ.[3]

ومن رسائل الشكوى أيضاً رسالة كتبها الوزير جعفر بن عثمان المصحفي إلى الحكم المستنصر يشكو فيها حاله وشدة بأسه، وارتفاع رجائه، ويسأله أن يخلفه في بيته وأهله الخلافة العالية، وقد أصابته علة جديدة يئس فيها من الحياة.[4]

وفي «النفح» إشارة إلى رسالة كتبها ابن رُمَاحس[5] إلى الحكم المستنصر يشكو فيها موقف ابن رفاعة[6] من وفادة أبي علي القالي.

الاستمناح والطلب:

يعدّ الاستمناح والطلب من الأغراض المهمة التي تناولتها الرسائل الإخوانية شبه الرسمية في هذه الفترة، وفي هذا الضرب من الرسائل كان الكاتب يسلك مسلك

---

(١) ـ انظر: البيان المغرب: ج ١، ص ١١٠، وفيه إشارة إلى هذه الرسالة.

(٢) ـ هو نصر الصقلبي، مولى بني أمية، وكان قد تقدم عندهم وخافه المنصور بن أبي عامر على نفسه، فدبر له وقتله (انظر: المقتبس: ج ٢، ص ٨).

(٣) ـ المغرب: ج ١، ص ٣٣١.

(٤) ـ انظر: المقتبس: ص ٦٩ ـ ٧٠، وفيه إشارة إلى هذه الرسالة.

(٥) ـ هو ابن رُمَاحس قائد البحر أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (انظر: المقتبس: ص ٢٤).

(٦) ـ هو ابن رفاعة الإلبيري، كان من أهل الأدب والمعرفة، وفي خلقه حرج وزعارة، وهو من رجال عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم (انظر: النفح: ج ٣، ص ٧١).

الشاعر في طلب الرفد والعطاء، حين يصف خصال الممدوح الحميدة، لذا فإنّه يغلب على هذه الرسائل طابع المديح، وتتّسم بالبراعة في الصياغة.

ومما وصلنا من هذا اللون من الرسائل ماكتبه الوليد بن عبد الرحمن للأمير محمد بن عبد الرحمن يطلب منه تقليده منصباً رفيعاً، ويرجو أن يدنيه من رحابه ويزيد من عنايته به، ذاكراً أفضاله وأياديه عليه، آملاً استمرارها ودوامها، حيث يقول: «عظمت نعمة الخليفة سيدي - أَيَّدَهُ اللهُ - عَنِ الشُّكرِ، وجلت أياديه عن النشرِ، فَمَتَى رمتُ ذِكْرَ أدْنَى شُكْرِهِ، وحمْدَ أيسر مَا اشتملَ عليَّ من فَضْلِهِ تكاءدني[1] الشُّكْرُ، وأعجزني الحمدُ، وَلَسْتُ بمؤمِّل مع ذَلِكَ من الاستفراغ في القولِ والاجتهادِ في العمل، إذ لم أرهما يدوران إلَّا على نِعْمَةٍ أُزْلِفَتْ، ويقتصران إلَّا عَلَى زيادةٍ انتظرت، وأنا بينهما مخيمٌ، وعليهما معولٌ». [2]

ثم هو يتدرَّج إلى الطلب ولكن بمجرد التلميح لابكامل التصريح، ويشير إلى قصده من طرف خفي، وبصورة مستورة: «والله الناقل لعباده بطاعتهم له، وشكرهم إيَّاه، من دار الشقاء إلى دار السعادة، ومِن نصب العاجل إلى راحة الآجل». [3]

ومن هذه الرسائل[4] أيضاً ماكتبه ابن درَّاج القسطلي لسليمان بن الحكم يطلب فيه العطاء والرفد، ويحاول فيه استدرار عطف الخليفة من خلال تصوير حالة الفقر التي تعيشها أسرته وأطفاله، حيث يقول: «حاشا للهِ أن أسْتَشِفَّ قَبْلَ جُمُوحِهِ، وأسْتكْرِهَ الدَّرَّ قبل حُفُوله، أو أتعامى عن سِراج المَعْذِرة، وأرْغَبَ عن أدب الله في نظرة إلى ميْسَرة، ولكن:

---

(١) - تكاءدني الأمر: شق علي (اللسان: مادة كأد).

(٢) - أخبار مجموعة: ص ١٤٨.

(٣) - المصدر السابق نفسه: ص ١٤٨.

(٤) - انظر: المصدر السابق نفسه: ص ١٤٥، وفيه إشارة إلى رسالة بعث بها أحد الموالي إلى الأمير محمد بشأن استخدامه بلطائف في الرغبة وترفقة في المسألة.

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخٍ   حُمْر الحواصِل لاماءٌ ولاشَجَرُ
ماأوْضحَ العُذْرَ لي لو أنهم عذرُوا   وأجْمَلَ الصَّبْرَ بي لو أنَّهُمُ صبروا
لكنّهُم صَغُرُوا عن أزْمةٍ كَبُرَتْ   فما اعتذاري عَمَّنْ عُذرُهُ الصِّغرُ

وقد قلَّبتُ لهم ظَهْر الأمور، وميَّزْتُ بين المعسور والميسور، فما وجدت أحسنَ بَدْءاً، ولاأحْمَدَ عوداً، مما أذنَ الله فيه لعباده الذين أعْمَرَهم أرْضَهُ، وسخَّر لهم بَرَّهُ وبَحْرَهُ، أن يَمْشُوا في مناكِبِها ويأكلوا من رزقه، وحيث نتقلَّبُ ففي كَرَمك، وأين نأمَنُ ففي حرمك، وحيث لا تُوحِشُنا دعوتُك، ولاتفوتُنا نعمتُك، من مُلْكِكَ إلى مُلْكِكَ، ومن يمينك إلى شمالك». [١]

إنَّها رسالة فنية جميلة مال فيها ابن درَّاج إلى البديع وخاصة السجع والجناس والازدواج والمقابلة، وعمد أيضاً إلى تدعيم النثر بالشعر.

المودة والصداقة:

وهي من أبواب الرسائل الإخوانية التي تعبّر عن صدق العواطف، وتصوِّر الوفاء والودَّ الذي يربط الخلفاء والأمراء بوزرائهم أو ولاتهم أو أفراد رعيتهم، ولاسيَّما أن علاقة خلفاء الأندلس وأمرائه بوزرائهم وولاتهم وغيرهم قد امتازت في معظم الأحيان بالودِّ الخالص.

ومن هذا الضرب من الرسائل ماكتبه الوزير أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد [٢] إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر، وبعثه مع هديته المشهورة، [٣] وفيه يعترف للناصر بالنعمة والشكر عليها، ويعبِّر عن وده الخالص له، وأنه يتصيَّد إرضاءه ومسرَّته، وقد فسَّر هديته تلك وأثبت محتوياتها في رسالته، ومَّما جاء في تلك الرسالة: «ولما علمت

(١) ـ ديوان ابن درَّاج القسطلي: ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

(٢) ـ هو أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن شهيد، من كبار وزراء الدولة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر، وهو أول من سمي بذي الوزارتين، وكان من أهل الأدب البارع (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٣١، الحلة السيراء: ج ١، ص ٢٣٧).

(٣) ـ انظر: أزهار الرياض: ج ٢، ص ٢٦١ ـ ٢٦٣.

تطلع مولاي ـ أيّده الله تعالى ـ إلى قرية كذا بالقذبانية[1] المنقطعة الغرس في شرقها، وترداده ـ أيده الله تعالى ـ لذكرها، لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأحوازها، وأكتبت وكيلة بن بقيّة الوثيقة فيها باسمه، وضمّها إلى ضياعه، وكذلك صنعت في قرية شيرة من نظر جيّان، عندما اتصل بي من وصفه لها، وتطلعه إليها، فما زلت أتصدى لمسرته بها، حتى ابتعتها الآن بأحوازها، وجميع منازلها وربوعها. . »[2]

ومن هذه الرسائل أيضاً تلك الرسالة التي كتبها الخليفة الحكم المستنصر إلى وزيره جعفر بن عثمان المصحفي جواباً على رسالته التي بعثها إليه يشكو فيها حاله، وقد أجابه الخليفة برسالة رائعة تدلُّ على نبله وكرمه وفضله، وتعبِّر عن صدق عواطفه نحو وزيره، فقد أبدى فيها ألمه وحزنه لما حل بوزيره من يأس، وانقطاع رجاء، إذ كتب إليه يقول: «قرأنا كِتَابَكَ بِمَا ذَكَرْتَ من اشتداد حَالِكَ، ووقوع يأسِكَ، وارتِفَاع رَجَائِكَ، فَعَظُمَ عَلَيْنَا ذلك، وَكَثُرَ غَمُّنا بِهِ، وأشْفَقْنَا مِنْهُ، ونرجو أن يأتي اللهُ بخيرٍ، ويعقبَ بِعَافِيَةٍ»[3].

ثم يذكر له أنَّ كلَّ ماسأله ورغب فيه لنفسه وأهله على أفضل ما يريده لقاء خدمته للخليفة وإخلاصه للخلافة: «فكلُّ ماسَأَلتَ ورغبت في نَفْسِكَ وأهْلِكَ وَمَن تتخلَّف، فَعَلَى أفْضَل الذي رغبْتَهُ وأردتَهُ وأمَّلْتَهُ وَرَجُوْتَهُ، فَمَا أَعْلَمُ رزيَّة أعظم من رزيتِكَ لدينا لما بلوناه من شُكْرِكَ، وَمَجْهُودِ حرمتك، ومحمود صحبتِكَ، وأنا لم يرد علينا من قَبْلِكَ وناحيتك قط ماأغمَّنا، ولاماأنكرنا، ولاسوء ثناء قط بشيء، ظاهراً ولاباطناً» .[4]

(١) ـ القذبانية (أو الكذبانية) ناحية بالأندلس قرب قرطبة (انظر: معجم البلدان: ج ٤، ص ٤٨١).

(٢) ـ أزهار الرياض: ج ٢، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٣) ـ المقتبس: ص ٧٠.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٧٠.

الهجاء:

يعدُّ الهجاء من الموضوعات القليلة التي تناولتها الرسائل الإخوانية شبه الرسمية، ومما انتهى إلينا من هذا اللون من الرسائل ماكتبه الخليفة، عبد الرحمن الناصر إلى القائد أحمد بن إسحق[1] الذي بعث إلى الخليفة رسالة يطلب فيها أن يجعله ولياً لعهده بدلاً من الحكم أو عبدالله ابني عبد الرحمن الناصر، وقد اغتاظ الناصر منه كل الغيظ، وسخط عليه، فكتب إليه هذه الرسالة يحط فيها من شأنه وينقص من قدره، فهو يصفه بأنه قد طبع على قلة الفهم والإدراك: «أمَّا بعد فإنَّا كنَّا نرى الاستحماد إليك استصلاحاً لك، فأبى الطبع الغريزي إلاَّ مااستحكم منه فيك، إلى أن استحوذ عليه، فالفقر يصلحك، والغنى يطغيك إذ لم تكن عرفتَهُ ولاتعودتَهُ». [2]

ثم يمضي عبد الرحمن الناصر في هجائه وقسوته، متناولاً بعض الصفات المعنوية التي تخلُّ بكرامة قائده وتشكِّل المطاعن والنقائض في شخصيته، فهو يذكِّره بماضي أسرته ونسبه، ويطعن فيهما، ويذكِّره أيضاً بأنه كان صنيعة الأمويين، حيث يقول: «أوليس كان أبوك من فرسان ابن حجَّاج أخسُّهم حالاً عنده، وأنت يومئذ نخَّاس الحمير بإشبيلية فأقبلتم إلينا فآويناكم ونصرناكم وشرَّفناكم وموّلناكم، واستوزرنا أباك، وقلدناك أعنَّة الخيل أجمع، وفوضنا إليك أمر ثغرنا الأعظم، فتهاونت بالتنفيذ لنا، وقلّة المبالاة بنا، ثم مع هذا الترشح للخلافة، فبأيّ حسب أو أي نسب. . . أليست كانت أمّك حمدونة الساحرة، وأبوك المجذوم، وجدك بواب حوثرة ابن عباس يفتل الحبال في اسطوانة، ويخيط الحلفا على باب داره، فلعنك الله، ولعن من أنشبنا في الاستخدام بك، فيا مأبون ويامجذوم ويابن الكلب والكلبة أقبل صاغراً». [3]

(١) ـ هو احمد بن اسحق بن محمد القرشي، من أصل أموي، أصبح من كبار القوّاد في عهد عبد الرحمن الناصر، وقد كان هذا القائد شديد الطموح، حتّى أنه كان يفكر بالخلافة (انظر: أخبار مجموعة: ص ١٥٦ ـ ١٥٧).

(٢) ـ أخبار مجموعة: ص ١٥٧.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

ويظهر للباحث أن الرسائل الإخوانية الذاتية كانت قليلة جداً، ولعل ذلك يعود إلى أن الشعر كان هو الفن الأول عند العرب في الأندلس للتعبير عن الموضوعات الخاصة الذاتية في هذه الفترة، ولم يكن بعد قد فسح المجال واسعاً لأدب الرسائل للتعبير عن كثير من الموضوعات الذاتية الخاصة التي يشترك وإيَّاه في التعبير عنها، لذلك فقد كانت الرسائل الذاتية الخاصة قليلة جداً، وقد ضاع جل هذه الرسائل ولم ينته إلينا إلاّ عدد قليل منه.

ومن ذلك رسالة هاشم بن عبد العزيز لمَّا وقع في الأسر إلى صديقه الوليد بن عبد الرحمن، ورسالة الوليد الجوابية إليه. وتلك الرسالة فريدة في نوعها، حيث أنها تتناول موضوعات مختلفة هي الشكوى والشكر والشوق، ويكتنف هذه الموضوعات جميعاً الحزن والحسرة التي تفتِّت الكبد وتحرق الأحشاء.

وقد بدأ هاشم بن عبد العزيز رسالته بالشكوى حيث عرض حاله، ومآل عليه في دار الكفر، وعبَّر عن أسفه لمقامه هناك، وحَسْرته على فراق دار الإسلام، يقول: «ماآسى - أكْرَمَكَ اللهُ - إلاَّ على مفارقتي تجاوبَ الآذان، وتبدلي من ذلك بصليل النواقيس والصلبان، وأن تعاجلني منيتي فأصير موسوماً ببلدة كفر، أخشى المصير منها إلى الحشر، فيا لها حسرة فَتَّت الكبد الحَرَّى، وأحرقت جمرتُهَا الأحشاء»(١)

ثم انتقل إلى شكر مخاطبه على اعتنائه بأسرته، وفي ذلك نلمس تعبيراً عن أواصر الصداقة والمودة بينهما، وفي ذلك يقول: «وقد كفيتني - أبقاك الله - ماكنت أرغبه من الرغبة إليك في الحنو على من تخلفتهم، والحفظ لمن فارقتهم، والتسلية لمن فجعتهم بما قد أتيت من ذلك، وأربيت على المنى منه، فالله ولي مجازاتك، ومحتمل مكافأتك». (٢)

وقد ختم رسالته هذه بالتعبير عن شوقه إلى صديقه، وتوسّله إليه بأن يمنَّ عليه برسالة تشرح حاله، حيث يقول: «إن حضر خروج رسول إلى ما قِبلَنا فلا

(١) - المقتبس: ج ٢، ص ٣٩٠.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ص ٣٩٠.

تُخْلِني بفضلك من عظم المَنَّةِ عَلَيَّ بكتابِكَ، والصلة لي بعلم حالك، فإنَّ لي من الشوق إليه والتطلع له ضعف مابفؤادي من لوعة الحزن التي أَمَلَّتني الحياة، وَحَبَّبَتْ إِلَّي الوفاةَ». (١)

وقد أجابه الوليد بن عبد الرحمن برسالة مماثلة، ردَّ فيها على كل فصل من فصولها، وقد استهلَّ رسالته هذه بالتعبير عن شوقه العظيم له، وحسرته الشديدة على فراقه، وحزنه العظيم لما حل به، حيث يقول: «وَرَدَ كِتَابُكَ ياسيدي، فَسَكَّنَ من حُرَقِي بِكَ، وأطفأ من غُلَّتِي فِيكَ، وهَدَّأ من عويلي عَلَيْكَ، فيا لهفاه على فراق غرَّتكَ، وفقدانِ رؤيتك، لهفاً عَلَى ما إن ينقطع ولاينصرم...». (٢)

ثم هو يحاول أن يخفف من أثر الأسر في نفسه، ويرفع من معنويته، ويهدىء من روعه، ويذكر له بأنه على ثقة من فكاك أسره في وقت قريب: «والله بعد كفيل من وراء استنقاذك محيط، وعلى فكاكك قدير، لاشريك له، وهو الصانع في الأمور، المسهِّل للعسير، فلا تيأس ياسيدي من روح الله، ... وَثِقْ باللهِ تَعَالَى بالفرج العاجل، فكأنّي بك إن شاء اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عن قريب قد خلصت من أسرك خلوصَ القمر من سراره». (٣)

وختم رسالته بطمأنة صديقه على حال ولده وأهله وذكر له أنهم في غاية الشوق والحنين إليه: «وَكُلُّ من تَخَلّفتَهُمْ مِن الأهل والولد مُعَافَوْنَ في الأبدان دونَ القلوب وَجْدَاً بك وحنيناً إليك. وقد خلفك فيهم من حَوْطِ اللهِ تَعَالَى، ثم حَوْطِ سيدنا الأمير ـ أبْقَاهُ اللهُ ـ وَرَحِم بِرِّه ولِين كَنَفِهِ، وَحَفي تَفَقُّدِهِ، ماينبغي لك أن تسقط معه جثومَ الغمِ عَنْكَ، ولزوم الأسفِ لك، إن شاء اللهُ». (٤)

لقد كانت هذه الرسالة جميلة، وقد عبَّرت عن معاني الودِّ والصداقة الخالصة.

---

(١) ـ المقتبس: ج ٢، ص ٣٩٠.
(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٣٨٩.
(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٣٨٩.
(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٣٩٠.

الرسائل الدِّيوانية

وهي تلك الرسائل التي تعالج شؤون الإدارة والتنظيم الداخلي الذي يتعلق بالحياة العامة، وشؤون الرعيَّة، ولاسيَّما «أنّ الرَّعِيَّةَ من السُّلْطَانِ، بمكان الأشباح من الأرْوَاح، صَلاحُهُما وفَسَادُهُما مُتَّصِلان، وَنَمَاؤهُمَا وَنُقْصَانُهما مُنْتَظِمان، إذ كانت الرَّعِيَّةُ عُنْصرَ المالِ، وَمَادَّةَ الجباية، بها قوامُ المُلْكِ، وعِزُّ السُّلْطَانِ، وَرِزْقُ الأجْنادِ، التي بها يُقَاتَلُ العدُوُّ وَيُنْصَرُ الدِّينُ، وتُحْمَى الحُرَمُ». [1]

والرسائل الدِّيوانية متعددة كثيرة الأغراض، ومن أهم ألوانها في هذه الفترة: رسائل التولية والتعيين، ورسائل التوجيهات والوصايا والأوامر الإدارية المختلفة، إلى جانب التبصير بشؤون التنظيم الداخلي.

ومن بواكير رسائل التولية والتعيين، ماكتبه عقبة بن الحجَّاج السّلولي[2] إلى مهدي بن مسلم[3] يوليه القضاء في قرطبة، وذلك في عهد الولاة في الأندلس، إذ كتب إلية يقول: «هذا ماعهد به عقبة بن الحجّاج إلى مهدي بن مسلم حين ولاه القضاء، عهد إليه بتقوى الله، وإيثار طاعته، واتّباع مرضاته في سره وعلانيته». [4]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) ـ هو عقبة بن الحجاج السلولي، ولي الأندلس سنة سبع عشرة ومئة للهجرة، وكان محمود السيرة، مثابراً على الجهاد، مفتتحاً للبلاد، وقد خلع عن الولاية سنة ثلاث وعشرين ومئة للهجرة (انظر: أخباره في: قضاة قرطبة: ص ٩، البيان المغرب: ج ٢، ص ٢٩، النفح: ج ٣، ص ١٩ ـ ٢٠).

(٣) ـ هو مهدي بن مسلم، من كبار القضاة في الأندلس، كان من أهل الدين والعلم والورع (انظر: قضاة قرطبة: ص ٩ ـ ١٢).

(٤) ـ قضاة قرطبة: ص ٩.

ثم بينَّ له الأحكـام والقواعد العامة التي يجب أن يستقي منها أصول التشريع، ويسير في ضوئها القضاء في مجلس الحكم: «وأمره أن يتَّخِذَ كِتَابَ اللهِ وسُنَّةَ نبيه محمد ﷺ إماماً يهتدي بنورهما يعشو[1] إليهما، وسراجاً يستضيء بهما، فإن فيهما هدى من كلِّ ضلالة»[2].

ثم ذكر له أنَّه لم يختره لمنصب القضاء «إلا لفضل القضاء عند اللهِ جلَّ جلاله، لما فيه من حياة الـدين، وإقـامة حقوق المسلمين، وإجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه، وإعطاء الحقوق من وجبت له»[3].

ثم أسدى إليه عدداً من النصائح، وأوضح له كثيراً من الأمور التي يجب أن يلتزم بها القاضي في مجلس القضاء ومايجب عليه أن يتحلَّى به من شمائل وصفات تكفل تحقيق العدل، لذا فقد اتَّسمت هذه الرسالة كغيرها من رسائل التولية والتعيين بشيوع الأوامر والوصايا المختلفة، حيث يقول: «وأمره أن يواسي بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه واستماعه، وأن يفهم من كلِّ أحد حجَّته ومايدلي به، ويستأني بكل عيٍّ اللسان ناقص البيان...، وأمره أن يكون وزراؤه وأهل مشورته والمعينون له على أمر دنياه وآخرته أهل العلم والفقه والدين والأمانة ممن قبله..»[4]

ويبدو للباحث أن كثيراً من رسائل التولية والتعيين تعنى برسم السياسة العامة التي يجب على الوالي أن يسلكها في إدارة شؤون ولايته، ومن ذلك ماورد في رسالة الحكم المستنصر إلى أصبغ بن محمد بن فطيس[5] يوليه نصف كورة ريَّة،[6] حيث

---

(١) - يقال عشا إلى كذا وكذا، يَعْشُو إليه: إذا قصد إليه مهتدياً بضوء ناره (اللسان: مشادة عشا).

(٢) - قضاة قرطبة: ص ٩.

(٣) - المصدر السابق: ص ١٠.

(٤) - قضاة قرطبة: ص ١٠.

(٥) - هو أصبغ بن محمد بن فطيس، من كبار عمال الأمويين وولاتهم في عهد الحكم المستنصر (انظر: المقتبس: ص ٧٨).

(٦) - كورة رية: من كور الأندلس في قبلي قرطبة، نزلها جند الأردن من العرب، وهي كثيرة الخيرات (انظر: الروض المعطار: ص ٢٧٩ - ٢٨٠).

يقول: «فاستعنْ باللهِ، وخُذْ بالرِّفْقِ في أمْرِكَ، وقِلَّةِ الرَّغبَةِ في شَأْنِكَ، واجتنبْ التحامل عَلَى رَعِيَّتِكَ، فإنهـا من حفيٍّ عناية أمير المُؤمنينَ بموضع لايُتْرَكُ مَعَهُ البحثُ عن أحوالِها، والكشفُ عن سيرتِكَ فيها إنْ شاء اللهُ». (١)

ومن رسائل التولية والتعيين المهمة التي استوعبت جوانب خطيرة في إدارة شؤون الرعية وتنظيم مرافقـها الاقتصادية والاجتماعية والدينية المختلفة، ماكتبه الحكم المستنصر إلى أبي العيش بن أيوب(٢) زعيم كتامة(٣) بالرئاسة على قومه، فقد تضمَّنت هذه الرسالة إضافة إلى ماسبق تفاصيل دقيقة للسياسة الإدارية القويمة التي يجب على الوالي أن يسلكها، وواجباته نحو رعيته وحدود عمله.

وقد بدأها الكاتب بالإشارة إلى أمر التكليف، حيث يقول: «كتاب من عبد الله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين لأبي العيش بن أيوب، أنه ولّاه النظر في قبيلة أطانة مهران من كتامـة مؤثراً له، ومظهراً لحسن رأيه فيه وثقته به فيها فوَّضه إليه للذي أحبَّهُ من استصلاحه واستصلاح أحواله وأحوالهم وصلة أسبابهم وتمهيد أمورهم». (٤)

ثم حدَّد له واجباته نحو الرعيَّة وحدود عمله التي يجب أن يقف عندها، ورسم له الخطوط العامة للحكم والإدارة، «وأمره بتقوى الله العظيم، فإن الله مع الذين اتَّقوا والذين هم محسنون، والتزام طاعته وطاعة خليفته التي افترضها عليه، مستشعراً لها، مخلصاً فيها، محافظاً عليها، معتقداً للقيام بوظائفها وشروطها...» (٥)

---

(١) - المقتبس: ص ٧٨.

(٢) - هو أبو العيش بن أيوب بن بلال، أحد كبار زعماء البربر في المغرب، وقد عهد إليه الحكم المستنصر برئاسة قبيلة كتامة البربرية سنة ٣٦٢ هـ (انظر: المقتبس: ص ١١٠).

(٣) - كتامة: قبيلة بربرية بالمغرب، وذكر بعض النسابين أن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وإنما هما من الشعوب اليمانية تركهما افريقش بن صيفي بافريقيا مع من نزل بها من الحامية (انظر: تاريخ ابن خلدون: ج ٦، ص ١٧٧).

(٤) - المقتبس: ص ١١١.

(٥) - المصدر السابق نفسه: ص ١١١.

وختم كتاب التعيين بدعوة قبيلة أطانة إلى طاعة أبي العيش بن أيوب مابقي منفِّذاً ماجاء فيه، حيث يقول: «فمن قرأ عهد أمير المؤمنين هذا من أهل قبيلة أطانة أو قُرِىء عليه فليسمع لأبي العيش، ابن أيوب وليطع، فإنه حجة له ولسامعيه إذا عملوا بما فيه وحجَّة له عليهم إذا خالفوه، والله المستعان لارب غيره». [1]

ومن الأغـراض المهمَّـة التي طرقتها الرسائل الإدارية الأوامر والتوجيهات والوصايا الإدارية المختلفة التي كان الخلفاء والأمراء يرسلونها إلى ولاتهم وعمَّالهم وكتَّابهم في مختلف نواحي الأندلس، ومن هذه الرسائل ماكتبه عبد الرحمن الداخل إلى أحد عُمَّاله يستقصره فيما فرَّط من عمله: «أَمَّا بَعْدُ، فإِنْ يَكُنْ التَّقْصِيرُ لك مُقَدَّماً، فعِدِ الاكتفاء أن يَكُونَ لك مؤخراً، وقَد علمتَ بِمَا تَقَدَّمْتَ، فاعْتَمِدْ على أَيّهما أَحْبَبْتَ!». [2]

ومن تلك الرسائل أيضاً ماكتبه الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى عبد الملك بن أمية، [3] وكان قد اختاره كاتباً له فكتب إليه يقول: «قد فَهِمْنَا عَنْكَ وَلَمْ نَأتِ ماأتيناهُ عَن جهْلٍ بك، لكِنَّ اصْطِنَاعاً لَكَ، وَعَائِدَةً عَلَيْكَ. وَقَد أَبَحْنَا لَكَ الاسْتِعَانَةَ بأَهْلِ **اليقظة** من الكُتاب. فَتَخَيَّرْ مِنْهُم مَنْ تَثِقُ بِهِ وَتَعْتَمِدُ عَلَيْه. ونَحْنُ نُعِينُكَ عَلَى أَمْرِكَ بتَفَقُّدِ كُتُبِكَ والإِصْلَاحِ عَلَيْكَ، إلى أنْ تركب الطَّرِيقَةَ وتُبْصِر الخِدْمَةَ إن شاء الله تَعَالَى». [4]

ويتَّضح للباحث أن معظم رسائل التوجيهات والأوامر الإدارية كانت تتَّسم بالإيجاز بخلاف رسائل التولية والتعيين التي كانت تتّسم بالتفصيل والإطناب، ومن أمثلة ذلك، رسالة الأمير عبد الله بن محمَّد إلى أحد عمَّاله، يوضِّح له ماينبغي اتخاذه في كتبه: «أَمَّا بَعْدُ، فلو كَانَ نَظَرُكَ فيما خَصَّصْنَاكَ به، واهْتِبَالُكَ بِهِ عَلَى حَسَبِ

(١) ـ المقتبس: ص ١١٤.

(٢) ـ البيان المغرب: ج ٢، ص ٥٨.

(٣) ـ هو عبد الملك بن أمية، أحد كبار كتاب الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (انظر: البيان المغرب: ج ٢، ص ١٠٧ ـ ١٠٨).

(٤) ـ البيان المغرب: ج ٢، ص ١٠٨.

مواتَرتِكَ بالكتب واشْتِغَالِكَ بذلك عَن مُهِمِّ أمْرِكَ، لَكُنْتَ مِن أحْسَنِ رِجَالِنَا عَنَاءً، وأتمهم نَظَراً، وأفْضَلِهِم حَزْماً. فأقلِلْ مِن الكتب فِيمَا لاوَجْهَ له ولانَفْعَ فِيه، واصْرِفْ هِمَّتَكَ وفكرتَكَ وعنايتكَ إلى مَا يَبْدُو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غِناؤك، إن شاء الله». [1]

ومن الرسائل الإدارية التي تبصِّر ولاة الأقاليم وكُتَّاب الدولة وغيرهم بشؤون التنظيم الإداري الذي تقتضيه سياسة الدولة الداخلية، ماكتب به ابن بُرْدٍ الأكبر عن المظفر بن أبي عامر موضحاً فيه مايجب على الكاتب أن يراعيه في الرسائل الرسمية من إحكام الخط، وإقامة الحروف وما إلى ذلك من مقوِّمات الرسالة الفنية[2] كما ذكرت سابقاً.

ومِمَّا يندرج ضمن رسائل التوجيهات والأوامر الإدارية الموجهة إلى العمَّال والولاة، تلك الرسائل التي تتعلق بشؤون الضرائب وغيرها. مِن ذلك الرسالة التي وجهها الحكم المستنصر إلى القوَّاد والعمَّال بكور الأندلس بإسقاط سدس مغرم الحشد عن جميع الرعايا سنة ٣٦٤ هـ شكراً لله تعالى على إنظاره له، وحسن بلائه لديه، وفيها أوصى بأن يكون هذا السدس المسقط مكشوفاً لجميع الرعايا، شائعاً في الناس يستوي في معرفته العالم منهم والجاهل، فيسبق إلى كلِّ من وجب عليه مغرم معرفة السدس الساقط منه قبل أن يأتي القابض، ترفيهاً لهم واهتبالاً بمصالحهم، حيث يقول: «إنَّ أميَر المؤمنين لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه، وحسن بلائه عنده رأى أن يجدد له الشكر، ويمتري منه المزيد بإسقاط جميع مغرم الحشود الواجب تقاضيها منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة، تخفيفاً عن رعيَّته، وإحساناً إلى أهل مملكته، وعهد أن يكون هذا الاسم المسقط مكشوفاً لجميع الرعايا ليبعد عن احتيال العمال وتسوَّغ الرعية النعمة به، ويستوي في معرفته العالم والجاهل واليقظ والذاهل، فإذا ورد عليك كتاب أمير المؤمنين هذا فاحتفل في إنذار الناس بأقطار عملك ولايتخلفنَّ منهم إلَّا من عُذْر أحد عنك. . .»[3]

---

(١) ـ البيان المغرب: ج ٢، ص ١٥٤.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣) ـ المقتبس: ص ٢٠٧.

التوقيعات

وهي تلك التعليقات التي كان يردُّ بها أمراء الأندلس على بعض الرسائل والشكاوى التي كانت ترفع إليهم. وقد مالوا فيها إلى الإيجاز والبساطة في التعبير، والابتعاد عن التعقيد والتكلّف.

وقد احتفظت بعض المصادر بعدد من توقيعات أمراء الأندلس، ومن ذلك التوقيع الذي كتبه الأمير عبد الرحمن الأوسط على رسالة رفعها أحد السُّعاة إليه، بأنَّ زرياب المغني لم يعظم في عينيه ذلك المال الذي أعطاه الأمير له، وأعطاه في ساعة واحدة، فَوَقَّع: «نَبَهْتَ على شيء كُنَّا نحتاجُ التَّنْبيْهَ عليه. وإنَّما رزْقُهُ نَطَقَ على لِسَانِكَ ، وقد رأينا أنَّه لَمَ يَفْعَلْ ذلك، إلَّا ليُحبِّبَنَا لأهل دارِهِ، ويغمرَهُم بنعمنا، وقد شكرناه، وأمرنا له بمثل المال المتقدِّم، ليمسكه لنفسه، فإنْ كَانَ عِنْدَكَ في حَقِّه مضَرَّةٌ أخرى فارْفَعْها إلَيْنَا». [١]

ومن تلك التوقيعات أيضاً ماردَّ به الأمير عبد الله بن محمَّد على رسالة رفعها إليه الوليد بن عبد الرحمن بن غانم يطلب منه أن يقرِّبه، ويسند إليه بعض المناصب: «إنَّ الله شاكرٌ يحبّ الشاكرينَ، وقد نَادَيْتَ فأسْمَعْتَ، ولكلِّ أجل كِتَابٌ». [٢]

وقد عرف الأمير عبد الله بن محمَّد هذا بحسن التوقيع، ومن ذلك توقيعه لبعض مماليكه، وقد اعتذر إليه من تقصير وقع منه: «وإنَّ مَخَايلَ الأمور لَتَدُلُّ عَلَى خلاف قَوْلِكَ، وَتُنْبِيء عَن باطِلِ تَنَصُّلِكَ، وَلَو بؤتَ بِذَنْبِكَ. واسْتَغْفَرْتَ لِجُرْمِكَ لَكَانَ أحْجَى لك، وأسْدَلَ لِسِتْرِ العفو عَلَيْكَ». [٣]

وقد ردَّ عليه المملوك: «إنَّما أَنَا بَشَرٌ، وَمَا يَقُوْم لي عذرٌ»، [٤] فجاوبه الأمير عبد الله: «مَهْلاً عَلَيْكَ وَرُوَيْداً بكَ! تَقَدَّمَتْ لك خِدْمَةٌ، وتَأَخَّرَتْ لَكَ تَوْبَة، وَمَا للذنب مجالٌ بينهما. وَقَد وَسِعَكَ الغُفْرَانُ». [٥]

---

(١) ـ المغرب: ج ١، ص ٥١.

(٢) ـ أخبار مجموعة: ص ١٤٨. (٣) ـ أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٦.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٢٦. (٥) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٢٦.

رسائل العهود

العهد رسالة ديوانية يدبِّجها كاتب الرسائل على لسان الخليفة لمن اختاره لولاية الخلافة من بعده، وتعرف حينئذ «بعهد الولاية». وتكتب أحياناً على لسان الخليفة أو الأمير بالأمان لثائر أو خارج على الدَّولة، أو لدولة مجاورة زالت أسباب الخلاف معها، وتعرف حينئذ «بعهد الأمان».

ومن عهود الولاية ذلك العهد الذي كتبه أبو حفص بن بُرْد الأكبر على لسان الخليفة هِشَام المؤيَّد بجعل عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وليَّاً لعهده، وقد جاء فيه: «هذا ماعَهِدَ به أميرُ المؤمنين هِشَامٌ المؤيَّد بالله - أطَال الله بَقَاءهُ - إلى النَّاس عامَّة، وعَاهَدَ الله عليه من نفسهِ خَاصَّة، وأعطى به صَفْقَة يَمينِهِ، بَيْعَةً تَامَّة، بعد أنْ أمْعَنَ النَّظَرَ، وأطَالَ الاستخارة، وأهمَّه ماجَعلَ اللهُ له من إمامةِ المسلمين، وعَصَب به من إمْرَةِ المؤمنين. . . . ، فلم يجِدْ أحَداً هو أجدر أنْ يُقلِّدَهُ عَهْدَهُ، ويُفوِّضَ أمْرَ الخلافةِ إليه بعده، في فَضْلِ نفسه، وكَرَمِ خِيمِهِ، وشرفِ مَرْكَبِه، وعُلُوِّ مَنْصِبِه، مع تقواهُ وعفافِهِ، ومعرفتِهِ وإشرافِهِ، وحَزْمِهِ وثقافِهِ، من المأمون الغَيبِ، النَّاصِحِ الجَيْبِ، النَّازح على كلِّ عَيْب، نَاصرِ الدَّوْلَةِ أبي المُطَرف عبد الرَّحْمن بن المنصورِ بن أبي عامر». (١)

وكان الكتَّاب وهم يكتبون مثل هذه العهود ينتهجون أسلوباً خاصاً، وينتقون معاني تتمشى مع طبيعة هدف العهد المتميز عن غيره من الرسائل الدِّيوانية. فقد كان الكاتب يبدأ بالنص على العهد كما تقدم، ثم يتدرَّج إلى بيان الصفات الكريمة والمناقب العظيمة التي تجمعت في ولي العهد، فاستحق بها ولاية العهد، ومن ذلك ما جاء في عهد الخليفة سليمان بن الحكم بالخلافة من بعده لولده: «إنَّ محمد بن أمير

(١) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٠٤ - ١٠٥.

المؤمنين أَوْلَى أَهْلِ بيتِ الخلافةِ بولاية عَهْدِ المُسْلمين غير مُحَاب له ولا آخذٍ بهوادة فيه، بل لِما قد عَلِمَتْه الخاصَّةُ والعامَّةُ مِن تَكَامُلِ خِلال الخَيْرِ، واجْتِماعِ أدواتِ الفضلِ فيه، وما هو عليه في دينهِ وهديهِ وورعهِ وفضلِهِ، وطهارة أثوابه، وعفافِ مَذْهَبِهِ، وصلب نَفْسِهِ، واكتمالِ حِلْمِهِ، وسعةِ عِلْمِهِ، وكمالِ أدَبِهِ، واضطلاعِهِ بأعباء الخلافةِ، ومعرفتهِ بمعاني السياسة، ونفاذِه في التَّدْبِيرِ والإدارة». (١)

وكان الكُتَّاب يسترسلون ويطنبون في بيان صفات ولي العهد وخصاله الحميدة، ويختمون العهود بتاريخ كتابتها. (٢)

أمَّا عهود الأمان فقد كانت من الأغراض الرئيسية التي تناولها كُتَّاب الرسائل الدِّيوانية في هذه الفترة، وذلك بسبب كثرة الفتن والثورات التي قامت في أنحاء مختلفة من الأندلس. وقد وصلتنا إشارات كثيرة إلى عقود أمان مختلفة أعطاها الأمراء والخلفاء لعدد من الثائرين على الحكم منها طلب للأمان من أهل طُلَيْطُلَة إلى بدر مولى عبد الرحمن الداخل، (٣) وعقدان لعمر بن حَفْصُون (٤) الثائر بِبُشْتَر. (٥)

ومما نقلته المصادر من هذا الضرب من العهود، العهد الذي أعطاه عبد الرحمن الناصر لمحمد بن هاشم الذي كان ثائراً بسَرَقُسْطَة، وقرَّ له فيه بعهد الله وأمانه، والمحافظة على حياته وحياة أتباعه من أهل سَرَقُسْطَة، ما داموا ملتزمين بشروط العهد وقيوده، متجنبين لنقضها، ومما جاء فيه: «الأمانَ لمحمّدِ بنِ هاشمٍ. وإخْوتِهِ،

---

(١) - أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٢٦.

(٢) - انظر: المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ١٢٦.

(٣) - انظر: البيان المغرب: ج ٢، ص ٥٣.

(٤) - هو عمر بن حفص بن عمر المعروف بابن حفصون، كان من كبار الثائرين بالأندلس بأعمال رية قبل سنة خمس وسبعين ومائتين، وكان جلداً شجاعاً أتعب السلاطين ولم يستطيعوا القضاء عليه إلى أن توفي سنة ٣٠٥ هـ (انظر ترجمته وأخباره في: الجذوة: ص ٣٠١، بغية الملتمس: ص ٣٩٣، البيان المغرب: ج ٢، ص ١٠٤ - ١١٨، ١٧١).

(٥) - بُبُشْتَر: حصن منيع بالأندلس بينه وبين قرطبة ثمانون ميلاً، وقد كان قاعدة العجم، كثير الديارات والكنائس، وقد دمره ابن حفصون على أكثره (انظر: الروض المعطار: ص ٧٩).

وَبَنيهِ، وَذَوِيهِ، وَجَميعِ أَصْحَابِهِ وَرِجَالِهِ، وَمَن اتَّصل به وبهم جَميعَاً، مِن أهلِ مدينة سَرَقُسْطَةَ، مُدَّةً يَرْضَاهَا النَّاصِرُ لِدِين الله وَيُملِّكُهُ إيَّاها تَمْليكاً، يُدْخِل فيها مَنْ يشـاء من أهْلِهَا في العَدَدِ الذي يَرْضَاهُ من رجاله وأحشامه. ويكُون أهلُ مدينة سرَقُسْطَةَ وَمَن يُبْقِيهِ محمَّدٌ بن هاشم بَيْنَهُمْ مِنْ أهلِهِ وَأتباعِهِ، آمنينَ بأمانِ اللهِ، محفوظين بعَهْد اللهِ، مُسْتَمسِكينَ بِمِثْلِ أمانِ محمّدِ بنِ هاشم، غَيْرَ مُتَعَقَّبينَ في أنفُسِـهم، ولامَأخُوذينَ بِذَنْبٍ سَلَف». (١)

ولاتختلف عهود الأمان والصلح التي كان حكام الأندلس يصدرونها لجيرانهم النصارى عن عهود الأمان التي كانت تعطى للثائرين على الحكم في الأندلس. ومن بواكير هذه العهود ماكتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى تدمير ملك القوط، يقر له فيه بعهد الله وذمَّته والمحافظة على ملْكه ورعيَّته، وحريَّة اعتقادهم وتعبدهم، وسلامة أماكنهم المقدسة، ماداموا محافظين على العهد متجنبين الغدر أو النقض لشروطه، حيث يقول: «من عبد العزيز إلى تُدْمير، أنَّه نَزَلَ عَلَى الصُّلْح، وأنَّ لَهُ عَهْدَ الله وذِمَّتَهُ، ألَّا يُنْزَعَ عن مُلْكِهِ، وَلَا أحدٌ من النَّصارَى عَن أمْلَاكِهِ، وأنَّهم لايقتلون ولايسبون أولادهم ونساءهم، ويُكرهون على دينهم، ولاتحترق كنائسهم ماتعبد ونصح، وأنَّه لايأوي لنا عدواً ولا يخونُ لنا آمناً، ولايكتمُ خبراً عَلِمَهُ...». (٢)

ويبدو للباحث أن تلك العهودِ كانت تبدأ بالنَّص على العهد والمشتركين فيه كما في العهد السابق، وفي عهد الأمان والصلح الذي أصدره عبد الرحمن الدَّاخل لجيرانه نصارى قشتالة، وفيه يقول: «كِتَابُ أمانِ الملكِ لعظيمِ عبد الرحمن، للبطارقة والرهبان والأعيان والنَّصارى والأندلسيين أهل قشتالة وَمَن تَبِعَهُم من سائرِ الْبُلْدَانِ. كِتَابُ أمانٍ وَسَلَامٍ». (٣)

ثم يتدرَّج الكاتب إلى وصف ظروف العهد وماشتمل عليه من الشروط، وكثيراً ماكانت تحشى هذه العهود بأسماء المناطق والمدن التي شملها العهد. (٤)

(١) - المقتبس: ج ٥، ص ٤٠٥.

(٢) - نصوص عن الأندلس: ص ٨٠ - ٨١.

(٣) - الوثائق السياسية: ص ١٣٤.

(٤) - انظر: بغية الملتمس: ص ٢٧٤.

الرسائل السياسية

ويقصد بها تلك الرسائل التي كتبت لمعالجة موضوعات سياسية أو فكرية مختلفة، فرضتها طبيعة الأحداث السياسية التي شهدتها الأندلس خلال القرون الثلاثة الأولى للفتح الإسلامي لها.

وتعدُّ تلك الرسائل صدى للصراعات السياسية والاضطرابات والفتن الداخلية،[1] إلى جانب الحركات الفكرية التي ظهرت في الأندلس آنذاك،[2] كذلك فقد كانت تلك الرسائل أحياناً صدى للتطوّر السياسي الذي وصلت إليه الدولة، وعلاقاتها بالدول المجاورة،[3] لذا فقد كانت الرسائل السياسية ترسم سياسة الدولة، وتوضّح موقفها من تلك الأحداث والتطورات المختلفة.

ويظهر للباحث أن الرسائل السياسية لم تقتصر على ماكان يصدر عن الدولة وديوان الرسائل فيها، بل كانت تشمل أيضاً ماكان يصدرعن الحكام والثائرين على الدولة في بعض المدن والأقاليم، من رسائل تعالج أموراً سياسية مختلفة.

وقد تعدَّدت ألوان الرسائل السياسية وتنوَّعت أغراضها، ومن ذلك رسائل الزجر والاستصلاح وتهديد الخارجين على الحكم، وهي تلك الرسائل التي كانت تصدر عن ديوان الرسائل في حالة شيوع الاضطرابات في ناحية من نواحي الأندلس المختلفة، وفي حالة خروج أو عصيان والٍ على الأمير أو الخليفة ومحاولته الاستقلال عن سلطانه. وتعمد هذه الرسائل إلى أسلوب الزجر والتخويف والتهديد حيناً، وإلى أسلوب المصانعة والملاطفة والترغيب حيناً آخر.

---

(١) ـ انظر: البيان المغرب: ج ٢، ص ٥٨.

(٢) ـ انظر: المقتبس: ج ٥، ص ٢٠ ـ ٣١.

(٣) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٣٠٦، البيان المغرب ج ٢، ص ١٩٨، الوثائق السياسية: ص ١٣٤.

ومن بواكير رسائل الزجر والتهديد ماكتبه عبد الرحمن الداخل إلى رجل خارج عليه يسمى سليمان الأعـرابي، حيث يدعـوه بالرجوع عن غروره، ويهدده بالبطش به إن هو لم يستجب لدعوته، حيث يقول: «أمَّا بَعْدُ، فدَعْني مِن مَعَاريضِ المَعَاذِيرِ، والتَّعَسُّفِ عن جَادَّةِ الطَّريق، لَتَمُدَّنَّ يداً إلى الطَّاعَةِ، والاعْتِصَام بحَبْلِ الجَمَاعَةِ، أو لأُلْقِيَنَّ بِنَابِهَا على رضف المعصية نكالاً بما قَدَّمَتْ يداك، وَمَا اللهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ». (١)

وكان بعض الثائرين على الدولة قد وجّه عدداً من رسائل التهديد لأمراء الأندلس، ومن ذلك تلك الرسالة التي بعث بها عبد الرحمن الجليقي (٢) إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن عندما علم بأنه قد جهَّز حملة عسكرية ضده، ويهدِّده فيها بإحـراق مدينـة بَطَلْليوس وإضرامها بالنَّار، إن حاول جيش الأمير التعرض له، حيث يقول: «بلغني أن هاشماً خرج إلى جهة الغرب، ولست أشك أنه قد أطمعه في أخذ الثأر مني كوني في حصن مغلق، وبالله لئن جاز لبلة (٣) إليَّ لأضرمن بَطَلْيَوس بالنَّار، ثم أعود إلى حالي الأول معك». (٤)

ومن بواكير الرسائل التي سلكت سبيل المصانعة والملاطفة والترغيب، تلك الرسالة التي وجهها يوسف الفهري إلى عبد الرحمن الداخل قبل الحرب بينهما، يعـرض فيهـا عليه الرعاية، ويحاول خداعه وإقناعه بالعدول عن الحرب متبعاً أسلوب الترغيب والملاطفة: «أمَّا بَعْدُ، فَقَد انْتَهَى إلينا نُزولُك بساحل المُنكَّب، وَتَأَبُّشَ مَن تأَبَّشَ إلَيْكَ وَنَزَعَ نَحْوَكَ من السُّرَّاق وَأَهْلِ الخَتْرِ والغَدْرِ وَنَقْضِ الأيمانِ المؤكَّدة، الَّتي كذَّبوا الله فِيْهَا وكذَّبونا! وَبهِ ـ جلَّ وعلا ـ نَسْتَعِينُ عَلَيْهِم، وَلَقَد كانُوا معنا في ذَرى

---

(١) ـ البيان المغرب: ج ٢، ص ٥٨.

(٢) ـ هو عبد الرحمن بن مروان الجليقي منسوب إلى بلده، كان من الخوارج في أيام بني أمية بالأندلس، وكان ابتداء خلافه مع أمراء الأندلس سنة ٢٦١ هـ، وتوارثها ولده (انظر ترجمته وأخباره في: الجذوة: ص ٢٧٩، المغرب: ج ١، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

(٣) ـ لَبْلَه: مدينة قديمة، تقع غرب قرطبة (انظر: مراصد الاطلاع: ج ٣، ص ١١٩٧، الروض المعطار: ص ٥٠٧).

(٤) ـ تاريخ افتتاح الأندلس: ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

كَنَفٍ ورفاهيّة عيشٍ، حَتَّى غمصوا ذلك، واستُبدلوا بالأمن خوفاً، وجنحوا إلى النقض، والله مِن ورائهم محيطٌ. فَإنْ كُنْتَ تريدُ المالَ وَسعَةَ الجناب، فأنا أوْلَى لَكَ مِّن لجأتَ إليه، أكْنفُكَ، وأصِـلُ رَحِمَك، وأُنزِلُكَ معي إنْ أَرَدْتَ وبحيث تريدُ، ثم لَكَ عهدُ اللهِ وذِمَّتُه في ألاَّ أغْدِرَ بِكَ، ولأُمَكِّنَ مِنْكَ ابن عَمّي صاحب إفريقيا ولا غَيْرَهُ». (١)

ومن الرسائل التي سلكت سبيل الملاطفة والترغيب في مخاطبة الثائرين على الـدَّولة، ماكتبه يزيد بن طلحة(٢) إلى أهل قرْمُونية(٣) يحضُّهم على الطاعة ونبذ الخـلاف، لما في ذلك من مصلحة للأمة وحقن للدماء: «إن أحقَّ مارجع إليه الغالون، ولحق به التالون، وآثره المؤمنون، وتعاطاه بينهم المسلمون، مما ساء وسرَّ ونفع وضرَّ، ماأصبح به الشمل ملتئمًا، والأمر منتظمًا، والسيف مغموداً ورواق الأمن ممدوداً، وليس في ذلك أولى بإحراز الثواب . . » . (٤)

ومن هذا الضرب من الرسائل أيضاً ماكتبه ابن بُرْدِ على لسان المظفر ابن أبي عامر في استنزال أحد الخارجين على الدولة: «السَّعِيدُ من خَافَ رَبَّه، وعَرَفَ ذَنْبَهُ، وبَادَرَ بالتَّوْبَةِ قَبْلَ فَوْتِها، واستعطى الرَّحْمَةَ قَبْلَ مَنْعِهَا. وإنْ كُنْتَ تَرَكْتَ قَصْدَكَ، وَخَالَفْتَ رُشْدَكَ، ونُكِبْتَ عَن سبيلِ سلَفِكَ، فلم يُوحِشك مِّن شَرَدْتَ عليه مَكْرُوهٌ نَالَكَ بِهِ، ولم يؤنسكَ مِّنْ جَنَحْتَ إليه أملٌ لم تَطْمَعْ فِيهِ إلاَّ لَدَيْه. . . وَلَنْ تَضيقَ بكَ السَّبيلُ عِند أمير المؤمنين، وَأَنْتَ بَيْنَ طَاعَةٍ سالفةٍ، واستقامةٍ مَوْرُوثَةٍ، وبين إنابةٍ مُنْتَظَرَةٍ، وتوبةٍ مُسْتَقْبَلَة . . » . (٥)

---

(١) ـ البيان المغرب: ج ٢، ص ٤٥.

(٢) ـ هو يزيد بن طلحة القيسيّ، ويعرف بيزيد الفصيح، كان أستاذاً في العربية، مقدماً مشهوداً بالفضل، شائع الذكر، ذا حظ في البلاغة (انظر ترجمته في: طبقات النحويين: ص ١٧١، تاريخ علماء الأندلس: ج ٢، ص ١٩٧).

(٣) ـ قَرْمُونية: مدينة كبيرة قديمة، تقع شمال شرقي إشبيلية، وقد افتتحها عبد الرحمن الناصر سنة خمس وثلاثمائة (انظر: مراصد الاطلاع: ج ٣، ص ١٠٨١، الروض المعطار: ص ٤٦١).

(٤) ـ طبقات النحويين: ص ٢٧١.

(٥) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

ومن ألوان الرسائل السياسية أيضاً ماكـان يصدر على شكل منشورات، أو بيانات سياسية عامة توجَّه إلى الرعية، ومن هذه المنشورات ماوجَّهه الثائر عمر بن حَفْصُـون إلى النـاس زمن الأمير منذر بن محمَّد عندما وجد إقبالاً من الناس، يذكِّرهم فيه بالمظالم التي لحقتهم من سوء إدارة بعض ولاة الدولة، مستغلاً بذلك العصبية القبلية، حيـث يقول: «طَالَ مَا عنَّفَ عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وَحَمَّلكُم فوق طاقتكم، وأذَلَّتْكُم العَرَبُ، واستعبدَتْكُم، وإنَّمَا أُرِيدُ أن أقومَ بثأرِكُم، وأُخْرِجَكُم من عُبُودِيَّتِكُمْ». (١)

ومن ذلك أيضاً المنشور السياسي الذي وجَّهه الخليفة عبد الرحمن النَّاصر إلى عمَّاله ليخبرهم باتخاذه لقب الخليفة وأمير المؤمنين، وليلزمهم بمخاطبته به، ولينبهوا الخطباء إلى مراعاته، لما استحقه من هذا اللقب الذي هو أهل له بالحقيقة، ولغيره بالانتحال والاستعارة، فهو ابن أُمَرَاء الْمُؤمنين، وسُلالةِ الْهداةِ الفَاضِلينَ، والأئمَّةِ الْمُتَّقِينَ القائمين بالحَقِّ، (٢) حيث يقول: «أما بعد، فإنَّا أحقُّ من استوفى حقـه، وأجدرُ من استكمل حظه، ولبس من كرامة الله ماألبسه، للذي فضَّلنا الله به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا إدراكه، وسهَّل بدولتنا مرامه، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلوِّ أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا..». (٣)

ثم هو يؤكدُّ أن اتخاذ هذا للقب واجب عليه، وأن ترك هذا اللقب هو ترك لحق أضاعه واسم ثابت أسقطه: «وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخـروج الكتب عنَّـا وورودها علينا بذلك، إذ كلُّ مدعوٍّ بهذا الاسم غيرنا منتحلٌ له، ودخيل فيه، ومتَّسمٌ بما لايستحقه، وعلمنا أنَّ التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حقٌّ أضعناه، واسمٌ ثابتٌ أسقطناه..»(٤)

---

(١) ـ البيان المغرب: ج ٢، ص ١١٤.

(٢) ـ انظر: المقتبس: ج ٥، ص ٢٤١، البيان المغرب: ج ٢، ص ١٩٨.

(٣) ـ البيان المغرب: ج ٢، ص ١٩٨.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ١٩٨.

ومن البيانات والمنشورات السياسية ماكان يصدر باسم الخليفة لتوضيح موقف الدولة من بعض العقائد الزائفة والأفكار المنحرفة، أو الاتجاهات الفكرية المخالفة للدولة، وللتنديد بها والتحذير من اتِّباعها، وذلك لحماية أفكار الرعية منها.

ومن ذلك البيان السياسي الذي وجَّهه الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى آفاق الأندلس في التنديد بمذهب ابن مَسَرَّة[1] وأتباعه وتحذير الرعية من اعتناقه، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي.

وقد بدأ الكاتب رسالته بالحديث عن تعاليمهم المنحرفة، وأفكارهم الزائفة، وخروجهم عن الجماعة وما ابتدعوه في الشريعة، وانتحلوه في الديانة، حيث يقول: «طلعت فرقةٌ لا تبتغي خيراً ولا تأْتَمِر رشداً، من طَغام السَّوادِ، ومن ضعف آرائهم، ومن خشونة الأوغاد. . .، كتباً لم يَعْرفوها، ضلَّت فيها حُلومُهم وَقَصرتْ عنها عُلوهُم، وظنّوا أنهم فَهِموا ما جهلوا وتفقهوا فيما لم يدركوا، واستولى عليهم الخِذْلان وأحَلْ عليهم بخيله ورجله الشيطان، فزيِّنوا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنين لا علم عندهم، فقالوا بخلق القرآن واستيأسوا وآيَسُوا من رُوحِ الله. . وأكْثَروا الجدَالَ في آيت اللهِ، وَحَرَّفوا التَّأَوُّلَ في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ فَبَرِئَتْ مِنْهُم الذِّمَّةُ. . .»[2].

ثم انتقل للحديث عن موقف أمير المؤمنين من هذه الفرقة الخبيثة، فحذَّر الناس من اعتناقها وهاجم أتباعها: «وأنَّ سيف أمير المؤمنين من ورائهم، ونظره محيطٌ بهم، ولَّما صار غيُّهم فاشياً وجهلهم شائعاً، واتَّصل بأمير المؤمنين من قدحهم

(١) ـ هو محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح، من أهل قرطبة، خرج إلى المشرق، واشتغل بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة، فحذق أقوالهم ثم انصرف إلى الأندلس، فأظهر ورعاً ونسكاً واعتزالاً للناس، فاغتروا بظاهره، واختلفوا إليه وسمعوا منه، ثم ظهر الناس على سوء معتقدة وقبح مذهبه، فانقبض عنه من كان له إدراك وعلم بحجره، وتمادى في صحبته آخرون غلب عليهم الجهل والتحير، فدانوا بنحلته، وبثوا في الناس مذهبه الاعتزالي، وقد رمي بالزندقة بالأندلس، توفي سنة ٣١٩ هـ، (انظر: تاريخ علماء الأندلس: ج ٢، ص ١٩، المقتبس: ج ٥، ص ٣٠ ـ ٣٦، الجذوة: ص ٦٣)

(٢) ـ المقتبس: ج ٥، ص ٢٧.

في الـدِّيانـة وَصَدوفِهم عن الجَادَّة ما شغل نَفْسَهُ وأقْصَرَ مضجعه وأسهر ليله، أغْلَظَ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم، وأوعز إيعازاً شديداً وأنذر إنذاراً فظيعاً وعهد عهداً مؤكَّداً شافياً كافياً، نظر به لوجهه، تبارك اسمه، وقدَّم فيه بين يدي العقاب الشديد، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته، ليقرع قلب الجاهل، ويفتَّ كيد المستهتر الحائر، وينقضَ عزم المعاند المعاجل، ويضطرَّ الغواة إلى الإنابة الصحيحة التي تقبَّلها الله منهم..»[1]

ثم ختم كتابه بتوجيه أمر سياسي إلى عمَّال أمير المؤمنين وقوّاده وولاته بتتبّع هذه الفرقة المارقة، والتحري لها، والتضييق عليها، وإلقاء القبض على من عثر عليه من أتباعها، لاستجلابهم إلى الخليفة لينظر في أمرهم حسب مايوجبه الحق: «وتتبَّع هذه الطائفة بجميع أعمالك، وابْثُثْ فيهم عيونك، وطالب منهم غورهم جهدك، فمن تجلَّى بطبقتهم أن انْتَسب إليهم وقامت عليه البيِّنات بذلك عندك، فاكْتُبْ إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم وأسماء الشُّهود عليهم، ونصوص شهاداتهم ليعهد باستجلابهم إلى باب سُدَّتِهِ، لينكَّلوا بحضرته، فيذهب غيظ نفسه ويُشفى حَرّ صدره..»[2]

ومن الأغـراض المهمـة التي تنـاولتهـا الـرسائل السياسية أيضاً العلاقات الخارجية، وبعض الأمور والمشكلات السياسية بين الدَّولة الإسلامية في الأندلس وبعض الإمارات والدُّول الإسلامية والدُّول النَّصرانية في أنحاء مختلفة من أوروبا.

وقد كان لنشاط حركة السفارات بين قرطبة وزعماء الشمال الإفريقي ودول أوروبا النصرانية[3] دور كبير في ازدهار هذا اللون من الرسائل السياسية.

وممـا يؤسف له أن جلَّ هذه الرسائل لم يصل إلينا، وقد وصلتنا إشارات كثيرة عن رسائل سياسية متبادلة بين حكّام الأندلس وزعماء آخرين في أوُروبا وإفريقيا.

---

(١) ـ المقتبس: ج ٥، ص ٢٨ ـ ٢٩. (٢) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٢٩.

(٣) ـ انظر: المقتبس: ص ٧١ ـ ١٣٨، ١٣٩، ١٦٩، البيان المغرب: ج ٢، ص ٢١٦، ٢١٧، ٢٣٥، ٢٣٩.

وقد كانت الرسائل السياسية التي انتهت إلينا تتَّسم بالشدة والعنف، وتتَّسم حيناً آخر باللين واللطف، وهي تتراوح بين الإيجاز والإطناب.

ومن تلك الرسائل التي تتَّسم بالعنف الشديد ماجرى بين الحكم المستنصر والعزيز بالله الفاطمي، فقد كتب العزيز بالله الفاطمي رسالة إلى الحكم المستنصر يهجوه فيها ويسبّه، فردَّ عليه الحكم المستنصر برسالة عنيفة قال فيها: «وبعد، فقد عرفتنا **فهجوتنا**، ولو عرفناك لهجوناك، والسلام». (١)

ومن الرسائل السياسية التي تتَّسم باللطف واللين، تلك الرسالة الجوابية التي بعث بها الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى امبراطور الروم تيوفيلوس، ويستدلُّ من هذه الرسالة على مانطوت عليه رسالة امبراطور الروم التي ضاعت ولم تصل إلينا، فهو يطلب من الأمير عبد الرحمن إقامة علاقات ودية وصداقة قوية بينهما لتكون امتداداً للصداقة التي كانت بين أسلافهما زمن الدَّولة الأموية في المشرق، ويعبِّر عن أسفه وحزنه الشديد لما حلَّ ببني أمية في المشرق من قتل وتشريد، ويهاجم الخلافة العباسية، ويعرض لسوء حكم بعض الخلفاء العبَّاسيين وانحرافهم عن مصلحة رعيتهم.

وقد ردَّ عليه الأمير عبد الرحمن برسالة مماثلة، يذكر له فيها أنه يرغب في مودته وصداقته، وأنه يسعى لذلك إحياء لذكر المودة التي كانت بين أسلافهما، حيث يقول: «وأمَّا مارغبت من مودتنا، وأحببته من مصادقتنا، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه، مما كان عليه أولوك لأولينا، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا. وأن نتمسك من ذلك، بما كان عليه سلفنا، ومالم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به، ويتحاضون عليه، ويحفظه بعضهم لبعض، ويشدون أيديهم به». (٢)

ثم هو يشكره على مشاعره الصادقة نحو بني أمية لما حلَّ بهم في المشرق من قتل وتشريد وانتهاك للمحارم، ويشاركه في مهاجمة بني العبَّاس، والطعن في سيرة

---

(١) ـ النجوم الزاهرة: ج ٤، ص ١٤٩.

(٢) ـ الوثائق السياسية: ص ١٤٧.

بعض خلفائهم والتقليل من شأنهم، ويعده إنْ ردَّ اللهُ سلطان الأمويين في المشرق فإنه سينظر بعين العطف في طلبه بما فيه صلاح الطرفين، ومَّما جاء في ذلك قوله: «وفهمنا ماذكرته من أمر الخليفة مروان رضي الله عنه وصلّى عليه، ومن وشائج قرابتنا منه، وآسيت لما استلب من سلطانه، واستبيح من حرمه، واستحل من دمه، وما كان من الفاجر أبي جعفر، وجرأته على الله، فهو لامحالة يجازيه جزاء سعيه. . ، وإن الله بحوله وقوته وفضله ومنّته رد إلينا سلطاننا بالمشرق وماكان تحت أيدي آبائنا منه نظرنا في ذلك بما فيه من صلاح لنا ولك، واستقامة لطاعتنا وطاعتك». (١)

ويختتم رسالته هذه بالتعبير عن صدق مودته له، ويذكر له بأنه قد أرسل إليه رسولين من عنده توكيداً لهذه المودة الخالصة، حيث يقول: «قد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعن كلِّ مايجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه، ووجّهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحي من قبلنا، فاكتب إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا، والذي يجب عليك من سائر خيرك، ومتعة عافيتك لننظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله»(٢).

ومن الرسائل السياسية أيضاً تلك الرسائل التي كان يتبادلها حكّام الأندلس مع حلفائهم من أمراء البربر في العدوة المغربية، ومن ذلك رسالة بعث بها الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى محمد بن خَزَر. (٣) وقد بدأ رسالته بالحديث عن عزمه على استرداد ملك أجداده الأمويين في المشرق: «وإنَّ أمير المؤمنين، لمَّا تفرَّغ باله، وتقضَّت بالأندلس أشغاله، واكتملت له في أعدائه آماله، ولم يبقَ عليه فيها بقيةٌ يعانيها، ولاحال يستعمل رجاله فيها، صرف عزيمته، وأمال همَّته إلى مابين يديه من أسباب المشرق، وطلب مالم يزل لأوّله حقّاً، وله ميراثاً، مع ما ينويه ويرجو أن يجري الله

(١) - الوثائق السياسية: ص ١٤٦ - ١٤٨.

(٢) - المصدر السابق نفسه ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٣) - هو محمد بن الخير بن خزر الزناتي، أمير زناتة، ومن دعاة بني أمية الأندلسيين في العدوة (انظر: المقتبس: ص ٣٥، البيان المغرب: ج ٢، ص ٢٤٣).

أكرومته على يديه، من إحياء الدِّين بنظره، وإماتة البِدَع بقويم منهاجه، وحماية بيت الله الحرام، المنتكثة حرمته المعظَّمة..»[1]

ثم انتقل للحديث عن عمله على العبور إلى العدوة المغربية بجيوش عظيمة العدد والعدة لقراع من ابتزّهم الخلفاء بالمشرق من خلائف الهاشميين في سبتة ووهران: «وقد أمر أمير المؤمنين بالتَّأهُّب والاستعداد بالرِّجال والأجناد، وتخيُّر الكماة وانتقاء الرماة، وتضعيف العَدَدِ وتكثير العُدَدِ، وتجريد الآلات، وتكميل الأدوات، والنظر في إلحاق الحشود بالجنود لميقات معلوم ووقت محدود، وأن يستكثر من جميع المراكب، إلى ماقد قام منها، ويتوسَّع في عُدَدِها لتجهيز الأساطيل المؤيَّدة في وقت إجازتها، وعند إمكان البحر لها السير، طائفة منها نحو سبتة،[2] وأُخرى إلى جهة وهران،[3] فيمن تخيَّره من وجوه قوَّاده وأعلام رجاله وصميم حشمه وأبطاله، أهل البأس والصَّبر وحُسن البلاء وقوّة الجَلَد...، لايهول أحدهم قرنٌ يناوله، ولايثني مقنبهم جيشٌ يقابله، كالليوث في إقبالها، والتَّنانين في التهامها، قد مارستهم الحروب ومارسوها، وساستهم الخطوب وساسوها، فهي أمّهم، وهم بَنوها...»[4]

ثم ختم رسالته إلى الأمير محمد بن خَزَر بأن طلب منه أن يستعد ويتأهب لقيادة الجيوش الأندلسية، فهو نصيره على استرداد ملك أسلافه الأمويين في المشرق، ومقدَّمته في طلبه، حيث يقول: «فاستعدَّ، أسعدك الله، لتكون صدر القُوَّاد، كما أنت صدر أولي الوداد، ومتقدِّماً للرجال، كما أنت صدر الصِّيال، فإنَّ أمير المؤمنين يرجو، بالله عونه وعليه توكُّله، أن يكون قد قرُبَ الوقت الذي قد رجوت الفوز به والإدراك له وبُلوغ الأمل منه، إن شاء الله، عزَّ وجلَّ».[5]

---

(١) ـ المقتبس: ج ٥، ص ٣٠٦.
(٢) ـ سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، وهي تقع على البحر المتوسط في مقابلة جزيرة الأندلس (انظر: مراصد الاطلاع: ج ٢، ص ٩٨٨، الروض المعطار: ص ٣٠٣).
(٣) ـ وهران: مدينة بالمغرب على ساحل البحر الأبيض المتوسط، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا من جهة الغرب، ويقال أنها بنيت سنة ٢٩٠ هـ (انظر: مراصد الاطلاع: ج ٣، ص ١٤٤٦، الروض المعطار: ص ٦١٢).
(٤) ـ المقتبس: ج٥، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧. (٥) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٣٠٧.

الرسائل الحربية

ومن الموضوعات المهمة التي عالجتها الرسائل الدِّيوانيَّة الأمور الحربية المختلفة. فقد شهدت الأندلس خلال القرون الثلاثة الأولى للفتح كثيراً من الأحداث السياسية التي تمخَّضت عنها حروب ووقائع داخلية وخارجية خطيرة. وقد كان لنشاط الجيوش الأموية واستمرار حركتها في محاربة الثائرين على الحكم، إلى جانب نشاطها الخارجي الذي يتمثَّل في الجهاد ضد الدول النصرانية في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة الإلبيرية، ومحاربة الحسينيين الذين تحالفوا مع الفاطميين في العدوة المغربيَة ضد الأمويين بالأندلس، صداه الواسع في أدب الرسائل، إذ كان حافزاً قوياً لإنشاء تلك المكاتبات الحربية التي كانت حلقة الوصل بين الخليفة أو الأمير الأندلسي وأمراء الجيش في ساحات المعارك.

وقد تعدّدت أغراض الرسائل الحربية وتنوَّعت بحسب المواقف التي تمليها طبيعة الظروف الحربية السائدة. ومن الأغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الحربية إسداء النصائح المختلفة للقادة وتوجيههم إلى مافيه سلامة الجيش وتحقيق الظفر. ومن هذه الرسائل ماكتبه الأمير عبد الله بن محمد إلى قائده أحمد بن محمد يحضُّه على التوكل على الله والثِّقة به، ويدعوه إلى أخذ الحيطة والحذر من العدو، حيث يقول: «أمَّا بعد، فالتزم التوكل على الله - تبارك وتعالى - والثقة به في جميع أمورك، وما أنت بسبيله من ثغرك، فإنها حِرْز من كلّ ضر يتقى، وبلاغ لكل خير يرتجى، وكن من التحفظ في أيام عيدك على أحسن الذي يجب عليك الأخذ به والتحفظ فيه فالله خير حافظ، وهو أرحم الراحمين». (١)

(١) - أخبار مجموعة: ص ١٥٢.

ومن هذه الرسائل أيضاً تلك الرسالة التي وجهها الحكم المستنصر إلى قُوّاده في العدوة المغربية، وفيها يوصيهم بجملة من الوصايا العسكرية التي تكفل لهم النصر، وتؤمِّن لهم سلامة الجند، ويدعوهم إلى إذكاء، العيون وبثِّ الجواسيس لاستطلاع أحوال العدو: «إنَّ أفضل ما احتمل عليه وعمل به استشعار الحزم، وادِّراع التحفظ، واستنصاحُ الاتهام، وإذكاء العيون، وبثُّ الجواسيس والاستكثار منهم، ومن حملة الأخبار حتَّى لايخفى لحسن[1] - أهلكه الله - حركةٌ ولايتوارى له مذهب». [2]

ومن ذلك ماجاء في الرسالة الجوابية التي بعث بها الحكم المستنصر إلى قائده في العدوة المغربية غالب بن عبد الرحمن الناصري، [3] وفيه يدعو إلى استشعار الحذر، وإيقاظ النظر، حيث يقول: «وليس يخفى عليك أن الشِّتاء بين يديك، والبحر دونك، وربَّما تعذَّر ركوبه فاجعل الطعام ذخيرتك، وحفظه تجارتك، فالأموال بحمد الله موفورة، واحتمالها في كلِّ وقتٍ متمكن. . . واحتط في لطَّعام جهدك، ووطِّن على الصبر نفسك، ولاتمنَّها برجوع إلى بيتك حتى يقطع الله دابر الفاسقين، ويفرق ملأ الملحدين». [4]

---

(١) - هو حسن بن قاسم بن قنون الحسيني الادريسي، آخر أمراء الدولة الإدريسية الثانية في العدوة المغربية، وقد تحالف مرات عديدة مع الفاطميين ضد الأمويين بالأندلس، وقد بعث الحكم المستنصر إليه جيوشاً عظيمة إلى أن تمكن من الانتصار عليه سنة ٣٧٥ هـ، وقد اقتيد أسيراً إلى قرطبة وقتل غيلة وهو في الطريق (انظر: الأنيس المطرب: ص ٨٩، جذوة الاقتباس: ج ١، ص ١٧٦).

(٢) - المقتبس: ص ٩٧.

(٣) - هو القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري، أحد أمراء البحر، ومولى عبد الرحمن الناصر، وقد أصبح أيام الحكم المستنصر من كبار رجال الدولة، ثم صار حاكمًا للثغر الأعلى، وأراد المنصور ابن أبي عامر أن يتألفه ليستعين به، حيث كان غالب من فرسان الأندلس الكبار، فتزوج بنت غالب، ولكن دب الخلاف بينهما، وانتهى إلى معركة عسكرية، قتل فيها غالب سنة ٣٧١ هـ. (انظر: البيان المغرب: ج ٢، ص ٢٧٨ - ٢٧٩، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٦٢ - ٦٥).

(٤) - المقتبس: ص ١٣٥.

ومن الموضوعات التي طرقتها الرسائل الحربية أيضاً الاستنجاد وطلب الإمدادات العسكرية والمؤن، وقد نشأ هذا اللون من الرسائل بسبب انشغال الجيوش الأندلسية بإخماد نيران الفتن والثورات الدّاخلية والحروب الأهلية التي اشتعلت في بعض الأقاليم الأندلسية، إلى جانب توالي الفتوح في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة الأندلسية، وانطلاق الجيوش الأندلسية في العدوة المغربية لمحاربة الحسن بن قنون وأتباعه من الحسينيين، ومايتطلبه ذلك من إمداد الجيوش بالعدد والعدة لتحقيق الظفر.

ويتّصل بهذا اللون من الرسائل تلك الرسائل والمنشورات التي كان يوجّهها الخليفة أو من ينوب عنه في قيادة الجيش إلى القُوّاد والعمّال بأنحاء الأندلس يحضّهم فيها على الجهاد واستنفار الناس إلى الأعداء.

ومما انتهى إلينا من رسائل الاستنجاد وطلب الإمدادت العسكرية تلك الرسالة التي وجهها الحكم المستنصر إلى قائده غالب بن عبد الرحمن الناصري، جواباً على رسالته التي أرسلها إليه يشكو فيها غلاء الأسعار في العدوة المغربية لكثرة أفراد الجيش ويطلب منه المدد. وقد استهل رسالته تلك بدعوة قائده ألاَّ يهتم بالأطعمة والأرزاق: «وقد كفاك الله الاشتغال بالتفكير في مال أو طعام، فموادها موصولة بك متلاحقة لديك، حتى يفتح الله في الظالم القاطع بعدله، ولو أتى ذلك على بيوت الأموال المترعة وأهراء الأندلس المغتصَّة، فلو لم يبقَ منها غير مافي الأهراء الخاصّة بقرطبة لاحتمل إليك جميع ما فيها»(١).

ثم هو يذكّره بأنَّ عليه أن يجعل هَمَّه الأول الحرب ومجاهدة الفاسق المارق ابن قَنُّون حتى يظفر به: «فأقبل على مابين يديك إقبال من لايناجي نفسه بانصرافٍ أو انحرافٍ، إلاَّ بعد الظهور على عدوِّك بحول الله وقوته، أو اضطراره إلى الجنوح والرجوع عن غيِّه والإنابة إلى رشده باللحاق بباب سُدَّة أمير المؤمنين، فهذه أقلُّ الأحوال المرتضى بها مِنْهُ أو نفيه عن أرضه وإخراجه عن جميع ذلك البلد»(٢).

---

(١) - المقتبس: ص ١٣٠ - ١٣١.
(٢) - المقتبس: ص ١٣١.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الحكم المستنصر يريد من رسالته أن يبثَّ الحماسة في نفس قائده، ويذكي فيه روح الاستبسال.

وللحكم المستنصر أيضاً رسالة أخرى بعث بها إلى قائده غالب بن عبد الرحمن الناصري، يمدُّه فيها بجيش عظيم يقوده الوزير القائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي في العدوة المغربية، وقد جاء فيها: «وأن العهد عند الوزير القائد يحيى بن محمد مقررٌ بالخفوف إليك والبدار نحوك، متى ورد كتابك في ليلٍ أو نهار، وأنّ يتصرَّف كيف رأيت تصريفه، فهو مدد لك وعون على محاولتك. فانظر في جميع مابين يديك، ومن يحويه عسكرك نظر من أفرده أمير المؤمنين ببعثه، وقلَّده مابين يديه».[1]

ومن الأغراض التي تناولتها الرسائل الحربية أيضاً الثناء والعتاب، إذ أن الخليفة أو من ينوب عنه في قيادة الجيش كان يراسل بعض القادة الذين يظهرون الطاعة والولاء أو الإخلاص في تأدية مهامهم العسكرية، فيتوجَّه إليهم بالشكر والثناء والتقدير. وكان يكاتب أحياناً من يصدر عنهم تقصير في القتال أو تفريط في القيادة.

ومن رسائل الثناء والتقدير التي انتهت إلينا ماكتبه الحكم الرَّبضي إلى قائده وعامله على سرَقُسْطَةَ الفرج بن كنانة،[2] يثني عليه وقد أبلى بلاء حسناً في القضاء على حركة تمرُّد قامت في سَرَقُسْطَةَ وتمكُّن من جمع كلمة العرب والبربر في ولايته، ومِّما جاء فيها: «أصبت رأيك فيما جمعت من كلمة الفريقين، وأصلحت من أمرهم، وقد عرفنا حسن رأيك وصواب سياستك فيما حملناك من أمانتهم، وعصبنا بك من أمرهم، ووقع لك منا موقع المعرفة والسلام».[3]

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) ـ هو الفرج بن كنانة بن نزار الكناني، كان من أهل العلم والتقييد، وكانت له رحلة إلى المشرق، ولما قدم من رحلته استخصنه الأمير الحكم، واستقضاه على قرطبة، وولاه عدداً من المدن الأندلسية، وقد تولى قيادة عدد من جيوش الحكم في حربه ضد النصارى (انظر ترجمته في: قضاة قرطبة: ص ٤٠ ـ ٤٤).

(٣) ـ قضاة قرطبة: ص ٤٣.

ومن رسائل اللوم والعتاب تلك الرسالة التي وجَّهها المنصور بن أبي عامر إلى جنده يلومهم فيها ويعاتبهم لنكوصهم عن محاربة الأعداء وفرارهم، ويصفهم باليعافير والرئال، وهي من إنشاء كاتبه الجزيري، وفيها يقول: «وكثيراً مافرط من قولكم إنَّكم تجهلون قتال المعاقل والحصون، وتشتاقون ملاقاة الرِّجال الفحول، فحين جاءكم شانجة بالأمنية وقاتلكم بالشريطة، أنكرتم ما عرفتم ونافرتم ما ألفيتم، حتَّى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل، وأجفلتم إجفال الرِّئال عن المقتنصين، ولولا رجال منكم دحضوا عنكم العار، وحرَّروا رقابكم من الذُّلِّ لَبَرِئْتُ من جماعتكم، وشملت بالمَوْجِدَة كافتكم، وخرجت للإمام والأمة من عهدتكم، ونصحت المسلمين في الاستبدال بكم. . »[1]

ومن الأغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الحربية أيضاً الكتابة إلى الخليفة لإخباره بالفتح وتهنئته بالظفر بأعداء الدولة من الثائرين والخارجين على الحكم، أو تهنئته بتلك الانتصارات والفتوحات العظيمة التي حقَّقتها الجيوش الأندلسية، سواء كانت في الأندلس أو في العدوة المغربية، وقد تصدر هذه الرسائل أحياناً عن الخليفة نفسه إلى القُوَّاد والعمَّال في الآفاق عندما يتحقق النصر أو يتم الفتح على يده.

ويتَّصل بهذا اللون من الرسائل أيضاً تلك الرسائل التي جاءت تشرح ظروف الهزائم التي منيت بها بعض جيوش الدولة عقب انتصارها. ومما يؤسف له أن جلَّ تلك الرسائل لم يصل إلينا، وقد وصلتنا إشارات بسيطة وعابرة إلى عدد من كتب الإخبار بالفتح والتهنئة بالنصر[2].

ومن تلك الإشارات ماذكره الحميدي من أن ابن درَّاج القسطلي قد شهد وقعة «شانت ياقوب» سنة ٣٨٧هـ، وله فيها رسالة مشهورة كتبها من هناك على لسان المنصور بن أبي عامر إلى الخليفة هشام المؤيد، وفيها يخبره بالفتح، ويصف الغزوة من أوَّلها إلى آخرها، ومشاهد القتال، وكيفية الحال، بأحسن وصف وأبدعه،

---

(١) - أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٧٢.

(٢) - انظر: الجذوة: ص ١١٢.

فاستحسنت ووقع الإعجاب بها، وللجزيري في ذلك الفتح رسالة مماثلة لم يبق منها عين ولاأثر.[1]

ومن رسائل الإخبار بالظفر بأعداء الدولة والثائرين عليها وفتح معاقلهم، ماكتبه الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى الآفاق بعد انتصاره على حفص بن عمر بن حفصون وفتح قلعة بُبَشْتَر سنة ٣١٥ هـ. وقد بدأ رسالته تلك بالحديث عن سياسة الدولة في الجهاد ضد أعداء الله من أهل الشقاق والنفاق، وظفرها بهم: «ثُمّ إنَّا لم نَزل، مذْ شرّفنا الله بخلافته واختصَّنا بإمامة عباده، نبتغي الغاية القصوى في جهاد أعدائه، ونذأب في نصر أوليائه، ولاتلفتنا عن ذلك لفتة سأمة، ولايلهينا عنه تملّي دعة، حين امتلأت الأرض كُفراً، وفاضت شركاً، وتوطّد النفاق، واستعجل الشقاق، وهدر كلُّ ناعق في طود منعةٍ، ونبَّ كلُّ وعلٍ في رأس شاهقةٍ، قد تأثَّلوا بكثرة العَدَدِ والعُدَّةِ، واعتزّوا بطول المهلة وتراخي المُدّة، فرفلوا بين الخليقة، واتّسعت بهم البسيطة، وابتعثنا الله بقدرته لنثنيهم عن الضَّلال وحملهم عن الطريقة، فلم نزل نبخعهم ونتحرَّاهم واحداً بعد واحدٍ، ونستتر لهم عن معقلٍ بعد معقل.. حتَّى أذَلَّ الله عِزَّتهم، وسكَّن ثورتهم، وأوهن كيدهم، وشتَّت جمعهم وزلزل بهـــم -، وأخلى معاقلهم، وقيدوا إلى الطاعة صغرة بجرائمهم..»[2]

ثم تدرَّج للحـديث عن مدينة بُبَشْتَر وقلعتها الَّتي كانت وكر الفتنة، ومبعث الفرقة، وسبب البلاء، وللدين غُصَّة، ولعمارة الأرض إخراباً، وقد وصف حصاره لها بشكل مفصل، إذ حلَّ بها حلول الإحاطة، ونازلها بالقتال وضيَّق عليها بالحصار، حتى تمكَّن من فتحها، وقد بلغ من فتحه إيَّاها أقصى حدود ماأحببه، بفضل الله وعونه له، وتأييده لأمره، وقد خرج أهلها فارين منها، وتفرَّقوا أيدي سبأ في جوانب شتى: «قصدنا لها بأنفسنا وأقمناها بعزائمنا، فابتنينا عليها المدائن الشريفة، ورفعنا فوقها الحصون المنيفة، وأنزلناها القُوَّاد والقُوَّة، وكثَّرنا فيها من العَدَدِ والعُدَّةِ، وتقدَّمنا إليهم بمداومة التَّضييق على من فيها، وصلة المحاصرة والتَّردُّد بالأرصاد، والمُضايقة وقطع الميرة من كلِّ جهةٍ، وترك تقبُّل النُّزوع من كلِّ طبقة، وحمل السَّيف على كلِّ

(١) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ١١٢.

(٢) ـ المقتبس: ج ٥، ص ٢٢٧.

من خرج عنها أو دخل إليها، وسبي من وجب سبيهُ من نسائها وولدانها، فنبذوا ذلك من عهدنا، واحتملوا فيه على أمرنا، وأخذوا بأجدّ عزمٍ وأشدِّ حزمٍ، فأكلهم جهد الحصار، والارتصاد بالليل والنهّار، وذهبت طوائف منهم بالقتل وجماعات بالسباء، وعاينوا مالا صبر لهم ولا قرار بهم معه، ولا استيطان به، ولم يجدوا ملجأً يلجأون إليه، ولا محيصاً عمّاً صاروا فيه... فصددناهم عن الاستقرار بعُشّ ضلالتهم، وأبحناهم النُّزول خارجين عنها، متبدِّدين منها، فأسرعوا إلى ماأبحنا لهم من ذلك إسراع الاضطرار...»(1).

والرسالة طويلة، مال كاتبها إلى الإطالة والإطناب.

ومن الرسائل التي كتبت لشرح ظروف الهزائم وتبيين أسبابها تلك الرسالة التي وجَّهها عبد الرحمن الناصر إلى قُوَّاده وأنصاره يشرح فيها الظروف التي أدت إلى هزيمته في غزوة الخندق(2) سنة ٣٢٧ هـ، ويحاول فيها التخفيف من آثار الهزيمة في نفوس جنده ورعيته، وهي من إنشاء كاتب الرسائل عيسى بن فطيس.

وقد بدأ الكاتب رسالته هذه بالحديث عن خروج الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى بلاد الإسبان مجاهداً في سبيل الله بجيوش عظيمة، وحربه إيَّاهم، وكيف هزمهم بعد حرب شديدة، وقد وصف حركة الجيش الإسلامي، وسير المعركة، وهجوم الفرسان المسلمين واستبسالهم فيها: «وتخيَّر أمير المؤمنين كديةً ساميةً، يتطلَّع منها على عسكر المسلمين، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر وتقدَّمت الخيول بين يديه، وقد تلاحقت جموع الكفرة، وقدَّموا صلبانهم ووثقوا بشيطانهم، الّذي غرّهم، وكان المسلمون على نَشْطَةٍ إلى لقائهم، فلم ينتظر أوّلهم إلى توافي آخرهم، ولا فارسهم أن يَقْتَعِدَ بِرَاجِلِمِ، وتَخَطُّوا الرِّماحَ إلى السّيوفَ والطَّعْنَ إلى الضَرْب، وَكَرُّوا في

---

(1) - المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٢٢٩.

(2) - غزوة الخندق: غزوة مشهورة غزى فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر أرض جليقية، وهزم أهلها بعد حرب شديدة، وعندما انصرف جيشه إلى بلاده، نصب له الجليقيون كميناً قرب خندق عميق، فوقع فيه عدد كبير من فرسان المسلمين، وإليه تنسب هذه الغزوة (انظر المقتبس: ج ٥، ص ٤٣٢ - ٤٣٧).

حَوْمَةِ المنايا كَرَّ مَن يَحْمِي خليلَهُ، وَيَخْشى بَعْدَ ساعةٍ أن تُسْبَى ذُرِّيَّتُهُ، فلم يَرَ المُسْلمون حَرْباً أشدَّ منها، وَ لاَ شَهدوا يَوْمَ وَغى أطْوَل مِن يَوْمِهم ذاك، وَنَصْرُ اللهِ تعالى يُهوِّنُ عليهم ما هُمْ فيه، حتَّى فَضُّوا جموعَ المُشْرِكين وزَلْزلوا رُدوءهم الّتي كانت أكاليلَ الجبالِ وردم الشِّعاب، وَضَمُّوهم إلى مُعَسْكَرِهم، وأثارت سنابكُ الخَيْلِ من القتام ما غيَّب من كان في القلب عمَّن يَلِيَهُ من يَمين الحَرْبِ ويسارِهَا. . . وانحازَ المُسْلمون إلى مُعَسْكرِهم، قد قتلوا من أعْلامِ المُشْركين وقوامِسِهم وأهلِ البأس مِن فُرْسَان الحَرْبِ، ومن صَبَرَ لِوَقْعِ السَّيْفِ، فكانت مُصِيبتُهُمْ بِمَن قُتِل منهم عظيمةً»[1].

ثم تدرَّج للحديث عن ظروف الهزيمة وأسبابها، فبعد أن سارت الجيوش الإسلامية في بلاد الأعداء، تدك الحصون، وتنتسف الزروع، وتقتل الفرسان نصب لها الأعداء في منصرفها إلى بلادها كميناً قرب خندق عظيم، فأصيب عدد كبير من الفرسان المسلمين، ولكن الله سلَّم الغالبية، ورجعت الجيوش سالمة: «ثم أشرف على خنادق وعرة ومهاوٍ متقاذفةٍ وأجرافٍ منقطعةٍ، قد عرفها المشركون، وقدموا إليها، وألقوا إلى ساقةِ الجيش فرسانهم، فدارت عليهم الحرب، وصرع فيها من حماة فرسانهم ومتقدِّمي رجالهم جملة، لو أصيبت بحيث يتراءى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم، ولكنهم وثقوا بالوعر، وانتظروا تقدُّم الحماة، وترادف الأثقال، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصَّته عن المسلمين ساعات من النهار، حتى تقدم أكثرهم وجازت الخندق أثقالهم، إلا من ضعفت دابته أو ضعفت نفسه عن استنفارها. . . وحامى صاحب العسكر عن كلِّ من أجاز الخندق وخلص من مضايقه، حتَّى أسهلوا، واجتمع لأمير المؤمنين جيوشه، وانتظمت جموعهم وسلَّم الله رجاله، فلم يصب منهم أحد، وفي ذلك دليل للسامع عن الوقعة أنَّها لم تدر بغلبة، ولا ظفر المشركون بما ظفروا به فيها عن مساواة ولاكثرة، ولكنَّ ضيق المسالك ووعر الطريق وسوقهم الدليل لما جلبه، إلى أقدار الله تعالى، التي لاتصرف، ومحنه التي لم يزل يمتحن بها أولياءه، ليعظهم ويبتلي عبيده ليؤدبهم»[2].

(١) ـ المقتبس: ج ٥، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣.

الرسائل الوصفية

لم يتناول كُتَّاب الرسائل في الأندلس في هذه الفترة فن الوصف تناولاً مستقلاً، إلاَّ في نهاية القرن الرابع الهجري، فقد ظهر هذا الفن مقترناً إنشاؤه بتلك الفتوحات العسكرية والانتصارات العظيمة التي حققتها الجيوش الأندلسية، وارتبط بها ارتباطاً قوياً، حيث كانت بعض رسائل الإخبار بالفتوحات والتهنئة بالانتصارات التي كان يرسلها القادة إلى الخليفة، أو يرسلها الخليفة إلى الأمة بشأن المدن التي تم فتحها أو الانتصارات التي تم تحقيقها، تضم أحياناً شذرات غير قليلة في وصف الجيوش وسير المعارك، ومشاهد القتال، والمناطق التي تم فتحها.

ومِمَّا انتهى إلينا من هذه الرسائل تلك الرسالة التي كتبها عيسى بن فطيس على لسان الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى الآفاق ليخبرهم عن غزوة الخندق وظروفها، وهي رسالة طويلة، اتَّسمت بجمال الأسلوب ودقة الوصف.

لقد استهلَّ الكاتب رسالته هذه بوصف خروج الخليفة إلى بلاد الإسبان مجاهداً في سبيل الله بجيوش عظيمة العدد والعدة: «فاستقبلهم بنية صادقة، ونفس صادقة، وجموع كثيفة، وكتائب تملأ الفضاء، ومقانب تضيق عنها الشعاب، وتصير في سهل الأرض كالآكام، تتألَّق عليهم سوابغ الدّروع، فإذا تداعوا قلت موج متراكم، وإذا وقفوا فكأنَّما النَّقع عليهم ليل مظلم . . .»(١)

ثم انتقل إلى وصف سير المعركة، وهجوم الفرسان المسلمين واستبسالهم في القتال: «وكان المسلمون على نشطة إلى لقائهم، فلم ينتظر أولهم إلى توافي آخرهم، ولافارسهم أن يقتعد براجلهم، وتخطوا الرماح إلى السيوف والطعن إلى الضرب، وكروا في حومة المنايا كر من يحمي حليله، ويخشى بعد ساعة أن تسبى ذريته . .»(٢)

---

(١) ـ المقتبس: ج ٥، ص ٤٣٩.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٤٣٩.

ثم وصف بعد ذلك وعورة الطريق، وضيق المسالك في المناطق التي جرت فيها المعركة، فعندما قصد أمير المؤمنين العدو «وقطع بعض محلته استقبل شَعْراء[1] لايتخلَّلها المفردة بجمده، ولايتخلّص منها المُخِفّ، لَوْ لم يكن أحد يعترضه، ثم أشرف على خنادق وعرة، ومهاوٍ متقاذفة وأجراف منقطعة..»[2]

كما أن بعض رسائل الإخبار بالفتوحات التي كانت تكتب بشأن المدن المفتوحة تنطوي أحياناً على قدر لابأس به من وصف حصانة تلك المدن ومنعتها. ومن ذلك ما كتبه عبد الرحمن الناصر إلى الآفاق بفتح قلعة بُبَشْتَر، وقد وصف مدينة بُبَشْتَر وصفاً مركّزاً، حيث يقول: «وهي من شرف المكان، وسماكة البنيان، مع سُمُوِّ الذروة وعُلُوِّ الرِّفعة من كلِّ جهة، لا شبيه لها، ولانِدَّ يقارنها شرفة البنيان، مساكنها على اتِّساعها متضاغطة الأبنية بأهلها على فسحة رباعها..»[3]

كذلك فقد وصف خروج أهلها منها بعد فتحها: «فتساربوا خارجين، وتهافتوا ذاهبين، وتفرَّقوا أيدي سبأ إلى جوانب شتَّى..»[4]

ومن رسائل الإخبار بالفتح والتهنئة بالظفر التي تناولت وصف المعارك والحروب، ولم تصل إلينا ماذكره الحُميدي من أنّ لابن دَرَّاج القسطلي والجزيري رسالتين في وصف معركة شانت ياقوب سنة ٣٧٨ هـ من أوّلها إلى آخرها، ومشاهد القتال وكيفية الحال،[5] وقد تقدَّم الحديث عنهما.

أمَّا اللون الآخر من الرسائل التي تناولت فن الوصف تناولاً مستقلاً، فهو لون جديد في الموضوع والشكل، وهو يتمثَّل في تلك الرسائل التي كتبت على ألسنة الورود والأزهار، ويفضِّل فيها الكاتب ورداً بعينه على غيره، وتقوم هذه الرسائل

---

(١) ـ الشَّعْراء: الأرض الكثيرة الشجر (اللسان: مادة أمم).

(٢) ـ المقتبس: ج ٥، ص ٤٤٢.

(٣) ـ المقتبس: ج ٥، ص ٢٢٨.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٢٣٠.

(٥) ـ انظر: الجذوة: ص ١١٢.

على أساس التفاخر والمناظرة والجدل والنقاش بين الورود والأزهار، كلٌّ يبدي محاسنه ويفخر بصفاته.

ويعدُّ الجزيريُّ أوَّل من كتب هذا اللون من الرسائل في الأندلس، ومن ذلك رسالته التي كتبها للمنصور بن أبي عامر على لسان بنفسج العامرية، وقد فضَّل الجزيري في رسالته هذه البنفسج على النرجس والبهار، حيث يقول: «وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما والفخر بمشابهها كُلَّ مذهب، وما منهما إلاَّ ذو فضيلةٍ غير أنَّ فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعرف من الغمام الذي يسقينا».[1]

ولعلَّ الباحث يرى في هذا اللون من الرسائل منحىً رمزياً، وصدىً للتنافس الذي كان بين الكُتَّاب في بلاط الأمير، حيث أنَّ الكاتب يرجو التميز على أقرانه، ويوضِّح فضله على غيره من كُتَّاب القصر، فهو يقول على لسان البنفسج: إنِّي أعطر منهما عِطْراً، وأحْمَدُ خُبْراً، وأكرم إمتاعاً شاهداً أو غائباً».[2]

ثم إنَّ الكاتب قد اتَّجه بالرسالة نحو المديح، حيث يقول على لسان البنفسج أيضاً مخاطباً المنصور بن أبي عامر: «إذا ترافعت الخصوم ـ أيَّد الله ـ المنصور مولاي في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها، فإليك مفزعها، وأنت المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها وعلمك بسرِّها وجهرها».[3]

(١) ـ البديع: ص ٧٨.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٧٨.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٧٨.

الفصل الثَّاني

أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجريِّ

- مكانته وتطوُّره
- اتِّجاهاته وموضوعاته.

مكانته وتطوُّره

تطوَّر أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري تطوراً كبيراً، وتشعَّبت موضوعاته واتجاهاته وأغراضه تبعاً لتشعب أمور الحياة في المجتمع الأندلسي في هذا القرن، واقتحم على الشعر ميدانه وشاركه في أغراضه وفنونه.

وظهر عدد كبير من الكُتَّاب البلغاء الذين أخـذوا يروِّضـون أقلامهم، على كلِّ فنٍ، ويجولون بها في كل ميدان معتمدين على بلاغتها في التعبير عن خلجات القلب وخطرات النفس وأمور الحياة. ولقد صاغوا أحاسيسهم ومشاعرهم في رسائل رائعة تناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل.

ومهما يكن من أمر، فقد تهيأ لأدب الرسائل من عوامل الازدهار ما بوَّأه منزلةً رفيعةً في أدب القرن الخامس الهجري. ومن هذه العوامل مايتعلق بالانهيار السياسي الذي أصاب الأندلس بعد سقوط الخلافة وتجزُّؤ البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة، ومانجم عن ذلك من كثرة المشاحنات والخصومات بين ملوكها، وماكان من نشوب الحروب الداخلية، واشتعال الفتن، وسياسة البطش والإرهاب التي انتهجها بعض ملوك الطوائف مع رعاياهم، إضافة إلى انقسام الأمة واختلاف كلمتها.

ولايخفى مالكل هذه الأحداث السياسية الخطيرة من تأثير مباشر في أدب الرسائل وتطوره، وتشعُّب موضوعاته، واتِّساع أغراضه، وظهور ألوان جديدة من موضوعات أدب الرسائل لعل أبرزها الحديث عن الاتجاهات السياسية التي تصطرع في الأنـدلس، والخصومات والاضطرابات السياسية، إضافة إلى النقد السياسي والدعوة إلى وحدة الصف.

وقد كان لتكتل الصليبيين وسيرهم إلى الأندلس بجحافل جرارة لاستعادة الأندلس إلى حظيرة النصرانية، ومانجم عن ذلك من سقوط القواعد والمدن الأندلسية

الواحدة تلو الأخرى، أثر كبير في ازدهار أدب الرسائل وتطوره، إذ كان لابدَّ من إذكاء روح الحماسة، وبثّها في النفوس للقيام بأعباء الواجب المقدس لإنقاذ الأندلس والدفاع عنها. وقد كانت الرسالة خير وسيلة لتحقيق هذه الغاية الجليلة، فكانت رسائل الاستنفار التي تبكي الأمة ومدنها المتساقطة، وتستثير الهمم للالتئام والوحدة، وتنبِّهُ على مواطن الخطر المحدق بالأمة. وقد نشط هذا الضرب من الرسائل بعد سقوط طُلَيْطُلَةَ بيد الأذفونش عام ٤٧٨ هـ، إذ كثرت الرسائل التي تحضُّ على الجهاد لإنقاذ الأندلس، وبخاصة تلك الرسائل التي كان يبعث بها ملوك الطوائف إلى المرابطين، يطلبون منهم العون والمساعدة في ردِّ الخطر الداهم الذي أصبح يهدد الوجود الإسلامي في الأندلس.

وبعد جواز جحافل المرابطين إلى العدوة الأندلسية، وماكان من نصرتهم للإسلام ونجدتهم للمسلمين ضد الصليبيين، ومانجم عن ذلك من معارك حققوا فيها انتصارات باهرة على الصليبيين، عظمت الحاجة إلى رسائل تشرح سير المعارك وتصفها، ففسح المجال أمام الكُتَّاب الذين أخذوا يشرحون سير المعارك، ويبينون نتائجها، ويخبرون بالفتوح، ويبشِّرون بها، ويهنِّئون بالانتصارات، ويتغنون بالجهود العظيمة، والمواقف الجهادية، والحماسة الفائقة التي تحلَّت بها الجيوش الإسلامية وقادتها.

كذلك فقد كان لفساد الأحوال الاجتماعية في هذا القرن، وانتشار الترف والبذخ واللهو في سائر جوانب المجتمع الأندلسي، وانصراف ملوك الطوائف ووزرائهم عن مصلحة الأمة إلى المظاهر الكاذبة، وانشغالهم بشرب الخمور، وارتكاب المعاصي دور فعّال في شيوع أدب الرسائل وتعدد موضوعاته.

فقد واكب أدب الرسائل هذه الحياة الاجتماعية المضطربة، فصور كثيراً من ملامحها ومظاهرها، واستطاع الكُتَّاب أن يعبِّروا عن الظروف النفسية الصعبة التي عاشها أبناء الشعب الأندلسي آنذاك. وقد تباينت مواقف الكُتَّاب من هذه الظواهر، وتنوَّعت ردود فعلهم تجاهها، فمنهم من أقبل على الملَّذات والمتع والمجون، ودعا غيره إليها لتحقيق حاجاته الحسية ومطالبه الوجدانية دون أن يعبأ بمسؤوليته إزاء

المجتمع.[1] ومنهم من وقف من المجتمع موقف الناقد الملتزم بالقيم الخلقية والفضائل الإسلامية، وأخذ يحدِّدُ الأدواء والمعوِّقات في مسيرة المجتمع، ويرسم صورة للإصلاح الاجتماعي.[2]

ولقد كان لنهوض العلوم والآداب على الرَّغم مما شهده الأندلس في هذا القرن من تفكك وانحلال سياسي واجتماعي شامل أثر كبير في ازدهار أدب الرسائل. كذلك فإن قيام دول الطوائف قد ترك آثاراً مباشرة على أدب الرسائل، إذ كانت هذه الدول الناشئة بحاجة ملحة إلى الكتابة لتؤدي الأغراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والتشريعيَّة وما إليها من مهام تتطلبها الدولة.

وكان عماد الكتابة الكاتب المعد إعداداً خاصاً لتأدية هذه المهام، ولهذا فقد أخذ الأمراء والملوك يتنافسون في اجتذاب الكُتَّاب إلى عواصم ملكهم لتأدية هذه المهام. وكانوا يقرِّبونهم ويرفعون من مراتبهم ويشجعونهم ويغدقون عليهم العطايا والصلات. ولهذا أيضاً أصبحت الكتابة هي الأداة الأولى التي كانت تمنح صاحبها حق الوصول إلى المناصب العليا في الدَّولة، إذ أنَّ الوزارة تتصل قبل أي شيء آخر بالكتابة، فإذا كان الكاتب مثل ابن بُرْدٍ الأصغر وابن زيدون وابن عمّار وابن عبدون على مقدرة شعرية ممتازة صحَّ له أن يبلغ مرتبة الوزارة، ويكون شعره ميزة تعينه على ذلك، لكنه لو انفرد بالشعر دون الكتابة لما استطاع أن يبلغ تلك الوظيفة. ولو نظرنا في مصادر الأدب الأندلسي لوجدنا أن طبقة الوزارة غالباً ما تتصل بالكتابة[3].

وكان لطبيعة الأندلس الساحرة كذلك ومفاتنها المتعددة وبساتينها الوارفة، وأنهارها الجارية، وحيواناتها الجميلة أثر كبير في جذب أنظار الكُتَّاب الأندلسيين، كما

(١) ـ انظر: القلائد: ص ١٠٨، الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: : ق ٣ م ١، ص ٤١٤ ـ ٤١٥، ق ٣ م ١، ص ٢٣٨، ق ٤ م ١، ص ١٩١، ق ١ م ١، ص ٨٤ ـ ٨٦. وانظر أيضاً: «الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي»، عالم الفكر م ١٢ (١٩٨١)، ع ١، ص ١٣١ ـ ١٣٤.

(٣) ـ انظر: فهرس القلائد، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢١ ـ ٢٩.

جذبت أنظار الشعراء أيضاً، فأقبلوا عليها في شغف شديد، يتغزَّلون بها، ويتغنّون بمحاسنها، ويصوِّرون فضائلها ومفاتنها، فازدهرت بهذا رسائل وصف الطبيعة ومظاهرها المختلفة، وتعددت ألوانها، وتشعبت أغراضها.

وقد كان لبعض الظواهر الأدبية التي شهدها الأندلس في القرن الخامس الهجري أثر كبير في ازدهار أدب الرسائل. فقد أدَّت ظاهرة كثرة الشعراء الجوالين الذين يطوفون على الأمراء مادحين متكسبين بأشعارهم إلى كثرة الرسائل التي تكتب في الشفاعات والوصايا من أجل أولئك الشعراء،(١) إذ كان الواحد منهم يحتاج إلى رسالة توصية من أحد المشهورين حتى يستطيع أن يبلغ مأمله، وربما كانت الحدود السياسية الكثيرة آنذاك عاملاً آخر في اللجوء إلى مثل هذه الرسائل.(٢)

ولقد استمرّ أدب الرسائل في ازدهاره بعد خلع ملوك الطوائف، ووجد الكُتَّاب اهتماماً كبيراً لدى أمراء المرابطين وولاتهم في الأندلس، فقد ذكر صاحب المعجب في حديثه عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وابنه علي بن يوسف أنه «اجتمع له ولابنه من أعيان الكُتَّاب وفرسان البلاغة مالم يتَّفق اجتماعه في عصر من الأعصار».(٣)

ومهما يكن من أمر فقد تعدَّدت مظاهر ازدهار أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري. ومن هذه المظاهر أنه شارك في التعبير عن حركة النقد الأدبي التي كانت في الأندلس آنذاك، فوضح كثيراً من آراء الأندلسيين في الشعر وفي الشعراء المشارقة والأندلسيين وكُتَّابهم وأساليبهم، فظهرت بذلك رسائل النقد الأدبي.(٤)

ومن مظاهر ازدهار أدب الرسائل أيضاً انتشار ظاهرة المعارضات بين المترسلين،

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣١١، ق ٣ م ٢، ص ٤٦٨.

(٢) ـ انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٨٦.

(٣) ـ المعجب: ص ٢٢٧.

(٤) ـ انظر: رسالة التوابع والزوابع، رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٤٨٨) ورقة ٣٩، ترسل الفقيه الكاتب: ورقة ٢٨ ـ٢٩.

وهي تشكل جزءاً مهمّا من ظاهرة السلاسل الأدبية التي كانت مألوفة في الأدب الأندلسي في هذا القرن، إذ كانت رسالة تثير عدة رسائل: أي أن الرسالة الواحدة تثير كتابة رسائل أخرى لاسيما حين يدخل حلبة النزال كُتّاب آخرون بقصد إظهار براعتهم واقتدارهم في القول، ثم مجاراة الرسالة الأصل ومحاولة التّفوق عليها. ومن هذه السلاسل الأدبية رسائل الزّهريات، ورسائل الزَّرْزُورِيَّات، ورسائل وصف مطر بعد قحط.[1]

لقد تأثر الكُتّاب الأندلسيون في هذا القرن بتلك الرسائل الرائعة التي ابتدعها عدد من كُتّاب المشارقة من أمثال: سهل بن هارون، والجاحظ وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم، والتي انتقلت فيما بعد إلى الأندلس، واستقوا من هذه الرسائل،[2] ولم يقفوا عند هذا الحد فحسب، بل طوروها، وابتكروا جوانب جديدة سبقوا المشارقة إليها، ووسّعوا بها ميادين أدب الرسائل، ومن ذلك أنه كان لرسالة عبد الحميد الكاتب في وصف الصيد[3] - وهي من الرسائل التي نقلت موضوع الطرد من الشعر إلى النثر - أثر كبير في أدب الرسائل في الأندلس في هذا القرن، إذ إنهم نقلوا هذا الموضوع عندهم من الشعر إلى النثر، وابتدعوا لوناً جديداً من الطَّرْدِيَّات هو صيد البحر،[4] وهو لون لم يعرفه أدب الرسائل في المشرق.

وظهرت رسائل مبتكرة كان للأندلسيين فضل السبق فيها، ومن ذلك رسائل الشوق والوجد الديني لزيارة قبر الرسول ﷺ وتأدية فريضة الحج.

وكما تطوّر أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري من حيث

---

(١) - انظر: نماذج من هذه الرسائل في: البديع: ص ٥٣ - ٥٩، الذخيرة: ق ٢ م ١، ١٩٤ - ١٩٥، ق ٣ م ١، ص ٤٧١، ق ٢ م ١، ١٩٦، ٢٨٩، ق ٢ م ١، ص ٣٤٧، ص ٣٥١، ص ٣٥٦.

(٢) - انظر: ابن بسّام وكتابه الذخيرة: ص ١٩٤، ص ٢١٣، ٢١٤، عصر الطوائف والمرابطين: ص ٢٨٤، الأدب العربي في الأندلس: ص ٤٦٢.

(٣) - انظر: جمهرة رسائل العرب: ج ٢، ص ٥٤٤.

(٤) - انظر: الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٩.

الموضوعات والأغراض، فقد تطوَّر كذلك من الناحية الفنية أيضاً إذ استطاع الكُتَّاب أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم، وأن يفتنوا فيها حتى لتبدو بعض رسائلهم وكأنها شعر منثور لاينقصه غير الوزن والقافية.

لقد كان أدب الرسائل في هذا القرن انعكاساً للبيئة الأندلسية بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والثقافية والطبيعية، وهو يمثّل وثائق تاريخية وسياسية مهمة تقدم مؤشرات لكثير من الأحداث والوقائع والقضايا، وتكشف عن أدق الأمور التي ألمَّت بالمجتمع الأندلسي آنذاك، وتسبر أغواره ويرسم ملامحه المختلفة، وبخاصة تلك التي لانجد لها أحياناً ذكراً في كتب التاريخ والسير والتراجم وغيرها.

وكما أن الباحثين في أدب الرسائل كانوا يستعينون في تدوين تاريخه بالمصادر التاريخية، فإن المؤرخين كانوا يستندون إلى الرسائل لاستكمال مالم تستطع المصادر التاريخية استيفاءه أو ذكره، وهذا يبدو أكثر وضوحاً في الرسائل التي تتّصل بالملوك والأمراء والوزراء، وتلك الرسائل التي عاصرت الوقائع، وصوَّرت النكبات، وأسهمت في الأحداث السياسية، وفصَّلت في المسائل الاجتماعية بعيداً عن العواطف الذاتية، والمشاعر الخاصة، وأدب الرسائل الذي نتحدث عنه هنا يقع تحت هذا الباب.

ولم تقتصر وظيفة أدب الرسائل على الجانب السياسي الذي نوهنا به، وإنّما تعدَّت ذلك إلى الكشف عن عدد من مظاهر الحياة الاجتماعية التي حفل بها المجتمع الأندلسي آنذاك، كما استطاع أدب الرسائل أن يقدِّم صورة واضحة لما كان عليه المسلمون من بأس وقوة ومحبة في الجهاد يعتدون بها.

لقد واكب أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري جميع مظاهر الحياة الأندلسية آنذاك، مما جعل له قيمة إنسانية حفظت له حياته، وضمنت له بقاءه في المصادر التاريخية والأدبية.

اتّجاهاته وموضوعاته

ذكرنا فيما تقدَّم أن اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته تشعبت تبعاً لتشعب أمور الحياة في المجتمع الأندلسي في هذا القرن، وأنه اقتحم على الشعر ميدانه وشاركه في أغراضه وفنونه. ويبدو ذلك واضحاً في تلك الرسائل التي تزخر بها المصادر الأندلسية والمشرقية. لهذا فإن الباحث يرى أنه كان من الواجب أن تقوم دراسة منفصلة ومستقلة تعنى بموضوع واحد من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، كما تعنى بدراسة أعلامه وخصائصه الفنية واللغوية.

لقد حاول الباحث في هذه الدراسة تصنيف موضوعات الرسائل في مجموعات متجانسة بحسب مضامينها وتقاربها في أغراضها، حتى تكون صورة أدب الرسائل واضحة المعالم بيِّنة القسمات، كما تكون دراستها ومتابعة الاتجاهات والتيارات التي احتوتها، والخصائص الفنية واللغوية التي امتازت بها قريبة سهلة، معبرة عن الحياة الأندلسية بكل أبعادها الطبيعية والسياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها.

من هنا فقد رأى الباحث أن تكون أولى هذه المجموعات التي تتم دراسة نصوصها رسائل الاتجاه السياسي، ثم تليها دراسة رسائل الاتجاه الاجتماعي، ورسائل الجهاد والصِّراع مع الصليبيين، والرسائل الدِّينية، ورسائل المفاضلات والمفاخرات، ثم رسائل النقد الأدبي، والرسائل الفكاهية، والرسائل الوصفية، والرسائل الدِّيوانية، ثم الرسائل الإخوانية.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه المجموعات لاتعني الحرفية في الدلالة على مضامين الرسائل، إذ إنَّ وشائج القربى بين هذه المضامين قريبة جداً، ويلاحظ الباحث تداخلاً وامتزاجاً بينها أيضاً، فالطابع الاجتماعي مثلاً يمكن أن يلاحظ في رسائل الاتجاه السياسي، والرسائل الإخوانية، والرسائل الدِّيوانية، والرسائل

الوصفية. كما يلاحظ أن رسائل الهجاء مثلاً ترتبط ارتباطاً دقيقاً برسائل السخرية والتهكم، وبرسائل النقد السياسي والنقد الاجتماعي التي تعرض لكثير من معاني الهجاء. كذلك يلاحظ تشابهاً وتقارباً في مواضع عديدة بين رسائل الشكوى من المصائب والمحن، ورسائل الوصف، ورسائل الجهاد والصِّراع مع الصليبيين وهكذا.

الاتجّاه السياسي

يعدُّ القرن الخامس الهجري من أكثر عصور التاريخ الأندلسي تشتتاً واضطراباً، فقد كانت السمة الغالبة عليه الانهيار السياسي، وكثرة المشاحنات والخصومات بين ملوك الطوائف الذين طمع كل واحد منهم في توسيع أملاكه وامتداد سلطانه على حساب جيرانه، فنشبت بينهم الحروب واشتعلت الفتن فضلاً عن الخطر الصليبي الذي كان يهدد الوجود الإسلامي في الأندلس. ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى، والفتنة بين أمراء الأندلس تستعر إلى أن قيّض الله المرابطين للأندلس، فجازوا إليها وسجّلوا أروع الانتصارات الإسلامية على الصليبيين في معركة الزلاقة.[1]

لقد تفاعل الكُتَّاب الأندلسيون مع هذه الأحداث السياسية إذ إن عدداً من الكُتَّاب كانوا وزراء لملوك الطوائف. ويستطيع الباحث أن يلمس الاتجاه السياسي في حديث الكُتَّاب عن الخصومات والاضطرابات السياسية، وفي النقد السياسي والدعوة إلى وحدة الصف، وفي حديثهم عن التيارات السياسية في الأندلس آنذاك.

الخصومات والاضطرابات السياسية:

لقد اشتعلت الفتن والحروب بين ملوك الطوائف، فما تكاد تخمد حرب حتى تشتعل أخرى، ولم يخل عهد أمير من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك، أو حرب تشن على هذا الأمير أو ذاك، فتعدَّدت المعارك وكثرت الاشتباكات التي لم تقف عند حد، وكان عدد الضحايا من المسلمين كبيراً[2]. وفي ظل هذه الظروف لم ينهض

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣، البيان المغرب: ج ٣، ص ٢٣٩، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٩٣ ـ ٩٥.

(٢) ـ انظر: البيان المغرب: ج ٣، ص ٢٧٩، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس: ص ٧٧، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٧٨، ١٩٥، التاريخ الأندلسي: ص ٣٢٦.

بعض الكُتّاب بدورهم السياسي الصادق والمتمثّل بإثارة نفوس الجند وتوجيه الأمراء إلى توحيد الصف، وتعبئة الجهود لمواجهة الخطر الذي يهدِّد الوجود الإسلامي، فقد انشغلوا مع أمرائهم بالخلافات الداخلية، ولعل مرد ذلك حرصهم على مكانتهم عند الأمراء. وقد سجّلوا كثيراً من محاولات ملوكهم الاستيلاء على الإمارات المجاورة، وتلك الانتصارات المزعومة والأحداث الخطيرة التي تفوّق فيها الأمير على جيرانه المسلمين.

فهذا أبو بكر بن القصيرة يكتب رسالة على لسان المعتمد بن عبّاد إلى رؤساء الأندلس يخبرهم فيها بعودة قُرْطُبَة إليه وقتل ابن عكاشة[1] على يديه. وماكان من تأييدهم للمعتمد واستنجادهم به لتخليصهم، وأشار إلى استجابة المعتمد لنجدتهم، وزحفه إلى تلك المدينة بجيوش جرارة وماكان من محاصرته لها، وافتتاحها بمؤازرة أهلها، يقول: «فَتَحَرَّكْتُ من وقتي، ولم أكد أُطِلُّ على أفقهم إلّا والإشارة علينا بأثوابهم إلينا: أن أقدموا، فاقتحمت من النهر مخاضةً توازي الربض الشرقي منها، وثار أهلها معي، داعين بشعاري، معلنين بانتصاري، وكلمة ثاري، يكسرون بين يديَّ كل غلقٍ يعترضني، ويفتحون كلَّ مرتج[2] ينتصب دوني..»[3]

ويختتم رسالته بوصف مطاردة جيشه لفلول ابن عكاشة ومحاصرته لها، وماكان من إحلال الهلاك بهم جميعاً وعلى رأسهم ابن عكاشة الذي قتل، يقول: «وأحس ابن عكاشة ومن معه من الشِّيعة المفلولة بمكاني ففرُّوا بأرواحهم، وألقوا ما كان معهم من سلاحهم. وقد كنت أحطت بنواحي الحضرة خيلاً ترصدهم، وتقطع من النَّجاة سببهم،[4] فوقعوا فيها، وأتي على آخرهم، وسيق إليَّ رأس ابن عكاشة..»[5]

(١) ـ هو الحكم بن عُكَاشَة، أرسله المأمون بن ذي النون للاستيلاء على قُرْطُبَة سنة ٤٦٧ هـ (انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢، أعمال الأعلام: ج ١ (ص ١٤٩ ـ ١٥٢).

(٢) ـ مُرْتَج: الرّتج الباب المغلق (انظر: لسان العرب: مادة رتج).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٧٣.

(٤) ـ سببَهُم: السبُّ: الدبر (اللسان: مادة سبب).

(٥) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٧٣.

ومن ذلك رسالة أخرى لابن القصيرة يتحدَّث فيها عن معركة خاضها المعتمد ابن عبَّادضد إحدى المدن الإسلامية المجاورة، ويصف ماأصاب هذه المدينة على يديه من حرق ونهب وتدمير أحالها إلى خرائب، يقول: «وتقدَّمت لطلب الثَّأر.. فتقدَّمت في معسكر ألّفته يد الإعجال، وحالت البديهة بينه وبين الاحتفال، فأنخت به على بلده أياماً، قطعتُ فيها دونه كل الرِّفاقِ، ولم أُبقِ حوله سقفاً على جدارٍ ولاقائمةٍ على ساقٍ، ثم مررت إلى جهة فلانة أجوس خلالها، وأتقرَّى[1] بالنَّهب والإحراق أعمالها، وأتسنَّم معاقلها وأجعل أعاليها أسافلها..».[2]

إن هذه الرسائل تكشف لنا عن أمر تلك الفتنة الشديدة بين ملوك الطوائف وتربّص بعضهم ببعض، وماكان من شنِّهم الغارات على المدن الإسلامية دون مراعاة لحرمة الدين والأخوة.

ولقد تزايدت الأطماع على السُّلْطة على مدى الأيام حتى اختلف الأب مع ولده، واختلف الأخ مع أخيه وأضمر له العداوة والخصام والحقد والحسد. فهذا اسماعيل بن المعتضد كان يتطلع إلى انتزاع الملك من يد أبيه وتآمر على حياته مما دفع المعتضد إلى البطش بولده وقتله.[3] وقد أمر المعتضد بكتابة رسالة عن هذه المأساة إلى رؤساء الأندلس يصف فيها أطوار الحادث، ويبرر قتل ابنه الذي ينعته بالخائن الغادر، وقد أنشأ أبو محمد بن عبد البِّر تلك الرسالة ارتجالاً بين يدي المعتضد بحضور عدد من الوزراء والكُتَّاب فجاءت قطعة من البلاغة الرفيعة،[4]وفي ذلك يقول مخاطباً عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر صاحب بَلَنْسِيَة: «وطرأت عليَّ ياسيِّدي وأغلـى عددي من خطوب الأيام، طارئةٌ دهياء دهماء، وفجأتني من ضروب

(١) ـ أتقرّى: يقال تقرّيت المياه أي تتبعتها (اللسان: مادة قرا).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨١.

(٣) ـ انظر عن هذه الحادثة: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٤٣ ـ ١٤٨.

(٤) ـ لقد كان لهذه الرسالة أثر كبير في أوساط الكُتَّاب الأندلسيين، إذ تنازعت لُمَّة من كُتَّاب العصر في معارضتها، وقد ذكر ابن بسَّام فصولاً من رسائل هؤلاء الكُتَّاب ممن انتصف بالمعارضة منها (انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٤٩ ـ ١٦٤.

الأقدار فاجئة عمياء صمَّاء. . وشرح ذلك ـ أيَّدك الله ـ إنَّ الغبيَّ العاقَّ، اللعين المشـاقَّ، إسماعيل ابني بالولاد لا بالوداد، ونجلي بالمناسب لا بالمذاهب، كنت قد ملت بهواي إليه، وقدَّمته على من هو أسنُّ منه. . قيِّضَ له قرناء سوء أعدوه وأردوه، وأتيح له جلساء مكرٍ أغروه وأغووه، وأشعروه الاستيحاش والنفار، وزيَّنوا له العقوق والفرار، لينفرد وينفردوا معه بالبلد، ولاتكون على أيديهم فيه يدُ أحدٍ، فخرج ليلاً بأهله وولـده خروجـاً شنيعـاً. . يؤمُّ الجـزيرة الخضراء ويليهـا، ليتملكهـا ويعيث فيها. . »[1]

ويصف بعد ذلك أدوار المؤامرة التي دبَّرها إسماعيل مع جماعته منذ فراره وعوده وعفو والده عنه، وماكان من معاودته التآمر عليه حتـى حصل في قبضته هو وجماعته، فأقام حدود الله على الجميع منهم، وأنفذ حكمه فيهم.[2]

ولأبي محمد بن عبد البرِّ من أخرى عن علي بن مجاهد إلى المنصور الصغير يعلمه بغدر أخيه حسن له، وتآمره عليه مع المعتضد بن عبَّاد، وماكان من فشل المؤامرة، يقول: «. . مَدَّ أخي حسن ببيعتي يداً، وأظهر في طاعتي معتقداً، فما آن لمداد عهده أن يجفَّ، ولا حان ليد عاقده أن تنحرف، حتَّى داخل صاحب إشبيلية في الغدر والخلاف، فأنفذ إليه رجلاً يدعى سلمة من جنده ليتصرَّف على إرادته، فأجمعوا أيديهم والقضاء أملك، وأزمعوا كيدهم والقدر يضحك، وتوخوا صدري من صلاة الجمعة، فوافوني قد انسربت في كلَّة الأمن، ونمت في حجر حسن الظنِّ، فما استيقظت إلَّا لصفح صفائحهم تصلت علـيَّ، ولاانتبهت إلَّا لضوء رماحهم تشرع إليَّ، إلَّا أنَّ الله كان بإزائي ظهيراً، وتلقاني نصيراً، وبين يديّ رفداً، ومن ورائي مدداً ورداً. فما كان إلّا أن تساقط فراشهم في مصابيح الفرج. . وفزت وقد انجلت الكرَّة عليهم. . »[3]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٣٨ ـ ١٤٠.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٤١.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٧٠.

ومن الرَّسائل التي تتحدث عن الخصومات والاضطرابات السياسية أيضاً، ماكتبه المقتدر بن هود إلى صديقه المعتمد بن عبَّاد يخبره فيه بقصته مع أخيه المظفَّر، ويرميه بالظلم والحسد، ومجانبة العدل والإنصاف، ويشير إلى أنه حاول أن يسلك سبيل المودة والتَّفاهم، فأبى مما اضطره إلى مقاتلته حتَّى ظفر به واستولى على قاعدته لاردة، وألـزمـه البقاء في حصن منتشون،[1] حيث يقول: «فلما رأيته عن سوء معتقده . . . وفساد رأيه غير راجع . . . . رأيت النظر في قطع مضرّته، والسعي في حسم علته ومعرّته أصمى، فأنفذت ذلك بعد استخارة الله تعالى فيه وألزمته البقاء بقصبة منتشون»[2].

ثم هو يحاول أن يبرر تصرفه مع أخيه، بقوله: «وللنفس، يعلم الله، مما حملني عليه ارتماض[3] وإشفاق، ولما يؤثره الرحم من ذلك من ازعاج وإقلاق، إلاّ أنه لم يوجد إلى غير ذلك سبيلاً . . . وكان فيما يأتيه أعقّ، وبما جره القدر إليه بحكم اعتقاده أحقّ، وقد يستسهل المرء المكاره مالم يجد عنها مذهباً . . »[4]

وكان بعض الكُتَّاب يهنِّئون رؤساءهم وملوكهم بالانتصارات المزعومة التي أحرزوها على منافسيهم من رؤساء الإمارات الأندلسية الأخرى. وكانت بعض هذه الرسائل على ألسنة الكُتَّاب أنفسهم، وبعضها على ألسنة أمرائهم إلى أمراء آخرين. ومن ذلك رسالة لأبي العلاء صاعد البغدادي كتبها إلى مجاهد العامري يهنئه فيها بانتصاره على خيران العامري في موقعة بحرية، ويعبِّر عن فرحته العظيمة بهذا النصر الذي تناقلت أخباره الركبان، حيث يقول: «ولما أتتني إحدى خرائطك الجزيلة، وتبادرت التباشير باحتلال المركب، كاد الفرح يقضي عليَّ، وينزع التماسك من يَديَّ . . . »[5]

(١) ـ منتشون: من حصون سَرَقُسْطة، وقد وقع بيد المغامر الصليبي السيِّد (انظر: دول الطوائف: ص ٢٨٥).

(٢) ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٥٣٨): ورقة ١١٨.

(٣) ـ ارتماض: يقال ارتمضت لفلان: حزنت له (اللسان: مادة رمض).

(٤) ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٥٣٨): ورقة ١١٩.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٢.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً[1] رسالة لابن حَيَّان يهنيء فيها المعتمد بن عبَّاد بظهوره على المأمون بن ذي النُّون، ويزيِّن له فعلته هذه ويبررها بسوء السياسة التي ينتهجها المأمون مع رعاياه، فهو «عدوّ أسود الكبد، مظاهر البغي على الحسد.. لايرزأ العـدوَّ الغائظ له إلَّا التسلط على ضعفاء رعيَّته بإفساده لأقواتهم، ونيله من دماء المحاويج منهم، فكم نال فسّاقه الذين أرسلهم عليهم من دم أرملة غرثى،[2] ويتيمة كفرخ الُحبارى إلى من أصيب فوقهم من عابر سبيل، وضارب لمعيشة، مؤيِّم نسوة، وموتم صبية. أضحوا طعم ذئاب».[3]

ثم هو يمدحه ويصف جحافله الجرارة، ويتغنَّى بشجاعة جنده وإقدامهم، وماكان من تحقيقهم النصر بقيادة ابنه سراج الدولة الذي انقضّ عليه «انقضاض الكوكب السَّاري، فخسف به وبجمعه، أحفل ماكان في عديده، وأوثق ماهو بجنوده، فطواه طيَّ الرِّداء، وغلَّ أيدي كماته عن إعمال القنا، وأرغى فوقهم سقب السماء، فاقتسمتهم أيدي الحتوف بين حرِّ الحديد وبرد الماء..»[4]

وتتصل برسائل الفتن والخصومات أيضاً رسائل الزجر والاستصلاح وتهديد الخارجين على الحكم. وقد كانت تلك الرسائل تعمد إلى أسلوب الزجر والتهديد أحياناً، وإلى أسلوب المصانعة والملاطفة حيناً آخر. ومن الرسائل التي عمدت إلى أسلوب المـلاطفة والترغيب الرسالة التي كتبها ابن برد الأصغر يخاطب بها أحد المتمرِّدين الذين عادوا إلى رشدهم، ويذكّره بقوة الدولة، ويحذّره من مغبة التمرد مرة أخرى، حيث يقول: «فمهَّدنا لك الترغيب لتأنس إليه، وظللنا لك الترهيب لتفرق منه... وأمان الله لك مبسوط منّا ومواثيقه بالوفاء لك معقودة علينا، وأنت إلى

---

(١) ـ انظر أيضاً رسالة (لأبي محمد بن عبد البر كتبها عن مجاهد العامري إلى المعتضد مهنئاً إيّاه بأخذ شلب في القلائد: ص ١٨١.

(٢) ـ غَرْثَى: الغَرَثُ: أيْسَرُ الجوع، وقيل شدته، وقيل هو الجوع عامة، ويقال غَرْثَ يَغْرَثُ غَرَثاً، فهو غَرِثٌ وغَرْثَانُ، والأنثى غَرْثَى (اللسان: مادة غرث).

(٣) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٧٩.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٥٨٠.

وجهتك مصروف، وبعفونا والعافية منّا مكنوف، إلاّ أن تطيش الصنيعة عندك، فتخلع الرِّبقة، [1] وتَمْرُق [2] من الطّاعة، فلسنا بأوّل من بغي عايه ولست بأوّل من بدت لنا مقاتله من أشكالك إن بغيت، وانفتحت لنا أبواب استئصاله من أمثالك إن طلبت. . » [3]

ومن الرَّسائل التي تميل إلى الملاطفة والمصانعة أيضاً رسالة كتبها أبو محمد بن عبد الغفور عن يوسف بن تاشفين إلى بعض الأمراء جواباً عن كتاب يعتذر فيه عن هزيمة انهزمها، ويصف من فرّ من العساكر ومن لزمها، وفي هذه الرسالة يبدو طابع الملاطفة والترغيب والاستصلاح، فهو يخبره بأنه لو تكتم الخوف في قلبه وثبت في مكانه فإنَّ جاره كان يثبت بثباته، أمَّا إعلانه الخوف وإيثاره الفرار فقد نقل عدوى الخوف إلى بقية الجيش فانهزم بانهزامه، وكتمان الخوف فضيلة ولا إثم فيه، يقول مخاطباً إيّاه: «ومابعثناك لتشهد، وإنَّما بعثناك لتجهد في طعنٍ بِخَطِّيٍّ أو ضربٍ بِمُهَنَّدٍ، فإذا لم تعقل فلا أقلّ مما تجلد وتصبر، وتحمل من معك على الصَّبر، ولا تكون أوّل من فرَّ فتعدي بفرارك تثبُّت جارك، ولو كتمتها من شهادة لم أثم قلبك، فلا تؤثر الكتب، بما يثير عليك العتب، ولتأنف من المستأنف من إيثار الدَّنيَّة على المنيَّة، ولتكن لك نفس أبيَّة. . »[4].

ومن الرسائل التي تعمد إلى أسلوب التهديد والوعيد تلك الرِّسالة التي كتبها أبو بكر بن القصيرة على لسان أمير المسلمين إلى طائفة متعدِّية، وفيها يهددهم ويتوعدهم إن هم لم يعودوا إلى الصواب ويقلعوا عما يرتكبونه من الزلل والانحراف يقول: «وحسبنا هذا إعذاراً لكم، وإنذاراً قبلكم، فتوبوا وأنيبوا وأقلعوا وانزعوا واقتصوا من أنفسكم كل من وترتموه، وأنصفوا جميع من ظلمتموه وغششتموه،

---

(١) ـ الرِّبْقَةُ: (الرِّبْقَةُ): الحبل والحلقة، ويقال أخرج رِبْقَة (رِبْقَةُ) الإسلام منْ عنقه: أي فارق الجماعة (اللسان: مادة ربق).

(٢) ـ تَمْرُقُ: تخرج من الطاعة (انظر اللسان: مادة مرق).

(٣) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠٠.

(٤) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٤٢٢.

ولاتستطيلوا على أحدٍ بعد. . . وإلاّ عاجلكم من عقوبتنا مايجعلكم مثلاً سائراً وحديثاً غابراً. . »[1]

النقد السياسي والدعوة إلى وحدة الصف:

لقد أثارت تلك المصائب والمحن التي حلت بالمسلمين بالأندلس الغيارى من الأندلسيين، ونبهتهم إلى الخطر الكامن وراء تلك الفتن والخصومات السياسية، فدفعهم حرصهم على مصلحة الأمة والدَّعوة للمِّ الشعث، وتوحيد الجهات وتهيئة الجهود لمواجهة الأخطار الداخلية والخارجية.

لقد نهض كثير من الكُتَّاب برسالتهم من تلقاء أنفسهم أو بتكليف من بعض الأمراء المخلصين للأمة. وقد تجلَّت جهودهم تلك في شكل رسائل مبثوثة إلى أمير أو حاكم أو إلى المجتمع الأندلسي بأسره في وصف المحن والنكبات، وفي الدعوة إلى وحدة الصف ونبذ التفرق والخلاف، أو في شكل نقد سياسي لاذع لممارسات بعض الملوك والأمراء، وكانوا يقدِّمون في ذلك كلِّه تشخيصاً للداء وبياناً للعلاج.

ونلمح هذا الاتجاه النقدي في رسالة طويلة للبزِلْيَانِّي[2] عن أحد الأمراء إلى صاحبي شَاطِبَةَ[3] دعاهما فيها إلى الوحدة والتعاون ونبذ الفرقة وتوحيد الجهد لمواجهة خطر الصليبيين. وقد افتتحها بنقد عام لأوضاع المسلمين في الأندلس وماهم عليه من افتراق الشَّمل، وانقطاع الحبل، واختلاف الكلمة، ويأمل الكاتب أن يحقق الله على يديهما وحدة الأمة وجمع شملها ولمَّ شعثها، حيث يقول مخاطباً إيَّاهما: «ومشارب الآمال قد تكدَّرت، ووجوه المحاسن قد تغيرَّت، وأيدي التَّوازر قد قصرت، وسبيل التَّناصر قد توعَّرت، إلاَّ أن يتلافى الله الخلل بتسديد نظركما،

(١) ـ القلائد: ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٢) ـ هو أبو عبد الله محمد بن أحمد البزِلْيَانّي، أصله من مالقة، وكان في خدمة حبوس أولاً، ثم انتقل إلى بني عبَّاد، وذكر ابن بسَّام أنه كان أحد شيوخ الكُتَّاب وجهابذة أهل الأدب (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٢٤).

(٣) ـ هما مظفر ومبارك العامريان، وكانا صاحبي بَلَنْسِيَةَ أيضاً (انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٣).

وينعش الأمل بحميد أثركما، فينظم الشَّمل، ويصل الحبل، ويسدَّ الثلم، ويشدَّ الحزم، ويرقع المنخرق، ويجمع المفترق. . . ويعيد الكلمة متَّفقة، والأمَّة متَّسقةً، والأيدي متأيِّدةً. . .»[1]

وتحدَّث عن موضوع الفتنة التي نشبت بين الأميرين وأمير آخر، ويكشف عن حرصه على السعي لإصلاح مافسد بينهم خشية أن يتمادى بهم اللجاج، ويتعاصى في أمورهم العلاج، ولهذا فهو يحضُّهم على توحيد الصف ورأب الصدع مبيناً الفوائد الجمة التي تعود على الإسلام والمسلمين، ومذكراً إيَّاهم بما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة من دعوة المؤمنين إلى الاعتصام بحبل الله، يقول: «ولم يخف عليكما مافي صلاح ذات البين، من الفوز بخير الدَّارين، وأمن العباد، وخصب البلاد، وإعزاز الدِّين، وإذلال القاسطين، وتوهين المشركين، وقوَّة العضد، ووفور العدد، ودعة الأجسام. . . . وستر العورات، وحفظ الحرمات، والانتهاء إلى حدود الله، والازدجار بزجره، والتأدُّب بأدبه، والإئتمار بأمره. . .»[2]

وينفّرهم من الفتنة مبيناً عواقبها الوخيمة، فهي الحرب المهلكة المدمرة للإسلام والمسلمين، إذ «إنه لم يهلك من هلك من الأمم الماضية، والقرون الخالية إلاَّ بتقاطعهم، وتحاسدهم وتدابرهم وتخاذلهم. . . والحرب مشتقَّة المعنى من الحرب،[3] مع ظنِّك وكأنَّه المنغلب، توتِّم الأطفال، وتلتهم الرِّجال، سوق لاينفق حاضروها غير النّفوس والأرواح، وشرب يتعاطون المنايا بظبا السّيوف وأطراف الرّماح، مصروعهم داثر، وصارعهم خاسر. .»[4]

(١) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٧.

(٢) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٨.

(٣) - من قول أبي تمام:

لما رأى الحرب رأي العين توفلس ... والحرب مشتقة المعنى من الحرب

(ديوان أبي تمام: ج ١، ص ٧٠.

(٤) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٨ - ٦٣٩.

ثم يوجّه إليهما نقداً لاذعاً، وينتقد سياستهما التي تقوم على الاستعانة بالنصارى ضد إخوانهم في الدِّين، ويبين ماجره ذلك على المسلمين من مصائب ومحن، يقول: «فقد بلغني أنَّ مذهبكم الاستجاشة بالنَّصارى إلى بلاد المسلمين، يطؤون ديارهم، ويعفّون آثارهم، ويجتاحون أموالهم، ويسفكون دماءهم، ويستعبدون أبناءهم، ويستخدمون نساءهم»[(١)].

وتتجلَّى في هذه الرسالة عاطفة النقمة الشديدة على ممارسات هؤلاء الحكام المنحرفين عن مصلحة الأمة، إذ إنّ ذلك مما ينذر بانهيار الوجود الإسلامي في الأندلس، يقول: «فهي حالةٌ مؤذنةٌ بالذَّهَاب، وجريرةٌ تؤذنُ بالخَرَاب»[(٢)].

ومما جاء في النقد السياسي والدعوة إلى وحدة الصف والتعاون رسالة كتبها ابن التَّاكُرُنّيّ رداً على رسالة لأبي جعفر بن عبَّاس، وفيها يكشف عن رغبة ملك بلاده في التعاون والتآلف ورأب الصدع، وقطع دابر الفتنة، ويشير إلى مايلاقيه من صدودهم وإعراضهم عن ذلك بقوله: «ومن العجب قولك: اقدحْ لي أُضيء لك، ولقد قَدَحْنَا لكم فأظلمْتُم، وحفظنا ذِمَامَكُمْ فَضَيَّعْتُم، وَوَصَلْنا فهجرتُم، وقربنا منكم فبعدتم..»[(٣)].

ويشخِّص أسباب الشر التي جلبت النحس على الأندلس، فهي تتمثل في انشغال المسلمين بالفتنة عن مواجهة الخطر الصليبي، ويوجه إليهم نقداً لاذعاً، فيحمِّلهم نتيجة ماحلَّ بالمسلمين من مصائب ونكبات ويرميهم بعدم مراعاة حرمة الدين، وإظهار الرغبة في الوحدة مع أنهم يسيرون في طريق الفتنة «فالنِّعم تنتسف، والستور تنكشف، والدِّماء تسفك، والحرم تنتهك، والإسلام يعلز[(٤)] علز المحتضر، وأهله للشِّرك كالهشيم المحتظر، فلا حرمة الإسلام رعيتم، ولاذمام المشاركة قضيتم،

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٦٣٩.

(٢) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٩.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٣٧.

(٤) ـ العَلَزُ: القلق والكرب عند الموت (اللسان: مادة علز).

فلم تعدّون ذلك من ذنوبنا، وتبثّون بذلك رسلكم في البلاد، وتنادون هَلُمَّ إلى الجهاد، تقولون بأفواهكم ماليس في قلوبكم. . . »[1]

ويوجّه إليهم نداءاً للتّعاون والاتفاق والوحدة، يقول: «فيا للمسلمين! تعالوا إلى التّعاون، واتفقوا ولاتفرّقوا، واتقوا عاقبة الخذلان. وقد ناديت إن أسمعت، ونصحت بقدر مااستطعت، فإن وافقت قبولاً ولقيت تأويلاً جميلاً، فإنّ الخير عتيد، والتناول غير بعيد. . »[2]

ويختتم رسالته بالتأكيد على أنه لامجال أمام المسلمين إلاّ أحد طريقين «فإمّا أُلْفَةٌ وانتظام، واتفاق يحيي رمق الإسلام، وإمّا داعية تلفٍ، وراعدةُ صلفٍ،[3] وهنالك تزلُّ القدم، ولاينفع الندم».[4]

ونلمح نقداً سياسياً في تلك الرسالة التي كتبها أبو بكر بن عبد العزيز[5] جواباً عن أهل قُرْطُبَةَ على خطاب ورد من قبل المستعين بن هود يحرضهم فيه على مواجهة المرابطين ومقاومتهم. وقد وجَّهَ إليه نقداً شديداً لتراجعه عن رأيه في تسليم قُرْطُبَةَ للمرابطين ليدافعوا عنها أمام الصليبيين، ويرميه بالضعف والجبن والخيانة التي تمثلت في تعاونه مع النصارى أعداء المسلمين، يقول: «لكنَّ العجب كلَّ العجب أن يكون سعيك للكُفَّار، وتوفيرك للدّمار، وكيف يسوغ لك أن تحذِّرَ من الله وأنت لاتحذره؟!. . . ألست تعلم أنَّ النَّصارى - لعنهم الله - قد استولوا على

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٣٨.

(٢) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٣٨.

(٣) - راعدة صَلفٍ: الراعدة هي السحابة ذات الرعد، والصَّلفُ قلة النّزَل والخير. وفي الأمثال العربية: رُبَّ صَلِفٍ تحت الرَّاعِدَةِ (انظر اللسان: مادة صلَف).

(٤) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٣٩.

(٥) - هو محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز، نشأ في حجر دولة بني عباد، كان مشهور البراعة متحققاً بالأدب، توفي سنة ٥٣٦ هـ (انظر ترجمته في: القلائد: ص ١٦٢، الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٥٣٣، المغرب: ج ١، ص ٣٠٧.

ثغور المسلمين التي كانت بنظرك منوطةً،[1] وبمستقرٍّ قدميك مخلوطةً؟ فهل كانت لك طاقة بمحاربتهم، أو قوة على مقارعتهم، أو إصراخ لمن استصرخك من قتيلٍ مستشهدٍ، أو أسيرٍ مضطهدٍ! . . ». [2]

ويذكّرهُ بأن جواز المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس كان بعد دعوة الأندلسيين لهم واستنجادهم بهم، وأنهم ماجاءوا إلَّا لنصرة الإسلام، ونجدة المسلمين ضد النَّصارى، فيوسف بن تاشفين لم يبلغ «بلادك ولاغيرها لمالٍ يبتزُّهُ، ولالتملُّكٍ يستفزُّهُ، وإنَّما بغيته أن يقمع شيطان الشّرك، ويستنقذ المسلمين من الهلك . . . »[3]

التَّيَّارات السِّياسيَّة:

على نحـو ماعـبَّرت الـرسـائـل عن بعض الخصـومـات السياسية والفتن والاضطرابات الداخلية، فقد عبَّرت إلى حدّ ما عن بعض مظاهر التيارات السياسية التي كانت تصطرع في الأندلس في القرن الخامس الهجري. إذ يلمس الباحث في بعض الرسائل بعض آثار التشيع الذي تسرّب إلى الأندلس في ظل الدولة الحمُّودية التي كانت دولة شيعية معتدلة، إذ لم يكن لها مذهب كامل واضح المعالم ولافلسفة تقوم على أسس ثابتة ولافقه خاص بهم، كما كان في الدولة الفاطمية في مصر والدولة البويهية في إيران. [4]

ولابد من الإشارة إلى أنه بعد انتهاء ثورة قُرْطُبَةَ سنة **٣٩٩** هـ. وخلع الخليفة هشام المؤيَّد، تضاربت الأقوال في أمر الخليفة المخلوع، فمن قائل: إنه قد مات، ومن قائـل: إنـه حيّ يرزق في قبضة سليمان المستعين وقفد استغل علي بن حمُّود هذه

(١) ـ منوطة: يقال ناط الشيء ينوطه نوطاً: علقه، ويقال نطت هذا الأمر به أنوطه، وقد نيط به، فهو منوط أي معلق به (اللسان: مادة نوط).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٥٤٦.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ٢، ص ٥٤٧.

(٤) ـ انظر: التشيع في الأندلس»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (١٩٥٤) ع ٢، ص ١٣٢.

الظروف السياسية المضطربة فأعلن أنه قد تسلم رسالة من الخليفة هشام المؤيَّد يستنجد فيها به كي يخلِّصه من أسر البربر، وسليمان المستعين، ويعده بحق ولاية العهد إذا ماتمَّ خلاصه. وقد استطاع علي بن حمُّود أن يحتل قُرْطُبَةَ وأن يقتل سليمان المستعين، وحينئذ أعلن نفسه خليفة بعد أن أذاع أن هشاماً المؤيَّد قد مات، وأخرج جثته ليثبت وفاته.(١) وفي هذا الوقت الذي قوي فيه خطر الدعوة العلوية فشلت محاولات الاتجاه الأموي في استرجاع الخلافة فرأى المعتضد بن عبَّاد أن يقدم رجلاً للخلافة زعم أنه هشام المؤيَّد وبايع له. ودخل الناس في طاعته وذلك سنة ٤٢٧ هـ، وقد أخذ الاتجاه الأموي يستغلُّ بعض الأفكار الشيعية وينشر الإشاعات عن عودة الدولة الأموية، وأن هشاماً إنّما رحل إلى مكة لتأدية المناسك، ثم يعود فيعيد إلى الأرض العدل وينشر السلام.

وقد أثارت هذه الخرافات حفيظة عدد من رؤساء الأندلس وكُتَّابه، فهذا أبو جعفر بن عبَّاس يكتب رسالة عن زهير الصقلي صاحب اَلمرِيَّة إلى أهل قُرْطُبَةَ حول هشام الدعيّ، ويهاجم فيها المعتضد، يقول: «وأشدُّ هذه العصابة المشؤومة ابن عبَّادٍ الذي سَلَّ سيف البغي والفتنة من قرابه، وأثار بعير الظُّلم من مبركه، وانتزى ببطنته أشراً، ومشى في الأرض مَرَحاً، وظنَّ أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طُولاً، فغزا أهل الإسلام في عقر دارهم . . . واستعار اسم الشَّهيد هشام المؤيّد بالله لغير أهله، وعزاه إلى من ليس من شكله . . . واتّبع الرسم الدارس، وجعل حَظَّ الناس في التَّمثيل في اسم كاذب، واعترض على منكريه بكهانة شق(٢) وسطيح، وآيات طسم وجديس،(٣) واحتجَّ بكتب الجفر، ودان بالتَّناسخ . . .»(٤)

ويختتم رسالته بدعوة أهل قُرْطُبَةَ إلى مبايعة إدريس بن علي بن حمُّود خليفة للمسلمين بعد موت أبيه ولاسيما أنه «قد اتَّفقت الكلمة في وضع رأس الإمارة على

(١) ـ انظر البيان المغرب: ج ٣، ص ١١٦، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ١٤١ ـ ١٤٢.
(٢) ـ شقٌّ: اسم كاهن من كهان العرب (اللسان: مادة شقق).
(٣) ـ طَسْم وجَدِيس: حيَّان من عاد (اللسان: مادة جدس).
(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٦٥١.

كاهله، ونصل الإمامة في نصابه، وأعدنا الحقّ إلى أهله، وأصفقنا[1] على بيعة رضىً واتفاق وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين إدريس المتأيِّد بالله.. وطهَّرنا المنابر من دنس تلك الدعوة المستعارة، وهتفنا بها هتف التباشر، وقامت بها الخطباء على المنابر... فاعتبروا بما ألقينا إليكم اعتبار من يحتاط لدينه وتقواه... والرَّمز يكفيكم والإيماء يغنيكم...»[2]

لقد استخدم أبو جعفر بن عبَّاس بعض مصطلحات الشيعة كالجفر الذي هو وعاء من جلد ثور صغير مكتوب فيه علم ماسيقع وهو مروي عن جعفر الصادق، والتناسخ الذي هو من العقائد التي دانت بها الكيسانية من الشيعة.

وعندما ضعف أمر الدعوة العلوية (الشيعية) واضمحلت دولتهم أعلن المعتضد بن عباد موت هشام الدَّعي في سنة ٤٥٠ هـ، إذ إنه لم يعد بحاجة إلى الدعوة له. ومهما يكن من أمر، فقد أخذت الدعوة العلوية تحاط بجو من الكراهية الشديدة من جانب الأندلسيين الذين تأصل فيهم المذهب السني منذ عصر الإمارة، فقد كتب أبو جعفر بن عبَّاس رسالة يتحدَّث فيها عن أحد خلفاء بني حمُّود ويرميهم بعدد من التهم فهو «ملحد رجس، لايؤمن بالله واليوم الآخر، ولايؤاخي إلاَّ كلَّ منافق كافر، يسبُّ الصحابة الأبرار، ويكذِّبُ بالجنَّة والنَّار، ولا يرجو حساباً، ولايحذر عقاباً. يأخذ الرِّشوة على بيت الله الحرام، ويستخفُّ بشرائع الإسلام، يهتك الحريم، ويسفك الدِّماء، ويستصحب الأوغاد والشُّطار...»[3]

ثم يهاجم الشيعة، فيقول: «بئسَ الشيعةُ وقَودُ جهنم وحَصَبُها، وعليهم يزدادُ حَنَقُها وغَضَبُها»[4].

---

(١) - أصفقنا: أجمعنا (اللسان: مادة صفق).

(٢) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٥٢ - ٦٥٣.

(٣) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٥٤ - ٦٥٥.

(٤) - المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٦٥٥.

الاتجاه الاجتماعي

أشرنا فيما تقدم إلى أن المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري كان يمرُّ في مرحلة خطيرة من مراحل الوجود الإسلامي في الأندلس، إذ انشغل الأمراء والحكَّام عن مصلحة الأمة، ودفع العدو الجاثم على صدر الأندلس بالمظاهر الكاذبة، وبركوب المعاصي وسماع العيدان، وبناء القصور، فانتشر الفساد، وغشي حب الشهوات والترف جميع طبقات المجتمع الأندلسي، وقلت الموارد والمصادر، وافتقرت الرعية، وارتفعت الأسعار، وطمع الفقير في الغني، واجترأ الضعيف على القوي، ونهج بعض ملوك الطوائف سياسة البطش والقوة مع رعاياهم، فكثر النفي والتَّشريد والطرد والجلاء والقتل، وامتلأت السجون.[1]

وقد واكب أدب الرسائل في الأندلس هذه الحياة الاجتماعية المضطربة، فصوَّر كثيراً من ملامحها ومظاهرها، كما استطاع أن يعبِّر عن الظروف النفسية الصعبة التي عاشها أبناء الأندلس آنذاك، وقد تباينت مواقف الكُتَّاب من هذه الأحداث، وتنوَّعت ردود فعلهم تجاهها، فمنهم من أقبل على المتع والملذات والمجون، ودعا غيره إليها لتحقيق حاجاته الحسيَّة ومطالبه الوجدانية دون أن يعبأ بمسؤولية إزاء المجتمع.[2]

ومنهم من وقف من المجتمع موقف الناقد البصير الملتزم بالقيم الخلقية والفضائل الإسلامية، وأخذ يحدِّد الأدواء والمعوقات في مسيرة المجتمع، ويرسم

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٦٤، تاريخ الأندلس: ص ٧٧.

(٢) ـ يجد الباحث صوراً لهذه الموضوعات في: القلائد: ص ١٠٨، الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

الصورة الملائمة للإصلاح،[1] وسوف يتّضح ذلك كله من خلال دراستنا لموضوعات الرسائل الاجتماعية.

الشَّكْوَى من الزَّمان وفساد الأحوال:

أشرنا فيما تقـدَّم إلى توالي النكبات والمصائب والمحن على المجتمع الأندلسي نتيجة التهديد الصليبي للوجود الإسلامي. وقد وصف كثير من الكُتَّاب تلك المحن والمصائب، وبينوا آثارها على المجتمع الأندلسي، وسنوضح ذلك في حديثنا عن موضوعات رسائل الجهاد والصِّراع مع الصليبيين.

ومهما يكن من أمر، فقد كان من نتائج فساد الأحوال في المجتمع الأندلسي أن تفككت العلاقات الاجتماعية، وانهارت الصلات والوشائج بين الناس، فأصبح الغدر والكذب والنفاق والخيانة من شيم الزَّمن وأهله، مما دفع كثيراً من الكُتَّاب إلى الشكوى من الزَّمان وفساد الأحوال، وكثرة المحن والمصائب، فهذا أبو الفضل البغداديُّ،[2] يصوِّر لنا اختلال الأمور، وتدهور الأحوال، وانهيار الأخلاق، وانعدام الأمن، وضعف الوازع الدِّيني في نفوس الناس، ثم هو يشخص أسباب الشر وعوامل الفساد التي حالت دون تطور المجتمع ونهضته، يقول: «وكنت مررت ببلادٍ شموسُ الفضائل في آفاقها مكسوفة، وعيون العلم والآداب في عَرَصَاتِها مطروقةٌ، وستائر الأحرار بين أهلها مهتوكة، مكشوفة، وجنباتها بأنواع البلاء محفوفة. وقد نضبت في رباعها مياه الأمانة والأمان، ونبعت بين أهلها عيون الخيانة والبهتان، وضعف حبل الديانة فيهم والإيمان، فجنحوا إلى جحود النِّعم والكفران، وتوسَّعوا في مطاوعة الظّلم والعدوان...»[3]

---

(١) ـ يجد الباحث صوراً لهذه الموضوعات في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧٧ ـ ١٧٨، ص ٤١٤ ـ ٤١٥، ق ٤ م ١، ص ١٨٩، ص ١٩١.

(٢) ـ هو أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي، أحد الوافدين على الأندلس والطارئين عليها، توفي سنة ٤٥٥ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٢٧٤ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٨٧).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤١١.

ويختتم رسالته بالإشارة إلى النتيجة الحتمية لتلك الأعمال السيئة حيث «أبدلهم الله من النور في أحوالهم ظلاماً، وبالحلال في مكاسبهم حراماً، وخصّ أسعارهم بالغلاء، وجمعهم بالفناء، ولفيفهم بالتشتُّتِ والجلاء، وللخراب مايعمرون، وللقتل مايلدون، وللنهب مايجمعون، ولغيرهم مايكسبون . . . »(١)

ويعتبر ابن الدَّبَّاغ(٢) من أبرز الكُتَّاب الأندلسيين الذين أكثروا من شكوى الزمان وفساد الأحوال، يقول في إحدى رسائله مصوّراً الظروف النفسية الصعبة التي يعاني منها: «لاتسأل عن الحال، فقد صار في عينيَّ معمور الكرة، أضيق من خُرْت (٣) الإبرة، واستبهمت(٤)لي المطالب، وانسدَّت عليَّ المذاهب. . . وياليتَ شعري أين الفرج فهذا التناهي، وقد بلغت القلوب الحناجر ومتى التَّلاقي؟ . . »(٥)

وقد دفعت تلك الظروف الاجتماعية المتدهورة كثيراً من الكُتَّاب إلى سوء الظن بالناس، وإلى المُناداة باعتزالهم حتَّى يكون الإنسان بمنجاة من شرورهم وآثامهم، فهذا أبو المغيرة بن حزم يقول في إحدى رسائله إن في الاحتماء حسم الدَّاء، ولاعدوَّ للإنسان إلّا نفسه، ولا حيةً ولا عقرب إلاَّ جنسه، وليس في الحيوان، أخبثُ في ذاته من الإنسان، فالاحتراس كُلَّ الاحتراس والمعاشرة الجميلة للنَّاس. . وأعقل النَّاس من عرف النَّاس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبيٍ مِتَكَلَّفٍ، أو قريب غير منصفٍ. . ». (٦)

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤١١.

(٢) ـ هو أبو المُطرّف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدَّبَّاغ، كان كاتباً للمقتدر بن هود، ثم نزّ عنه إلى المعتمد بن عبَّاد (انظر ترجمته في: القلائد: ص ١٠٦، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥١، المغرب: ج ٢، ص ٤٤٠).

(٣) ـ الخُرْتُ: الثقب (اللسان: مادة خرت).

(٤) ـ لعل الصحيح «استبهمت عليَّ المطالب»، أي أشكلت علي ولم تتضح وجهتها ومعرفتها واستقامتها (اللسان: مادة بهم).

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٧، وانظر أمثلة اخرى من هذه الرسائل في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٤ ـ ٢٧٨.

(٦) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٥٣.

ولعل مرد ذلك ماخبره في أهل زمانه من مظاهر النفاق والغدر والخيانة التي كانت انعكاساً لاضطراب المجتمع وفساده.

ويشير أبو المغيرة في رسالة أخرى إلى انهيار القيم، واختلال المبادىء، وانقلاب موازين الأمور، وارتقاء الجهلاء، وغياب الفضلاء.(١)

ولقد كان من آثار التفكك الاجتماعي أن زالت من بعض النفوس الأنفة الإسلامية، وغابت عنها الفضائل الدِّينية، واضطربت القيم الخلقية، حتّى عادت لاتثني الابن عن شقِّ عصا الطاعة لوالده، أو ترك الشفقة عليه والإحسان إليه، فهذا أبو بكر البَطَلْيَوْسي يرفع رسالة إلى أحد الأمراء على لسان من استعفى ابنه، وفيها يشكو إليه عقوقه، يقول: «معلوم ـ أيَّد الله الأمير الأجلَّ ـ أن العقوق ثكل من لم يثكل، وأنَّ العاقَّ إن عاش نغَّص، وإنْ ماتَ نَقصَ، وأنَّ النَّاس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم، ولايشفع في ابنٍ أب، وأنّ المرء لايهدي من أحبَّ... ولما أريته طُرُقَ التَّبصير والتَّسديدِ، وقلت له: يابُنَيَّ من وعظ بغيره فهو السَّعيد، ولم يُغْنِ الوعد ولا الوعيد، تبرَّأت منه إليك..»(٢).

ونقرأ لأبي بكر البَطَلْيَوسي رسالة أخرى رفعها إلى الحاكم يشرح فيها قضية أخت له هجرها زوجها، واختلس ابنها الصَّغير منها، مما أحرق كبدها، وهو يسأله أن يردَّ ابنها إليها، يقول: «وذلك أنَّ أُختاً لي، أمتك، لاباكية لي سِواها، كان لها ابن من ابنِ فلانٍ، فعرض له فاختلسه، ومَرَّ به إلى الحضرة الُمزدانة بك، فتمثّل ماشئت من كمدها، واحتراق كبدها، وتذكر قوله عليه السلام: «لاتولَّه والدة على ولدها»، وانظر سوء فعل هذا المعاند، وتدري وجد ثكلى أصيبت بواحد... وأنت وليُّ النعمة في جبره عليها، وردِّ نومها به إليها...»(٣)

(١) ـ انظر نص الرسالة في: المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ١٦٠ ـ ١٦١.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٦٢.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ٢، ص ٧٥٦ ـ ٧٥٧.

كذلك فقد أدّت تلك الأوضاع الاجتماعية المضطربة إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية، وإلى انتشار الفقر بين مختلف طبقات المجتمع الأندلسي مما أدّى إلى ظهور الكدية، يقول ابن حيّان مصوراً رجلاً من أهل الكدية، وقد امتلأت حقائبه بألوان الطعام وغيره: «وصدر فلان مع أصحابه الرُّسل وقد امتلأت حقائبه مِمّا قَمَّشه من السُّحت،[1] بضروب الكدية والشَّحذ، وبخل حتّى بالزّاد المأدوم[2] في الطَّريق، وضنَّ به على الرَّفيق».[3] ومهما يكن من أمر، فسنفرد لرسائل الكدية التي عرفت بالزرزوريات مكاناً خاصاً فيها بعد.

ولقـد دفعت تلك الظروف الاقتصادية المتدهورة بعض الأندلسيين إلى الضرّب في الآفـاق، والتجول في البلاد طلباً للرزق، وفي ذلك إشارة إلى ماكان يعانيه الأندلسيون من قلق واضطراب، وإلى مايواجهونه من مصائب ومحن، وإلى ذلك يشير أبو أحمد المُنْفَتِل[4] في رسالة خاطب بها ابن النغريلة حيث يقول: «ولّما أغصَّني - الزمان - بالرّيق، وحفزني بالمضيق، ولم يترك همّاً إلا سنَّى عقده، ولانظمًا إلا نثر عقده، ورأيت الاستحالة في الحال، والعيلة[5] في العيال، وجداً قد جدَّ. . . هَيَّأت راحلةً وأثاثاً، وطَلَّقت ابنة الوطن ثلاثاً، وقلت إمّا أن أجد فأظهر، أو أموت فأعذر. . .»[6]

وفي ظل تدهور الأحوال السياسية كثر النفي والتشريد والسجن، مما جعل كثيراً من الأندلسيين يعيشون في قلق دائم، وخوف مستمر، فأصبحت عندهم الحياة

(١) - السُّحْتُ: كلُّ حرام وماخبث من المكاسب وحرم (اللسان: مادة سحت).

(٢) - يقال طعام مأدوم، أي مخلوط (اللسان: مادة أدم).

(٣) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٩٤.

(٤) - هو أبو أحمد عبد العزيز بن خيرة القرطبي المشهور بابن المُنْفَتِل، من أعلام وشعراء وكُتّاب إلبيرة في عصر ملوك الطوائف (انظر ترجمته في: الجذوة ص ٣٩٠، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٥٤، المغرب ج ٢، ص ٩٩).

(٥) - العَيْلَةُ: الافتقار (اللسان: مادة عيل).

(٦) - الذخيرة: ق ١ م ١٢، ص ٧٦١.

المستقرة ضرباً من المستحيل، وفي هذا المعنى يقول أبو محمد بن عبد البَرّ: «من صحب الدَّهر ـ أعزَّك الله ـ وقع في أحكامه، وتصرَّف بين أقسامه: من صحّةٍ وسقمٍ ووجدٍ وعدمٍ، وبعادٍ واقترابٍ، وانتزاحٍ واغترابٍ، واتّفق لي ماقد علمت من الانزعاج والاضطراب والتغرّب والإياب. .»[1]

ويكشف ابن شرف القيرواني في عدد من الرسائل التي وضعها على ألسنة المساجين، عما يعانيه بعض الأندلسيين من شعور شديد بالغربة، وقلق نفسي وعدم استقرار، يقول في إحداها واصفاً اضطراب الحالة النفسية لأحد المساجين «قد حكمت بسجن الأشباح، وهي سجون الأرواح، فامنن على ماشئت منهما بالسَّراح، فالحبس نزَّاعُ الأرواح، والغفلة[2] أخت القتلة، وكلاهما فقد، ومهر للخطوب ونقد، وإنَّما بينهما نفس متصاعد، وأجلٌ متباعد. . .»[3]

إنَّ هذه الرسائل تعكس لنا بعض جوانب وملامح الحياة الاجتماعية في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

التَّرف والمجون:

على الرَّغم من حياة الحرب التي عاشها المسلمون في الأندلس في القرن الخامس الهجريِّ، فقد انتشرت آيات التَّرف والبذخ في سائر جوانب المجتمع، وتعدد مظاهرها وأشكالها. وقد عَبَّرَ أدب الرسائل عن بعض مظاهر هذه الحياة اللاهية العابثة.

ومن ذلك تصوير احتفال الملوك والأثرياء ببناء القصور الخاصَّة[4] بهم، فهذا

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٢٨.

(٢) ـ الغَفْلَةُ: الترك والسهو (اللسان: مادة غفل).

(٣) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٢٢٥.

(٤) ـ انظر: رسالة أبي عبد الله بن مسلم في وصف أحد القصور الأندلسية في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٣١.

ابن جابر[1] يصف القصور الذنُّونيَّة الجليلة في طُلَيْطُلَة وماشتملت عليه من محاسن تذهل النَّاظرين، وماأحاط بها من جنان وبحيرات صناعية نصبت على أركانها تماثيل لأسود ينساب من أفواهها الماء، يقول: «ولهذه الدار بحيرتان، قد نُصَّتْ على أركانها صور أسودٍ مصوغة من الذَّهب الإبريز أحكم صياغةٍ، تتخيَّل لمتأمّلها كالحة الوجوه فاغرة الشّدوق، ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هوناً. . .». [2]

كذلك فقد صورت الرسائل الإسراف والتَّبذير في إقامة الاحتفالات، ومن ذلك ماجاء في وصف الحفل الذي أقامه المأمون بن ذي النُّون بمناسبة إعذار حفيده يحيى، فقد كتب الأديب ابن جابر رسالة إلى ابن حيَّان يحدِّثه فيها عن مظاهر الترف والبذخ والتبذير في المطعم والمشرب ومجالس الغناء والأنس في حفـل إعذار يحيى بن ذي النُّون، حيث «أُبيدت لمطابخه أمم من الأنعام، جمع فيه بين المشَّاء والطيّار والعوّام، وانتسفت لمخابزه أهراء من الطعام، وأنفقت على مجامره ومعاطره جمل من الأموال الجسام. .». [3]

ومن ذلك أيضاً ماجاء في رسالة لأبي عبد الله بن مسلم، [4] حيث صوَّر جانباً من ترف الحياة عند أحد الأثرياء، وقد قعدوا إلى الطَّعام، ووصف أواني الطَّعام وأدوات الوضوء، يقول: «وأخذنا مراتب القعود إلى الطعام، يطاف علينا بصحافٍ من فضة وذهب، وجفان كالجواب أترعت من كل أرب، فلمّا أتينا على الريِّ قمنا إلى الوضوء، فجيء بطساسٍ من التبر، وأباريق رُصِّعتْ بالدُّر. .»[5].

(١) ـ لم يعثر الباحث على ترجمة له، ولكن سياق النص الذي نقله ابن بسام عن ابن حيان في الذخيرة، يدل على أنه كان واحداً من أولئك الكتاب الذين يعملون في قصر المأمون بن ذي النون (انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٢٨، ١٣٢، ١٣٦).

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٢٨.

(٤) ـ هو أبو عبد الله محمد، بن مسلم، من كبار الوزراء والكُتَّاب الذين سفروا لبعض ملوك الطوائف (انظر: ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٢٧، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٥.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٣٢.

ومن مظاهر التَّرف التي صوَّرها أدب الرسائل اقتناء القيان والجواري، وماكان من نشاط تجارة الرقيق، حيث حرص النخاسون على أن يعلِّموا الجواري والقيان الشعر والنحو والطب والحكمة والمنطق ليكسبوا في بيعهن مالا وفيراً، فقد كتب ابن الكتّاني رسالة يصف تعليمه للقيان والجواري الغناء والموسيقى والآداب والعلوم، وكسبه المال الوفير من بيعهن، يقول: «إنَّ في ملكي الآن أربع روميات كُنَّ بالأمس جاهلات، وهنَّ الآن عالمات حكيمات منطقيات فلسفيات هندسيات وموسيقاويات اسطرلابيات معدِّلات نجوميَّات نحويَّات عروضيَّات أديبات خطاطِيَّات...»(١)

كذلك فقد انطلق الكُتَّاب الأندلسيون يصفون مجالس اللهو والأنس والطرب والغناء ومافيها من شراب ولهو ومجون، وأكثروا من الدعوة إلى عقدها.(٢) ويصف أبو عبد الله بن مسلم أحد مجالس الشراب والغناء التي عقدها أحد أمراء الأندلس الذي نزل بهم في إحدى رحلاته، يقول: «وقام بالجريال ساق جعل المنديل، مكان حمائل السيف الطويل، وأدار نجوماً بروجها أيدينا، وشموساً تطلع منه وتغرب فينا... وأوحي إلى المزمار أن ينطق، وإلى الأوتار أن تخفق، وإلى الغناء أن يذيب القلوب، ويشق الجيوب... فاندفعت - بلابل - المداري تغرِّد، وحمائم الأوتار تُصوِّب وتُصعِّد، وأطيار المعازف تتجاوب، وأصناف الملاهي تتناوب...»(٣)

ويحدثنا ابن الحنّاط عن مجلس خمرة حضره، ويصف ما دار فيه، يقول: «وجعلت الكأس تدور، ولا حديث لسقاتها، غير هاك وهاتها».(٤).

ولقد أكثر الكتاب الأندلسيون من لحديث عن الخمرة، حيث كانوا يستهدونها ويهدونها، وينعمون بشربها، فهذا ابن الدَّبَّاغ يكتب إلى أحد غلمانه يستهديه خمراً، ويبين تعلقه بها وشدة بحثه عنها، يقول: «وللراح - جعلت فداك - من قلبي محلٌ

---

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٢٠.

(٢) - انظر أمثلة من هذه الرسائل في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٢ - ٥٤٣. الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨.

(٣) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٤) - الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨.

لاتصل إليه سلوة، ولاتعترض عليه جفوة، إلاَّ أن معينها قد جفّ، وقطينها[1] قد خَفَّ، فلا توجد للسِّباء،[2] ولو بحشاشة الحوباء،[3] فصلني منها بما يوازي قدري، ويقوم له شكري. . . »[4]

النَّقد الاجتماعي:

أشرنا فيما تقدَّم إلى ظهور اتجاه نقدي اجتماعي عام لأوضاع المجتمع الأندلسي، وماأصبح عليه من تردٍّ وضعف وفساد متزايد، فقد أخذ كثير من الكُتَّاب يعرّضون بطبقات المجتمع الأندلسي المختلفة من أمراء ووزراء وقادة وقضاة وكُتَّاب وعامة، ويحذِّرونهم من مغبة ماهم فيه، ويرسمون لهم الصورة المثالية التي يجب أن يكونو عليها من أجل النُّهوض بالأمة وصيانتها.

وكان في مقدمة الأسباب التي ساهمت في تردِّي الأوضاع الاجتماعية في الأندلس انشغال الحكام عن مصلحة الأمة بالمظاهر الكاذبة والملذات، وقد انبرى لهم الكُتَّاب يعرّضون بهم ويفضحون ممارساتهم، وفي ذلك يقول ابن شرف القيرواني: «هُمهُ جواز يومه، وحلاوة نومه. أعلى همّته إرجال جُمّته،[5] واعتدال عمَّته، وأسُّ سروره، تناهي قدوره، وترويق خموره.. ثاني العطف عن الناصح، متعام عن الأمر الواضح، مستغنٍ بعبده عن جُنده. متشاغل بالأنياب الطاحنة في فمه، عن الأنياب الوالغة في دمه، يَنام عن مُسهرات الأنام.. ».[6]

ويشتد هجوم ابن شرف على الحكام فيتّهمهم بالظلم والجور، وينعتهم بعدم العدل بين أفراد الرعية، يقول: «سلطان يشتري بدينه ودمه، رضى ابن عَمِّه،

---

(١) - القَطِينُ: يقال قَطِينُ الرَّجل: حشمه وخدمه (اللسان: مادة قطن).

(٢) - السِّباء: يقال سبأ الخمر يسبوها سباء، أي اشتراها ليشربها (اللسان: مادة سبأ).

(٣) - الحوباء: النفس (اللسان: مادة حوب).

(٤) - القلائد: ص ١٠٨.

(٥) - يقول جاء فلان في جمة عظيمة، أي في جماعة يسألون في حمالة (اللسان: مادة جمم).

(٦) - الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٨٩.

خاسر التّجر، محروم الأجر، لايساوي بين أهل القبلة وهم سواء، ولايتكافأ عنده المسلمون وهم عند الله أكفاء . . » . (١)

كذلك يصوِّر لنا ابن شرف بعض ممارسات الحكّام المنحرفة حيث دفعهم ضعف الوازع الدِّيني في نفوسهم إلى إثارة العصبيات القبلية، مما أدّى إلى تخريب الديار وضياع الأوطان، يقول: «تعصب جاشت له صدور الجيش، وتكدّر به صفاء العيش. وللمساعدة في العصبية طارت الرُّؤوس والسّواعد وتهدّمت الذُّرى والقواعد . . » (٢)

وفي فصل من رسالة لابن حيّان يشير فيه إلى إفساد المأمون بن ذي النُّون في الأرض، وتسلُّطه على الضعاف من أهل بلده، يقول: «أسود الكبد، مظاهر البغي على الحسد . . . متسلِّط على ضعاف رعيته بإفساده لأقواتهم، ونيله من دماء المحاويج منهم. فكم نال فسّاقه الذين أرسلهم عليهم من دم أرملةٍ غرثى، ويتيمة كفرخ الحُبارى، إلى من أُصيب فوقهم من عابر سبيل، وضاربٍ بمعيشةٍ مُؤَيِّمُ نسوة، ومُؤَتِّمُ صبيةٍ. أضحوا طعم ذِئابٍ . . . » . (٣)

كذلك فقد انبرى الكُتّاب إلى نقد الوزراء الذين ارتبطت بهم بعض مظاهر الفساد الاجتماعي، كابن النغريلة الذي أفسد في الأرض، وتسلّط على العباد، وقيل عنه كلام في القرآن الكريم، وسمح لقومه باستغلال السلطة استغلالاً سيئاً مّما جعل العقلاء من أهل الأندلس يتنبهون إلى تفاقم الخطر من تمكن الوزير وتسلطه، فكتب ابن حزم رسالة في الردّ عليه، ناقشه فيها وقارعه في أمور دينه . (٤)

وممن انتقد الوزراء ابن شرف حيث أشار إلى أن هذا المنصب قد أصبح مجرد لقب يطلق على أولئك الذين انشغلوا عن مصلحة الأمة بالسعي وراء الملذات والترف

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٩١ .

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٩١ .

(٣) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٧٩ .

(٤) ـ رسائل ابن حزم: ج ٣، ص ٣٩ ـ ٧٠ .

واللهو، يقول: «قد يتسمَّى بوزير، من شغله البمّ[1] والزِّيرُ.[2] يعجبه اللّهو، ويغلبه السّهو، دمار من أوى إليه، وبوار من عوَّل عليه. . . ليله ناعس، ونهاره بالس،[3] لم يعلق به من الوزارة إلَّا حسن الشارة. . .»[4]

ويشير إلى إهمالهم، وسوء إدارتهم وعدم قدرتهم على تصريف الأمور، يقول: «حَتَّى إذا طرقت السرايا، وسيقت السّبايا، ونفر النافر، وضَجَّ البادي والحاضر، ونزع ثقات الأجناد، فتفرَّقوا في البلاد، فزع إلى الوزير، في وجه التَّدبير، فكان جوابه دموعه، وصوابه هلوعه، فحينئذٍ دارت الدَّائرة، واضطرمت النائرة،[5] وانصرمت الدُّول، وتبدَّلت الحلل. . .»[6]

كذلك انتقد بعضُ الكُتَّاب القضاة الذين طغوا واستبدوا بالأمور حيث استغلوا مكانتهم الاجتماعية، فهذا ابن شرف يصفهم بالظلم والانحلال والفساد والرشوة، يقول: «ولايته القضاء من سوء القضاء، جائر حائر: إن جار فعن تعمُّد، وإن حار فعن قِلَّة تعهُّد، ليله منتشٍ، ونهاره مُرتشٍ. . . إذا رأى الأمرد تَمَرَّدَ على خصمه، ومال عليه بحكمه، يزري باختيار سلطانه، ويستخفّ بفقهاء زمانه، يجور في نظره المقسوم، ويبصق في وجه الخصوم، ويركلهم برجله، ويلطمهم بنعله. . .»[7]

وقد اقترنت بعض مظاهر الفساد الاجتماعي أيضاً بخاصَّة الأندلسيين على اختلافهم، إذ كان عدد منهم يعنى باختيار الجواري والإماء، ويعهد إليهن بتربية أبنائهم، حَتَّى إذا مابلغوا مبلغ الرجال التحقوا ببيئات الفرنجة، وهي بيئات غريبة عنهم في مقوماتها ومبادئها، ولهذا لابدَّ أن تترك هذه الظاهرة آثاراً سيئة عليهم، فلا

---

(١) ـ البَمُّ من العود والوتر الغليظ (اللسان: مادة بمم).
(٢) ـ الزِّيرُ: ماستحكم فتله من الأوتار (اللسان: مادة زير).
(٣) ـ أبْلس فلان إذا سكت غما (اللسان: مادة بلس).
(٤) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٩١.
(٥) ـ يقال: نارت نائرة في النَّاس: هاجت هائجة (اللسان: مادة نار).
(٦) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٩٢.
(٧) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٩٣.

بدَ أن يتكلَّم الواحد منهم بلسان الروم الذين تربَّى بينهم، ويتزيّن بزيهم، ويقول بقـولهم، ويميل إليهم، وفي مثـل ذلك يقول أبو المُطَرِّف بن المثنى[1]: «لم يقرع سمع ابنٍ من أبناء خاصّتنا عند ميلاده ولاخامر طبعَ الرَّضيع منهم في مهده، إلاَّ كلام أمةٍ وكعاء، أعجمية خرقاء، ولاارتضع إلاَّ ثديها، ولااكتسب إلاَّ عِيِّها، ولاسكن إلاَّ في حِجرها، ولاقرن إلاَّ بتدبيرها، حتى إذا صار في عديد الرِّجال حفظ لغتهم، وعانى طباقهم، وكابد أخلاقهم. . . »[2]

ومما تقدَّم يستطيع الباحث أن يقول بأنَّ ذلك النقد الاجتماعي الموجَّه إلى الحكام والوزراء والقضاة، كان يمثل أحياناً موقفاً خاصاً من كاتب إزاء حاكم أو وزير أو قاضٍ . وكان في أحيان كثيرة يعبِّر عن موقف عام إزاء فساد المجتمع الأندلسي على اختلاف طبقاته.

إنَّ رسائل النقد الاجتماعي تعتبر ومضات مشرقة تدل على قيام بعض الكُتَّاب بدورهم على خير وجه ومشاركتهم في الأحداث، محاولين درء الأخطار وإيقاف التيار المضطرب أو التخفيف منه.

---

(١) ـ هو أبو المُطَرِّف عبد الرحمن بن أحمد، كان كاتباً ووزيراً للمأمون بن ذي النُّون، وقد انتفع به الناس في وزارته لدينه وسكون طائره وسلامة باطنه وظاهره، توفي ببلنسية سنة ٤٥٨ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٠٩).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

الجهاد والصِّراع مع الصليبيين

لقد تكتل الصليبيون وساروا إلى بلاد الأندلس بجحافل جرّارة يدفعهم تعصب ديني أعمى ضد الإسلام والمسلمين، وتطلع لاستعادة الأندلس إلى حظيرة النصرانية. وفي طريقهم إلى الأندلس كانوا يدمِّرون كل شيء، ويقتلون أعداداً كبيرة من المسلمين، فأخذت المدن والثغور الإسلامية تسقط تباعاً بيد النَّصارى، وما كان ذلك ليحدث في بداية الصراع لولا تفرق كلمة المسلمين، وانشغالهم بقتال بعضهم بعضاً، وضعف الوازع الدِّيني في نفوس بعض أمراء الطوائف، إذ كان الواحد منهم يمالىء الفرنجة ضد إخوانه في الدِّين.

لقد واكب أدب الرسائل تلك الأحداث الخطيرة، وهذه الحملات الصليبية منذ بدايتها، وعايشها وعاش معها في كل مراحلها التي انتهت بانتصارات المسلمين ودخول المرابطين، فكانت رسائل الجهاد التي تصف ماحلَّ بالأمة ومعاقلها من ذل وهوان على يد الأعداء، وتحثُّ على الجهاد لإنقاذها، وتستنفر الجهود لمواجهة الأخطار، ومن ثم تعبِّر عمّا يتمتَّع به المسلمون من بأس وقوة ومحبة للجهاد، وتتغنى بالانتصارات وتصف المعارك.

وصف النكبات والحضُّ على الجهاد لإنقاذ الأندلس:

لقد تعاظم الخطر في الأندلس، وتفاقمت الأحوال، وتعاقبت النكبات، وسقوط المدن والمعاقل بيد النصارى، وقد تفاعل الكاتب الأندلسي مع هذه الأحداث، فكانت كل مدينة تسقط تثير مشاعر الحزن والأسى في نفوسهم، فيعبِّرون عنها برسائلهم مستنفرين أمراء الطوائف والمسلمين كافة لإنقاذ الإسلام من الخطر الذي يتهدَّده. وكان في مقدمة تلك النكبات سقوط قلعة أيوب وقُونْكَةَ، وسقوط بَرْبُشْتَر عام ٤٥٦ هـ، وسقوط طُلَيْطُلَةَ عام ٤٧٨ هـ، وسقوط بلنسية عام ٤٨٨ هـ.

وكان في مقدمة تلك الرسائل التي تصف هذه النكبات رسالة لابن طاهر كتب بها إلى المعتصم بن صمادح يصف فيها العدو العابث بالأندلس، ويشير إلى تكتُّل الصليبيين ومحاصرتهم لمعاقل الإسلام بجحافل جرارة وجيوشٍ كثيفة، حيث يقول: «وذلك أن فرديناند نزل على قلعة أيوب محاصراً لمن فيها، ومُغِيراً على نواحيها بجموعٍ يضيقُ عنها الفضاء، وتتساقط لملاحظتها الأعضاء... وغرسيه دَمَّره الله بسَرَقُسْطَةَ كذلك، ورذمير أهلكه الله بوشقة[1] وما ولاها ينكي[2] بها يُبكي.»[3]

ثم هو يصوِّرُ حال المسلمين ومايعانونه من ذلٍّ وهوان ومايلاقونه من هلاك، ويسأله أن يتدارك الحال ويتدبر الأمر تخوفاً من المصير السيء الذي ينتظر المسلمين، يقول: «والمسلمون بينهم سوامٌ رُتَّعٌ، وأموالهم نهب يُوَزَّع، والقتل يأخذ منهم فوق مايدع، فأطل الفكرة في هذا الخرم الدَّاخل، والبلاء الشَّامل، وأسبل العبرة، وأطل العبرة...»[4]

ويبدو الطابع الدِّيني جلياً واضحاً في هذه الرسالة، حيث يركِّزُ على أنَّ المصاب هو مصاب الإسلام، يقول: «فليندب الإسلام نادب، وليبك له شاهد وغائب، فقد طفىء مصباحه، ووطىء ساحه..».[5]

ولابن عبد البِّر رسالة كتبها على لسان أهل بَرْبَشْتَر عندما سقطت بيد الإسبان سنة ٤٥٦ هـ، ووجهها إلى المسلمين في جميع أنحاء الأندلس يستثير هممهم، لنصرة إخوانهم في بَرْبَشْتَر، فيصف حال المسلمين وماهم عليه من ذلٍّ وهوان، ويذكر أنَّ الصليبيين يسومونهم سوء العذاب، ويستبيحون أعراضهم ودماءهم، يقول: «فلو رأيتم ـ معشر المسلمين ـ إخوانكم في الدِّين، وقد غلبوا على الأموال والأهلين،

---

(١) ـ وشقة: مدينة حصينة بالأندلس، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلاً (انظر: الروض المعطار: ص ٦١٢).

(٢) ـ ينكي: كثر فيهم الجراح والقتل فوهنوا لذلك (اللسان: مادة نكي).

(٣) ـ القلائد: ص ٥٨.

(٤) ـ القلائد: ص ٥٨.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٥٨.

واستحكمت فيهم السيوف، واستولت عليهم الحتوف، وأثخنتهم الجراح، وعبثت بهم زرق الرِّماح، وقد كثر الضجيج والعويل والنياح، ودماؤهم على أقدامهم تسيل،، سيل المطر بكلِّ سبيل...»(١)

ويستمر ابن عبد البر في الكشف عن أفعال الصليبيين والجرائم العظيمة التي ارتكبوها، ويركز على ذكر مصائب النساء والأطفال والشيوخ، وكأنه يتخذ من ذلك مجالاً ليوهج في نفوس المسلمين نار الثأر والانتقام، ويستثير فيها النخوة والحمية، حيث يقول: «فما ظنكم - معشر المسلمين - وقد سيقت النساء والولدان، مابين عارية وعريان، قوداً بالنواصي إلى كلِّ مكانٍ، طوراً على المُتُون، وطوراً على البُطُون، ومشيخة الرِّجال، مُقرَّنين في الحبال، مصفَّدين(٢) في السَّلاسل والأغلال...»(٣)

ثم هو يشير إلى أن الحرب حرب دينية، تستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين «فالجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الآذان، مطبقة بالشرك والبهتان، مشحونة بالنَّواقيس والصُّلبان، عوضاً من شيعة الرحمن... والكفر يضحك وينكي، والدِّين ينوح ويبكي...»(٤)

ويختتم ابن عبد البرِّ رسالته بتوجيه نداء إلى المسلمين يستنفرهم للجهاد من أجل نصرة إخوانهم في الدِّين، ويدعم نداءه هذا ببيان فضل الجهاد، ومايجازي فيه رب العباد، يقول: «فيا ويلاه، ويا ذُلَّاه، ويا كرباه، وياقرآناه، ويامحمداه... فالله الله في إجابة داعينا، وتلبية منادينا، قبل أن تصدع صفاتنا كصدع الزّجاج، فهناك لاينفع العلاج...»(٥)

ويحذّرهم من عاقبة استمرار فرقة الصف وارتكاب المعاصي، وضعف الوازع

---

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧٥.

(٢) - مُصَفَّدين: مقيدين بالحديد والأغلال (اللسان: مادة صفد).

(٣) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧٦.

(٤) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٧٧.

(٥) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧٧ - ١٨٧.

الدِّيني في نفوسهم، وتقاعسهم عن نصرة إخوانهم في الدِّين، حيث يقول: «فالحذر الحذر! فإنَّه رأس النظر، من بركان تطاير منه شرر ملهب، وطوفان تساقط منه قطر مرهب، قلَّما يؤمن من هذا إحراق، ومن ذلك إغراق، فتنبَّهوا قبل أن تُنَبَّهوا، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم، قبل أن يجاهدوكم في دوركم، ففينا مُتَّعظٌ لمن اتعظ، وعبرة لمن اعتبر. . .»(1)

كذلك فقد أثار سقوط مدينة بَرْبَشْتَر الإسلامية عواطف ومشاعر الحزن والأسى في وجدان الفقيه الكاتب أبي حَفْص الهَوْزَنِيّ،(2) فعبَّر عنها برسالة طويلة خاطب بها المعتضد بن عبَّاد يحثه فيها على الجهاد ويستنجد به لإنقاذ الإسلام من الخطر الذي يتهدده في بربشتر وغيرها من معاقل الإسلام في الأندلس، ولقد كتب رسالته «عن حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد، كما يغبِّر لورودها وجهُ الصّعيد(3) بدؤها ينسف الطريف والتالد، ويستأصل الوليد والوالد، تذر النساء أيامى، والأطفال يتامى. . . وطمت حتى خشي على عمود الإسلام منها الانقضاض، وسمت حتى توقِّع على جناح الدين الانهياض. . .».(4)

وبعد أن يشخِّص أبواب الشر التي جلبت المصائب على المسلمين، ويعلل أسباب الضياع، يستثير نخوة المعتضد وعزيمته، ويحرك في نفسه نوازع الجهاد ليدفع العدو الجاثم عن صدور المسلمين في بَرْبَشْتَر بعد أن توانى الآخرون عن نجدتهم، يقول: «فانتهز فرصتها فقد بان من غيرك العجز، وَطَبِّق مضاربها، فكأن قد أمكنك الحزّ. . . ومازلت أعتدُّك لمثل هذه الجولة وزراً، وأدَّخرك في مُلمِّها ملجأً وعصراً،

---

(1) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٧٨.

(2) ـ هو أبو حَفْص عمر بن الحسن الهَوْزني (٣٩٢ ـ ٤٦٠ هـ)، طلب العلم على شيوخ الأندلس ثم ارتحل سنة ٤٢٤ هـ، وأخذ عن علماء المشرق، وأصبح متقناً في العلوم (انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٨٢، المغرب: ج ١، ص ٢٣٩، مسالك الأبصار: ج ١١، ص ٤١٦، النفح: ج ٢، ص ٩٣.

(3) ـ الصعيد: الأرض الطيبة (اللسان: مادة صعد).

(4) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٨٤.

لدلائل أوضحت فيك الغيب، وشواهد رفعت من أمرك الرَّيب، . . . ففضلكم في الأعناق أطواق، ومجدكم للآفاق إشراق. . . »[1]

لقد صدع الهَوْزَنِيُّ في رسالته هذه بالحق أمام أقوى ملوك الطوائف آنذاك، مما أثار حفيظة المعتضد وغضبه عليه، فانتهى الهوزني إلى نهاية المجاهدين، إذ استدرجه المعتضد إلى إشبيلية فذهل عما يترصده له من خطر حتى ليقتله بيده سنة ٤٦٠ هـ.[2] ولعل المعتضد إنما فعل ذلك اعتقاداً منه بأن دعوة الهَوْزَنِيِّ له للجهاد لم تكن إلَّا نوعاً من التوريط العسكري والسياسي، فإذا حارب واخفق كسرت شوكته لدى ملوك الطوائف وإذا لم يحارب كشف عن تقاعسه في الدفاع عن حوزة الدِّين.[3] ولقد بقيت بربشتر تحت وطأة الاحتلال الصليبي حتى قيَّض الله تعالى لها أحمد بن هود الذي أعادها إلى ركاب الإسلام.

وقدْ شهد ابن طاهر محنة المسلمين بِبَلَنْسِيَةَ على يد الطاغية الكنبيطور سنة ٤٨٨هـ، فوصف هول المصيبة التي داهمت تلك المدينة، وبكاها بكاءً حاراً، حيث كان من سُكَّانها، يقول في رسالة كتبها إلى بعض إخوانه: «كتبتُ منتصف صفر، وقد حصلنا في قبضة الأسر، بخطوبٍ لم تجرِ في سالفِ الدَّهر، فلو رأيت قطر بَلَنْسِيَةَ ـ نظر الله إليه، وعاد بنوره عليه ـ وما صنع الزَّمان به وبأهليه، لكنت تندبه وتبكيه، فلقد عبث البلى برسومه، وعَفَّى على أقماره ونجومه، فلا تسأل عمَّا في نفسي، وعن نكدي ويأسي».[4]

الاستنجاد بالمرابطين:

يتصل بالرسائل التي كانت تصف النَّكبات، وتحض على الجهاد لإنقاذ

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٨٢ ـ ٨٤.

(٣) ـ انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٨٠.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٩١، وانظر في هذا المعنى أيضاً رسالة لأبي الأصبع بن أرقم عن مجاهد العامري إلى أحد الأمراء يصف بها النكبات والمحن التي ألمت بالمسلمين في الأندلس بكل تفصيلاتها: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٣.

الأندلس تلك الرسائل التي كان يبعث بها ملوك الطوائف إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في العدوة المغربية، يطلبونه العون والمساعدة في ردِّ الخطر الداهم الذي أصبح يهدد الوجود الإسلامي في الأندلس، وبخاصة بعد سقوط طُلَيْطُلَةَ بيد الأذفونش عام ٤٧٨هـ، وإمعان ملوك الصليبيين وأمرائهم ومغامريهم في إهانة المسلمين وتهديدهم. ولعل أول صريخ أندلسي يرجع إلى ماقبل سقوط طُلَيْطُلَةَ بسنتين أو ثلاث سنوات، فقد وفد على يوسف بن تاشفين جماعة من كبار أهل الأندلس، وشكوا إليه ماحلَّ بهم من أعدائهم، وماهم عليه من ذلٍّ وهوان، فوعدهم بإمدادهم وإعانتهم وصرفهم إلى بلادهم.[١] ومنذ ذلك الحين توالى صريخ أهل الأندلس ورسائل الاستنجاد على يوسف بن تاشفين، كما يذكر يوسف نفسه في رسالته التي بعث بها إلى تميم بن المعزِّ بن باديس[٢] أمير إفريقيا، وذلك عقب معركة الزَّلاقة.[٣]

وكان في مقدمة هذه المراسلات ماكتبه أبو عبد الله بن أيْمن[٤] على لسان المتوكِّل بن الأفطس. وقد ذكر ابن بسَّام أن هذه الرسالة كانت ثالثة المفاتحة أو ثانية المداخلة.[٥]

وقد افتتح ابن أيمن رسالته بمدح يوسف بن تاشفين، وذكر فضائله العظيمة، وغيرته على الدِّين، إنّه يستثير بذلك نخوته وعزيمته، ويحرِّك في نفسه نوازع الخير

(١) ـ انظر: الحلل الموشية: ص ٣٣.

(٢) ـ هو تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجية بافريقيا الشمالية، ولاه أبوه المهدية سنة ٤٤٥ هـ، ثم ولي الملك بعد وفاة أبيه سنة ٤٥٤ هـ (انظر ترجمته في البيان المغرب: ج ١، ص ٢٩٨، وفيات الأعيان: ج ١، ص ٣٠٤).

(٣) ـ انظر الرسالة بكاملها في رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٤٨٨): ورقة ٤٩.

(٤) ـ هو أبو عبد الله محمد بن أيْمَن، من أعلام النظم والنثر، استوزره المتوكل بن الأفطس بعد اقالته لأبي الوليد بن الحضرمي (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٢، المغرب: ج ١، ص ٣٦٦).

(٥) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٣.

والجهاد لدفع العدو والثأر للمسلمين، يقول: «لما كان نور الهدى ـ أيَّدك الله ـ دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصَّلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصحّ العلم بأنَّك لدعوة الإسلام أعزُّ ناصرٍ، وعلى غزو الشرك، أقدر قادر، وجب أن تُستدعى لما أعضل من الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء. . . »(١)

ثم هو يشكو إليه الحالة التي آلت إليها البلاد، ويصف مادهى المسلمين من ذل وهوان، ومأصابهم من خراب ودمار، وقتل وتشريد، وماكان من دفعهم الجزية إلى النَّصارى، ويكشف له عن المطامع التي طغت على الأذفونش، وتطلعه للسيطرة على معاقل المسلمين وحصونهم، بعد مارآه من سوء أحوالهم، إذ لم يزل دأبُ طوائف الصليبيين «التشطُّطَ والعناد، ودأبُنا الإذعان والانقياد، حتَّى استُصْفِيَ الطريف والتّلادُ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المَنن(٢) وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كلِّ جهةٍ نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنَّتُهُم وشفارهم، ومن أخطأه القتل منهم، فإنَّما هو بأيديهم أسرى وسبايا»(٣)

ثم هو يستصرخ يوسف بن تاشفين على النَّصارى، ويدعوه إلى الجهاد، ويطلب إليه أن يسرع إليهم بالنجدة، ويلفت نظره إلى العواقب الوخيمة التي تنتظر المسلمين إن لم يبادر المرابطون لنجدتهم، يقول: «فيا لله ويا للمسلمين!! أيسطو هكذا بالحقِّ الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولايكتنف هذه الملَّة النصر؟ ألا ناصر لهـذا الـدين المهتضم(٤). . وما هو إلاَّ نفس خافت، ورمق زاهق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركوها ركباناً ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً. . . »(٥)

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٣ ـ ٦٥٤.

(٢) ـ المَنُنْ: مفرد منة: أي القوة (اللسان: مادة منن).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٤.

(٤) ـ المُهْتَضَم: المظلوم والمغصوب، والمقهور (انظر: اللسان: مادة هضم).

(٥) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

ولم يذهب هذا الاستصراخ سدى، فعندما بلغ هذا الخطاب أمير المسلمين كتب إلى المتوكل بن الأفطس يعده بالجواز والإمداد على العدوّ.(١)

كذلك فقد كان المعتمد بن عبَّاد يستصرخ يوسف بن تاشفين ويستميله بمكاتبات منها من إنشائه، ومنها من إنشاء كُتَّابه. فمن إنشائه وخطه رسالته التي افتتحها بوصف ماأصاب الأمة الإسلامية في الأندلس من فرقة وخلاف وضعف، وما آل إليه أمرها من تغلّب العدو على أكثر قلاعها وحصونها، يقول: «إنَّا نحن العرب في هذه الأندلس، قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا، بقطع المادة عنَّا من معيننا، فصرنا شعوباً لا قبائل، أشتاتاً لاقرابة ولاعشائر، فقلّ ناصرنا، وكثر شامتنا، وتوالى علينا هذا العدوُّ المجرم اللعين أذفونش... وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون...».(٢)

ويخلص إلى مطلبه في دعوة أمير المسلمين إلى الجواز للأندلس لإنقاذ إخوانه في الدِّين، فيستثير نخوته، ويذكر فضائله، حيث يقول: «وأنت، أيدك الله، ملك المغرب أبيضه وأسوده... نزعتُ بهمتي إليك، واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر،وتحيوا شريعة الإسلام، وتذبوا عن دين محمد...»(٣).

ومما كتب أيضاً في الاستنجاد بالمرابطين واستدعائهم لإنقاذ الأندلس ماأنشأه الوزير الكاتب أبو بكر بن الجدِّ على لسان المعتمد بن عبَّاد، وهو لايختلف عن مضمون الرسالة السابقة.(٤)

ولقد استجاب زعيم المرابطين لدعوة أمراء الطوائف بعد مشاورات مع كبار فقهاء المغرب، واعتبر صريخ ملوك الطوائف دعوة إلى المشاركة في الجهاد والذوذ عن

---

(١) ـ انظر رسالة يوسف بن تاشفين في: الحلل الموشية: ص ٣٦.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٤٦.

(٤) ـ انظر الرسالة بكاملها في: الحلل الموشية، ص ٤٧.

الدين المشترك، فجهز ابن تاشفين جيشاً كبيراً عبر به إلى الأندلس، وانضمَّ إلى الجيوش الأندلسية فكانت معركة الزَّلاقة التي أحرز فيها المسلمون نصراً مؤزراً على الصليبيين.

التهديد والوعيد:

يستطيع الباحث أن يلمس في أدب الرسائل صورة لما كان يتبادله المسلمون والصليبيون من تهديد ووعيد، فقد كانوا يتبادلون رسائل التهديد والوعيد في شتَّى المناسبات، فبعد أن سقطت طُلَيْطُلةُ على يد الأذفونش وجيشه الزاحف سنة ٤٧٨هـ. واستولى على أعمالها، شعر بأنه أضحى قادراً على تحدِّي ملوك الطوائف والقضاء عليهم واحداً بعد الآخر، فمدَّ بصره إلى بقية المدن الأندلسية، وطمع في الاستيلاء على الجزيرة كلِّها، وأخذ يرسل إلى ملوك الطوائف رسائل يتهدَّدهم فيها، ويطلب إليهم أن يسلِّموا بعض القواعد والحصون بالأمان إليه، وأن يؤدُّوا الجزية له في كلِّ سنة، ويتوعدهم بشر العاقب. ومن ذلك رسالة كتبت على لسانه إلى المعتمد بن عبَّاد يتهدّده فيها ويطلب إليه تسليم بعض أعماله إلى رسله وعمَّاله، وإلَّا فإنَّ مصيره كمصير أهل طُلَيْطُلَةَ وأعمالها، وكان يقصد من وراء ذلك تحطيم الروح المعنوية لدى المسلمين وبث الخوف في قلوبهم.(١) وعندما وصلت هذه الرسالة المعتمد بن عبَّاد ردَّ عليها برسالة قوية حازمة بخط يده من نثره، وهي تنمُّ عن الشجاعة والنبل والإباء، حيث رفض أن يستجيب للوعيد والتهديد، وافتتحها بالسخرية من أذفونش والتهكم عليه، فنعته بالطاغية الباغية وردَّ عليه ماادَّعاه لنفسه، لأنه لقب نفسه بما ليس هو حقيقة، يقول «إلى الطاغية الباغية أذفونش بن شانجة، الذي لقّب نفسه بملك الملوك، وسمّاها بذي الملتين، قطع الله دعواه. سلام على من اتَّبع الهدى، أمَّا بعد: فإنه أول مانبدأ به من دعواه أنه «ذو الملتين» والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد ومجبي المملكة، لاتملكه قدرتكم، ولاتعرفه ملتكم...»(٢)

---

(١) ـ انظر: الرسالة بكاملها في: الحلل الموشية ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) ـ الحلل الموشية: ص ٤٠.

ثم هو يفخر بجيوش المسلمين، ومايتمتعون به من قوة وبأس، ويتوعده بما سيفعلونـه به، وأنهم سيحاربونه بعون الله، ويذكره بماضي قومه الأذلاء مع المسلمين، يقول: «أما تعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وحماة الشجعان، يوم يلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا الكبر، تسيل نفوسهم على حد الشِّفار، وتنعاهم الهام[(١)] في القفار، يديرون رحى المنون، بحركات العزائم، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائـم، وقد أعدوا لك ولقومك جلاداً،[(٢)] وشفاراً حداداً، شحذها الإصفاق. . .».[(٣)]

وكان أذفونش قد بعث برسالة إلى المتوكل بن الأفطس على نحو رسالته للمعتمد ابن عبَّـاد التي مر ذكرها، وقد ردَّ عليه المتوكل برسالة قوية حازمة تفيض بالشجاعة والنبل والإباء، إذ رفض أن يستجيب للوعيد والتهديد، وقد بدأ رسالته بالسخرية والاستهزاء به لأنه يريد أن ينتصر بجيوشه الوافرة على المسلمين، ويذكِّره بأنَّه ليس في يديه إلاّ الأماني الكاذبة لأن الله تعالى قد تكفَّل بحماية دينه، وقد وشى المتوكل رسالته هذه بالآيات القرآنية ليؤكد صلابة إيمانه وقوة عزيمته، يقول: «وقد وصل إلينا من عظيم الروم كتابُ مدعٍ في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعـد ويبرق، ويجمع تارة ويفرّق، ويهدد بجنوده الوافرة، وأحواله المتضافرة، ولو علم أن لله جنوداً أعز بهم مِلَّة الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام. . .»[(٤)]

ثم هو يردُّ عليه تعييره للمسلمين بالوهن والاختلال، ويعترف له بأن ماحل بهم إنما كان عقوبة لذنوب اقترفوها، وأنهم لو اتحدوا لأذاقـوا الصليبيين سوء العذاب، يقول: «وأما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم، وظهر من اختلالهم، فبالذنوب

---

(١) ـ كانت العرب قبل الإسلام ترى أن الهامة طائر يخرج من رأس الميت، وكانوا يقولون أن القتيل تخرج هامه من هامته، أي من رأسه، فلا تزال تقول: اسقوني، اسقوني، حتى يقتل قاتله (انظر اللسان: مادة هوم).

(٢) ـ يقال جالدناهم بالسيوف مجالدةً وجلاداً: ضاربناهم (اللسان: مادة جلد).

(٣) ـ الحلل الموشية: ص ٤٠ ـ ٤١.

(٤) ـ الحلل الموشية: ص ٣٦.

المركوبة، والفرقة المكتوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، لعلمت أي مصاب أذقناك». (١)

ثم يذكره بعدة أحداث سابقة على ملكه وحكمه من استيلاء المسلمين على بلاد الصليبيين، وأدائهم الجزية لهم، ويذكره بفتوحات المنصور بن أبي عامر، وكيف أدى سلفه الجزية له، ويتوعده ويهدده بلهجة قوية، ويؤكد أن المسلمين سينتصرون عليهم تحقيقاً لوعد الله لهم، يقول: «أما نحن، وإن قلّت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولاصعب نروضه، إلاَّ سيوفاً تشهد بحدتها رقاب قومك، وجلاداً تبصره في ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسوّمين، نتقوى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وماتربصون بنا إلاَّ إحدى الحسنيين، نصر عليكم، فيا لها من نعمة ومنة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنَّة»(٢).

وقد توالت رسائل التهديد والوعيد من أذفونش على ملوك الطوائف، وبعث رسالة إلى يوسف بن تاشفين بالمغرب يطلب اللقاء به إمَّا في الأندلس أو في المغرب حتى ينجاب ويصفو حكم الأندلس للغالب منهما. (٣) ثم إنه جاز أمير المسلمين إلى العدوة الأندلسية، وسار بنفسه للقاء أذفونش في موقعة الزَّلاقة، وكانت بينهما مخاطبات، ودارت بينهما مراسلات كثيرة قبل المعركة. (٤)

ومن الرسائل في هذا الباب أيضاً ماكتبه أبو جعفر بن أحمد(٥) عن بعض أمراء الثغور الأندلسية إلى قوم من النصارى، يتهددهم فيها ويتوعدهم لأنهم كانوا قد

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) ـ انظر الرسالة بكاملها في: المصدر السابق نفسه: ص ٤٢.

(٤) ـ انظر: الحلل الموشية: ص ٥٣.

(٥) ـ هو أبو جعفر أحمد بن أحمد الدَّاني، ذكر ابن بسَّام أن له إحساناً كثيراً ومنظوماً ومنثوراً، شهد له بفضل براعة، وتقدم في هذه الصِّناعة (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٥٧، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٤).

نقضوا عهدهم مع المسلمين، يقول «أيَّتُها الشِّرْذِمَةُ الطاغية. . . لسنا نحاكمكم إلى غير المهنَّدِ، ولانماطلكم ذلك وكأن قد، فإن الله لكم بالمرصاد، ولن يتولَّى كبركم إلَّا أقلُّ الأعداد، من أنجاد الأجناد، فتصبحوا كأن لم تكونوا شيئاً مذكوراً.[1]

وصف المعارك والتغنِّي بالانتصارات:

من الموضوعات المهمة التي عالجها أدب الرسائل المتصل بحركة الجهاد ضد الصليبيين في الأندلس وصف المعارك والتغنّي بالانتصارات العظيمة التي أحرزها المسلمون على الصليبيين، وبخاصة معركة الزَّلاقة التي كان لها أثر عميق في نفوس المسلمين. فقد أشاد الكُتَّاب بهذا الانتصار الباهر، والأمل العظيم الذي بعثه في قلوبهم، وتغنُّوا بالجهود العظيمة والحماسة الفائقة التي تحلت بها الجيوش الإسلامية وقادتها.

وكان في مقدمة تلك الرسائل رسالة كتبها يوسف بن تاشفين إلى تميم بن باديس يصف فيها جوازه للأندلس وجهاده فيها، وماكان من هزيمة أذفنوش. وقد افتتح رسالته بوصف الجيوش المرابطية التي جازت البحر لنجدة المسلمين في الأندلس، وأشار إلى الحماسة الفائقة والروح المعنوية العالية، والقدرة العظيمة التي تحلّت بها هذه الجيوش، حيث يقول: «وجوزنا للعدو أسوداً ضارية، وسباعاً عاديةً، شيباً وشباناً، بسواعد قويةٍ وقلوبٍ في سبيل الله نقية، قد عرفوا الحربَ وجرّبوها، فهي أُمُّهُم، وهم بنوها، يتلمظون تلمظ الفهود، ويزأرون زئير الأسود. .»[2].

ثم تحدَّث بتفصيل عن جيوش النَّصارى التي قصدت محل اللقاء، ووصفها بالضخامة والقوة، وكمال الاستعداد، وبين ماأصابهم من اغترار بانتزاع النصر على المسلمين، حيث يقول: «ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق، وتقلَّبت تقلُّبَ الحتوف للأحداق، قد استلموا الدُّروع للكفاح، وربطوا في سوقهم الألواح، وبطونهم ملء من الخمور، يقدِّرون أنَّ الدائرة علينا تدور. .»[3].

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٦٨.

(٢) ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٤٨٨). ورقة ٤٩.

(٣) ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٤٤٨): ورقة ٥٠.

وقد كشف لنا بعد ذلك عن تنظيم الجيوش الإسلامية قبل بدء المعركة الفاصلة، فقد كانت الجيوش الأندلسية التي اتّحدت بقيادة المعتمد بن عبَّاد في المقدمة، وكان المرابطون في كتائب متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء. وذكر ماكان من زحف الجيوش النّصرانية واشتباكها مع الجيوش الأندلسية في معركة عنيفة ردت فيها الجيوش الأندلسية عن مواقعها، إذ ولّى عدد كبير من جنودها هاربين وكادت الدائرة تدور عليها، لولا ثبات المعتمد بن عبَّاد وعدد من جنوده الذين أبلوا بلاءً حسناً في مواجهة النصارى.[1]

ثم وصف بعد ذلك المعركة الفاصلة التي اتحدت فيها الجيوش الأندلسية والمرابطية، مبيناً مراحلها وخطواتها، ومصوِّراً مدى ما تملك الصليبيين من اضطراب وخوف شديد عندما رأوا جحافل المسلمين، إذ لم يستطيعوا الصمود أمام استبسال جنود المسلمين، فولُّوا هاربين، وقد تتبَّعوهم، وأعملوا سيوفهم فيهم، ولم يفلت من القتل إلاّ القليلُ الذي سيقتله الأسى والحزن لهول المصيبة، يقول: «فحملوا علينا كالسِّهام، فثبَّت الله أقدامنا، وقوَّى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى ولّي النصر لنا، فولّوا هاربين، وفرُّوا ذاهبين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه، ولاضربة تثخنه، وأضعف الرعب أيديهم، فطعنّاهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، حتى أنّ هاربهم لايرى شيئاً إلاّ ظنه رجلا. .»[2].

ثم يشير إلى وفرة الغنائم التي جمعها المسلمون من أرض المعركة، يقول: «فكم من دِلاصٍ[3] على البقاع ساقطة، وخيول على القاع رابضة، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد، وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك، وأما الثياب والمتاع فناهيك، والأسرة بأوطية الحرير، والثياب والأوبار، عدد ليلهم. . .».[4]

---

(١) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ورقة ٥١.

(٢) ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٤٤٨) ورقة ٥٢.

(٣) ـ دِلَاصٌ: يقال درع دِلَاصٌ: براقة ملساء لينة بينة الدلص (اللسان: مادة دلص).

(٤) ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٤٨٨): ورقة ٥٢.

ويختتم رسالته بالحديث عن مقتل عدد قليل من جنود المسلمين.[1]

ومن الرَّسائل التي تحدثت عن معركة الزلاقة، وأشادت بانتصار المسلمين فيها ماكتبه أبو بكر بن القصيرة على لسان المعتمد بن عبَّاد من أرض المعركة إلى أهله بإشبيلية يخبرهم بالنَّصر العظيم الذي منَّ الله به على المسلمين، وقد افتتح رسالته بوصف إقدام المسلمين واستبسالهم في المعركة، وماكان من نصر أعز الله فيه الإسلام وأذلَّ الكفر، ويركز على فداحة المصيبة التي لحقت بالنصارى، حيث ضربهم المسلمون بعون الله ضربة قاصمة أدت إلى مصرع عدد كبير من رجال أذفونش ومشاهير قواده، يقول: «كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب، وقد أعزَّ الله الدين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين، بما يَسَّر الله في أمسه وسنّاه... من هزيمة أذفونش... وإتيان القتل على أكابر رجاله وحُماته، وأخذ النَّهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به إلى جميع محلَّاته، وحضور العدد الوافر بين يديَّ من رؤوسهم، ولم يحتزّ منها إلَّا ماقرب، وامتلاء الأيدي مما قُبض ونُهب...».[2]

ويذكر أن المسلمين قد اتَّخذوا من رؤوس القتلى آكاماً صعدوا من فوقها، وأذَّنوا عليها شكراً لله تعالى على مامنَّ به عليهم من نصر مؤزر، يقول: «واتَّخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذِّنون عليها، ويشكرون الله تعالى على ماصنع فيها...»[3]

ثم يشير إلى أن فرسان المسلمين قد أخذوا في مطاردة الفارين من النَّصارى، وتتبُّع آثارهم في كل مكان. وأنَّ من لم يمت منهم تحت السيف فسيموت لامحالة جوعاً وكمداً، يقول: «والتتبُّع بعد في آثارهم، وتمادي الطَّلب من وراء فرارهم، والَّذي لامرية فيه أنَّ الناجي منهم قليل. والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول...».[4]

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ورقة ٥٣.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٤١.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٢٤١.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

ويختتم رسالته بالإشارة إلى أن المعتمد لم يصب في هذه المعركة الشديدة إلَّا بجرح بسيط غير قاتل: «ولم يُصبني بحمد الله إلَّا جرح أشوى[1]. . . وعنت رغَّب حسن المآل عندي وزكّى. . .».[2]

ومن الرسائل التي كتبت في التهنئة بانتصار المسلمين في معركة الزَّلاقة تلك الرسالة التي كتبها أبو عبيد البكري يهنّىء فيها المعتمد بن عبَّاد بهذا الانتصار. وقد بَيَّنَ في هذه الرسالة عظم هذا الفتح وصداه في نفوس المسلمين وما جلبه من فوائد جّمة عادت على الإسلام والمسلمين، ومن مصائب عظيمة حلّت بالنَّصارى، فهو فتح بل «فتوح أضحكت مبسم الدَّهر، وسفرت عن صفحة البشر، وردَّت ماضي العمر، . . . وثنت آمال الشِّرك كذباً، وطوت أحشاء الطاغية رهباً. . . فغدا الدين جديداً، والإسلام سعيداً، والزَّمان حميداً، وعمود الدِّين قائمًا، وكتاب الله حاكمًا، ودعوة الإيمان منصورةً. . .».[3]

ويربط أبو عبيد انتصار المسلمين في هذه المعركة الفاصلة بانتصارات المسلمين الأوائل، حيث يقول: «فلله هذه المساعي الكريمة. . . فقد تمثَّل بها العهد الأوَّل، والقرن الأفضل الذي أُخرج للنَّاس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . .».[4]

كذلك قد وصف الكُتَّاب بعض الانتصارات التي حققها المسلمون على النَّصارى بعد معركة الزَّلاقة، وماكان من استرداد المرابطين لمدينة بلنسية وغيرها. ومن ذلك رسالة لابن القصيرة عن المعتمد بن عبَّاد إلى المعتصم بن صُمَادح يخبره فيها بمحاصرتـه حصن لييط وإحلاله الهلاك بمن فيه من جنود الصليبيين، حيث أخذهم على حين غرة، فدحرهم ونفث في قلوبهم الرهبة، يقول: «وأنفذته من حصن لبّيط. . . وقد جرى بين فرسان من النَّصارى وبين سرعان من الجند ـ نصرهم

(١) ـ أشْوَى: أصاب الشوى أي الأطراف ولم يكن قاتلًا (انظر: اللسان: مادة شوي).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٤٢.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٢٣٦.

الله ـ عند إطلالي عليه تناوش أطمع فيهم، ودلَّ بأنَّه قد سقط في أيديهم، ثم صوبحوا يوم كذا بالحرب، وكوفحوا إلى آخرةٍ بالغرب، بالطّعن والضَّرب، وانصرفوا ولاذوا بالانجحار، واحتجزوا بالجدران والأسوار، ولم يكن واحد منهم يثور إلاَّ إلى حمام، ولايبدي جارحةً إلاّ إلى سهمٍ رامٍ . . .» .(1)

ثم هو يبيِّن أثر هذا الفتح على الإسلام والمسلمين، حيث يقول: «وغير ذاهب على أحد ماتقتضيه هذه الحال المبهجة بما يخالفها على علوٍّ كعب الإسلام، وينصب على الشّرك وأهله من سوء الانتقام . . .» .(2)

ولابن طاهر رسالة وجهها إلى الوزير أبي عبد الملك بن عبد العزيز عندما فتحت بَلَنْسِيَةَ، وانتهى الاحتلال القشتالي لها سنة ٤٩٥ هـ، يخبره بالفتح الذي أنهى الاحتلال وتلك المحنة التي حلَّت بالمدينة، يقول: «كتبت وقد وافى بدخول بَلَنْسِيَةَ ـ جبرها الله ـ الفتح، بعدما خامرها القبح، فأضرم أكثرها ناراً، وتركها آيةً للسائلين واعتباراً، وتغشَّاها سواداً . . .» .(3)

ثم هو يرى عهد المرابطين عهداً جديداً انجلت فيه الظُّلمة التي غمرت المدينة أيام الاحتلال، حيث يقول: وبسعد أمير المؤمنين وناصر الدِّين، وإقباله عليها ينجلي عنها ظلامها، ويعود عليها حليُّها ونظامها وتروح في الحلل، وتبرز كالشمس في بيت الحمل . . .»(4)

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٦٢.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٦٣.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٠١.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٠١ ـ ١٠٢، وانظر أيضاً رسالة كتبها ابن عَبْدون عن المعتمد بن عبَّاد إلى يوسف بن تاشفين يخبره بفتح شَنْتَرِينَ في: المعجب: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠، ورسالة اخرى لأبي الفضل ابن شرف القيرواني يهنِّىء فيها أحد القادة بفتح بَلَنْسِيَةَ في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨٦٨ ـ ٨٦٩).

الرّسائل الدِّينيَّة

يستطيع الباحث أن يصنّف الموضوعات التي تناولتها الرسائل الدِّينية في ثلاثة أصناف هي : التَّحميدات والتَّسبيحات، والشوق والوجد الدِّيني والوعظ والإرشاد والدعوة إلى الزهد.

رسائل التَّحْمِيدَات والتَّسْبيحَات :

يقصد برسائل التَّحميدَات والتَّسبيح تلك الرسائل التي تقوم على تمجيد الله عزَّ وجلَّ وتقديسه، وتعظيم الذات الإلهية وتنزيهها. ولم ينته إلينا من هذا اللون من الرسائل إلاَّ عدد من الفصول التي كتبها ابن بُرد الأصغر، وأوردها ابن بسَّام تحت عنوان «فصول له في التَّحميدات».[1]

ويلاحظ الباحث أن هذا اللون من الرسائل يعالج عدداً من الأمور التي تتعلق بقوة الله عزَّ وجلَّ، وقدرته المطلقة في تصريف شؤون الكون المختلفة.

ومن هذه الرسائل مايشير إلى قدرة الله في التصرُّف في الكون، ومن سمات هذه القدرة ودلائلها إجلاء الكروب، وتفريج الهموم والمصائب، وإقالة العثرات وإبدال النعم بعد النقم والراحة بعد الجهد، يقول ابن بُرد: «الحمد لله جالي الكرب السُّود، وفاتح المبهم المسدود، الذي أقال العثرات، وأدال من الحسرات، وانتاش[2] من البأساء وأعقب بالنَّعماء، وأراح من جهد البلاء».[3]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٩١.

(٢) ـ انْتَاشَ: استنقذه من الشر (اللسان: مادة نوش).

(٣) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٩٢.

كما يكشف بعض هذه الرسائل جانباً آخر من جوانب قدرة الله تعالى، فهو يجمع الشَّمل بعد التَّفرق، ويوحِّد الصف بعد التشتت، ويمنح القوة والوحدة بعد الضعف والفرقة، حيث يقول ابن بُرْدٍ في أحد فصوله: «الحمد لله واصل الحبل بعد انقطاعه، ومُلائم الشَّملِ بعد انصداعهِ، اُلمصبَّح بنا من ليالي الخطوبِ، والماحي عَنَّا غياهبَ الكروبِ والنَّاظم لما انتشر من الألفة. . .»[1]

ويلاحظ الباحث أنَّ هذه الفصول يمكن أن تكون مقدِّمات لرسائل في موضوعات مختلفة، رفعت من تلك الرسائل ووضعت وحدها.

رسائل الشَّوق والوجد الدِّيني:

لقد أثار الوجد والشوق الدِّيني إلى زيارة الأماكن المقدسة لوناً طريفاً من ألوان أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجريِّ، كما يشير إلى ذلك المقَّري في حديثه عن هذا اللون من الرسائل «أقول: هذا مقام طالما طمحت إليه همم الرِّجال، وتسابقت جياد أفكارهم في مضماره بالرويَّة والارتجال، وسارت أرواحهم مع الرِّفاق، وإن أقامت الأشباح، وطارت قلوبهم بالأشواق، ولم لا وهو سوق تعظم فيه الأرباح. . .». [2]

وكانت بعض هذه الرسائل تصور نفسية أولئك الكُتَّاب الذين لم تسعفهم الظروف لزيارة الحرم المكـي والقبر النَّبوي، وتصف مايكابدونه من شوق وحنين إلى تحقيق هذه الأمنية العـزيزة التي حرمت منهـا نفـوسهم، فكانوا يكتبون بها إلى الرسول عليه السلام مع أولئك الذين شدُّوا الرِّحال إلى قبره الطاهر. فهذا ابن أبي الخصال يبعث رسالة إلى قبر الرسول الكريم، وقد افتتحها بمدحه وذكر صفاته الطَّيبة ومناقبه العـظيمـة ومـآثـره الكثيرة ومعجزاته البينة، حيث يقول: «إلى الرؤوف الرَّحيم، الرسول الكريم، ذي الُخلق العظيم، والحسب الصميم، والصفح الجميل. . .

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٤٩٢، وانظر أمثلة اخرى من هذه الفصول في المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٤٩١ ـ ٤٩٣، المغرب: ج ١، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) ـ أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢٠.

خطيب الأنبياء وإمامهم في اليوم المشهود[1]، المكين الأمين، الذي ليس على الغيب بضنين[2]. . . »[3]

وقد كتب ابن أبي الخصال رسالته هذه عن «دمع يفسحُ، ونَفَسٍ، يلفحُ، وصدر بأشواقهِ ملآنَ يطفحُ . . . وزفرةٍ بأحناءِ الضلوعِ تجيءُ وتذهبُ. . »[4].

وسبب هذا الحزن الذي بلغ به مبلغاً عظيماً أنه «لم أعبر إلى زيارتك لُجّةً ولاموماةً، ولاأخطرت في قصدك نفساً أنت منقذها ومحييها، ولامتلث بمعاهدك المشهَّرة، ومشاهدك المطهَّرة. . . »[5]

ثم هو يدعـو الله أن يحقق له هذه الأمنية العـزيزة في زيارة قبر الرسول الكريم، والتي أصبحت حلماً وخيالاً، يقول: «اللهُمَّ كما جعلتني من أُمَّتِهِ، واستعملتني بسُنَّتِهِ، وشوقتني إلى آثاره، وشغلت قلبي بتخيله وتذكاره، وأريتني تلك المعالم المنيفة خيالاً، وخططت منها في الضمير مثالاً، وأشهدتنيها ملء السمع والفؤاد جمالاً، فاشف بمرآها بصراً ضريراً وبسناها يرتدُّ بصيراً. . . »[6]

ويكشف لنا عن تلك الأخطار والمصاعب التي حالت دون زيارته، ويقدم عذره للرسول الكريم، يقول: «لو أتيت يارسول الله سؤلي لسبقت إليك كتابي ورسولي، ولكن قلَّ الوعد، واستغلَّ السفر، وغادروني حرضاً، ولسهامهم بالوجد والأسى غرضاً، أتبعهم نفساً لايؤوب وقلباً يسحقه القلق والوثوب. . . ». [7]

---

(١) - جاء في الحديث أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا (انظر: شرح الزرقاني: ج ١، ص ١٤٠).

(٢) - اقتباس من قوله تعالى: «وماهو على الغيب بضنين»، سورة التكوير: آية ٢٤.

(٣) - أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢١.

(٤) - أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢١.

(٥) - المصدر السابق نفسه: ج ٤، ص ٢٤.

(٦) - أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢٥.

(٧) - المصدر السابق نفسه: ج ٤، ص ٢٥ - ٢٦.

ويختتم ابن أبي الخصال رسالته متشوقاً إلى قضاء مناسك الحج، ومشاهدة مواقيته، ويشفع ذلك بقصيدة طويلة.(١)

ويرسل ابن السيِّد البَطَلْيَوْسي خطاباً بالمثل «ينم عن شوق شديد، وحنين عظيم لزيارة قبر الرسول الكريم، فهو خطاب «مؤمن مذنبٍ من قاصية المغرب، تمسَّك بدينك الحميد، وبتبصرةٍ ارتفع بها عن حدِّ التقليد، ولم يرضه من الدِّين إلاّ ماوقف منه على اليقين...»(٢)

وسبب خطابه هذا أنه «حُرِمَ زيارة قبرك الكريم بشخصه على شدة شغفه ومرضه» ولهذا فقد «قضى حق الله تعالى بالنية إذ لم يستطع على اقضائه بالهنية، وخطابك متوسلاً بك إلى ربِّه فازعاً إليك من خطيئته وذنبه».(٣)

وقد يكتب الكاتب الرسالة على لسان من صدر من البيت الحرام وزيارة قبر الرسول الكريم، مثل رسالة ابن الجدِّ التي خاطب بها الرسول الكريم قائلاً «كتبت ياأكرم الأنبياء وسائل، وأعظمهم فضائل، وأعمَّهم فواضل، وقلبي بحبِّك معمور ومأهول، وعلى الإيمان بك مفطور ومجبول، وبتمثُّل ماعاينته من عظيم آثارك مهول مشغول...»(٤)

إنَّه يكشف عن حبِّه الشديد ووجده العظيم للرسول الكريم، وكأنَّه يُنَفِّس عن نفسه المحرومة من زيارة قبر الرسول، ويسقط رغبته المكبوتة ويحوّلها إلى رسالة، ويستعير ذاتاً وتجربة أخرى ليتحدَّث عنها، فها هو يأسف لارتحاله وبعده عن قبر الرسول الكريم ويأمل بالعودة، يقول: «ولما صدرت يارسول الله عن زيارتك الكريمة...، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ماأودع

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٤، ص ٢٧.
(٢) ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٤٨٨): ورقة ٦٥.
(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ورقة ٦٦.
(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨٦.

جوانحي التهاباً، وأوسع جوارحي اضطراباً، وأشعر أملي عوداً إلى محلِّك المعظَّم وإياباً. . . »[1]

ويختتم رسالته بمناجاة الرسول مناجاة قوية تكشف عن شوق عظيم وعاطفة دينية صادقة، ويحلم بأن يتشفع له الرسول الكريم أمام الله عزَّ وجلَّ، يقول: «فلا تنسَ يارسول الله عياذي بك ولياذي، وإسراعي إلى زيارتك، واذكرني في اليوم العظيم المشهود، عند حوضك المورود، وظلك الممدود، ومقامك المحمود. . . ».[2]

وقد كتب ابن الجدِّ رسالة أخرى يهنِّىء فيها من سعد بزيارة قبر الرسول الكريم، ويعبِّر فيها عن مشاعره العظيمة وتهانيه الصادقة، وهو يتخيل رحلة الحج كاملة، ويبيِّن تأديته لشعائر الحج، حيث يقول: «لقد شهد فيه الميقات بخلوص إهلالك وإحرامك، واهتزَّ البيت العتيق لطوافك، واستلامك، ورضيت المروة والصَّفا عن كمال أشواطك. . . »[3]

ومهما يكن من أمر فإنَّ هذا اللون من الرسائل يكشف عن التديُّن العميق الكامن في نفوس الأندلسيين، وتطلُّعهم الصَّادق إلى تأدية فرض من جوانب عبادة الله تعالى، وتشوُّقهم إلى زيارة قبر الرسول الكريم، كما تكشف عن المصاعب والمخاطر التي تكتنف رحلة الحج والتي تجعل من تأدية هذه الفريضة أمراً صعباً عزيز المنال، مما يدفع بعض الكُتَّاب إلى التعويض عن الرحلة بكتابة رسائل مطولة وإرسالها إلى مقام الرسول الكريم مع حجاج بيت الله.

ولعل السبب الرئيسي الذي أدَّى إلى ظهور هذا اللون من الرسائل هو الظروف الصعبة التي مرَّت بها الأندلس في هذه الفترة، حيث اتَّخذ الكُتَّاب الأندلسيون من ذكر مناقب الرسول الكريم ومعجزاته والتشوق إليه وسيلة لطلب النَّجدة،

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨٦.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٢٨٧.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨٨.

والاستشفاع به ليخلصهم الله من المحن والمصائب التي حلّت بهم، ويردَّ عنهم كيد الصليبيين.[1]

الزُّهد والوعظ:

شاع الزهد في الأندلس بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وكان صادراً في جملته عن روح الإسلام الذي يحثُّ على اتخاذ العبرة والعظة والتفكير في الماضي والحاضر، والوقوف عند الأحداث وسلوك طريق الرشاد والتّمسك بأهداب الدين، والابتعاد عن مناهيه، ونبذ حياة اللهو والخلاعة.

ولقد كان هذا الزُّهد ردة فعل لهذه الحياة اللاهية الماجنة، وهذه الاضطرابات السياسية والحروب الداخلية والخارجية الكثيرة التي كانت تهدد حياة الناس بل الوجود الإسلامي في الأندلس.[2]

ولقد استوعب أدب الرسائل هذا الجانب المهم من الحياة، حيث أخذ عدد من الكُتّاب الأندلسيين المشهورين والمعروفين بالصّلاح والزُّهد بالمناداة بالابتعاد عن ترف الحياة وملذاتها، وجعلوا رسائلهم وسيلة لنقد المجتمع، وللمطالبة بإصلاحه الاجتماعي بالنصح والوعظ والإرشاد، وكان ذلك يظهر أحياناً في رسائل مستقلة أفردوها لهذا الغرض وحده. ومن أشهر هذا اللون من الرسائل تلك الرسالة التي خاطب بها أبو عبد الله بن مسعود[3] ابنه عندما توجّه إلى المغرب، وقد بلغه انغماس ابنه في الملذّات والملاهي، يقول فيها: «فاز يابُنيَّ من استشعر البّر والتّقوى، واستمسك بالعروة الوثقى، واعتصم بحبل القناعة والرِّضى، وتحصَّن بالعفاف، وتبلّغ بالكفاف، فلم يزاحم الأقدار. . .»[4]

---

(١) ـ انظر تعليل الأستاذ إحسان عباس لهذه الظاهرة في: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٣٠٣.

(٢) ـ عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٣٠، البيئة الأندلسية: ص ٥٠٢.

(٣) ـ هو أبو عبد الله محمد بن مسعود من أهل قرطبة (انظر ترجمته في الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٤٩، المغرب: ج ١، ص ١٣٤، المسالك: ج ١١، ص ٤٠٠).

(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٤٩.

إنَّه يرسم له صورة واضحة لقواعد السلوك الاجتماعي المستقيم، فهو يحثُّه على اللجـوء إلى الله والتَّمسك بأهداب الدِّين، والاعتصام بحبل القناعة والرِّضى، وسلوك سبيل الرشاد والهدى، فهو طريق الفوز والنجاح.

وأورد ابن بسام رسالة لأحد الزُّهاد(١) من أهل سَرَقُسْطَة، يحثُّ فيها على الزهد والتزام سبيل الهداية والرشاد، ويرسم صورة معبرة لسلوك الزهاد المتعبدين، ويبين فضلهم عند الله وتعظيمه لهم، فقد «أنار وجوههم بنور إخلاص سرائرهم، وكلَّلهم بالمهابة في العيون، وطهَّر قلوبهم من اختلاج سوء الظنون، فنفوسهم مستريحة رائحة، ومحاسنهم لأهل العقول لائحة، وثناؤهم عطر الانتسام، فهم بين الأنام كالأعلام، بهم يستمطر الغمام إذا حجب، وفي جملتهم يحشر السَّعيد إذا نجب...».(٢)

أمَّا أولئك العصاة الظالمون الذين عدلوا عن سبيل الرشاد وسلكوا طريق الفساد والضلال، وخالفوا أوامر الله تعالى، فإنَّه ينتظرهم عذاب أليم و «يابؤس مقام الظَّالمين، وندامة العاصين، إذا رأوا العـذاب، وتقطَّعت بهم الأسباب، ويقولون هل إلى مردٍّ من سبيلٍ، ولات حين سبيل...».(٣)

أمَّا النَّوع الثاني من رسائل الزُّهد والوعظ، فقد كان بعض الكُتَّاب يضمِّنون رسـائلهم في التعـزية ووصف المحن والمصائب والشكوى دعوتهم إلى الزُّهد في الحياة، ويقدِّمون المواعظ والحكم إلى الناس، وممَّن شارك في هذا الاتجاه أبو محمد بن عبد البرِّ، فقد افتتح إحدى رسائله بالإشارة إلى تقلُّب أحوال الدُّنيا، وتغيُّر أوضاعها، فهي قد بنيت على التداول والتعاقب بين مساءاتها ومسرّاتها، يقول: «فالدُّنيا تحلو لتُمِرّ، وتصفو لتكدر، وتنظم لتنثر، وتجمع فتفرِّق، وتسقي لتُشرِقَ...».(٤)

---

(١) - لم يعثر الباحث على ترجمة لهذا الزاهد في كتاب الذخيرة، ولم يعثر على صورة اخرى لهذا النص الذي أورده ابن بسام في مصادر الأدب الأندلسي الاخرى.

(٢) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٥٢.

(٣) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٥٢.

(٤) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ٨٥٣.

ولهذا فهو يحذر من الاغترار بمظاهرها الكاذبة، ويدعو إلى الزهد، واحتقار ملذات الدُّنيا ومباهجها الزائلة، يقول: «فالأولى الزُّهد عن زخرفها وزبرجها،[1] والتَّرك لما يحلوا من رضابها، ويخدع من سرابها، والإعراض عن وصالها، ونضرتها وجمالها، فليست تبقي على السَّيد ولا المسود، ولا على القريب والبعيد. . .».[2]

ومن ذلك أيضاً ماجاء في رسالة لأبي أُلمطرِّف بن الدَّباغ يصف فيها خبر نكبة حلت به، ويشير فيها إلى إقبال النَّاس على الدُّنيا وتكالبهم على ملذّاتها ومباهجها الزائلة، يقول: «فليت شعري: لِمَ هذا؟ وعلام الرَّغبة في الازدياد، وهذا الحرص على التَّماد؟ ولو أنَّ الأيام كُلّها في نعيم محتفل،[3] وسرورٍ مُتَّصلٍ، لما كان ذلك إلاَّ بمنزلة ظِلٍّ زائلٍ، ولم يحل منه بطائِلٍ، إنَّ هذا لطموس[4] أضلَّ الألباب، فلا تدري الرَّشاد، وأفسد الأفكار فلا تعلم ما المراد».[5]

ونلمس في هذه الرسالة ترغيباً في الزهد وحثاً على الابتعاد عن ملذات الدُّنيا ومباهجها فهي سراب زائل.

---

(١) - زِبْرج الدُّنْيَا: غرورها وزينتها (اللسان: مادة زبج).

(٢) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٢٥.

(٣) - محتفل: مجتمع (اللسان: مادة حفل).

(٤) - الطموسُ: الدروس والانمحاء (اللسان: مادة طمس).

(٥) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٧٧.

رسائل المفاضلات والمفاخرات

وهي تلك الرِّسائل الأدبية التي تقوم على أساس التفاخر والمناظرة والجدل والنِّقاش والاحتجاج بين الورود والأزهار والشعوب والجماعات كلٌّ يبدي محاسنه ويفخر بصفاته. وقد كانت هذه الرسائل امتداداً وتطوراً لتلك الرسائل التي أنشأها الجزيري في أواخر القرن الرابع الهجري على ألسنة الورود والأزهار، حيث اعتمد عليه كُتَّاب القرن الخامس الهجري وطوّروا هذا الفن ووسَّعوا مجالاته.

وتكشف هذه الرسائل عن براعة الكُتَّاب في الاحتجاج والجدل، وتدل على تأثرهم العام بمدارس الجدل والحوار.

المفاخرات بين الأزهار والورود:

تقع في مقدمة هذا اللون من الرسائل رسالة طريفة كتبها ابن بُرْد الأصغر لابن جَهْور، وصف فيها خمسة من الأزهار، وفضَّل الورد عليها. وقد بدأ ابن بُرْدٍ رسالته بالحديث عن مجلس تنادت إليه الأزهار المختلفة للتأمُّل في أحوالها، حيث شرع كل واحد منها في وصف محاسنه والتغنِّي بها «وكان مِمَّن حضر هذا المجلس وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار ورؤساء الأنوار النَّرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيريُّ النمَّام. . . »[(1)].

ثم أجرى الكاتب حواراً على لسان الأزهار، وفي ذلك يبدو الأسلوب الجدلي حينما وقف كُلُّ نَوْرٍ حضر هذا المجلس يؤدِّي شهادته ويدلي بوجهة نظره في مبايعة الورد، ويعضد رأيه باستنباط الأدلة العقلية مستغلاً خصائص الورد الطبيعية لتأييد مايذهب إليه، فيقول النَّرْجس الأصفر متشغلاً بنحولة جسمه في المبايعة: «لقد

(١) ـ البديع. ص ٥٥.

كنت أُسَرُّ من التَّعبُّد له والشَّغف به، والأسف على تعاقب الموت والرجعة دون لقائه، ماأنحل جسمي ومكَّن سقمي، وإذ قد أمكن البوح بالشكوى فقد خفَّ ثقل البلوى» .(١)

أمَّا البنفسج فقد استغلَّ الكاتب صفاته الطبيعية، حيث يقول على لسانه: «أنا والله المتعبّد له الدَّاعي إليه المشغوف به كلفاً. . . . وكفى مابوجهي من ندبٍ، وبجسمي من عدم نهوض، ولكن في التَّأسي بك أنس، وفي الاستواء معك وِجدان سلوّ» .(٢)

أما البهار فقد سلَّم بالطاعة والمبايعة إذ يقول: «لاتنظرنَّ إلى غضارة منبتي، ونضارة ورقي، وانظر إليَّ وقد صرت حدقةً باهتةً تشير إليه، وعيناً شاخصةً تندى بكاءً عليه» .(٣)

أمَّا الخيريُّ النَّمام فقال: «والذي أعطاه الفضل دوني، ومدّ له بالبيعة يميني، ما اجترأت قطُّ إجلالاً واستحياء منه» .(٤)

وقد انتهى هذا المجلس بمبايعة الورد بالرئاسة، وكتابة عقد لهذه المبايعة .(٥)

وقد انبرى أبو الوليد بن عامر الحميري للردِّ على ابن بُرْد في تفضيله الورد على سائر الأزهار، فكتب رسالة خاطب فيها المعتضد بن عبّاد مشتملة على وصف سبعة من النواوير هي البنفسج والنَّرجس والخيريُّ النَّمام، والأقحوان، والخيريُّ الأصفر، والبهار، والورد.(٦)

---

(١) ـ البديع: ص ٥٥.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٥٥.

(٣) ـ البديع: ص ٥٦.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٥٦.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ٥٦ ـ ٥٧.

(٦) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٥٨.

وقد زعم الكاتب أنّ أول من اطَّلع على عقد لواء الرئاسة للورد نواوير فصل الربيع، وكان لها موقف ورأي يخالف ماذهبت إليه الأزهار في الرسالة السابقة من مبايعة للورد. وقد دعت تلك الأزهار إلى مجلس للمناظرة والمفاخرة فكتبت إلى الأقحوان والخيريِّ الأصفر كتاباً تُخَالِفُ فيه عقد لواء الرِّئاسة للورد ذلك أنَّه «لو استحقَّ الورد إمامةً أو استوجب خلافةً لبادر بها آباؤنا ولعقدها أوائلنا الَّتي لم تزل تجاوره في مكانه وتجيء معه في أوانه». (١)

وقد أجمعت تلك الأزهار على أنَّ البَهَار أحق بالرئاسة والتقديم على سائر الأنوار، فهو «البادي فضله بُدُوَّ النَّهار والذي لم يزل عند علماء الشُّعراء وحكماء البلغاء مُشبَّهاً بالعيون التي لايحول نظرها ولايحور حَوَرها». (٢)

وهي تستغل الخصائص الطبيعية للبهار والورد في إثبات ماتذهب إليه «فالبَهَارُ مُشبَّه بالعيون في حين أن أفضل تشبيهٍ للورد الخدّ، يقول على لسانها: «وأفضل تشبيهٍ للورد الخدُّ عند من تشيَّعَ فيه وعُني به، وأشْرَفُ الحواسّ العينُ، إذ هي على كلِّ مُنَوَّلٍ عون، وليس الخدُّ حاسَّةً فكيف تبلغه رياسة؟». (٣)

أمَّا أبو عمر الباجيُّ فكتب على لسان البَهَار رسالةً لابن هود يشكو فيها الورد عندما تعدَّى عَليه، واغتصب رئاسته «وقد علم الورد موقع إمارتي، وغنيَ بلطيف إيمائي عن عبارتي، وإنَّما تحيَّةُ الزَّهرِ حَيَّاكَ بها، وخبيئة ذخرها لك وأهَّلك لها . . »(٤)

لهذا فهو يتودَّد إليه، ويطمع في أن يكرم وفادته، وأن يقربه منه لأنه حقيق بالتكريم والتقديم، وأهل للفضل والجود والاحترام، وذلك لما امتاز به من صفات نادرة في الشكل واللون والرائحة، يقول: «أنا عبدٌ مطيعٌ مسخَّرٌ. . حقيق بأن يُحسن إليَّ فأُدْنَى، وجديرٌ بأن يهتبل بي ولاأجفى، لأني سابق حلبة النّوار، وأوَّل

(١) ـ البديع: ص ٥٩.
(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٦٠.
(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٦٠.
(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٩٤.

طلائع الأزهار، وأنا ناظر الفضل وعينه ونضار الروض، وجينه، وقائد الظَّرف وفارسه، وعاقد مجلس الأنس وحارسه» .(١)

ثم يتَّجه الباجيُّ إلى مديح السلطان على لسان البَهار للتقرُّب إليه واستدرار عطفه، فقد عرف بإكرامه وتقديره للزهر، يقول: «فهل لمولاي أن يُحسن إلَّي صنيعاً، ويُكرم النَّوْرَ جميعاً، ويدنيني فأرقى إلى أختي الثريَّا سريعاً في مجلس قد أخلصته سحائبه، وأفرغت الحسن عليه. . . . وجهك بدره، وغُرَّتُكَ فجره. ، وأخلاقك زهره، وثناؤك دُرُّه وعطره. . . » .(٢)

أمَّـا ابن حَسْـداي فقد كتب رسالة بعث بها إلى المقتدر بن هود ينتصر فيها للنّرجس، لكنه لم يجرِ الحوار بين النَّرجس والأزهار، بل أجراه بين النَّرجس، ورجل ظريف من خواص الأمير، يقول على لسان النَّرْجس: «فبينا أنا سقيم الجفون من غير سقمٍ، مائل الجيد من دون ألمٍ، حتَّى أُتيح لي ظريف من خواصِّك يقصدني، ونبيل من عبيدك يعتمدني، فأوجست حذراً وتشوّقاً، حتَّى أنَّسني بالكلام تألّقاً، وقطعني بغير إيلام تلطفاً، وحاورني بلفظٍ يلقنه النّوارُ عياناً» .(٣)

ولم يذكر ابن بسَّام ماردَّ به النَّرْجس على هذا الظريف، وقد أورد فصلاً افتخر فيه النَّرجس بذاته .(٤)

ويرى الباحث في هذا اللون من الرسائل منحىً رمزياً، إذ ظهر هذا اللون من الرسائل في أواخر عصر الخلافة على يد الكاتب الجزيريِّ وغيره من الشعراء. وكان المنصور بن أبي عامر قد سمَّى بناته بأسماء الأزهار ووصف الشُّعراء والكُتَّاب الأزهار في رسائلهم وقصائدهم على نحوٍ يُظْهِرُ فضائل بنات المنصور، كما يشير إلى ذلك ابن بسَّام في ترجمته للشاعر والكاتب الجزيريِّ .(٥) ومن هنا جاز للباحث أن يرى في هذا

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م١، ص ١٩٥ .

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٧١ .

(٤) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ .

(٥) ـ انظر: المصد السابق نفسه: ق ٤ م ١، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

اللون من الرسائل منحىً رمزياً عبَّر فيه الكُتَّاب والشعراء في الأصل عن تفاخر الجواري داخل القصور أو تفاخر بنات الأمراء الحاكمين ومن إليهن، وعندما جاء كُتَّاب القرن الخامس الهجري طوَّروا هذا اللون من الرسائل ووسَّعوا من جوانبه.

لهذا فإن الباحث يرى فيه صدىً عميقاً للحالة السياسية لملوك الطوائف. ويبدو أن المداهنة والتملق إلى الملوك قد دفعت بعض الكُتَّاب الأندلسيين إلى تفضيل ملك بعينه على غيره من ملوك الأندلس، فيتخذ من وردة أو زهرٍ معين رمزاً لأميره وولي نعمته، ويجعل من تفرده بين الورود والأزهار نظيراً لتفرد أميره بين الأمراء. وقد تكون هذه الرسائل أيضاً صدىً للتنافس والحسد الذي كان بين الكُتَّاب في بلاطات الأمراء، حيث أنَّ كثيراً من الكُتَّاب يرجو التميز على أقرانه، ويوضح فضله على غيره من كُتَّاب القصر، فهذا ابن حَسْدَاي يقول على لسان النرجس مخاطباً المقتدر بن هود: «فأزلْ عنيِّ حسدهم بكبتهم، فقد شجاهم تقدُّمي قبل وقتهم...»[1]

وهذا الباجيُّ يخاطب المقتدر أيضاً على لسان البهار «أطال الله بقاء المقتدر بالله... وأعاذني من خيبة العناء، وعصمني معه من إخفاق الرجاء، ولاأشمت بي عدوَّاً من الرياض يناصبني، وحاسداً من النواوير يراقبني... وقد أتيتُ في أواني، وحضرتُ وغاب أقراني، ولم أخْل من خدمتك رتبتي ومكاني، ولم أعْرِ من الحُضُور بين يديك نوْبتي وزماني...».[2]

ولكن السؤال الذي نطرحه هنا هو: ما العوامل والأسباب التي جعلت الورود والأزهار تختصُّ بالمناظرات والمفاخرات أكثر من غيرها؟. لقد وقف الأستاذ إحسان عَبَّاس عند هذه الظاهرة وعلَّل ذلك بقوله: «أما القطع الشعرية والنثرية التي كتبوها للمفاضلة بين نَوْر ونَـوْر، وأحدهم يردُّ فيها على الثَّاني، فقد افتتحوا بها مقدرتهم الجدلية، واتَّخذوا من الطبيعة موضوعاً للجدل بدلاً من أن يكون جدلهمْ حول شؤون العقيدة، إذ كانت المناظرات في أمور العقيدة مظَنَّةَ خطر، ومازال شأنها ضعيفاً حتَّى

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١ ص ٤٧٢.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ١٩٤.

ظهور ابن حزم، وكانوا في الحالين يُرضون لديهم ميلاً عقلياً أكثر من توفرهم على إقامة الصلة العاطفية بينهم وبين المنظر الجميل». [1]

لقد ربط الأستاذ إحسان عَبَّاس بين العداء الفكري في عصر المرابطين للفلسفة والجدال وبين هذه المناظرات، وجعل منها مظهراً من مظاهر الميل العقلي، ولكننا نجد في التاريخ الأدبي مايدلُّ على عكس مايقرره الأستاذ إحسان عَبَّاس، فقد ظهرت هذه الرَّسائل في أواخر عصر الخلافة على يد الجزيريِّ كما ذكرنا سابقاً، وتطوَّرت على يد كُتَّاب عصر الطوائف.

ويستطيع الباحث القول بأنَّ هذا اللون من الرَّسائل كان مظهراً من مظاهر تأثر الأندلسيين بالمشارقة، إذ يعتبر ابن الرومي أوَّل من أثار قضية المفاضلة بين الأزهار. [2] وقد عمد الأدباء الأندلسيون إلى تطوير هذا الفن في محاولة للتَّفوُّق على المشارقة.

كذلك استغلَّ الأدباء الأندلسيون طبيعة بلادهم الساحرة الجملية، وأقاموا حول جمالها موضوعاً أدبياً يتنافسون في إظهار البراعة فيه، ولايخلو الأمر من تأثرهم بمدارس الجدل وأساليب النقاش والحوار بشكل عام، ذلك أن الموضوع بعناصر تكوينه يتيح استخدام هذا الأسلوب في العمل الأدبي أكثر من غيره، هذا بالإضافة إلى أنَّ الأدب الأندلسي قد انفرد عموماً في شعره ونثره بظاهرة المعارضة: قصيدة واحدة تثير عدة معارضات، أو رسالة تثير عدة رسائل، أو كتاب يستدعي آخر تذيّلاً عليه. [3]

المفاخرة بين السيف والقلم:

يعدُّ ابن بُرْدٍ الأصغر أوَّل من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس، [4] حيث كتب رسالة إلى مجاهد العامري، وقد أقامها على المناظرة والمفاخرة بين السيف والقلم، وفي أحقية كلٍّ منهما بالسيادة والزعامة.

---

(١) ـ عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٩٧.

(٢) ـ انظر: الجذوة: ص ٢١٢، عصر سيادة قرطبة: ص ١١٠.

(٣) ـ انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٩٦.

(٤) ـ انظر: معجم الأدباء: ج ٦، ص ١٠٦.

وقد بدأ ابن بُرْد رسالته بمقدمة وصفية تحدَّث فيها عن أهمية السيف والقلم ودورهما في الحياة، فهما وسيلتان للوصول إلى المجد والشرف والمراتب العليا، يقول: «وإنَّ السيف والقلم لمَّا كانا مصباحين يهديان إلى القصد، من بات يسري إلى المجد، وسُلَّمين يلحقان بالكواكب، من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يَشرعان نهج الشرَّف لمن تقرَّى إليه . . .» .[1]

ولاغرو أن ينشب بينهما الخلاف والتحاسد، وأن يتفاخرا أو يتناظرا فيذكر كل واحد منهما مآثره وفضائله ومحاسنه، ويزعم أنه أكثر أهمية من الآخر. ولما اشتدَّ الصراع بينهما واحتدم قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال، وقد جعل ابن بُرْد القلم أوَّل من يتحدث في المفاخرة والمناظرة، ونلمس في ذلك تأكيداً على أهمية دور القلم حيث يقول: «الأفضل من فضَّله الله عزَّ وجلَّ في تنزيله، مقسماً به لرسوله، فقال: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾،[2] وقال: ﴿إقْرأ وَربُّكَ الأكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بالْقَلَمِ﴾[3] . . . لقد أخذت الفضل برُمَّته، وقدتُ الفخر بأزمّتِهِ. . .»،[4]ويجيبه السيف قائلاً إن :«قيمة كلِّ امرىءٍ ما يحسن. إنّ عاتقاً[5] حمَلَ نجادي[6]لسعيد،وإنّ عضداً بات وسادي[7]لسديد. . . أفصح والبطل قد خرس، وابتسم والأجل قد عبس. . .» .[8]

ويردُّ عليه القلم معدداً مفاخره ومآثره «وهل أنا إلاّ قطب تدور عليه الدول، وجواد شأوه يدرك الأمل، شفيع كلِّ ملكٍ إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه، وشاهد نجواه قبل كلِّ شاهد، ووارد معناه قبل كلِّ واردٍ. . .» .(٩)

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٣.

(٢) ـ سورة القلم: الآية١.

(٣) ـ سورة العلق، الآيتان ٣ و ٤.

(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٤.

(٥) ـ العَاتِقُ: الرجل الحرُّ (اللسان: مادة عتق).

(٦) ـ نجادي: النجاد: حمائل السيف (اللسان: مادة نجد).

(٧) ـ وسادي: يقال توسد الشيء: اتخذه وسادة، جعله تحت رأسه (اللسان: مادة وسد).

(٨)ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٤.

(٩)ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٥٢٤.

ونلمح في ثنايا ردِّ أبي المغيرة بن حزم شكوى مبطَّنة من هذه الغربة التي يعاني منها أهل الأندلس، وانصراف أهل المشرق عن تدوين علوم الأندلسيين وفنونهم وآدابهم، حيث يقول: «وعلى كلِّ حال، فقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا، وماأشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرُّها يعلن...». (١)

ثم أن أبا محمد بن حزم الإمام الأندلسي المشهور، وهو ابن عم أبي المغيرة عثر على رسالة ابن الرَّبيب بعد وفاة مؤلِّفها، فردَّ عليه برسالته المشهورة في فضائل الأندلس. وقد فخر فيها بفضل الأندلس وأهلها ومدنها ومافيها من سمات الحضارة والتقدم، وأورد فيها عدداً كبيراً من أسماء العلماء والأدباء في الأندلس في مختلف فروع المعرفة حتى عصره، وتحتلُّ هذه الرسالة مكانة عظيمة في الفكر الأندلسي لأنه وضع فيها سجلاً حافلاً بمصادر التراث الأندلسي إلى حد أن الأستاذ شارل بلاًّ أطلق على ترجمته لهذه الرسالة وماأضاف إليها من دراسة عنوان «ابنُ حَزْمٍ مُفهرس الأندلس ومدَّاحُها». (٢)

وقد افتتح ابن حزم رسالته بمخاطبة صديقه الحميم أبي بكر بن إسحق، (٣) وذكر له أنه وقع في يده رسالة أَلَّفها رجل من مصاقبي الأندلس، أخذ فيها عليهم إهمال الأندلسيين لذكر علمائهم وفضائلهم وأدبائهم. (٤)

ثم انتقل إلى الثناء على صاحب البونت(٥) أبي عبد الله بن قاسم، ووصف

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٣٨.

(٢) ـ انظر: حوليات الجامعة التونسية، ع ٢٠: ص ٣٨، ومجلة «الأندلس» و Al. Andalus, Vol. 19, (1954), p. p. 53 - 102.

(٣) ـ هو أبو بكر محمد بن اسحق المهلبي، من أهل الأدب والفضل، كان صديقاً لابن حزم ومتنقلاً معه في الأندلس، واعتقل معه على يد خيران العامري، (انظر: الجذوة: ص ٤٤، طوق الحمامة: ص ١١٢، ١١٣، ١٢٠).

(٤) ـ انظر: رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧١.

(٥) ـ البونت: قرية من أعمال بَلَنْسِيَة استقلَّ فيها بنو قاسم بعد الفتنة (انظر: الروض المعطار: ص ١١٥، أعمال الأعلام: ص ٢١٨.

المجلس الأدبي الحافل بأصناف الآداب وأنواع العلوم والمعارف الذي كان يعقده في بلاطه، وذكر كيف أنَّ أبا عبد الله كان «حريصاً على أن يجُاوب هذا المخاطب، وراغباً في أن يبيِّن له ما لعلَّه قد رآه فنسي، أو بعد عنه فخفي. . »[١].

ثم هو يسرد فضائل الأندلس ومآثرها، ويحدِّثنا عمَّا أُلِّفَ فيها، ويحاول أن يضفي على الأرض الأندلسية صفة القداسة مستمداً إيّاها من حديث ينسب إلى الرسول الكريم، يقول: «فأمَّا مآثر بلدنا فقد ألَّف في ذلك أحمد بن محمد الرَّازي[٢] التاريخي كُتباً جمَّة منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات المدن وأجنادها الستة،[٣] وخواصّ كلّ بلدٍ منها، وأنا أقول لو لم يكُن لأندلسنا إلاَّ ما رسول الله - ﷺ - بَشرَّ به أسلافنا المجاهدين فيه، بصفات الملوك على الأسرَّةِ، في الحديث الّذي رويناه[٤]. . . لكفى شرفاً بذلك»[٥].

ثم هو يحدِّدُ موقع الأندلسيين في الأقاليم الإسلامية، ويبين أثر طبيعة الإقليم في ذكاء الأندلسيين ونبوغهم «وأمَّا في قسم الأقاليم فإنَّ قُرْطُبَةَ مسقط رؤوسنا ومَعَقُّ[٦] ثمائِنَا، مع سُرَّ من رأى في إقليم واحد، فلنا من الفهم والذَّكاء ما اقتضاه إقليمنا،

(١) - رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧٢.

(٢) - هو أحمد بن محمد الرازي، كان نحوياً لغوياً، وكاتباً بليغاً، غزير الرواية، حافظاً للأخبار، توفي سنة ٣٤٤ هـ (انظر ترجمته في طبقات النحويين واللغويين: ص ٣٠٢، الجذوة: ص ١٠٤).

(٣) - لعله يعني الأجناد التي نزلت الأندلس في طالعة بلج القشيري، وفرقها أبو الخطار على الكور (انظر: النفح: ج ١، ص ٢٣٧، الاحاطة: ج ١، ص ١٠٩).

(٤) - يشير إلى حديث أورده مسلم، وفيه. أن رسول الله نام ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت له بنت ملحان: مايضحكك يارسول الله؟ قال ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة (انظر: صحيح مسلم: ج ٣، ص ١٥١٨).

(٥) - رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٦) - مَعَقّ: يقال للصبي إذا نشأ مع حي حتى شب وقوي فيهم: عقت تميمته في بني فلان، والأصل في ذلك أن الصبي مادام طفلاً تعلق عليه تمائم تعوذه من العين (انظر: اللسان: مادة عقق).

وإن كانت الأنوار لاتأتينا إلاَّ مُغَرِّبة عن مطالعها عن الجزء المعمور.»[1]

وهو في هذا يعمد إلى أسلوب المناقشة والجدل في سوق الحجج والبراهين ومن ذلك قوله: «وقد صدق ذلك الخبر، وأبانته التجربة، فكان أهلها من التمكن في علوم القـراءات والروايات، وحفظ كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم، بمكان رحب الفناء واسع العطن،[2] متنائي الأقطار، فسيح المجال»[3]

ويناقش بعد ذلك قضية مهمة هي الشخصية الأندلسية، فيحددها تحديداً دقيقاً ملتزماً في ذلـك رأي الجماعة من المؤرخين والأئمة السابقين، فهم «متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يحل عنها، رحيل ترك لسكانها إلى أن مات». [4]

ويخرج بنتيجة مفادها أن «من هاجر إلينا من سائر البلاد، فنحن أحقُّ به، وهو مِنَّا بحكم جميع أولي الأمر مِنَّا. . . ومن هاجر مِنَّا إلى غيرها فلا حظَّ لنا فيه، والمكان الذي اختاره أسعد به، فكما لاندع إسماعيل بن القاسم،[5] فكذلك لاننازع في محمد ابن هانىء سوانا. . . ».[6] وهو هنا يقيم الدليل على مايذهب إليه.

وقبل أن يعالج موضوعه الأساسي يتناول قضية مهمة تلك هي مكانة العالم في بلده، فيشير إلى تنكُّرِ الأندلسيين لمن نبغ منهم في العلوم، ومايناله من غمط حقوقه، وجحود علمه، وطمس فضله، وهو هنا يقيس على مالقيه من أهل عصره من تحامل الفقهاء والأدباء وذوي السلطة ضده، وهو هنا يكشف لنا عما يغمر نفسه من مرارة

---

(١) ـ رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧٤.

(٢) ـ واسع العطن: واسع المواضع (انظر اللسان: مادة عطن).

(٣) ـ رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ١٧٥.

(٥) ـ يريد أبا علي القالي، فهو قد أصبح حسب مقياسه أندلسياً.

(٦) ـ رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧٦.

وألم وقلق، وضيق لما يلاقيه في هذه البلاد التي طالما أحبها وأخلص لها، يقول: «وأمَّا جهتنا فالحكم في ذلك ماجرى به المثل السائر (أزهدُ النَّاس في عالم أهله) . . . ولاسيما أندلسنا، فإنهَّا خُصَّتْ من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير مايأتي به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف مافي سائر البلاد. إنْ أجاد قالوا: سارقٌ مغيرٌ، ومنتحلٌ مُدَّعٍ، وإنْ توسط قالوا: غَثٌّ باردٌ وضعيف ساقط، وإنْ باكر الحيازة لقصب السبق، قالوا: متى كان هذا؟ ومتى تعلم؟ . .». (١)

ويبين بعد ذلك فضل بلاده، ومدى مساهمتها ورجالها في بناء الفكر الإسلامي، فيعدد تآليف الأندلسيين ومصنفاتهم في مختلف فروع المعرفة من تاريخ وأخبار وفقه ولغة وشعر وطب وفلسفة وعدد وهندسة وحديث وعلم كلام، وغيره. . . ، (٢) ولم يورد من تلك التآليف إلاَّ المستحقة الذكر، أمَّا التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم يلتفت إلى ذكرها. وهذا يدل على سعة ثقافة ابن حزم وعمقها، وعلى اطلاعه الواسع، ومقدرته على تقويم المصنفات والتآليف ونقدها. (٣)

ونلمح في هذه الرسالة شعور ابن حزم بأندلسيته ومباهاته ببلده الذي يعتبر حضارة العراق مثله الأعلى والإنموذج الذي يحتذى، بل إنَّ لمراكز الحضارة العربية الإسلامية في المشرق مكانة عظيمة في نفسه، يقول: «وهذه بغداد حاضرة الدنيا، ومعدن كلِّ فضيلة، والمحلَّة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف، والتدقيق في تصريف العلوم، . . . وهذه البصرة وهي عين المعمورة في كلِّ ماذكرنا. . .». (٤)

ويختتم ابن حزم رسالته بذكر من تتباهى به الأندلس من رجالها وعلمائها وأدبائها، وهو هنا يعقد مقارنة بينهم وبين أمثالهم من المشارقة في كل ميدان، يقول:

---

(١) ـ رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧٦.

(٢) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ١٧٨ ـ ١٨٦.

(٣) ـ انظر: ابن حزم الأندلسي: ص ١٧٨.

(٤) ـ رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧٦.

«ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب، جعونة بن الصمَّة الكلابي[1] في الشّعر لم نباه به إلَّا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين. . . وإذا سـمَّينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلّا محمد ابن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري. . . وإذا صرحنا بذكر محمد ابن يحيى الـرياحي،[2] وأبي عبـد الله محمد بن عاصم[3] لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد. . .».[4]

وواضح أن ابن حزم يضع أساساً جديداً لمفاخرة البلدان، فهو يرى أن العلم وحده هو ينبوع الفضائل، وأن العلماء وحدهم هم الذين يحق للبلدان أن تتفاضل بهم، وهذا يعد تطوراً جديداً في أدب المفاضلات بين البلدان.[5]

وتعتـبر رسـالـة ابن حزم سجـلاً حافـلاً بمظاهر النشاط العلمي والأدبي في الأندلـس حتى عصر مؤلفها، ومناظرة أدبية يتحدَّي بها من عاب على أهل الأندلس تقصيرهم في ذكر علمائهم، وهي تحتل مكانة رفيعة في الأدب الأندلسي لبراعة صاحبها في الرد والحجاج.

الرسائل الشعوبية:

ذكرنا فيما تقدَّم أنه كان من نتائج انتشار عقد الخلافة وتمزُّق البلاد إلى دويلات مستقلة يتناهب الحكم فيها الصقالبة والمولدون والموالي والبربر والعرب أن ضعفت الروابط العربية في بعض هذه الدول المستقلة، ممَّا أتاح للنزعة الشعوبية أن تظهر في

---

(١) ـ هو أبو الأجرب جعونه بن الصمة الكلابي، من قدماء شعراء الأندلس، وكان فارسا شجاعا يدعى عنترة (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٨٩: المغرب ج١، ص ١٣١ ـ ١٣٢).

(٢) ـ هو محمد بن يحيى الرياحي، كان حاذقاً بعلم العربية، دقيق النظر فيها، غاية في الابداع والاستنباط، توفي سنة ٣٥٨ هـ (انظر ترجمته، في: طبقات النحويين واللغويين: ص ٣١٠).

(٣) ـ لم يعثر الباحث على ترجمة له.

(٤) ـ رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٨٧.

(٥) ـ انظر: فضائل الأندلس: ص ١٦.

نتاج أدبي،[1] تمثَّل في رسالة كتبها ابن غَرْسِية الذي عاش في كنف مجاهد العامري بمدينة دَانِيَةَ، وكان شعوبياً يكره العرب ويتعصَّب للعجم، وقد خاطب في رسالته هذه أبا جعفر بن الخزّاز معاتباً لتركه مدح مجاهد العامري ملك بلاده، واقتصاره على مدح المعتصم بن صُمادح أمير المَرِيَّة، وقد ذمَّ فيها العرب، وافتخر بقومه العجم.[2]

لقد أحدثت هذه الرسالة ضجة كبيرة في الأندلس نجد بعض صداها في ماروّاه عنها ابن بسَّام: «وهي رسالة ذميمة... ذَمَّ فيها العرب، وفخر بقومه العجم، وأراد أن يعرب فأعجم، وإذ قد أفضى بنا القول إلى ذكرها، فأنا أثبتها ها هنا بأسرها، وأجتلبُ، فصولاً من رسائل جلائل لبعض أهل العصر ردُّوا عليه وبكَّتوه حتى أسكتوه..»[3] وقد وصلتنا رسالة ابن غَرْسِيةَ كاملة وثلاث رسائل في الردِّ عليها تعود إلى القرن الخامس الهجري.[4]

وقد استهل ابن غَرْسِيةَ رسالته بالتهكم والسخرية من العرب متخذاً من هجاء ابن الخزّاز وسيلة لذلك، يقول: «سَلاَمٌ عليك ذا الرَّوِيِّ المَرْوِيِّ، الموقوف قريضه على حللة بجَّانة أرش اليمن،[5] بزهيد الثمن، كأن ما في الأرض إنسان إلاّ من غسَّان[6] أو من آل ذي حَسَّان،[7] وإن كان القوم أَقْنَوْكَ، وعن العالم أَغْنَوْكَ على

(١) ـ انظر عن الشعوبية عند مسلمي الأندلس: نوادر المخطوطات: ج ٣، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢، عصر الطوائف والمرابطين: ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٥، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٨.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٤ ـ ٧٠٥.

(٤) ـ انظر المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧١٥ ـ ٧٧٥.

(٥) ـ أرش اليمن: اقليم في شرق الأندلس، أنزل الأمويون فيه بني سراج القضاعيين، وجعلوا إليهم حراسة مايليهم من البحر وحفظ الساحل، فكان ماضمنوا حفظه يسمى أرش اليمن، أي عطيتهم ونحلتهم (انظر: الروض المعطار: ص ٣٧).

(٦) ـ غسَّان: هم بطون شتى من الأزد، وقيل أن فيهم أيضاً من غير الأزد، (جمهرة أنساب العرب: ص ٤٧٢).

(٧) ـ لعله يقصد (حسان ذو معاهر) بن تبع من ملوك حمير (انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٤٣٨).

حسب المـذكـور. . . ».[1] ثم هو يفخر بماضي مختلف العناصر الشعوبية من روم وفرس، وما يتمتّعون به من بأس وشجاعة وذلك من خلال أسلوب المقابلة بين حياة العـرب القدامى في ظل الإبل والشاة، وحياة الأكاسرة والقياصرة في ظل السيوف والرماح، حيث يصفهم بأنهم «الصُّهْبُ الشُّهْبُ[2]، ليسوا بِعُرْبٍ، ذوي أيْنُقٍ جُرْبٍ، بل هم القياصرة الأكاسرة، مُجُدٌ نُجُدٌ: بُهَمٌ، لارعاة شويهات ولا بَهَم[3]. . . ».[4]

ثم يعقـد مقابلة أخرى بين مظاهر الحياة العربية ومظاهر الحياة الأعجمية، فيذكر أن العجم يمتازون في لباسهم ومأكلهم ومشربهم ومطعمهم، واقتنائهم أحسن الثياب، ويقلل في مقابل ذلك من شأن العرب، فيعيب عليهم قناعتهم بالشهوات كالطبل والزمر ومعاقرة الخمرة، حيث يقول: «شُدِهُوا[5] برنّات السيوف، عن ربّات الشُّنـوف،[6] وبـركوب السرُّوج، عن الكلب والفُرُوج، وبالنَّفير عن النَّقير[7]. . . وبالأمر والذَّمْرِ[8] عن مُعاقرة الخمرِ والزمرِ. . . ».[9]

ويفخر بعد ذلك بمعرفة العجم للعلوم المختلفة، وينكر على العرب معرفتهم بالعلوم، فهم «ذوو الآراء الفلسفية الأريضية،[10] والعلوم المنطقية الرياضية، حملة

---

(٢) ـ الصُّهْبُ: الصُّهْبَةُ: الشعرة في شعر الرأس، والشهبة: لون بياض يصدعه سواد في خلاله (انظر: اللسان: مادتا صهب، وشهب).

(٣) ـ بُهَمٌ: جمع بهمة، وهو الفارس لايدري من أين يؤتى، لشدة بأسه، البَهم جمع بهمة، وهي الصغير من أولاد الغنم (اللسان: مادة بهم).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٦.

(٥) شُدِهُوا: يقال: شده الرجل شدهاً وشدها: شغل (اللسان: مادة شده).

(٦) ـ الشُّنُوف: جمع شنف وهو الذي يلبس في أعلى الأذن (اللسان مادة شنف).

(٧) ـ النَّفير: الخفوف إلى الحرب، والنَّقير: الوعاء الذي يتخذ فيه النبيذ، ويريد هنا النبيذ نفسه (انظر: اللسان: مادة نفر، ونقر).

(٨) ـ الذَّمْرُ: الحضُّ والحثُّ (اللسان: مادة ذمر).

(٩) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٩ ـ ٧١٠.

(١٠) ـ الأريضية: أي الصعبة (انظر: اللسان: مادة روض).

الاسـترلـوميقي [1] . . . والقـومـة بالموسيقى والفُوطيقا، [2] والنَّهَضَةُ بعلوم الشرائع والطبائع، والمهرة في علوم الأديان والأبدان. . . ». [3]

ولعل من الطريف في رسالته افتخاره على العرب بالنبيِّ العربيِّ، حيث يرى أن محمداً وإن كان عربياً فلا فخر في ذلك للعرب لأن التِّبر من التُّراب والمسك بعض دم الغـزال والماء العذب يستودع جلد المزادة البالي، يقول: «لكن الفخرُ بابن عَمِّنا، الذي بالبركة عَمَّنا، الإسماعيلي الحَسَب، الإبراهيميِّ النسب». [4]

ويختتم رسالته بعبارات يظهر فيها التقوى، دفعاً لما قد يفهم من كلامه مما قد يسيء إلى العقيدة الإسلامية، وهو في ذلك يعنِّفُ صديقه ابن الخرَّاز[5]

وإذا نظرنا في بعض الردود التي أثارتها الرسالة، نجد مثلاً أن ابن الدَّوْدِين البلنسي[6] قد عمد في مطلع رسالته إلى السباب والشتم والسخرية منه والاستهزاء به، حيث يقول: «اخْسأ أيُّها الجهولُ المارقُ، والمرذولُ المنافقُ، أين أمُّك ثكَلَتْكَ أُمُّك، أو ماعلمت أنّك إنّما سُحِبْتَ من عِقالك لعقَّالك،[7] وقدَّمتَ أوَّل قدمك لسفكِ دمك. . . ». [8]

ويذكِّره أنه لو كان في حضرته رجال ذوو حمية لما استطاع أن ينال من الإسلام

---

(1) ـ الاسترلوميقي: علم النجوم (انظر مفاتيح العلوم: ص ٨٠).

(2) ـ الغوطيقا: الشعر (انظر: أخبار العلماء: ص ٢٨).

(3) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧١١ ـ ٧١٢.

(4) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧١٢ ـ ٧١٣.

(5) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧١٣.

(6) ـ هو أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسي، قال عنه ابن بسام: «هو أحد من لقيته وشافهته، وأملى علي نظمه ونثره بالأشبونة، سنة سبع وسبعين) انظر ترجمته في: الذخيرة ق ٣ م ٢، ص ٧٠٣، المغرب: ج ٢، ص ٣٢٢).

(7) ـ العقال: الحبل الذي يعقل به البعير (اللسان: مادة عقل).

(8) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧١٥.

والمسلمين ولعاقبوه على ماتورط فيه لكنه «بَين هَمَجٍ[1] هامج، ورعاع[2] مائج، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء».[3]

ثم هو يلج باب النقاش والجدل حيث يعمد إلى تخريج كل ماعدّه ابن غَرْسِيةَ مفخرة لقومه على أنهَّا معايب ومثالب، فإن كان قد قال عن قومه أنهم: «الصهب الشهب» قال عنهم ابن الدَّوْدِين: «الصُّهبِ السِّبال[4]من ولغ الدم وشرُب الأبوال، أكلة الجيف، وحللة[5] الكنف[6]. . ». وإن كان قال عن قومه «جمحٌ طُمُحٌ»، [7] قال عنهم ابن الدَّوْدِين: «جمحٌ في الإحجام عن الإقدام، طلب الفرار يوم الانتصار، وإدراكِ الثأر، طُمُحٌ إلى كلِّ رموحٍ طموحٍ. . . ».[8]

ويعلّل ابن الدَّوْدِين مايذهب إليه من نقض صفاتهم ومفاخرهم، ويذكّر ابن غرسيه أنه فخر بما ليس هو حقيق بالفخر، متخذاً ذلك وسيلة لذمٍّ قومه والقدح بهم، فهو يتهمهم بالإباحية ومزاولة الرذيلة وعدم الغيرة على نسائهم، ويركّز على كثير من عادتهم الاجتماعية، يقول: هل يجوز في التحصيل، أو يضحُّ في العقول، أن يحمي فوملك سروح شأنهم، وقد أباحوا فروج نسائهم؟. أليس هذا عين المحال، ومغالطة الجُهَّال. . »[9].

ويردُّ عليه المعايب التي ألصقها بالعرب واحدة إثر أخرى، ويتهم قومه بها،

(١) ـ هَمَجٌ: الرعاع من الناس، وقيل هم الأخلاط (انظر: اللسان: مادة همج).

(٢) ـ رِعَاعٌ: رعاع الناس: غوغاءهم وسقاطهم وسفلتهم (انظر: اللسان: مادة رعع).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧١٥.

(٤) ـ السِّبَال: جمع سبلة، وهي ماعلى الشفة العليا من الشعر (اللسان؛ مادة سبل).

(٥) ـ حَلَلَةٌ: جمع حال بمعنى نازل في المكان (اللسان: مادة حلل).

(٦) ـ الكنف: جمع كنيف، وهي الحظائر التي تصنع للأبل (اللسان: مادة كنف).

(٧) ـ يقال جُمُحٌ وطُمُحٌ إذا أسرع ولم يرد وجهه شيء (اللسان: مادة جمح).

(٨) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧١٦.

(٩) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧١٦.

وإذا كان قد عير العرب بسوء المأكل والمشرب ردَّ عليه بأنه «لاافتخار في مَشْرَبٍ ولامطعمٍ ، لعرب ولا لعجم» . (١)

ومع أنَ ابن الدَّوْدِين قد أقر لهم معرفتهم بعلم الطبائع إلَّا أنه ينكر عليهم معرفتهم بعلم الشرائع ، كما أنَّه ينكر عليهم معرفتهم بأسباب الفروسية والشجاعة والحرب، بل هي من علم العرب الذين مجالسهم «السرُّوج، وريحانهم الوشيج ، وموسيقاهم رنَّات الرُّدَيْنِيَّات (٢) وطوُبيقاتهم (٣) نغمات السُّرَيجيَّات(٤)»(٥).

ويسخر منهم ابن الدَّوْدِين لأنهم يؤمنون بدين بعيد عن المعقول، ويتمسكون بآراء ضعيفة وبمبادىء زائفة لايقبلها ذوو العقول، ويشير إلى تحريفهم الإنجيل، واعتقادهم أن عيسى هو الله ، وإيمانهم بصلبه بأيدي اليهود، يقول : «ولم يزالوا يتعاورون أصلهم الإنجيل بالزيادة والنقصان، إلى أن أصاروه في حَيِّز الهذيان. وحسبك بهم جهلاً أنهَّم يعتقدون إلهاً بنبيِّهم، فوسموه بالربِّ المعبود، وصيِّروه بعد مصلوب اليهود . . . » . (٦)

وممن ردَّ أيضاً على ابن غَرْسِيةَ ، وأجاد ماأراد أبو الطيب عبد المنعم القروي ، (٧) برسالة أثبت ابن بسَّام أكثر فصولها على طولها لاشتمالها على المآثر العربية والمفاخر الإسلامية . والذي زاد رسالة القروي قيمة فاقت بها ماوصلنامن الردود الأخرى نفاذ

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢ ، ص ٧١٩.

(٢) ـ الردينية : جمع ردينة ، ويقال ردينة اسم امرأة، والرماح الردينية منسوبة إليها (اللسان : مادة ردن).

(٣) ـ طوبيقاتهم : طوبيقا تعني العبارة، (اللسان : مادة طبق).

(٤) ـ السريجيات : تصغير سروج، والسرج : رحل الدابة (اللسان : مادة سرج).

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢ ، ص ٧٢١.

(٦) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧١٩ ـ ٧٢٠.

(٧) ـ هو عبد المنعم بن من الله القروي، دخل الأندلس، وحدث في شرقيها عن ابن البر الصقلي، وكان أديباً شاعراً، توفي سنة ٤٩٣ هـ (انظر ترجمته في : الصلة : ج ١، ص ٣٩٢، ألف باء : ص ٣٥١).

مؤلفها إلى معان دقيقة لم يتنبّه إليها غيره، وتبحره في معرفة أحوال العرب وأشعارهم وأخبارهم. ومن المعاني الدقيقة التي نفذ إليها أن ذكَّر ابن غَرْسِيةَ في مطلع رسالته فضل العرب عليه حيث ربته وليداً، وعنيت بتخريجه، وحسنت من ثقافته، ولـولاها لما تعلَّم هذه اللغة التي يتطاول بها عليها، وينال بها منها، يقول له: «فأخبرني عنك، أمـا كانت للعـرب يد تشكـرهـا، ومِنَّـةٌ تذكرها؟ أما جبرَتْ نقيصتك، أما رفعت خسيستك؟ أما استنهضتك من وهدتك[١]... ألم تُربِّك فينا وليداً، ألم تتّخذك لها تليداً؟ ألم تُعْنَ بتخريجك؟ أما أنطقتك بعد العجمة، أما اسلقتك[٢] عقب اللُّكنة؟ حتَّى إذا اشتدَّ كاهلك وعلم جاهلك، وقوي ساعدك ورقي صاعدك، كفرت نعمتها لديك... وأخذت تطاولها بأرسانها، وتقاولها بلسانها، وتناضلها بسهامها وتهاطلها برهامها[٣]...».[٤]

ثم هو ينفذ أيضاً إلى معانٍ دقيقة أخرى، فيذهب إلى القول بأنه «ليس للسَّخاء بالرُّومية اسمٌ، ولا للوفاء في العجميَّة رَسمٌ».[٥]

ثم هو يفخر بالمآثر العربية الإسلامية، فيبتكر في ذلك صفات مزدوجة لهم، حيث يقـول: أين أنت عن السُّمـر القُمر[٦]، البيض غُرَرَاً[٧] وصِفَاحاً،[٨] السُّود طُرَزاً،[٩] وأوضاحاً...».[١٠]

(١) ـ وهدتك: الوهدة: الهوة، تكون في الأرض (اللسان: مادة وهد).

(٢) ـ أسلقتك: جعلتك ذا سليقة (اللسان: مادة سلق).

(٣) ـ الرِّهَامُ: جمع رهمة وهي المطرة تكون أشد من الديمة (اللسان: مادة رهم).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٢٣ ـ ٧٢٤.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧٢٤.

(٦) ـ السُّمْرُ القُمْر: السمرة: منزلة بين البياض والسواد يكون ذلك في ألوان الناس والإبل، والقُمْرَةُ: لون إلى الخضرة (اللسان: مادتا سمر وقمر).

(٧) ـ الغرر: من الغرة: بياض الوجه (اللسان: مادة غرر).

(٨) ـ الصِّفاحُ: جمع صفحة، وصفحة الرجل: عرض وجهه (اللسان: مادة صفح).

(٩) ـ الطرز: البز والهيئة (اللسان: مادة طرز).

(١٠)ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٢٤.

ويذكِّره بماضي فتوحات المسلمين وانتصاراتهم على القياصرة والأكاسرة، ومـاينعمـون به من قوة وبـأس، يقول: «سَعِّروا عليكم نار الحرب، بتلك الأنيقِ الجُـرْبِ، فكسروا أكـاسرتكم، وقصروا قياصرتكم، فسفكـوا دمـاءهم، وأبـاحوا أحمـاءهم، وأخمـدوا نار صولتهم، ومحوا آثار دولتهم، وطهَّروا الأرض المقدسةَ من أنجاسِكُم، والمسجد الأقصى من أرجاسِكُم. . .». [1]

وقد نهج القروي نهج ابن الدودين في ردِّ تلك الصفات التي زعمها ابن غرسية لقومه: «فإن قال عنهم: «مُلُسٌّ» [2] قال: «وأنتم كما وصفت مُلُسٌ لُمسٌ، لاتُغيرون ولاتغارون، ولاتمنعون ولاتَمَنَّعون. . .». [3]

ثم هو يوجِّه إلى قوم ابن غَرْسِيةَ الأعاجم نقداً لاذعاً مركِّزاً في ذمِّهم على عدم الغيرة وفساد الأخلاق، وانتشار الرذيلة والإباحية الجنسية، وما إلى ذلك من القيم والعـادات الاجتـماعية المنتشرة في المجتمـع الأعجمي، يقـول: «ومن الآيات ذكر صواحب الـرايات، والمُبَاضَعَةُ[4] عندكم كالمراضعة مافي الشَّكر [5] عندكم نُكر، تُبيحـون وُلُـوج العلوج، على بدور الحُدُوج، [6] الزّنا عندكم سَناً، والفجار بينكم فخار، تقتادونهن وتستأدونهن [7]. . . .». [8]

ويتفوَّق القروي على سابقيه في شدة البحث والاستقصاء في جوانب مختلفة من العلم والمعرفة، حتى ليربى عن الغاية، كما يشهد له بالتمكن وسعة الاطلاع، فها هو يفاخر بمعرفة العرب للخيل وأنسابها وأصولها، وتعلقهم بها دون سائر الأمم،

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٢٤ ـ ٧٢٥.

(٢) ـ مُلُسٌ لُمُسٌ: يريد أنهم لينوا الملمس (اللسان: مادتا لمس وملمس).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٢٥.

(٤) ـ المُبَاضَعَةُ: الجماع (اللسان: مادة بضع).

(٥) ـ الشَّكْر: فرج المرأة، وفي الحديث: نهى عن شكر البغي أي وطئها (اللسان: مادة شكر).

(٦) ـ الحُدُوجُ: جمع حدج: وهو من مراكب النساء، يشبه المحفة (اللسان: مادة حدج).

(٧) ـ السأد: المشي (اللسان: مادة سأد).

(٨) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٢٦.

ولاسيما أنَّها رمز للفروسية والشجاعة، يقول: «الخيلُ حَرثُ العرب وحَصادُها، وعُدَّتُها وأرصادُها، ليست أمة من سائر الأمم الأعجمية تُنَازِعُها ذلك، ولا تُدافِعُها عنه، تسمّيها بأسمائها، وتنسبها إلى آبائها، وتعرفها بأصواتها. . .».[1]

ويفخر بأن للعرب اليد الطولى في معرفة علم الهيئة، ومعرفة الشهور والأيام، وحساب الدهور والأعوام،[2] هذا إلى جانب معرفتهم للطب وفضلهم فيه، حيث «جمعته العرب في كلمتين معلومتين، ولفظتين محفوظتين، على رأيها في الاقتصار، ومذهبها في الاختصار، فقالت: (المعدةُ بيتُ الداء، والحميةُ رأسُ الدواء). . .».[3]

ومع تقدّم القروي في الردّ، إلاّ أنّه يخفق عندما يتحدث عن العلوم التي افتخر بها ابن غَرْسِيَةَ، حيث يقول: «وفخرت بالرياضّة والأريضيّة، صَدَقْت ونُبْتَ عنيّ في الجواب، هي كالرياض سريعةَ الذبول، كثيرة الخبول. . . وأمّا الاسترلوميقا وهو علم الهندسة، فعلم عمليٌّ مبنيٌّ على التقاسيم والتراسيم، وكلّه آلات للحالات، وأدوات للذَّوات، ومساحات للساحات». ويرى أنَّ أصحاب هذا العلم «هم عُمَّال ممتهنون، وبأشكالها مرتهنون، والعرب بعيدة عن المهنة. . .»[4].

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٣١.

(٢) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧٣٦ ـ ٧٣٧.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧٣٨.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧٣٥ ـ ٧٣٦.

رسائل النقد الأدبي

لقد شارك أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري في التعبير عن حركة النقد الأدبي التي كانت دائرة في الأندلس آنذاك، فوضح كثيراً من آراء الأندلسيين في الشِّعر والشُّعراء والنثر والكُتّاب، وبين مواقفهم من شعراء المشارقة وكُتّابهم وأساليبهم.

وفي مقدِّمة هذه الرسائل «رسالة التوابع والزوابع» التي تعدُّ قصة خيالية[1] يحكي فيها ابن شُهَيْدٍ رحلة قام بها إلى عالم الجن برفقة تابع له، وقد التقى خلالها بتوابع الشُّعراء والكُتَّاب، فساجلهم وساجلوه، وناقشهم وناقشوه، وعرض عليهم أثناء ذلك بعض آرائه في الأدب واللغة وكثيراً من إنتاجه الشعري والنثري، فنال إجازتهم بالتفوق، وانتزع إعجابهم، وقد بثَّ فيها إلى جانب ذلك طرفاً من السخرية والفكاهة.[2]

لقد قام ابن شُهَيْدٍ في المشهد الأول من رسالته بزيارة إلى أرض الشعراء مع أنه يرغب في لقاء الكُتَّاب الذين يسميهم بالخطباء، لأنه يرى أنهم أَوْلى بالتقديم من

---

(١) ـ انظر: الأدب المقارن: ص ٢٢٨، الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه: ص ٦٤١، الأدب الأندلسي: ص ٣٧٧.

(٢) ـ لقد أثارت هذه الرسالة تساؤلات جمهرة الباحثين المحدثين، فاختلفوا حول نشأتها والأصول التي اعتمد عليها الكاتب، ووجه التأثر والتأثير فيها، إلى جانب شخصية من أرسلت إليه، انظر في ذلك: النثر الفني: ج ١، ص ٣٢٠، الأدب الأندلسي: ص ٣٧٧ ـ ٣٨٤، تاريخ الشعوب الإسلامية: ص ١٧١، بلاغة العرب: ص ٤٨، نقاط التطور في الأدب العربي: ص ٣٣٠ ـ ٣٣١، الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه: ص ٦٧٩ ـ ٦٨٢.

الشعراء، ولكنه إلى الشُّعراء أشوق. وهذا يدلُّ على موقف نقدي لابن شُهَيْدٍ، فهو يقدِّم الكُتَّاب على الشُّعراء، يقول على لسان تابعه: «فقال لي: حللت أرض الجِنِّ أبا عامر، فبِمَنْ تُريد أن نبدأ؟ قلت: الخُطباء أوْلى بالتقديم لَكِنيّ إلى الشُّعراء أشْوق...». [1]

وفي أرض الشعراء يلتقي ابن شهيد بعدد من الشعراء الذين يعدُّهم أنداداً له، معتمداً في ذلك على التدرُّج التاريخي، فيلتقي بالجاهليين فالإسلاميين ثم المحدثين، وهو في هذه اللقاءات يساجلهم ويعارضهم ويذاكرهم، وينتزع منهم إجازات التفوق والإعجاب. فهذا تابع أبي تمام يقول له: «وماأنتَ إلاَّ مُحسنٌ على إساءة زمانك»، [2] وهذا تابع أبي نواس يقول عن نصوص شعره التي قرأها عليه: «هذا واللهِ شيءٌ لم نلهمه نحن» [3] وهذا تابع أبي الطيب يشهد له بالعبقرية، حيث يقول: «إن امتدَّ به طَلَقُ [4] العُمُر، فلا بُدَّ أن ينفث بدُرَر، وما أُرَاهُ إلاَّ سَيُحْتَضَر، بين قريحة كالجمر، وهمّةٍ تضع أخمصه على مفرق البدر...». [5]

وينتقل ابن شُهَيْدٍ بعد ذلك إلى المشهد الثاني إلى أرض الكُتَّاب، فيلتقي مع عدد من توابعهم الذين اجتمعوا في مَرْج مجلس أدبي للحكم على كلام اختلف فيه فتيان الجنّ. ولابُدَّ أن نشير هنا إلى أن ابن شهيد قد جعل للكُتَّاب تابعين لأول مرة أسوة بالشعراء. [6] وهو يلتقي هناك بعدد من توابع أعلام النثر العربي المشرقي، يتصدرهم الجاحظ وعبد الحميد الكاتب، فيناقشهم وينتزع منهم إجازات التفوق

---

(١) ـ التوابع والزوابع: ص ٩١.

(٢) ـ التوابع والزوابع: ص ١٠١.

(٣) ـ التوابع والزوابع: ص ١١١.

(٤) ـ الطلق: الغاية التي يجري إليها الفرس (اللسان: مادة طلق).

(٥) ـ التوابع والزوابع: ص ١١٤.

(٦) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ١١٥ ـ ١٣٢، النثر الفني في القرن الرابع الهجري: ص ٣٢٢.

والاعتراف بالفضل وهو في ذلك يستغل الفرصة لإثارة قضية نقدية تتعلق بفنه النثري وهي احتفاله بالسجع، حيث يقول على لسان صاحب الجاحظ: «إنَّك لخطيب، وحائك للكلام، مجيد، لولا أنَّك مُغْرىً بالسَّجع، فكلامك نظم لانثر. . .»،[1] وقد دفع عن نفسه هذه التُّهمة وبين أنه يجاري ذوق أهل عصره، ويخاطبهم بما يشهدون له فيه بالتقدم مع أنه على علم بأصول البيان وأسبابه، حيث يقول: «ليس هذا، أعزَّك الله، مِنيّ جَهْلاً بأمر السَّجع، ومافي المماثلة[2] والمقابلة[3] من فضل، ولكنيّ عدمت ببلدي فرسان الكلام، ودُهيت بغباوة أهل الزّمان، وبالحرا[4] أن أحرِّكهم بالازدواج، ولو فرشت للكلام فيهم طولقاً[5] . . .».[6]

ولما كان كلامهم «ليس لسيبويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سِمَــةٌ، إنَّــما هي لُكْنَــةٌ أعْجَمِيَّةٌ يُؤدُّون بها المعــاني تأدية المجوس والنَّبط. . .»[7] أجاز له صاحب الجاحظ أن يرميهم «بسجع الكُهَّان، فعسى أن ينفعك عندهم، ويُطيرَ لك ذِكْراً فيهم.»[8].

وهــو هنا يجد مجالاً واسعاً للسخرية من أعدائه وحسَّاده الذين انتقصوا أدبه

---

(١) ـ التوابع والزوابع: ص ١١٦.

(٢) ـ المماثلة: هي أن تكون ألفاظ الفواصل والقرائن في الكلام المنثور متفقة في الوزن لا في التقفية (انظر: التبيان في علم البيان: ص ١٧٠ ـ ١٧٢).

(٣) ـ المقابلة: هي مجموعة المعاني المتوافقة يؤتى بعدها بما يقابلها على الترتيب، وقد عدها بعضهم نوعاً من الطباق بين الجمل والعبارات، وليس بين الألفاظ والمفردات (انظر: العمدة: ج ٢، ص ١٥ ـ ١٩).

(٤) ـ بالحَرَا: يقال بالحَرَا أن يكون ذلك، أي بالخليق (اللسان: مادة حري).

(٥) ـ الطَّوْلَقُ: النبات.

(٦) ـ التوابع والزوابع: ص ١١٦.

(٧) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١١٧.

(٨) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١١٧.

وبلاغته، فيذكر عدداً منهم، وينص على أحدهم بصراحة وهو ابن الإفليلي[1] الذي يسمي صاحبه بأنف الناقة، وقد أدار معه حواراً نقدياً حول قضية الإبداع الأدبي. ويسخر من ابن الإفليلي الذي يزعم أنه أبو البيان «وأنَّه تلقَّى البيان عن المؤدبين (لقد علّمنيه المؤدِّبون. قلت: ليس هو من شأنهم، إنّما هو من تعليم الله تعالى حيث قال: الرَّحْمٰنُ عَلَّم القُرآن، خَلَقَ الإنسانَ عَلَّمَهُ البيان». [2]

فهو يرى أن الموهبة هي أساس الإبداع الأدبي، لذا فهو يجعل الثقافة في مرتبة تالية لها.

ويقف ابن شُهَيْدٍ في محاورته مع صاحب ابن الإفليلي عند قضية الجمال الفني في العمل الأدبي، ويجعل معياره قدرة الأديب على حسن الصياغة وبراعة التعبير عن الغرض المقصود، ويستعبد الصدق من معياره، يقول: إن مقياس الجودة هو أن «تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسِّنَهُ». [3]

وهو أثناء محاورته هذه يعرض على ابن الإفليلي عدداً من روائع رسائله الأدبية التي تشهد بفضله وبلاغته كرسالته في وصف برغوث، ورسالة في وصف ثعلب. [4] وقد انفضَّ مجلس الكُتَّاب، وقد أقروا له بأنه شاعر كاتب، حيث يقول: «فقالا: اذهب فإنَّك شاعر خطيب. وانفضَّ الجمع والأبصار إليَّ ناظرة، والأعناق نحوي ماثلة». [5]

ثم ينتقل ابن شهيد إلى المشهد الثالث حيث يحضر وصاحبه مجلساً من مجالس الجنِّ الأدبية، فتذاكر «ماتعاورته الشُّعراء من المعاني». [6]

---

(١) ـ هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد المعروف بابن الإفليلي، قال عنه ابن حيان: إنَّه بزَّ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة، وكان غيوراً على مايحمل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ١٤٩، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٨١.

(٢) ـ التوابع والزوابع: ص ١٢٥.

(٣) ـ التوابع والزوابع: ص ١٢٥.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١٣١.

(٦) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١٣٢.

ويرى ابن شهيد اتِّباع المعنى أمراً جائزاً، وأن الشعراء في ذلك نوعان: من يأخذ ويزيد فهو محسن، ومن يأخذ ويقصر فهو مسيء.(١)

ولـذلـك فإنـه يضـع شرطاً للأخذ واتِّباع المعنى، حيث يقول على لسان شيخ من الجنِّ يعلم ابنـه صناعة الشعر: «إذا اعتمدت معنىً قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه، وأرقَّ حاشيته فاضرب عنه جملةً. وإن لم يكن بُدٌّ ففي غير العروض التي تقدَّم إليها ذلك المحسن، لتنشط طبيعتك، وتقوى مِنَّتك.(٢)».(٣)

ويدعم ابن شهيد أثناء ذلك آراءه بشعره ونثره، ويظهر للباحث أنه قد أراد أن يدافع هنا عن آرائه بمعارضة فحول الشعراء. ومهما يكن من أمر، فقد جاءت رسالة التوابع والزوابع معرضاً يوضِّح ابن شُهَيْدٍ من خلال صورة عامة للأدب والأدباء في عصره، ومظهراً من مظاهر نبوغ ابن شهيد وقدرته على التصرُّف في فنون القول، إلى جانب عرضه لكثير من القضايا النقدية التي كانت تشغل الأندلسيين في عصره.

وهناك رسالتان نقديتان، كتب إحداهما أبو محمد بن القاسم، وكتب الثانية أبو عبد الله بن أبي الخصال.(٤) وقد جاءت الرسالة الثانية رداً على الرسالة الأولى ومناقشة لها ومناقضة.

وقد افتتح أبو محمد بن القاسم رسالته بمقدمة تدلُّ على أنَّه قد وضعها بطلب من أحد الأدباء للمفاضلة بين الصابي وبديع الزمان،(٥) وقبل أن يعقد الموازنة بينهما أعـطى صورة منصفة للكاتبين الكبيرين البليغين، يقول: «البديع والصابي - أعَزَّك الله - فيما يتجاذبانه من أهداب البيان فرسا رهانٍ، جريا منه إلى مدى فأدركاه، وتناولاه عن عفوٍ فملكـاه.. وكلاهما يغرف من بحرٍ ويقذف في بحرٍ»(٦).. ثم هو يتحدَّث

(١) - المصدر السابق نفسه: ص ١٣٢.

(٢) - المنة: القوى (اللسان: مادة منن).

(٣) - التوابع والزوابع: ص ١٣٥.

(٤) - سبقت ترجمتها.

(٥) - سبقت ترجمتها أيضاً.

(٦) - رسائل إخوانية أندلسية: ورقة ٣٩.

بإيجاز عن إنتاج كلٍّ منهما، ومايمتاز به أحدهما عن الآخر، ويجعل إصابة الغرض المقصود أساساً نقدياً للموازنة بينهما، يقول: «هذا يبلغ شأوه عفواً، وذاك يجهدُ إليه عدواً. . . فالبـديع إذا وقع أبدع، والصابي إذا صاب أصاب، بيدَ أنَّ البديع إذا وَصَفَ رَصَفَ،[1] والصابي إذا رام مرامه دلف إليه ورسف[2]». [3] فالبديع في رأيه يصل إلى غرضه المقصود بسهولة ويسر وعفو خاطر، أمَّا الصابي فيرهق نفسه ويكد ذهنه.

ثم هو يعود إلى توسيع فكرة الموازنة بينهما فيجعلها تقوم على مرتكز أكبر وهو طريقة التأليف. ويؤثر هنا طريقة البديع ويميل إليها، إذ أن كلام البديع مطبوع محكم التأليف، وكلام الصابي متكلف مصنوع، يقول: «وإنّ أحقَّهما عندي بالتقديم وأحْذقهما بِفَريْ الأديم[4] من سلمت مباني كلامه عن التكلُّف، وكرمت معاني نظامه عن التعجرف، والأعدل في الحكم عن الإقرار بالفضل لأبي الفضل[5] في سجاحة[6] الطبع، ورجاحة الوضع، ولأبي إسحق[7] في قوة أسر[8] الكلام وشدة النزع». [9]

ويلاحظ الباحث أن أبا محمد بن القاسم يأتي بالعلل والأسباب التي أوجبت تفضيل البديع على الصابي. وهو على الرغم من ميله لطريقة البديع إلا أنه لم يفتأ يعدل بينهما، وينصف الصابي، يقول: «لاجَرَمَ أنهما فارسا الحلبة بالاجتماع، وإماما القوم في حُسن الاختراع، فإليهما منتهى الحدّ، وعليهما تُثْنَى الخناصر في القدّ». [10]

---

(١) ـ الرصف ضم الشيء بعضه إلى بعض ونظمه (اللسان: مادة رصف).

(٢) ـ رسف: الرسف: مشيء المقيد (اللسان: مادة رسف).

(٣) ـ رسائل إخوانية أندلسية: ورقة ٣٩.

(٤) ـ فرى الأديم يفريه فريا: إذا خرزه وأصلحه (اللسان: مادة فرا).

(٥) ـ أبو الفضل: كنية بديع الزمان.

(٦) ـ أبو اسحق: كنية الصابي.

(٧) ـ سجاحة: يقال خلق سجح: أي لين سهل (اللسان: مادة سجح).

(٨) ـ أسر: يقال أسر فلان الكلام، أي أحسنه (اللسان: مادة أسر).

(٩) ـ رسائل إخوانية أندلسية: ورقة ٣٩.

(١٠) ـ المصدر السابق نفسه: ورقة ٣٩.

لقد أثارت هذه الرسالة حفيظة ابن أبي الخصال الذي كان من أنصار الصابي. فعندما اطلع على هذه الرسالة رأى أن حكم أبي محمد بن القاسم أطلق اطلاقاً عاماً مما أوقعه في خطأ فاحش في الموازنة بينهما، وقد دفعت الحماسة ابن أبي الخصال إلى الرد عليه برسالة احتجاجية طويلة قدم فيها الصابي على البديع مدعماً رأيه بالعلل والأسباب التي أوجبت التفضيل.

وقد افتتح ابن أبي الخصال رسالته بمقدمة طويلة يفصح فيها عن مقصده وقضيته التي يود مناقشتها، ويخلص إلى القول بأنه «لايخلو أمراء الكلام من أتباع يَمْشون على مَدْرَجِهم، ويقومون بحججهم، ويحمون حماهم ويرمون من رماهم...».[1] ويخبره بأمر رسالته، وأنه قد اطلع على ماكتبه. ويثني على أسلوبه، إلا أنه يعتب عليه أن حمل على الصابي، ويبين صدى ذلك في نفوس أتباعه، حيث ملأ هذا الأمر صدورهم أوصاباً[2] فهم بين جموع منفضَّة[3]، ودموع مُرْفضة،[4] ونواظر كليلة، وخواطر فليلة[5]...».[6]

ثم هو يرى أن الحكم الذي أطلقه في تفضيل البديع كان من باب التسرع وقلة التروي مما أوقعه في خطأ فاحش، ولهذا فإن ابن أبي الخصال يرفض المفاضلة بينهما، ويرى أن إمكانية النظر في أيهما أجود غير ممكنة التحقق لأن «الموازنة كالمبارزة، إنما تكون بالوفاء ومقارعة الأكفاء بالأكفاء... وأبو الفضل وإن كان قد سمي بديعاً ولأخلاق البلاغة رضيعاً، لايُقاس بأبي إسحق رأساً، ولايجعل له سُلّماً، ولابأساً... لأنهما وإن جمعهما أصل اللسان... كالثريا وسهيلٍ لايلتقيان».[7]

(١) - ترسل: ورقة ٢٨ - ٢٩.

(٢) - أوصاب: جمع وصب: وهو الوجع والمرض (اللسان: مادة وصب).

(٣) - منفضة: متفرقة (اللسان: مادة فضض).

(٤) - مرفضة: : يقال أرفض الدمع ارفضاضاً، سال وتفرق وتتابع سيلانه وقطرانه (اللسان: مادة رفض).

(٥) - فليلة: مكسورة (اللسان: مادة فلل).

(٦) - ترسل الكاتب الفقيه: ص ٢٩.

(٧) - المصدر السابق نفسه: ص ٢٩.

ويظهر للباحث أن ابن أبي الخصال قد آثر الصابي على البديع من مقدمة رسالته، وقبل أن يأتي بالعلل والأسباب التي أوجبت هذا التفضيل. وفي مقدمتها انقياد الكلام له، وطواعية المعاني لسن قلمه، وقدرته على الكتابة في موضوعات وأغراض مختلفة، يقول: «أبو إسحق معين القول مُقدم على الهول، يَصول صَوْلَ القرم[1] في الشَّول،[2] إن غضب حسبت الناس غِضاباً، ورأيت السهول وعوراً وهضاباً، أو رضي أعاد المشيب شباباً، وفتحت السماء أبوابها، وضربت النجوم قباباً... كُتُبُه تُغْني عن الكتائب، وتُقيم المجرم مقام العابد التائب، كم جيوشٍ فَلَّتْ وعزائم نفضت وحَلَّت، ورقاب كرقاب الأُسْدِ ذَلَّتْ».[3]

ومن تلك العلل أيضاً خدمته للخلافة الإسلامية وإخلاصه لها، وهي مهمة خطيرة وعظيمة، يقول: «وكيف تجارى أقلام أرضعت الخلافة الهاشمية بلبانها... ونطقت فأفحمت الناطقين بلسانها، وأخذت على الأيام بطرفي شمائلها وأيمانها...».[4]

ومن تلك الأسباب التي دفعته إلى تفضيل الصابي براعة نثره الذي يمتاز بالرقة والعذوبة فهو «الفستق المقشور، ووجه الحبيب يملأ عين مُحِبِّه، ويصوّرُ ويزيدُ في السَّبك أضعافاً وينصع، وتودُّ الثغور أنها بكلماته الغُرّ تَكْرَعُ[5] أو تُرَصَّعُ».[6]

وهو إلى جانب ذلك يجري في جوهر أسلوبه على طرائق العرب وأساليبهم في الكتابة الفنية وهو بعد على مهيع[7] العرب وأسلوبها الأبعد الأقرب.[8]

(١) ـ القرم: الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويودع للفحلة (اللسان: مادة قرم).

(٢) ـ الشول: الشول من النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها (اللسان: مادة شول).

(٣) ـ ترسل الفقيه الكاتب: ورقة ٢٩.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ورقة ٢٩.

(٥) ـ تَكْرَعُ: يقال كرع في الماء يكرع كروعاً وكرعاً: تناوله بفيه من موضعه (اللسان: مادة كرع).

(٦) ـ ترسل الفقيه الكاتب: ورقة ٢٩.

(٧) ـ مهيع: الطريق الواضح الواسع البين (اللسان: مادة هيع).

(٨) ـ ترسل الفقيه الكاتب: ورقة ٢٩.

ويخرج من ضرب الأمثلة، وذكر الحجج والأدلة على مايذهب إليه من تفضيل الصابي إلى تقويم أسلوب البديع وأدبه، ويجعله في المرتبة التالية للصابي، يقول: «لأبي الفضل فضل يُرعى، وهو بعد أبي إسحق مرعى . . . رَجُلٌ لطيف الحيلة، مُشَخِّص للأوهام المستحيلة.[1] إن أصاب فرصة قتل، وإن أخطأ ختل ومسح بالذرة والغارب وفتل.[2] ضيّق من الكلام ماتوسّع . . . وشعّب وفرع، واخترع من الأخاليق ما اخترع . . »[3].

ثم هو يسرف في الهجوم على أسلوب البديع وطريقته في الكتابة وتلاعبه بالألفاظ وموضوعاته التي طرقها. ويعود ابن أبي الخصال إلى نقض فكرة المفاضلة التي أقامها أبو محمد بن القاسم بين البديع والصابي إذ أنه لايجد مسوغاً للمقارنة بين كاتبين لم تجمع بينهما غاية واحدة أو ظروف متشابهة، ويحتج بمقارنات الجهابذة من المشارقة بين الكُتّاب والشعراء، وفي مقدمتهم الثعالبي الذي وازن بين الصابي والصاحب بن عبّاد، وقد مدح هذه الموازنة وأثنى عليها. واحتج أيضاً بموازنة الآمدي الذي عرف طريقه، ووازن بين أديبين تشابها في ظروف الحياة هما أبو تمام والبحتري.[4]

ويناقش ابن أبي الخصال أبا محمد بن القاسم في عدد من الأحكام النقدية والتعابير اللفظية التي وردت في رسالته. ومن ذلك تهمة التكلف والسجع في الأسلوب التي وجهها ابن القاسم إلى الصابي، فرد عليه هذه التهمة ورمى بها البديع، يقول: «وكيف يَتعسَّفُ أو يتكلَّفُ من يدعو الحكم فلا تتخلَّفُ، وتنقاد له البلاغة طوعاً وتتألف . . . وهل نفس التكلف إلا مادفع البديع إليه، وتبعناه معشر الضعفاء عليه، حين عدلنا عن المنهج، ودخلنا تحت الحرج، ولو شاء الله بناء يُسراً لوضع عنّا من هذه

---

(١) - أي يبتدع ويخترع أشياء وهمية.

(٢) - جاء في أمثال العرب «لم يزل يفتل في الذروة والغارب» وهو في المخادعة، أي مايزال يدور من وراء خديعته.

(٣) - ترسل الفقيه الكاتب: ورقة ٣٠.

(٤) - انظر: المصدر السابق نفسه: ورقة ٣٠.

المشقـة إصْراً. فالصـابي ينسِّقُ أعـلاقاً،[1] ونحن نُلَفِّقُ [2] أخلاقاً [3] . . . وعمدة إحساننا حين نعزم إنما هي لزوم مالا يلزم، ومقابلات يبدأ بها الكلام ويختم، يعثر فيهـا العلم، ولايكـاد يقيمهـا اللسـان والفم. فكـأننا نضارع[4] الدُّر بضريع،[5] ونحاسن بالهشيم خضرة الربيع. . .».[6]

ويظهر للباحث أن هذا القول يوضح رأي ابن أبي الخصال وموقفه من تقليد المشـارقـة، وترسم خطاهم، فهو يهاجم السجع والتكلف، وتقليد البديع في هذه الخاصية في وقت كان فيه الأندلسيون يتسابقون لتقليد المشـارقة في أساليبهم، هذا على الرغم من أن الكاتب نفسه سار في هذا الاتجاه الذي يهاجمه.

ومهما يكن من أمر فإن ابن أبي الخصال يخلص إلى وضع البديع في مرتبة تالية لمرتبة الصابي، حيث يقول: «وليس على أبي الفضل نقصٌ في كمالِهِ، لأنه إلّا يكنْ صاحبَ رضوان فهو تابعٌ بإحسانٍ»[7].

---

(١) ـ الأعلاق: جمع العلق وهو الثوب الكريم أو الترس (اللسان: مادة علق).

(٢) ـ نلفق: يقال لفقت الثوب ألفقته لفقاً، أي ضممت شقة إلى اخرى أخيطها (اللسان: مادة لفق).

(٣) ـ الأخلاق: جمع خلق أي بال (اللسان: مادة خلق).

(٤) ـ نضارع: نشبه، نجعله كأنه مثله (اللسان: مادة ضرع).

(٥) ـ الضريع: نبات أخضر منتن خفيف يرمي به البحر وله جوف.

(٦) ـ ترسل الفقيه الكاتب: ورقة ٣١.

(٧) ـ ترسل الفقيه الكاتب: ورقة ٣١.

رسائل الفكاهة

يقصد برسائل الفكاهة تلك الرسائل التي تعالج موضوعاً جَدياً بمنوال ساخر، وذلك بالمبالغة أو التَّهويل في التصوير والعرض.[1] وقد احتلَّ فن الفكاهة مكانة رفيعة في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فقد كان لتلك الرسائل والمقامات الهَزْلية والفكاهية التي ابتدعها عدد من كُتَّاب المشارقة من أمثال سهل بن هارون والجاحظ وبديع الزَّمان وغيرهم والتي انتقلت إلى الأندلس فيما بعد أثر كبير في ازدهار هذا الفن في الأندلس، حيث استقى الكُتَّاب الأندلسيون منها، وأصبحت طرائقهم في السخرية والفكاهة وخاصة طريقة الجاحظ مطلباً يحاولون بلوغه. ويقول صاحب المسهب في هذا المجال: «ولشُطَّار الأندلس من النوادر والتنكيتات، والتركيبات وأنواع المضحكات، ماتملأ الدَّواوين كثرته، وتضحك الثَّكلى وتُسلِّي المسلوب قصته، مما لو سمعه الجاحظ لم نعلم عنده ماحكى وما ركَّب، ولااستغرب أحد ما أورده ولاتعجَّب. . .».[2]

وتنـدرج رسائل الفكاهة في الأندلس في نوعين مترابطين: أولهما السخرية التهكمية، وهي تعدُّ أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاجه من ذكاء حاد وخفة ومكر وبراعة وقدرة على الحيلة والخيال، فهي توجَّه إلى شخص أو أمر ما لتحوله إلى أضحوكة من خلال ترصّد المثالب، ونفي المحاسن، وتصل إلى حد الإقذاع والهجاء، وهي بهذا تقوم على السخرية والتهكم والاستهزاء.

أمَّا النوع الثاني فهو السخرية الفكاهية، وهي أخفُّ ألوان الفكاهة، إذ تقوم

(١) ـ «فن السخرية في شعر الكُتَّاب» مجلة المورد (١٩٧٥)، م ٤ ع ٢، ص ٣٤.

(٢) ـ النفح: ج ٣، ص ١٥٦.

على وصف لشيء مضحك، كما هو في ذاته بقصد التسلية والترفيه، إنَّها سخرية بريئة قصدها التندر والإضحاك والتَّفكُّهُ.[1]

ولابدَّ من الإشارة هنا إلى أن هذا التقسيم لفن الفكاهة إنَّما هو بقصد الدراسة والتحليل، إذ أن وشائج القربى والعلاقة بين النوعين قوية جداً، فكلاهما يبعث على الضحك.

رسائل السخرية التهكمية:

تعدُّ رسالة ابن زيدون التي عرفت بالرسالة الَهزْلية أشهر رسالة أندلسية في موضوع السخرية التهكمية، وقد كتبها على لسان ولّادة بنت المستكفي إلى ابن عَبْدُوس[2] منافسه في حبِّها، ليسخر منه ويتهكم عليه، لأنه أوفد إليها امرأة تستميلها إليه، وترغبها بالاستجابة لرغبته، وهي تنبع من حقد شديد وغضب عنيف.

وقد افتتح ابن زيدون رسالته بتعداد نقائص ابن عَبْدُوس ومثالبه، فهو يرى أنه يدعي ماليس فيه من خصال الكمال والجمال، ويصب عليه جام غضبه، فينعته بالمساوىء والمقابح التي لاحصر لها، يقول: «أمَّا بعد أيُّهَا المُصابُ بعقله، المُورَّطُ بجهله، البَيِّنُ سقطه،[3] الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره،[4] الأعمى عن شمس نهاره... فإنَّ العُجْبَ أكْذَبُ، ومعرفة المرء نفسه أصوب».[5]

إنَّها سخرية جارفة، وتهكم مقذع، فهو يسلب منه كل محمدة ومكرمة مادية ومعنوية، ويصفه بضعف العقل، وتشويه الصورة وفساد الخلق. ثم هو لايلبث بعد

---

(١) ـ انظر: الفكاهة في مصر: ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) ـ هو أبو عامر بن عَبْدُوس، ولي الوزارة بقرطبة، وكان يدعي حفظ الشعر وقرضه توفي سنة ٤٨٢ هـ. (انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٣٢، رايات المبرزين: ص ٣٨، المسالك: ج ١٠، ص ٢٣١).

(٣) ـ السقط: مالايرضي (اللسان: مادة سقط).

(٤) ـ الاغترار. الغفلة (اللسان: مادة غتر).

(٥) ـ سرح العيون: ص ٣.

ذلك حتى يستعمل أسلوب التهويل والمبالغة في وصف علمه وخلقه لإثارة السخرية منه والتهكم عليه والانتقاص من قدره. ولقد استخدم ابن زيدون هذا الأسلوب مقتدياً بالجاحظ في رسالة التربيع والتدوير، لما في ذلك من نفس انفعالي طويل، ولما يوفّره من فرصة كبيرة لإظهار معارفه في الدين والشعر والأخبار والأمثال والفلسفة والطب والفلك والموسيقى والكتابة والمنطق واللغة والتاريخ.

ويلاحظ أن ابن زيدون يجعل السخرية هنا نابعة من نسبة هذه المعارف والعلوم المتباينة إلى شخصية ابن عَبْدُوس، فهو يصوِّره وقد اجتمعت فيه ضروب المقدرة والمعرفة والإحاطة والشمولية التي ليست بمقدور البشر، يقول: «لو شئت خرقت العادات، وخالفت المعهودات فأَحَلْتَ البِحَارَ عَذْبَةً، وأعدت السِّلَامَ[١] رَطْبَةً ونقلت غداً فصار أمْساً، وزدت في العناصر فكانت خَمْساً...»[٢].

ويتابع ابن زيدون سخريته من ابن عَبْدُوس، وتبلغ أقصاها في تصويره لجسم ابن عبدوس وحركاته، حيث رسم له صورة كاريكاتورية مضحكة، يقول «وَنَخَرْتَ[٣] وعَبَستْ[٤] وبَسَرْتَ[٥] فكفرت، وأبْدَأت وأعدت،... هجينُ القَذَال[٦] أرْعن[٧] السِّبـال، طويل العنق والعلاوة[٨]... سيِّء الجابة[٩] والسَّمعِ، بَغيضُ الهيئة،

(١) ـ السِّلام: الحجارة الرطبة، واحدتها سلمة (اللسان: مادة سلم).

(٢) ـ سرح العيون: ص ٥.

(٣) ـ نخرت: النخر صوت من الأنف، أكثر مايكون عند الغضب والانكار (اللسان: مادة نخر).

(٤) ـ عَبَسْتَ: تجهمت (اللسان: مادة عبس).

(٥) ـ بسَرْتَ: من البسر وهو القطوب (اللسان: مادة بسر).

(٦) ـ هَجينُ القَذَال: الهجين من الناس من في نسبه هجنة، أي قبح، والقذال جماع مؤخر الرأس (اللسان: مادتا هجن وقذل).

(٧) ـ أرْعَنُ السِّبال: الأرعن: الأحمق، والسِّبال: جمع سبلة، وهي شعر الشفة العليا، شبهت بسبل المطر لما فيها من التحدر، وخصت الرعونة بالسبال لأنها علامة الرجل (اللسان: مادتا رعن وسبل).

(٨) ـ العلاوة: الرأس مادام على العنق (اللسان: مادة علو).

(٩) ـ سَيّءُ الجابةِ: أي يسمع الشيء على غير حقيقته (أما من البله أو الطرش (اللسان: مادة ساء)

سخيف الذَّهاب والجيئة. . . كثير المعايب، مشهور المثالب، كلامك تمتمة،[1] وحديثك غمغمةٌ، وبيانك فهفهةٌ، وضحكك قهقهةٌ،[2] ومشيك هرولة[3]. . . ». [4]

ومهما يكن من أمر فإنَّها رسالة تنطق بالانفعال القوي والصَّريح المعبِّر عن سخط ابن زيدون وألمه من منافسه في حبّ ولّادة، ولهذا جاءت مثالاً في الهجاء المقذع الذي يفيض بألفاظ السباب والشتم.

ونجد مثالاً آخر للسخرية والتَّهكم في رسالة بعث بها أبو عبد الله بن مسعود إلى ابنه، إذ توجَّه إلى المغرب، وقد بلغه أنه خلع عذاره في البطالة والشرب. وقد أقام رسالته على تقريع ابنه وزجره والتهكم به على نحو ماتهكم ابن زيدون بابن عبدوس. ويرسم لابنه صورة كاريكاتورية ساخرة، ولعله يختلف عن ابن زيدون بإضافة الأسئلة المعجزة إلى رسالته، وهو يدرك استحالة الإجابة عنها ولكنه قصد من إيرادها أن يجعل من مسألة ابنه أضحوكة، فيسأله أن يصف له «جَنَّةَ إرَم،[5] والبُركان المُؤنِسَ[6]، وجزيرة الغنم،[7] وإيوان كسرى[8] وكفر تُوثى، [9] والهرمين

(١) ـ التَّمْتَمَةُ: من معايب النطق المعدودة ومعناها التردد في التاء وكذلك في الغَمْغَمَةُ من معايب النطق أيضاً.

(٢) ـ القَهْقَهَةُ: صفة الضحك الكثير، كأن الضاحك يقول: قه قه (اللسان: مادة قهقه).

(٣) ـ الهرولة: بين المشي والعدو (اللسان: مادة هرول).

(٤) ـ سرح العيون: ص ٧ ـ ٨.

(٥) ـ جنة إرم: إرم هو والد عاد الأولى (اللسان: مادة أرم).

(٦) ـ البُركَانُ المُؤنِسُ: لعله يقصد جزيرة البركان، وهو بركان عظيم يقع بالقرب من صقلية ولايعلم في العالم أشنع منظراً منه (انظر الروض المعطار: ص ٩٦).

(٧) ـ جزيرة الغنم: تقع في المحيط الأطلسي، ويذكر أن فيها من الغنم ما لايعد ولايحصى (انظر: الروض المعطار: ص ٦١).

(٨) ـ إيوان كسرى: يقع بالمدينة العتيقة من المدائن التي كان ينزلها ملوك بني ساسان (انظر: الروض المعطار: ص ٦٩ ـ ٧٠).

(٩) ـ كَفْر تُوثى: قرية من كور نصيبين من ديار ربيعة بالشام، وفيها حصن قديم (انظر: الروض المعطار: ص ٤٩٩).

والمنار، [1] وجبل اَلكام، [2]. . . والكهفَ الرَّقيم، [3] وحلقَ وادي الأشبونة [4]. . . » . [5]

ولابن شُهَيْدٍ رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهْزَال قصار طوال، برز فيها شأوه، وبقاها في الناس خالدة بعده، إلى جانب مايشيع في رسالة التوابع والزوابع، أو شجرة الفكاهة، كما كانت تسمَّى أحياناً.

ومن ذلك رسالة في السخرية بابن الإفليلي وإنتاجه الأدبي، فهو يقدمه لنا وقد أحاط بضروب من العلوم وأنواع من المعارف، وفي ذلك مدعاة للسخرية والاستهزاء به، «فكلُّ علمٍ يزعمه قبضُ يده، وكلُّ جِدّ وهَزْلٍ فإليه منسوب وعنه مأخوذ» [6].

ويرسم لنا شكله وحركته وصوته وجلسته في صورة ضاحكة تفيض بالسخرية والتهكم، حيث يقول: ليست مشيته مشية أديبٍ، ولا وجهه وجه أديبٍ، ولا جلسته جلسة عالمٍ، ولا أنفه أنف كاتبٍ، . . وحكوا أنَّه إذا مشى الخيزلى، وتقدّم قليلاً

---

(1) - الهرمين والمنار: اهرامات مصر، ومنارة الاسكندرية (اللسان: مادة هرم).

(2) - جبلُ اللكام: جاء في الروض المعطار أنه «ليس بمعمور الأرض أطول من جبل اللكام، فإن يبتدىء من بحر القلزم إلى نواحي الشام، فيسمى هناك جبل لبنان، ثم ينتهي إلى حمص ويجاوزها فيسمى هناك جبل بهراء وتنوح، ثم يمر إلى أن يجاوز اللاذقية، ويسمى هناك اللكام» ص ٥١٠.

(3) - الكهف والرقيم: الكهف موضع في الجبل الذي دخله أصحاب الكهف المذكورون في القرآن فراراً بدينهم، والرقيم: القرية التي كانت بإزاء الكهف وقيل هو الجبل الذي فيه الكهف (انظر: الروض المعطار: ص ٢٧١.

(4) - الأشبونة: مدينة بالأندلس من كور باجة (انظر: الروض المعطار: ص ٦١).

(5) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٥٠ - ٥٥١.

(6) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٤١.

ثم رجع القهقرى، والقصبة في يده، والخرج على عاتقه، أحذق الناس في إخراج لعبة اليهودي[1]. . . ». [2]

الرسائل الهَزْلية الفكاهية:

ومن طريف الرسائل الهَزْلية التي تجري بميدان الفكاهة، وتنخرط في سلك الدعابة، تلك الرسائل التي خاطب بها ابن عباس أبا المغيرة بن حزم، وقد أدارها حول رسول أرسله إليه، وفيها يقدِّم ابن عبَّاس صورة فنية فكاهية تفيض بالضحك والسخرية، وقد عمد فيها إلى تتبع صفات الرسول وميزاته في الأعضاء والألوان والصوت بصورة دقيقة بارعة، فهو ساكن العينين، تعلو أسنانه خضرة من بقية الطعام، وتعلو أنفه عقد، يمشي بتوجع ويرتدي ثوباً كبيراً، ويغطي رأسه بقلنسوة قديمة رثة، يقول: «أنْهى إليّ كتابَك رجلٌ طويل القامة، بعينيه ليانة، [3] وعلى أسنانه طُرامةٌ، [4] وفي شاشيَّته وضارة، [5] وفي منطِقِهِ لُكْنَةٌ صعبة، وعلى أنفه عقدة كالكبَّة، وفي أطواقه سعة، يخرج منكباه من أقطارها كأنَّها ثياب والِهٍ، أو شبارق [6] راهب تائهٍ، وفي مشيته تفجُّعٌ [7] قبيح كأنَّه عائم في يبس ٍ، وعليه غفارةٌ [8] شفَّافة شَبكيَّةٌ السِّيدارة [9] . . . ». [10]

---

(١) ـ يظهر من سياق النص أن المقصود بلعبة اليهودي أن أحد اليهودي كان يقوم بلعبة خيال الظل، ويأتي بحركات غريبة ينال عليها أجراً.

(٢) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٤٢،

(٣) ـ لِيَانَة: سكون (اللسان: مادة لين).

(٤) ـ طُرَامَةٌ خضرة تركب الأسنان أو بقية الطعام بينها (اللسان: مادة طرم).

(٥) ـ وضارةٌ: وساخة (اللسان: مادة وضر)،

(٦) ـ الشَّبارق: الثوب الرقيق أو المقطع (اللسان: مادة شبرق).

(٧) ـ التَّفَجُّعُ: التوجع (اللسان: مادة فجع).

(٨) ـ غفارة: كل ثوب يغطى به شيء (اللسان مادة عفر).

(٩) ـ السِّيْدَارة: القلنسوة بلا أصداغ (اللسان: مادة سدر).

(١٠) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٤٥.

ويمضي ابن عبّاس في تصويره الساخر بطريقة تبعث على الضحك والسرور، وتدل على قدرة كبيرة على التلوين الساخر الطروب.[1] وقد ردَّ عليه أبو المغيرة بن حزم برسالة لاتقل فكاهة ودعابة وهَزْلاً عن رسالته، وقد أدارها أيضاً على وصف الرسول. وهو يستغرب أن يكون الرسول على هذا النحو الذي وصفه به ابن عبَّاس فعهده «بجبينه كالصحيفة الصقيلة، وخدِّه كمرآة الغريبة، وعينيه كناظر صقرٍ طاوٍ على مَرْقبٍ وضفدع ينظر من خلال طُحْلُبٍ، وأنفه كغرار سيفٍ ليس الذي قلَّدتَه به . . .».[2]

ويستمر في رسـم صورة طريفة لطيفة ضاحكة يقصد من ورائها المداعبة وإثارة السرور.

وقد كان لابن شهيد في باب الفكاهة باع معروف كما ذكرنا سابقاً، ويشير إلى ذلك ابن حيّان بقوله: «كان في تنميق الهَزْلِ والنادرةِ الحارَّةِ أقدر منه على سائر ذلـك . .»[3]. ومن ذلك رسالة له في وصف الحلواء، قالها يسخر بها من فقيه أكول لقيه في المسجد الجامع، وقد جعلها في قالب قصصي، وهي تذكرنا بمقامة بديع الزَّمان التي تعرف بالمقامة البغدادية التي قالها في السخرية بفلاح منهوم، إلاَّ أن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد.[4]

لقد خرج ابن شهيد إلى السوق في لُمَّةٍ من أصحابه، وفيهم فقيه أكول، وعندما رأى الفقيه الحلوى استخفَّهُ الشره، واضطرب به الوله، وأسال من لعابه، فأخذ يدور حول ألوان الحلوى وصنوفها، ويصف كلَّ صنف منها وصفاً دقيقاً، وعندما همَّ أن يأخذ شيئاً منها، تصدَّى له الحلواني ومنعه بأن «أثبت في صدره العصا، فجلس القُرْفُصَاء، يُذْري الدُّمُوعَ، ويُبْدِي الخُشوعَ. .»[5] عندئذ أمر ابن شهيد

(١) ـ انظر بقية الرسالة في الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٤٦.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٦٤٨ ـ ٦٤٩.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ١٩٢.

(٤) ـ انظر: النثر الفني: ج ٢، ص ٣٨٣.

(٥) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٧١.

بابتياع أرطال منها. ويرسم ابن شهيد صورة مضحكة لذلك الفقيه الأكول وقد أقبل على التهام أصناف الحلوى التي ابتاعها له حيث «جعل يقطع ويبلع، ويدحو فاه ويدفع، وعيناه تَبِصّان،[1] كأنّهما جمرتان، . . . فلمّا التقم جملة جماهيرها، وأتى على مآخيرها. . . تجشّأ فهَبّت منه ريحٌ عقيم».[2]

وقد نحى ابن بُرْد الأصغر برسائل السخرية الفكاهية منحىً جديداً في الأندلس، من حيث الموضوع والشكل. فقد كتب رسالتين يسخر فيهما من البخل والبخلاء، وقد أقام إحداهما وهي رسالة البديعة في تفضيل أهب الشاء على مايفترش من الوطاء، على أسلوب الجدل والحوار. أمّا الثانية وهي رسالة النخلة فقد أقامها على الأسلوب القصصي.

ففي الرسالة البديعة ردّ ابن بُرْدٍ على من عابوه باستعمال جلود الشاء واتّهمه بالبخل وألصق به ضروباً من النقائص والمثالب، وقد أقام معهم حواراً فكرياً يدافع فيه عن نفسه مارُمي به من عيب ومثلب. فهو يشرح هذه القضية ويبين أنّ استعماله لجلود الشاء ليس لبخل أو شحٍّ فيه، بل لبعد نظر حين رأى فيها فوائد ومنافع جَمَّة ومحاسن كثيرة غابت عن الناس. ويمكن القول بأن هذه الرسالة تحليل لنفسية رجل بخيل وسبر لأغوارها لنطلع على مجاهل مستترة لهذا الضعف الإنساني.

ويلاحظ أن ابن بُرْدٍ يبسط وجهة نظر الشخص المنافر له، حيث يعرض كل تهمة وجهها إليه أو نقيصة ألصقها به، فلقد اتّهمه بالبخل و «بارتخاص الأشياء ومقارعة الأقوام في الشراء، وقلت لم تؤثر ذلك إلّا للؤم الخليقة، والهمّة الدقيقة». كما اتّهمه بضعف العقل وفساد التفكير على غِرار المعلمين الذين هم أكثرُ الناس افتراشاً لها «وقد قيل إن العقل لايُرْضَى عندهم، فكيف تسلم في حسن الاختيار لهم، واختيار المرء قطعة من عقله، وعيار على نقصه أو فضله؟». ويتّهمه أيضاً

(١) ـ تَبِصّان: تلمعان (اللسان: مادة بص).

(٢) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٧٢. وانظر رسالة هزلية فكاهية لابن طاهر في وصف كاتب لأحد الأمراء، وفيها يرسم له صورة ساخرة في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٧٣.

بضعف الخلق وسوء السلوك لأنه لبس الصوف الذي هو «زيُّ رهبان البِيَعِ، وأرباب الخانات، وهم أضعفُ النَّاسِ أخلاقاً وأدناهم طينةً». [1]

ولم يدَّخر ابن برد وسعاً ولاجهداً في أن يدفع عن نفسه مارُمي به من عيبٍ ونقصٍ، فيفندها واحدة بعد الأخرى مدعمًا ذلك بالأدلة والبراهين، ومايحفظه من أقوال السابقين وأعمالهم. فإن كان قد اتُّهمه بالبخل والشح لاستعماله جلود الشاء ردَّ عليه بإيضاح فوائدها الكثيرة ومحاسنها الجمَّة لشخصه من جهة «وأيُّ بساطٍ مِنها أدلُّ على التَّواضع وأعرب عن القناعة، وأدفأ في السَّبرة، وألين في المسِّ».

ولطفله وأهل بيته من جهة ثانية «في التمهيد للطفل الصَّغير، واستعماله في أبي الخمير في سحرة الليلة القرَّة. . .». ولضيوفه من جهة ثالثة «وإن أدلج إليك ضيف يكرم عليك، لم يكن بحضوره لوقته عندك منفس تقيس به وتقرنه معه». [2]

كذلك ينفي عن نفسه ضعف العقل مبرراً استعمال المعلمين لها بسبب رجاحة عقولهم وثاقب نظرهم «المعلمون نظروا إلى ضعف سبب اكتسابهم وفكروا في تيسُّرِ ماتعود عليهم صناعتُهم، فأخذوا بالأقوى والأرفق، واعتمدوا على الأرخص والأوفق». [3]

ثم يدفع عن نفسه تهمة الضعف الخلقي وسوء السلوك، ذلك أن لبس الصوف ليس وقفاً على الرهبان وأهل الخانات بل هو «زيُّ النُسَّاك، ولباسُ المنقطعين للتعبُّدِ، وعمدةُ الطِّراز الأول من السلف». [4]

ويلاحظ الباحث أن الفكاهة في هذه الرسالة نابعة من إلباس الكاتب التافه من الأسباب ثوب الجدِّ والوقار بتصيّد العلل والتبريرات القاطعة، وذلك لتأييد آرائه

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٣٢ ـ ٥٣٥.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٥٣٣.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٥٣٤.

(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٣٤.

وأفكاره، ومن خلال هذه الشواهد والأمثلة التي يأتي بها. ومن ذلك أن استعمال جلد الشاة «لايحوجك إلى خيَّاطٍ يُنازلُكَ في السَّوْمِ، ويُخجلك أمام القوم، تنتح جبينك بعرق الاختلاف إليه، وذُلِّ التَّكْرارِ عليه، وهو يَبَحْبَحَ في دكانِهِ، واشتغل عن سوء مقامك باستطابة محادثة صبيانه...»[1].

ويبدو للباحث أن هذا المنحى من التفكير مرده إلى غريزة البخل الكامنة في النفس والتي يجتهد الكاتب في دفعها عن نفسه، ومن هنا يكون الموقف أكثر هَزْلاً، ذلك أنَّ محاولة التبرير هي أكثر إقناعاً. ومثال ذلك حين يدفع ضعف العقل عن المعلمين باستعمال جلود الشياه، يقول: «ثم علموا أنَّهم إن تحاملوا على أنفسهم، وافترشوا مايزينُهم، لم يلبث أحدهم أن يقوم عن مجلسه لبعض الأمر أو لقضاء الغرض، فتقوم حَرْبُ لعب الصبيان على ساقٍ، وتبلغ بتمزيق ذلك الذي افترشه وغالى فيه بالأيدي والأقدام، والترامي والازدحام مالا تبلغُ أنياب كلاب القنص في إهاب العقيرة...»[2].

وتبلغ الفكاهة والهَزْلُ في هذه الرسالة أشدَّها حين يحاول الكاتب إيجاد تبريرات وإسنادات لامجال للنقاش فيها، حيث ينقل عن السلف الصالح ورؤساء الحكمة أنه «لم يجعل الله عزَّ وجلَّ من هذا الجنس أقربَ قربان فدى به ابن خليله، وسمَّاه ذِبْحاً عظيمًا في تنزيله، إلَّا لسرٍّ من فَضْلِهِ سَبَقَ في عِلْمِهِ»[3].

إنَّ هذه الرسالة يمكن أن تكون على شاكلة تلك الرسائل التي تمدح الشيء وتذمه من وجهة نظر أدبية، وهي تذكِّرنا برسالة سهل بن هارون إلى أبناء عمِّه[4] التي يحتج فيها للبخل احتجاجاً قوياً، فهو يذمُّ الكرم ويزري به، ويمدح البخل ويثني عليه، ويعنى فيها ببسط الأدلة والبراهين، ويدلي بأقيسة وقضايا وآثار مروية.[5]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٣٣.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٥٣٤.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٥٣٣.

(٤) ـ انظر الرسالة في: البخلاء: ج ١، ص ٣٣.

(٥) ـ انظر: بلاغة الكتاب: ص ٢٦٣، النثر الفني: ص ١٦٦.

أمَّا رسالة النخلة فقد أدارها كما ذكرنا حول السخرية من البخل والبخلاء، وأراد من ورائها إظهار مدى اطِّلاعه وثقافته في إطار قصصي، حيث تحدَّث فيها عن صديق له وعده وأصحابه بشيء من طلع نخلته، ولمَّا حان وقت الطلع أقدم صاحب النخلة بليل بهيم وجزَّ طلعها، وعندما ظهر الرطب في السوق ورآه أصحابه كتب إليه ابن بُرْدٍ هذه الرسالة يذكِّره بوعده الذي سبق ويسخر منه وينعته بالبخل[1].

ولَّما كانَ غرض الرسالة التَّندر بالبخلاء وبغريزة البخل، فقد حفلت بقسط من الفكاهة في مثل قوله مخاطباً صاحب النخلة: «ولاتخشَ مِنَّا ما أفسد به ابنُ الزبير عمَّالَهُ حين قال لهم: (أكلتم تمري وعصيتم أمري)[2] إذا نحن أكلنا منها فمرنا نناصب عنك أعداءك برّاً وبحراً، ولانَعْصِ لك أمْراً»[3]. وأطرف من ذلك قوله عندما يسخر من قلة وفاء صاحب النخلة وقلة احترامه لأصدقائه وبخله الشديد في صورة من الوقار والجدية تبدو في الظاهر بعيدة عن الهَزْل والإضحاك، يقول: «فلعن الله الشيطان وأعاذنا منه، وصلَّى الله على محمد ولاصدَّنا عنه، فإنَّه يقول: «نِعْمَتِ العمَّةُ لكم النخلةُ»، والخطاب لجميع المسلمين. وأنت قد استوليت على عَمَّةٍ من عَمَّاتِهم، تستبدُّ بخيرها دونهم، وتُمْسِك معروفها عنهم، ونحن رجال من بني أخيها، أتينا نعتفيها،[4] فإن أنت سوَّيتنا مع نفسك فيما تَدُرُّ به عليك، وتملأ منه يديك، وإلاَّ نافرناك إلى السّلطانِ، وألَّبنا عليك أبناء الزمان».[5]

ولقد اتَّخذ ابن بُرْدٍ من هذا الموضوع وسيلة لإظهار ثقافته، حين تصيد الموقف ومضى مستطرداً يتحدَّث عن النخل وأسمائه وصفاته.[6]

---

(١) ـ يبدو أن ابن برد قد استوحى قضية هذه الرسالة من قصة عرقوب الذي يضرب به المثل في خلف الوعد، وقد استغل ابن برد قضية عرقوب ليتندر بصفة البخل وخلف الوعد معا (انظر: عيون الأخبار: ج ٣، ص ١٤٧).

(٢) ـ ذكر البلاذري أن مصعب بن الزبير قال ذلك لعامله على وادي القرى، ويقال أنه قالها لشيوخ من العراقيين وجههم إليه مصعب (انظر: الأنساب: ج ٥، ص ١٩٤).

(٣) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٣٠.

(٤) ـ العتوف: النتف (اللسان: مادة عتف).

(٥) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٣٠. (٦) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٣١.

الرَّسائل الوصفية

يعدُّ الوصف من أهم الموضوعات التي عالجها أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فلم يكن لوناً أدبياً مستقلاً فحسب، بل كان عماد أكثر موضوعات أدب الرسائل من سياسية واجتماعية وصراع مع الصليبيين، وشوق ديني. ولهذا لايعدو الباحث الحقيقة إن قال إن أدب الرسائل ـ إلاّ أقله ـ راجع إلى باب الوصف.

وسيقف الباحث في دراسته هذه عند بعض الرسائل المستقلة التي تعالج الوصف دون غيره، كرسائل وصف الطبيعة، والطرديات والرحلات. فلقد اشتهرت الأندلس بطبيعتها الساحرة، ومفاتنها المتعددة، وبساتينها الوارفة، وأنهارها الجارية، وحيواناتها الجميلة، وروعة قصورها، وسحر مناظرها.[1] وقد كان من أثر هذه الفضائل والمحاسن أن جذبت أنظار الكُتَّاب الأندلسيين، كما جذبت أنظار الشعراء أيضاً، فهاموا بها، وأقبلوا عليها في شغف شديد. يتغزَّلون فيها، ويتغنّون بمحاسنها، ويصوّرون فضائلها، ومفاتنها. فازدهرت لذلك رسائل وصف الطبيعة، ولم يكن مجال الطبيعة الأندلسية هو وحده الذي ساعد على ازدهار رسائل الوصف، بل كان لحياة الكُتَّاب الأندلسيين اللاهية التي عاشوها في أحضان الطبيعة أثر كبير في ازدهار هذا اللون من الرسائل، فوصفوا الطبيعة الأندلسية في جميع مباهجها ومظاهرها، برياضها ومنتزهاتها وأشجارها وأثمارها وأطيارها وأنهارها، وما يتّصل بذلك من نسيم ورياح ومطر،[2] كذلك فقد وصفوا رحلات الصيد وماكان يجري فيها من صيد

---

(١) ـ انظر: عجائب المخلوقات: ص ٣٧١، النفح: ج ١، ص ١٤٠، ١٩٨ ـ ٢٠٠.

(٢) ـ انظر: البديع: ص ٨ ـ ٩، ٢٢، الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٣ ـ ٥٥٤، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨، النفح: ج ١، ص ٥٣٤.

الحيوان والطير، وأدوات الصيد التي كانوا يستخدمونها، وكانوا يصفون سرورهم بالصيد، وماكانوا يحسون به من سعادة وسرور، (١) كذلك فقد وصفوا تلك الرحلات التي جابوا بها أنحاء الأندلس، وبيَّنوا ماكان يواجههم من مصاعب وأهوال، وماشاهدوه من عادات وتقاليد وسلوك، وما إلى ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية. (٢)

وصف الطبيعة:

إن نظرة شاملة للطبيعة الأندلسية، ووصف الكُتَّاب لها، تدفع الباحث إلى أن يقسّمها إلى البابين التاليين: وصف الطبيعة الصامتة، ووصف الطبيعة الصائتة.

وصف الطبيعة الصامتة:

لقد وصف الكُتَّاب الأندلسيون من طبيعتهم الصامتة الرَّبيعِيات والرَّوضِيَّات، والزَّهْرِيَّات والثَّمَرِيَّات، ووصف مطر بعد قحط، كما وصفوا الظواهر الطبيعية العامة كالليل والنهار والقمر والنجوم والرعد والبرق وما إليها:

الرَّبيعيات:

احتلَّ فصل الربيع منزلة رفيعة في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، حتى لقد ألّف أبو الوليد الحميري في ذلك كتاباً جمع فيه ماقاله الشعراء والكُتَّاب الأندلسيون في وصف الربيع ومظاهره، سَمَّاه «البديع في وصف الربيع».

وقد رسم الكُتَّاب الأندلسيون لوحات فنية رائعة كثيرة تصور مشاهد الربيع الجميلة، وتنطق بما فيه من سحر وجمال، ومن ذلك رسالة لأحد الكُتَّاب جاوب بها أبا عامر بن أبي عامر، وقد كتب إليه يسأله إباحة الخروج له إلى بعض ضياعه للتنزُّه في فصل الربيع، ويصف مشاهد الربيع الجميلة، ويجعل ذلك في إشراقة الأرض، ونضارة الرياض، وغناء الطيور، واختلاف ألوان الزهر، وأوراق الشجر، وما إلى ذلك من خضرة ساطعة وثمار يانعة، حيث يقول: «وأقْبَلَ الرَّبيعُ بكل حُسْنٍ بديع، وأفصحت الطير بعد عجمتها، وأبْدت النَّواوير غرائب زهرتها، وكستِ الورق

---

(١) - انظر: الخريدة: ج ٣، ص ٥٣٩ ج ٢، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٢٩ - ٤٤٣، الخريدة: ج ٢، ص ٣١٠.

شجرها، وغطت الزروعُ قدرها، فلست ترى إلّا خُضرةً تسطع، وثماراً تينع». [1]

ويتوقف عند أثر هذه المناظر الجميلة في نفوس الناس، فهي تروح عن النفس الصدأ، وتدفع عنها الحزن والأسى بما تبعثه من بهجة وسرور، يقول: «تجلو الصدى من الكبد الحَرَّى، وتزيحُ الأسى عن النُّفوس المرضى». [2]

ويصف عبد الوهاب بن حزم سحر الطبيعة الأندلسية في الربيع متمثلة في الأرض والأشجار والدنيا، وما يتصل بها من مظاهر الجمال التي تأتي مع الربيع، ويجعل ذلك لوناً من التعاطف بينه وبين الربيع ومايبعثه من حياة في الطبيعة، «فالأرض قد نشرت مُلاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها. . . وبرز الوردُ من كمامه، واهتزَّ الرَّوضُ لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزَّت رؤوسها. . .». [3]

لقد شخَّص الكاتبُ الطبيعة وبثَّ فيها الحركة والحياة، وخلع عليها المشاعر الإنسانية.

أمَّا ابن خفاجة فإنه يُعبِّرُ عن سمات الجمال في يوم من أيام الربيع البهيجة في صورة بديعة تمورُ بالحركة، وكأنّه حفل عرس، أو منتدى غناء، تشترك فيه كافة مظاهر الطبيعة، وهي بَيْنَ مطرب للسمع، ومبهج للنفس، وممتع للنظر، يقول: «هذا يوم ضُرِبَتْ فيه أروقه الأنواء، وأعرست الأرض فيه بالسّماء، فالغُصن يتلوّى ويتثنّى، والحمامةُ تُرجِّع وتَتَغَنَّى، والماء يَرْقص من طربٍ ويُصَفِّقُ. . .». [4]

إنَّه يعبِّرُ عَمَّا يحسُّ به من إحساس كبير بهذا الجمال والسحر، ويجعل الطبيعة تشاركه الفرحة والسرور. ثم هو يدعو صديقه إلى مشاركته في الاستمتاع بمظاهر

---

(١) ـ البديع: ص ٨.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٨ ـ ٩.

(٣) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٥٤.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣م ٢، ص ٥٤٦.

الطبيعة، ومافيها من سمات البهجة وأسباب الفرحة، يقول: «فإنْ رَأيت أن تكون في من شَهِدَ هذا الإفلاك، [1] وتحضر في من حضر هناك، أجبت منعمًا» [2].

كذلك حظيت الرياض باهتمام الكُتَّاب بها، فوصفوا مفاتنها ومواطن الروعة فيها. ومن أبرز الرسائل في هذا المجال رسالة لابن الدَّباغ يصف فيها إحدى الرياض الَّتي كان يتردد عليها مع رفاقه في أيام الرَّبيع، حيث الأزهار المختلفة الألوان، والأشجار الوارفة الظلال، المتشابكة الأغصان، والأطيار التي تَصْدَحُ بألحانها العَذبة، يقول: «كتابي هذا من وادي الزيتون، ونحن فيه مختلفون، ببقعة اكتست من السندس الأخضر، وتحلَّت بأنواع الزهر، وتخايلت بأنهار تتخلَّلُها، وأشجار تُظَلِّلُها، تحجب أدواحُها الشمس لالتفافها، وتأذن للنسيم فيميل أعطافها...» [3].

ومن الأمثلة على ذلك رسالة لابن خفاجة في وصف روضة غَنَّاء من تلك الرياض التي كان يتردد عليها مع رفاقه أيضاً. ويبيِّن مافيها من أنهار جارية، ونسيم عليل، وظل ظليل، وخضرة ممتدة، يقول: «فاحْتللنا قبةً خضراء، ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق. ومازلنا نَلتحف منها ببْرد ظِلٍّ ظَليلٍ، ونشتمل عليه برداء نسيم عَليلٍ....» [4].

وقد كانت تلك الرياض مسرحاً لحياة الكُتَّاب اللاهية، فكانوا يلجأون إليها ليستريحوا من صخب الحياة وضجيجها بعد التَّطْواف والتَّجْوال الطويل في بلاد الأندلس، فيمتّعون أنظارهم بجمالها، ويقيمون في رحابها مجالس الأنس والشراب، ولهذا فقد ارتبطت هذه المجالس بالطبيعة الأندلسية. ومن الرسائل التي جاءت في هذا الموضوع رسالة لابن الحَنَّاط يصف فيها مجلس لهوٍ أقيم وسط إحدى الرِّياض الجميلة، وقد حضره مع بعض ندمائه، «حيثُ جعلت الكأس تدور، ولاحديث لسقاتها، غير هاك وهاتِها» [5].

---

(١) ـ الأفلاك: الفلك: المستدير من الأرض (اللسان: مادة فلك).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٦. ويجد الباحث أمثلة اخرى على هذا اللون من الرسائل في: البديع: ص ٢٢.

(٣) ـ النفح: ج ١، ص ٥٣٤.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٤.

(٥) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨.

الزهريات والثمريات:

لقد التفت الكُتَّاب الأندلسيون إلى الورود والأزهار من وَرْد ونَرْجس وسَوْسَن وخيريّ وبَنَفْسَج وآس ، وغيرها مما زانت حدائق الأندلس وجنانها ، فألبست الطبيعة ثوباً سندسياً زادها حسناً ورونقاً ، وقد افتتن الكُتَّاب في وصف ألوانها الزاهية ، وعبيرها الفوَّاح ، وعطرها الشذي ، وخلعوا عليها صفات الحسن والبهاء والجمال . ولقد تجاوز الإعجاب حدَّ الوصف إلى إقامة مناظرات ومفاضلات بين مختلف الأزهار، كما مرَّ بنا سابقاً.

وقد جعل بعض الكُتَّاب وصفهم خاصّاً بزهرة واحدة ، كما صنع أبو الوليد ابن العثماني[1] الذي تحدَّث عن جمال الخيريّ مَنْظَراً ومَخْبَراً ، وجعله في مقدمة الأزهار، يقول: «بعثتُ بخيريٍّ جاز حَدَّ التَّكبير بأنْسِهِ فحاز قصب السَّبق في أبناء جنسه ، منظره أرْبى على المسك بنضرته . . . بهجاً منظره أرجاً مخبره» .[2]

ولأبي الوليد الحميري من رسالة في وصف الورد، وقد ربط بين لون الورد ولون خدود المعشُوقين التي أدمتها ألحاظ العاشقين، يقول: «بعثت بخدود المعشوقين، قد أدمتها ألحاظ العاشقين . . » .[3]

وقد وصف بعض الكُتَّاب حشداً من الأزهار والورود.[4] ومن الأمثلة على ذلك ماجاء في رسالة لأبي جعفر بن أحمد الذي أُعْجِبَ بالأنوار على اختلاف أشكالها، والأزهار على تنوِّع ألوانها، يقول: «فَمِنْ أنْوارٍ أينعت، وأزْهارٍ تنوَّعت: فَمِنْ وَرْدٍ كتوريد الخدود، ونَرْجِسٍ كمُقَل الغيد، وسَوْسَنٍ كأنَّه راحةُ ثَنَتِ البنان على قُراضةٍ من العقبان . . . وخيريٍّ كأنَّما استعار شكله، أو اختار بذلة المحزون، وبنفسج حكى زُرق اليواقيت . . . » .[5]

(١) ـ أبو الوليد بن العثماني ، كان صاحب الشرطة بإشبيلية زمن المعتضد بن عباد (انظر: البديع : ص ١١٣).

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١١٣ . (٣) ـ المصدر السابق نفسه: ص ١٢٩ .

(٤) ـ يجد الباحث أمثلة على ذلك في: البديع : ص ٣١ ، الذخيرة: ق ٣ م ١ ، ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠ .

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢ ، ص ٧٦١ .

لقد خلع عليها حيوية وحركة وجمالاً، فالوَرْدُ محمرٌّ كالخدودِ، والنَّرْجِسُ كعيون الفتيات الجميلات، والخيريُّ كأنَّه بنان انثنى على قطعة ذهب، والبنفسج أزرق كالياقوت.

وكما وصف الكُتَّاب الأندلسيون الأزهار والورود، وصفوا الثمار، إلاّ أنها لم تحظَ بتلك المكانة التي حظيت بها الأزهار فيما انتهى إلينا من رسائلهم، ولعل ذلك يعود إلى أنَّ الأزهار والنواوير والورود شيء جمالي بألوانها ورائحتها وأشكالها، وتثير في الكاتب انفعالات ومشاعر وأحاسيس أكثر مما تثيره وتحرّكه الثمار التي هي غالباً ماتكون مادة طعام وتفكه.(١)

وقد وصف الكُتَّاب الأندلسيون بعض الثمريات، كالتفاح والأُتْرُج، ومن ذلك ماكتبه ابن خفاجة إلى صديق له، وقد بعث إليه تفاحاً، حيث يصور ابن خفاجة التفاحة تصويراً جميلاً، يجعله أفضل سفير ورسول بينه وبين صديقه، فصديقه يعلم «أنَّ خَيْرَ الهدايا، ماجرى مجرى التَّحايا، وأنَّ أفضل سفير سَفَرَ بين صديقين، وتردَّد بين عشيقين، سفير أشبه المُحِبَّ خِفَةَ رُوحٍ، والمحبوب عبق ريح».(٢) ويشبّه لون التفاحة بلون الخمرة الحمراء، أو دمعة المُحِبِّ، أو جمرة نار منعقدة، أو خَمرة تُشْرَبُ جامدةً، وأنه لم يرَ مثلها في اللون، فلونها يفوق لون الذهب الصافي، أو اللهب اللافح، يقول: «مثل حمراء عاطرة، كأنَّها دمعة صَبٍّ.. مشتقٌّ من الأرج اسمُها... لم أرَ مِثْلَها ذَهَباً ينفحُ، ولهباً لايلفح...».(٣)

ولابن خيرة القرطبي من رسالة يصف فيها أُتْرُجَّةً بعث بها إلى أحد أصدقائه، وقد التقطها من أحضان الورق، يقول: «وقد بعثتُ إليك من بنات الثِّمار أجملها، ومن نتائج البُستان أفضلها...»، ثم هو يصف خصائلها العجيبة وصفاتها الغريبة،

---

(١) ـ انظر: الشعر في ظل بني عباد: ص ١١٣.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٥.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٥.

فإنْ خزنتها عَطَّرت أثوابك، وإنْ أمسكتها أذهبت أوصابك[1]. . . يالها من أُتْرُجّةٍ غَضَّةٍ، قد صُوِّرت من ذَهبٍ وفضةٍ». [2]

وصف مطر بعد قحط:

ويقصد بها تلك الرسائل الوصفية التي تعبِّر عن صفة الأرض حالة جدبها وقحطها، ومايكون من حال الناس في مثل هذه الظروف الصعبة، ثم وصف الأرض حالة اخضرارها عقب نزول الغيث. وهي بذلك تقوم على الموازنة والمقابلة بين حالتي الأرض في الجدب والخصب. وقد أورد ابن بسام عدداً من هذه الرسائل تحت عنوان «صفة مطر بعد قحط». [3]

ومن هذا اللون من الرسائل رسالة لأبي عمر الباجيِّ، وقد بدأها بالتسليم الكامل لقضاء الله تعالى وقدرته، الذي لايتصَّرف إلَّا لحكمة بالغة لايدركها البشر، ويعبِّر عن إعجابه بسلطان الله وإرادته الحكيمة، فإذا ماانقطع المطر وحلَّ الجدبُ فلحكمة بالغة ينبغي أن يلتفت الناس إليها، يقول: «إنَّ لله تعالى قضايا واقعةً بالعدل، وعطايا جامعةً للفضل، ومنحاً يبسطُها إذا شاء إنعاماً وترفيهاً ويقبضها إذا أراد تنبيهاً وإلهاماً، ويجعلها لقومٍ صلاحاً وخيراً، وعلى آخرين فساداً أو ضَيْراً». [4]

ويربط بعد ذلك حال الأرض المجدبة، بوصف أحوال النَّاس في هذا الجدب، ومايبدو عليهم من هلع وخوف وبأس وجزع، يقول: «وإنَّه كان من امتساك السقيا، وتوقف الحيا، مارِيْعَ به الأمن، واسْتطير به الساكن، ورجفت الأكباد فزعاً، وذُهلت الألباب جزعاً. . . ومنعت السماء دُرَّها، واكتست الأرياض غُبْرةً بعد خضرةٍ، ولبست شحوباً بعد نُضرةٍ». [5]

(١) - أوْصَاب: جمع وصب وهو الوجع والمرض (اللسان مادة وصب).

(٢) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٥٥.

(٣) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٩٦، ٢٨٩.

(٤) - القلائد: ص ١٠٣.

(٥) - القلائد: ص ١٠٣.

إنَّه يربط بين مظاهر الجدب المادي ومظاهر الجدب الروحي ممثلاً في الارتجاف والفزع والذهول والجزع، وكما يلاحظ فإن الكاتب يعتمد على المقابلة بين الصور ليعطي صورة دقيقة معبرة موحية لحالة الغبرة والخضرة، والشحوب والنضرة، وهي صورة تقوم على اللون الدال الموحي.

ويتحدَّث بعد ذلك عن حال الأرض حال اخضرارها، وقد اهتزَّت الأزهار والثمار والطيور والسحر، ويصوِّر تجاذب مشاعر الناس مع مظاهرها الخلابة، فبعد أن أرسل الله الغيث أصبحت «الأرضُ مشهورةً، وحُلَةَ الزَّهر منثورةً، ومَنَّة الربِّ مَوْفُورةً، والقلوبُ ناعمةً بعد بؤسِهَا، والوجوهُ ضَاحِكَةَ بعد عُبُوسِهَا، وآثارُ الجزع ممحوّةً، وسُوَرُ الحَمْدِ مَتْلُوَّةً»(١).

لقد أدّى زوالُ الجدب المادي إلى زوال الجدب الروحي، فأصبحت القلوب ناعمة بعد بؤسها، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها، وآثار الجزع والهلع ممحوة، وآيات الشكر والحمد متلوة.

وممن كتب في هذا الموضوع أيضاً أبو القاسم بن الجد، وقد افتتح رسالته بما افتتح به أبو عمر الباجيُّ رسالته من تسليم كامل بقضاء الله وقدرته، وإعجابه بإرادته الحكيمة في التّصرُّفِ بشؤون الكون، فما يحدث أمراً، إلّا لحكمة بالغة ينبغي أن يلتفت الناس إليها.(٢)

ولقد وصف الأرض المجدبة، ووضَّح أثر ذلك في نفوس الناس، حيث «ساءت بتثبّط الغيث الظنون، وانقبض بتبسّط الشَّكِّ اليقين، واسترابت(٣) حياض الوهادِ، بعهود العِهَاد(٤)... واكْتحلت أجفان الأزهار بإثمد(٥) النقع المثار وتعطَّلت

(١) ـ القلائد: ص ١٠٣.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨٩.

(٣) ـ استرابت: امتلأت ترابا.

(٤) ـ العهود والعهاد: جمع عهدة: وهي مطر بعد مطر، مدرك آخره بكل أوله (اللسان: مادة عهد).

(٥) ـ الثمد: الماء القليل الذي لامادّ له (اللسان: مادة ثمد).

الأنوار، من حُلّي الدِّيمة المدرار».[1]

ويصف أيضاً صورة الأرض بعد نزول الغيث، ويربط بينها وبين مظاهر الفرح والسرور التي نعم بها الناس بعد زوال الجدب «فيا بَرْدَ مَوْقِعِهَا على القلوب والأكباد، ويا خُلوصَ ريِّها إلى غِلَلِ النّفوس الصَّواد[2]».[3]

وقد عرضت على أبي محمد بن عبد الغفور رسالة أبي عمر الباجيّ وأبي القاسم ابن الجدِّ المتقدمتين - كما يقول ابن بسَّام - فعارضهما برسالة طويلة أوردها ابن بسَّام، وهي لاتخرج عن النهج الذي سار عليه صاحبا الرسالتين السابقتين.[4]

وينمُّ هذا اللون من الرسائل عن ظاهرتين أدبيتين، أولاهما أنه كان للطبيعة الأندلسية أثر كبير في نفوس الكُتَّاب الأندلسيين، وقد أدَّى ذلك إلى امتزاج مشاعرهم بمظاهر الطبيعة المختلفة، حتى لكأن الطبيعة نفوسهم ورسائلهم، فلقد شاركوها في غبرتها وخضرتها وشحوبها ونضرتها، وتجاوبوا معها، وصاغوا ذلك في رسائل رائعة.

أما الظاهرة الثانية فهي انتشار ظاهرة المعارضات الأدبية بين المترسلين، أو مايعرف بظاهرة السلاسل الأدبية، حيث كانت رسالة تثير عدة رسائل، أي تجرُّ الرسالة الواحدة رسائل أخرى، حين يدخل حلبة النِّزال كُتَّاب آخرون بقصد إظهار براعتهم واقتدارهم في القول، ثم مجاراة الرسالة الأصل، ومحاولة التفوق عليها.

أوصاف أخرى:

لقد وصف الكُتَّاب الأندلسيرن كثيراً من الظواهر الطبيعية العامة كيوم مشمس، ونهار ممطر، والليل والنجوم والكراكب والقمر، ومااليها من ظواهر طبيعية عامة.

---

(١) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٢) - يقال صدنا ماء السماء أي أخذناه (اللسان: مادة صيد).

(٣) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٩٠.

(٤) - انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٣٤٢ - ٣٤٤.

ومن ذلك تلك اللوحة الرائعة التي رسمها ابن خفاجة ليوم غائم، حيث وصف الأرض والسماء عند تجمُّع الغيوم ثم نزول المطر، ومافي ذلك من ألوان الجمال والبهاء، يقول: «ولَّما أكبَّ الغَمَامُ إكْبَاباً، لم أجدْ معه إغباباً، واتَّصل المطر اتِّصالاً، لم ألفِ معه انفصالاً، أذن الله تعالى للصَّحو أن يُطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقشعت الرّيح والسّحاب، كما طوى السِّجل الكتاب، وطفقت السماء تخلع جلبابها، والشَّمْسُ تَحُطُّ نقابها، وتطلّعت الدُّنيا تبتهج كأنَّها عروس تجلَّت» .[1]

ثم عبّر عن أحوال النَّاس في هذه الأجواء الجميلة، ومايبدو عليهم من فرح وسرور وتجاوب مشاعرهم وقلوبهم مع مناظر الطبيعة الجميلة، يقول وقد اندفع وصحبه طلباً للراحة والفرجة: «ذهبت في لُمَّةٍ من الإخوان نستبق إلى الرَّاحة ركضاً، ونطوي للتَّفرُّج أرضاً وننشر أرضاً» .[2]

ونجد مثالاً آخر في وصف يوم ممطر لابن بُرْدٍ الأصغر، حيث صور اليوم وغيومه وأمطاره، وماكان من احتجاب شمسه، يقول: «اليوم يوم بكت أمطاره، وضحكت أزهاره، وتقنَّعت شمسه، وتعطّر نسيمه» .[3]

كذلك فقد وصف الكُتَّاب النهار، ومن الأمثلة على ذلك ماكتبه أبو المطرف بن الدباغ في وصف نهار مضيء، يكاد من جماله وطيبه يمطر صحوه، ويحرك باعتدال حرارته الأفعى، ويبعث بجماله وحسنه النشوة والطرب في الحليم، ولقد دفع هذا الجو الجميل ابن بُرْد إلى عقد مجلس لهو وطرب حضره عدد من ندمائه وأصحابه، يقول: «طلع علينا هذا اليومُ، فكاد يُمطرُ من الغضارة صحوه، ويغشي من الإنارة جوه، ويحيي الرميم اعتداله، ويصبي الحليم حُسنه وجماله، فلفَّتنا زهرته، ونظمتنا بهجته في روضةٍ خلعت عليها السماء سبائبها، ونثرت عليها كواكبها» .[4]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٣.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٣.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٥٠٢.

(٤) ـ القلائد: ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

ووصف الكُتّاب الأندلسيون الليل وظلمته ومايتصل به، على الرغم مما لليل من وحشة ورهبة، فهم لايجزعون منه، ولايترقبون طلوع الفجر. بل لقد وصفوا محاسن الليل وفوائده، حيث يتيح لهم إقامة مجالس الأنس واللهو والمجون، فيمتّعون أنفسهم غير حافلين بعذل العاذلين، كما يذكر ابن بُرْدٍ في رسالة وجهها إلى أحد أصحابه، يقول: الزيارة في اللّيل أخفى، وبالزّائر والمزور أحفى، وقد سُدِل حجابه، ووقع غرابه، وتبرقعت نجومه بغيومه، وتلفّعت كواكبه بسحائبه، فاهتك إلينا ستره، وخض نحونا بحره، ولك الأمان من عين واشٍ تراك، وشخص رقيبٍ يلقاك»[(١)]

ورسم ابن أبي الخصال لوحة رائعة لعدد من مظاهر الطبيعة في الليل، حيث وصف شدة البرد، وقسوة الرياح وتلاعبها بالسِّراج، ووصف الليل وسواده الحالك، ونجومه الذهبية، وأمواجه المتلاطمة حيث يقول: «والقَرُّ منازل، والرِّيح تلعب بالسِّراج، وتصول عليه صولة الحجّاج،[(٢)] فطوراً تسدّده سناناً، وتارة تُحرِّكه لساناً... والليل زنجيُّ الأديم، تِبْرِيُّ النُّجوم، قد جَلّلنا ساحه، وأغرقتنا أمواجه، فلا مجال للحظه، ولاتعارف إلّا بلفظه..».[(٣)]

ووصف ابن حَسْدَاي القمر وقت ظهوره، حيث يكون ساطع الضوء، يجلو الظلمة، ويهدي الساري إلى الطريق. «كالحال في القمر يطلع في لياليه البيض، ساطع السناء، باهر الوميض، يجلو الدياجي، فيهدي الساري».[(٤)]

كذلك وصف القمر عند غيابه «فإذا غرقت أعقابه، وتكامل غيابه فقدته النجوم، فاعتراها الوجوم، ولفّها الليل في ملاءة دياجيه...».[(٥)]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠٢.

(٢) ـ الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٩٢.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٨٢.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٨٢.

وصف الطبيعة الصائتة:

ذكرنا سابقاً أن الكُتَّاب الأندلسيين قد أقبلوا على وصف الطبيعة الحيّة (الصائتة) ممثلة في الخيل والبغل والحمار والثعلب والكلب والغزال وماإليها من الحيوان، والباز والنسور والأوز والزرزور وما شابهها من الطيور. ووصفوا أيضاً البرغوث والبعوض والنحل وغيرها من الحشرات، كل ذلك في أسلوب ذاتي وروح حديثة، لكنها لم تصل مع ذلك إلى مستوى إقبالهم على وصف الطبيعة الصامتة.[١]

ويبدو للباحث من خلال النصوص التي انتهت إلينا في وصف الحيوان أن الحصان أكثر حيوان ظفر بعناية الكُتَّاب الأندلسيين ووصفهم، ومن ذلك ماجاء في رسالة بعث بها الأصبغ بن أرقم[٢] عن مجاهد العامري إلى مقاتل العامري يصف مهراً استهداه لولده، ويربط فيها بين لونه ومظاهر الطبيعة، ويجعله مستعيراً من القمر والصباح والغلس والليل والنهار ألوانها، فجاء لونه يجمع بين سواد الليل وشقرة الشفق، يقول: «وأتى الوَرْدُ المُحلّى بالذَّهب... فإذا بالقمر قد أعطاه غُرَّته، والصَّباحُ قد حباه بلجته، والفلسُ، قد كساه دُلجته، فجمع بين دهمة الليل وشقرة الشَّفق».[٣]

ثم تحدَّث عن سرعته ونسبه وصفاته الحميدة، فهو فرس سريع اتخذ من الريح أجنحة له، عظيم فاره توشح بالقوة والنشاط والحدة، أصيل يفوق بنسبه الخيول الكرام، يقول: «وأردتُ إنعاله فإذا الرِّياح قد أنعلته أجنحةً، وتفقدت جلاله فإذا الفراهة[٤]قد ألحفته أوشحةً، فلو عُزِيَ إلى الأعوج[٥] لأنِفَ،.. ولو كان من

---

(١) ـ انظر: البيئة الأندلسية: ص ١٤٧.

(٢) ـ هو عبد العزيز بن محمد بن أرقم النميري، سكن المَريَّة، وأقام بدانية مدة عند إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، ثم صار إلى المعتصم بن صمادح، وكان من وجوه رجاله ونبهاء أصحابه، توفي في خلافة المعتمد بن عباد (انظر: القلائد: ص ٨، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٠).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٥.

(٤) ـ يقال دابة فارهة: أي نشيطة جادة قوية (اللسان: مادة فره).

(٥) ـ الأعوج: فحل كريم تنسب الخيل الكرام إليه (اللسان: مادة عوج).

خيل سليمان لما عدل بالصافنات العتاق».[1]

ومما جاء في وصف الفرس أيضاً ماكتبه الأعلم الشنتمري، حيث يقول: «انظر إليه سليم الأديم، كريم القديم، كأنّما نشأ بين الغبراء[2] واليحموم،[3] نجمٌ إذا بدا، وَوَهْمٌ[4] إذا عدا، يستقبل بغزالٍ، ويستدبر برال[5]،......[6]

إنَّه جواد كريم الأصل، نتج من سلالة كريمة، جميل كالنجم، سريع كأنه لم يكن موجوداً إذا عدا، يستقبلك بشكل الغزال، ويدبر عنك بشكل الرأل.

ولقد عمد بعض الكُتَّاب إلى اتخاذ وصف الخيل وسيلة إلى المدح والمزج بين وصفها والثناء على الممدوح، ومن ذلك ماجاء في رسالة لأبي الأصبغ بن الأرقم، حيث ربط بين صفات مهر وصفات مقاتل العامري، وجعل المهر مستعيراً صفاته من مقاتل، حيث يقول: «استعيرت سرعته من إسراعك إلى المكارم، وأخذ سبقه من سبقك إلى ندى حاتم،[7] وعلم لِينَ قيادك للصاحب، واسترقت جَحودَتُه من سماع جودك على الطالب».[8]

وكذلك وصفوا الحيوانات ذات الصلة بالإنسان، والتي لها أثر كبير على حياتهم الزراعية، ومن ذلك ماكتبه الأعلم الشنتمري في وصف البغل، حيث وصفه بأنه حيوان مختلط النسب، يمتاز بالجودة والنجابة، وفيه جلد وصبر واحتمال، يعرف

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٥.

(٢) ـ الغَبْرَاء: فرس تحمل بن بدر، ويزعم بعض الناس أنها لقيس بن زهير (انظر: أسماء خيل العرب: ص ١٨٣).

(٣) ـ اليَحْمُوم: فرس الحسن بن علي بن أبي طالب، وفرس للنعمان بن المنذر، وفرس لهشام بن عبد الملك (انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٢٧٠ ـ ٢٧١).

(٤) ـ وَهْمٌ: يقال توهم الشيء تخيله وتمثله كان في الوجود أو لم يكن (اللسان: مادة وهم).

(٥) ـ الرَّال: ولد النعام (اللسان: مادة رأل).

(٦) ـ المطمح: ص ٣٠٧.

(٧) ـ حاتم الطائي.

(٨) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٤.

الأماكن العالية عن قرب، يقول: «مُقْرفُ[1] النَّسب، مستخبر الشَّرف، آمن الكبب، إن ركب امتنع اعتماله، أو ركب استقلَّ به أخواله».[2]

ووصف الأعلم الشنتمري حماراً بأنه محكم الجسم، كريم القوة والحركة حسن للخدمة، يقول: «وثيقُ المفاصل، عتيق النهضة، إذ ونَتِ المراسل، يشفي امتهانه، ويدني من الأمل رديانه[3]».[4]

ومن الحيوانات الأندلسية التي حظيت بوصف نادر الثعلب، فقد كتب ابن شهيد رسالة يصف فيها الثعلب وصفاً دقيقاً، ويشير إلى مايتصف به من دهاء وفتك وغدر وقوة، وانتهاز للفرص، فهو «أدهى من عمرو[5]، وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر[6]... إذا رأى الفرصة انتزها، وإن طلبته الكماة أعجزها.. غذاؤه حمام ودراج، وعشاؤه بذرحٌ[7]، ودجاج»[8].

ومن الحيوانات التي حظيت بوصف نادر أيضاً الغزال، فقد وصفه أبو محمد ابن عبد البر وصفاً جميلاً، وصوَّره ضامر البطن، له عينان ساحرتان، لونهما كلون الخمرة، كأنهما عينا نائم غير مستغرق في نومه، مالت به نشوة الخمرة، وله قرنان كأنَّهما قلمان، وأذنان كأنهما مقراضان، ووصف هيئته عند أنسه وخوفه، يقول:

---

(١) -مقرف: هجين (اللسان: مادة قرف).

(٢) - الطمح: ص ٣٠٨.

(٣) - رديانه: لعله مأخوذ من الردن وهو الغزل يفتك إلى قدام، ولعل المقصود هنا اندفاعه إلى قدام (اللسان: مادة ردن).

(٤) - الخريدة: ج ٣، ص ٤٧٢.

(٥) - عمرو بن العاص.

(٦) - هو حذيفة بن بدر سيد بني فزارة، قتل في حرب داحس والغبراء (انظر: جمهرة أنساب العرب: ص ٢٥٦، أيام العرب في الجاهلية: ص ٢٤٩ - ٢٦٤).

(٧) - هكذا وردت في الأصل، ولعل الصواب ذراح، وهو كل دويبة أعظم من الذباب شيئاً (اللسان: مادة ذرح).

(٨) - اليتيمة: ج ٢، ص ٥٤.

«ووَصَلَ معه الغزال الأهيفُ، وكأنّ عينيه عينا وسنان[1] مالت به نشوة الرّاح، وثنى عطفه هزة الارتياح، كأنما كحلا سحراً، وأُشربا خمراً... وكأنَّ قرنيه قلمان، وكأنَّ أذنية جلمان،[2] ينصبهما إذا أوجس، ويثنيهما إذا أنس...».[3]

ولم تمنع الكُتّاب الطبيعة الأندلسية الجميلة بأزهارها وأطيارها ورياضها من أن يصفوا الحشرات والحيوانات الصغيرة التي يكثر أذاها وضررها للإنسان، ولاغرو في ذلك فهم يرون فيها سراً من عجائب الدنيا، ودليلاً على عظم قدرة الله، ومؤشراً على ضعف الإنسان أمام ضعف خلائق الله تعالى.

ومن هذا اللون من الرسائل ما كتبه ابن شهيد في وصف البرغوث، حيث وقف عند لونه وقوته وحجمه، فهو أسود اللون، بحجم الحبّة السوداء، أو نقطة المداد، ليس بالضعيف والفتور، ولا بالجبان الرذل، يقول: «أسودُ زنجيٌّ، وأهليٌّ وحشيٌّ، ليس بوانٍ[4] ولازُمَّيل،[5] وكأنّه جزء لايتجزّأ من ليلٍ أو شونيزةٌ، أو ابنتها عزيزة، أو نقطة مِدَادٍ، أو سويداء قَلْبِ فؤادٍ».[7]

ويتحدَّث عن حركته وإيذائه للناس وإزعاجه لهم، ويسجل بعض طباع هذا الحيوان الحقير، ويكشف عن مواطن قوته وخصائص ضعفه، «فشربُهُ عبٌّ، ومشيه وَثْبٌ، يكمن نهاره، ويسير ليله، يُدارك بطعنٍ مُؤْلم... يهتك كلَّ حجابٍ، ولايحفل ببواب، يَرِدُ مناهل العيش العذبة، ويصل إلى الأحراج الرطبة...».[8]

---

(١) ـ الوسنان: النائم الذي ليس بمستغرق في نومه (اللسان: مادة وسن).

(٢) ـ جلمان: المقراضان، واحدهما جلم للذي يجز به (اللسان: مادة جلم).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٤.

(٤) ـ الونا: الضعف والفتور والكلال (اللسان: مادة وني).

(٥) ـ الزُمَّيْل: الضعيف الجبان الرذل (اللسان: مادة زمل).

(٦) ـ الشونيزة: الحبَّة السوداء (اللسان: مادة شنز).

(٧) ـ اليتيمة: ج ٢، ص ٥٣.

(٨) ـ اليتيمة: ج ٢، ص ٥٣ ـ ٥٤.

لقد رسم ابن شهيد صورة طريفة لطيفة ضاحكة، قصد من ورائها إثارة المداعبة والتفكّه، وينبع ذلك من جعله هذا الكائن الحقير التافه مادة للفن، وألبسه ثوباً من الجدية والوقار.[1]

ونجد مثالاً آخر في وصف البرغوث لابن شرف القيرواني، حيث حدَّد الفصول التي يشتدُّ فيها أذاه، وإزعاجه للناس، وذلك حين يشتد هطول المطر، يقول: «أذى البراغيث إذا البرُّ[2] أُغيثَ، بريء عليل بَرَانا، وأثرى فقير ثرانا، وتاريخ ذلك الضرام بآخر، وقد بلغت القلوب الحناجر، بحمارة[3] احمرت لها خضرة السماء، واغبرَّت لها مرآة الماء، حتى انهلّ طالع وسمي».[4]

الزُّرْزُوريَّات:

يرمي هذا اللون من الرسائل إلى وصف أصحاب الكدية من الأدباء الأندلسيين في إطار من الفكاهة والسخرية، حيث اتخذ الكُتَّاب من صورة الزرزور[5] إطاراً يتحدثون فيه عن الكدية وأصحابها، وذلك لما يمتاز به الزرزور من خفة وحركة ونشاط.

ويعد ابن سراج[6] أول من أثار هذا اللون من الرسائل حين كتب رسالة لبعض أهل عصره، يشفع فيها لرجل يعرف بالزُّرَيْزير،[7] حيث يقول: «شخص

(١) ـ يجد الباحث أمثلة اخرى للكاتب في هذا اللون من الرسائل في: رسالة التوابع والزوابع: ص ١٤٩ ـ ١٥٠، حيث وصف أوزة وصفاً يبعث على السرورة والفكاهة، وفي اليتيمة: ج ٢، ص ٥٤، حيث وصف البعوضة.

(٢) ـ البَرَّا: التراب (اللسان: مادة برى).

(٣) ـ حمارة الشتاء: شدة برده (اللسان: مادة حمر).

(٤) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٢٢٤.

(٥) ـ الزرزور: طائر من فصيلة العصافير، يتميز بالنشاط والحركة، مع حجم صغير دقيق (انظر: الحيوان: ج ٥، ص ٢٢٠، ٢٣٣).

(٦) ـ هو أبو الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج، توفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر: ترجمته في القلائد: ص ٢٠٠، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٢١، المغرب: ج ١، ص ١١٦).

(٧) ـ زريزير: تصغير زرزور.

من الطيور يُعرف بالزُّرَيْزير، أقام لدينا أيام التَّحْسير، وزمان التَّبلغ بالشّكير، فلمّا وافى ريشه، ونبت بأفراخه عشوشه، أزمع عَنّا قطوعاً، وعلى ذلك الأفق اللدن تدلياً ووقوعاً، رجاء أن يلقى في تلك البساتين معمراً، وعلى تلك الغصون حَبّاً وثمراً، وأنت بجميل تأتِّيك، وكرم معاليك، تصنعُ له هنالك وكُوناً، وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريد ولحوناً». [1]

وكما يلاحظ فقد أدار ابن سراج رسالته كلها على الزَّرْزُور وصفاته المختلفة، في إطار مليء بالسخرية والتهكم، حيث رسم له صورة ساخرة مضحكة، واستعار الألفاظ المختلفة الخاصة بالطيور من تحسير وتشكير وريش وفرخ وعش وقطوع، وذلك للتعبير عن حالة ذلك الإنسان الذي وصفه، وجعل صفاته وتصرفاته قريبة من تصرفات الطيور.

لقد تركت رسالة ابن سراج صدى واسعاً في أدب الرسائل في الأندلس، حيث أعجب بها عدد كبير من الكُتَّاب الأندلسيين، فعارضوها برسائل متعددة، وكان في مقدمتهم ابن الجدّ الذي التقط فكرة الرسالة فأبدع رسالة أدار الوصف فيها على ضروب مختلفة من الهَزْل والسخرية والتلاعب بالألفاظ، حيث يقول: «لئن سمي بالزُّرَيْزير، لقد صُغِّرَ للتكبير، كما قيل «(حُرَيْقيص)». [2] وسِقْطُهُ يحرق الحرج، و(دويهية)، وهي تلتهم الأرواح والمُهَجَ». [3]

ثم هو يسرف في الحديث عن صفات الزُرَيْزير ومناقبه، ويجعلها على صيغة فعيل لتأتي مجانسة للفظ الزُرَيْزير، يقول: «ومعلوم أنَّ هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التَّلقين، وحسن اليقين، فإذا عُلِّم الكلام لهج بالتَّسبيح، ولم ينطق

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٧.

(٢) ـ فيه إشارة إلى قصة أوردها القالي في أماليه، وهي أن الأصمعي وقف على غلام من بني أسد اسمه حريقيص، فقال له: أما كفى أهلك أن يسموك حرقوصاً حتى حقروا اسمك؟ إن السقط ليحرق الحرجة (انظر: الأمالي: ج ١، ص ٦٦).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

لسانه بالقبيح، ثم تراه يقوم كالنصيح، ويدعو إلى الخير بلسانٍ فصيح».(١)

ثم هو يصوِّر حاله ومتاعبه ليرق له قلب مخاطبه، ويجود عليه، وهو في الرسالة هنا يعبر عن منحى رمزي يصور ضيعة الأديب وضيق عيشه، وضياع صوته الصيدح، مما يدفعه إلى التماس رياض أخرى، حتى يغدو أشبه بالمكدين، حيث يقول: «ولَمَّا طار ببلاد المغرب، ووقع، وزقا في أكنافها وصقع، وعاين ما اتّفق فيها هذا العام من عدم الزَّيتون، في تلك البطون والمتون، أزمع عنها فِراراً، ولم يجد بها قراراً، لأن هذا الثمر بهذا الأفق هو قوام معاشه، وملاك انتعاشه... فاستخفَّه هائج التّذكار نحو تلك الأوكار، حيث يكتسي ريشه حريراً، ويحتشي جوفه بريراً، ويحتسي قراحاً نميراً، ويغتدي على رهطه أميراً، فخذه إليك نازلاً لديك، ماثلاً بين يديك، يترنَّم بالثناء، ترنُّم الذباب في الرَّوضة الغنَّاء، وقد هزّ قوادم الجناح، لعادة الاستمناح...».(٢)

وكتب أبو محمد بن عبد الغفور رسالتين في موضوع الزرزور، وجّه الكلام في واحدة منهما إلى العتاب، وجعل الثانية في معنى الشفاعة.(٣)

وممن دخل حلبة المعارضة في هذا الموضوع أبو بكر عبد العزيز البَطَلْيَوْسي الذي أقام رسالته على الشفاعة لهذا الزرزور، واستعرض براعته الأسلوبية في ذلك، حيث كتب رسالة حملها إلى صديقه بمنقاره يقول: «أخذ الكتاب بمنقارٍ، وصفَّق من ريشِ الجناحين سروراً، وطَارَ».

وقد أوصى البطليوسي صديقه بأن يحسن وفادته ويكرمه وأن «تبسط له في بساتينك، وتفرش له من وردك وياسمينك، حتى تلبس من أغاريده الحلل المنَشَّرَة(٤).

(١) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٩.
(٢) - المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.
(٣) - انظر: الرسالتان في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٥١ - ٣٥٦.
(٤) - الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٦٠.

ومن أولئك الذين دخلوا حلبة المعارضة أيضاً أبو عامر بن أرقم[1] الذي كتب رسالة إلى أحد أصدقائه في معنى الشفاعة، ولم يرد فيها سوى إظهار براعة الأسلوب على نهج وصفي متتابع، يقول في شأن الزَّرْزُور «حيوان يصفر كلَّ أوان، ويسفر بين الإخوان، رقيق الحاشية، يعتمد على كرواء،[2] ويستمع بخذواء،[3] وينظر من عينٍ كأنَّها عين، ويلفظ بمنقار كأنَّه من قارٍ».[4]

ولما انتهى الموضوع إلى ابن أبي الخصال حاول أن يدخل فيه شيئاً من التجديد، فجعل الرسالة أقرب إلى الخطبة الدينية، حين أطال الأدعية الدينية والتحميدات في أولها، ثم جعل الزَّرْزُور يتحدَّث عن نفسه بعد أن كان مُتحدَّثاً عنه،[5] يقول: «وقد أعفاكم زرزوركم من النَّصب، ومدَّ إلى السماء من الدعاء... يا الله **يا من** جعل الأرض قراراً، وفجَّر خلالها أنهاراً، وجعل لنا من الشجر الأخضر ناراً».[6]

ولقد جعل ابن أبي الخصال من الزَّرْزُور في رسالة أخرى بطلاً مقامياً، حين يجعله واعظاً وخطيباً يزجر الناس، وينهي النص في إطار من المزاوجة بين الشعر والنثر، واستعراض لألوان متعددة من البلاغة والبيان، ورغم ذلك فقد ظل عنصر الوصف طاغياً على الرسالة، يقول: «إنَّما هو زُرْزُور عليه الليل مَزُورٌ، رَشَّته النجوم بأندائها، وذرَّت عليه من صبابتها، فهو منمنم الأوداج، بديع الائتلاف والازدواج، يباسطكم البعيد والقريب، ويطارحكم المستعمل والغريب، يلقط الإحسان حَبّاً، ويضمره حُبّاً، ويلفظه لؤلؤاً رطباً».[7]

---

(١) ـ هو أبو عامر بن عبد العزيز بن محمد بن أرقم الوادياشي، من أهل المرية، كان والده الوزير الكاتب أبو الأصبغ مبرزاً في الكتابة فنشأ ولده كذلك (انظر: القلائد: ص ١٣٢، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٠٣، الخريدة: ج ٣، ص ٤١٦).

(٢) ـ الكَرْوَاء: الساق الدقيقة (اللسان: مادة كرا).

(٣) ـ الخَذْوَاء: الأذن المسترخية (اللسان: مادة خذا).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٠٥.

(٥) ـ انظر: عصر الطوائف والمرابطين: ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٦) ـ ترسل الفقيه الكاتب: ص ٣.

(٧) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٦٨.

وصف الرِّحلات

لقد تحدَّث الكُتَّاب الأندلسيون عن الرحلات التي قاموا بها في بلاد الأندلس، وتعرَّضوا لوصف مارأوه من مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة، كما قدَّموا وصفاً دقيقاً للمناظر الطبيعية التي شاهدوها، وصوَّروا أيضاً انطباعاتهم النفسية عن هذه الرحلات.

ويعتبر هذا اللون من الرسائل إلى جانب قيمته الأدبية مادة وفيرة يسجِّل مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية والسياسية والطبيعية التي يشاهدها أو يسجّلها الكاتب خلال رحلته.

ومن أشهر الرسائل التي جاءت في وصف الرحلات رسالة لأبي عبد الله بن مسلم[١] سمّاها «طيّ المراحل» وخاطب بها أغْلَبَ[٢] صاحب ميورقة،[٣] وهي قصة تطواف ينتقل فيها الكاتب من مدينة إلى مدينة، ومن حوزة أمير إلى حوزة أمير آخر. ويبدو أنه كان رسولاً إلى بعض ملوك الطوائف عن إقبال الدولة بن مجاهد العامري حين نازعه المقتدر بن هود أحد الحصون.[٤]

---

(١) ـ هو أبو عبد الله محمد بن مسلم، قال ابن بسام في وصفه أنه آية الزمن، ونهاية فطنة واللسن، نفث بالسحر، واغترف من البحر، ونظم الدرر بلألاء من الدر (انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٢٧، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٥).

(٢) ـ كان أغلب مولى لمجاهد العامري، وقد جعله على ميورقة، وكان صاحب غزو وجهاد في البحر، ثم تخلى عن ولايته أيام اقبال الدولة (انظر: كتاب العبر. ج ٤، ص ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٣) ـ ميورقة: جزيرة في البحر الزقاقي، تقع شرقها جزيرة سودانية، فتحها المسلمون سنة ٢٩٠ هـ وتغلب عليها الصليبيون سنة ٥٠٨ هـ (انظر: الروض المعطار: ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨).

(٤) ـ انظر الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٢٩.

وقد تحدَّث ابن مسلم عن طرقه أبواب إحدى المدن الأندلسية، وقد سُدَّ بابُها في وجهه، وفي ذلك إشارة إلى طبيعة تنظيم بعض المدن الإسلامية في الأندلس، حيث كانت تسور، ويجعل لها باب. ويبدو أنه قد طرق باب هذه المدينة في فصل الشتاء، حيث وصف مالقيه من أهوال، وعبَّر عن الحالة النفسية التي كان يعاني منها، قبل أن يفتح له باب هذه المدينة، يقول: «فجئنا فلانة، وقد شُدَّ بابُها، ونام بوَّابُها، والسَّيْلُ قد طمى، يحمل غثاءً أحوى، فلم تشكَّ القلوب، أنَّ نفوسنا ذائقة الموت، حتى إذا بلغت النفوس التَّراقي، والتفَّتِ الساقُ بالساقِ، وقيل من راق، وأُشْعِرَ صاحب الحصن بمكاني، وقُصَّ عليه شأني، فأمر بفتح باب المدينة، وآواني إلى دارٍ حصينةٍ». [1]

ويصف بعد ذلك كيف لجأ إلى مدينة المَرِيَّة، وقد لقي المعتصم بن صُمَادح الذي أكرم وفادته ورحَّب به، وحاول أن يبقيه عنده فأعلمه أنه ماضٍ لطيته، يقول: «حَتَّى جئت المَرِيَّة... ولَمَّا لقيتُ المعتصم... قال مرحباً بالوليّ الحميم، والصديق الحديث القديم، أعنَّت لك عندنا أسباب أوجبت إقبالاً، أو نحت بك نحونا ركاب طَلَبَت فِصالاً؟ حُلَّ عن ذاتك، وأرح تعملاتك، [2] فقلت: أيَّد الله مولاي، ماأجاءني حبُّ الراحة، ولاطلب الإراحة، وإنَّما أنا في حُكم شرعٍ، وأداء فرضٍ...». [3]

ثم وصف بعض مظاهر الطبيعة الجميلة التي مر بها أثناء خروجه من المَرِيَّة، وصوَّر انطباعاته النفسية عنها، حيث بعثت هذه المناظر الجميلة البهجة والسرور في نفسه، فهي تروح عنها الغمَّ، وتزيد في العمر، وتشفي من الكظم وتشرح الصدر، يقول: «حتى وصلنا إلى دارٍ منفرجة الأقطار مستوفزة[4] الأنوار، متدفِّقة الأنهار،

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٣٠.

(٢) ـ يقال: لاتتعمل في أمر كذلك كقولك لاتتعنّ، أي ليس لك فرح في سؤالك (انظر: اللسان مادة عمل).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٤) ـ مُسْتَوْفِزَةٌ: مرفوعة (انظر اللسان: مادة وفز).

هواؤها جلاء للغمّ، وزيادة في العمر، وضياؤها شفاء للكظم، وانشراح للصدر. . .». [1]

ثم تحدَّث عن تلك الأيام الجميلة التي قضاها في رحاب المظفر بن مَنَاد صاحب غرناطة، وأسرف في وصف مجالس الخمر والغناء هناك، ومابنعمون به من لهو وفرح وسرور، يقول: «فبتنا فاكهين فرحين، نزمر بالكؤوس، ونرقص بالرؤوس، ونثاقف الإخوان، ونوافق الندمان، موافقة الكرام، بشرب المُدام لابحدِّ الحُسام. . . ومازلنا نسمع باقتراحٍ، ونشرب على ارتياح. . . حتى شُبَّتْ مصابيحنا لقفَّال، وحان أوان ظعنٍ وارتحالٍ». [2]

ثم هو خرج من غرناطة لطيه فأدركه شتاء قارس، ووصف مالقيه من أهوال ومصاعب شتَّى تُذْهِبُ العقل وتُثير الفزع، وقد أصابه من شدة البرد حمى قاتلة، وغطته ندف الثلج حتى بدا كأنه من أصحاب القبور، يقول: «وسرنا بين جبالٍ موحشةٍ، ومياه دهشةٍ[3] فَصَارِدَتْنا[4] من ريح عادٍ، ذات صِرٍّ وأبرادٍ، أضْرَمَتْ نار البرحاء، وكظمت أنفاس الصُّعداء. . . وماشكَّ غمام الثلج المنثور، أني من أصحاب القبور. . .». [6]

وخرج بعد ذلك على الحاجب سيف الدولة أبي الفتوح، فوصف حُسن استقباله له وإكرامه إيَّاه. [7] كذلك صور ابن مسلم جانباً من ترف الحياة عند الأثرياء الذين

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٣) ـ دهش: الدهش: ذهاب العقل من الذهل والوله، وقيل من الفزع ونحوه (اللسان: مادة دهش).

(٤) ـ الصرد: البرد، قيل شدته (اللسان: مادة صرد).

(٥) ـ البرحاء: الشدة والمشحة: وخص بعضها به شدة الحمى (اللسان: مادة برح).

(٦) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٣٦.

(٧) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

زارهم في رحلته هذه،[١] وقد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن مظاهر الترف والمجون في المجتمع الأندلسي وتصوير أدب الرسائل لذلك.

وقد اختتم ابن مسلم رسالته بوصف توجُّهه إلى حضرة المعتضد بن عبّاد بإشبيلية، وقد عرج قبل ذلك على قرطبة، وصوَّر تلك الحالة التي آلت إليها هذه المدينة بعد انهيار الخلافة الأموية، حيث وقف على معالم الحضارة العربية الإسلامية التي بقيت شاهدة على روعتها، كالمسجد الجامع بقرطبة الذي يمتاز بعظمة البناء وضخامته.[٢]

ونجد مثالاً آخر على وصف الرحلات في رسالة كتبها أبو عامر بن الأصيلي[٣] إلى ذي الوزارتين أبي محمد بن أبي الفرج،[٤] وقد كشف لنا في هذه الرسالة عن رحلة قام بها إلى بعض المدن الأندلسية كبلنسية وشنتمرية ودانية وجزيرة شقر وغيرها، حيث يقول «والله لقد جُبْتُ البلادَ وبَلَوْتُ العِبَادَ»[٥].

وقد افتتح رسالته بالحديث عَمَّا لقيه من مهانة، ومانالَه من مضرة على يد أهل جزيرة شقر، حيث يقول: «وخرجت على بلنسية جبرها الله، راكب حمار، ولابس أطمار،[٦] كأنني سُلِبْتُ في الطريق... إلى أن وافيت الجزيرة وآمالي بها كثيرة، ونزلت منها على مقدار شأوي، وقدَّمت كتابك إلى الوزيرين الجليلين... وكان من بِرِّهما أني نزلت خلف السُّور، أخزى نزولِ...».[٧]

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٣٢.

(٢) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٣.

٣) ـ هو أبو عامر محمد بن الأصيلي، كان جوابة آفاق، ومن كبار فحول الشعراء والكُتَّاب في القرن الخامس الهجري (انظر ترجمته في الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨٥٧، الخريدة: ج ٢، ص ٣٠٨. المغرب: ج ٢، ص ٤٤٤).

(٤) ـ لم يعثر الباحث على ترجمة له.

(٥) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٣١٠.

(٦) ـ أطمار: جمع طمر وهو الثوب الخلق (اللسان: مادة طمر).

(٧) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٣١٠.

الطَّرْدِيَّات

لقد أولع العرب في المشرق بالصيد في مختلف عصورهم، ولم يكن باباً من أبواب الترف التي يلهو فيها الملوك وكبار رجال الدولة دون غيرهم، وإنَّما كانت رياضة يشترك فيها الصعلوك المنسحق الأطمار والملك الجبّار على السواء، ذلك أنها ضرب من ضروب الرزق، ومتعة من متع النفس، ولون من ألوان الحرب أيام السلم. (١)

وقد ألِفَ الشعراء العرب في المشرق أن ينظموا قصائد الطرديات يصفون فيها تتبعهم للظبي أو لحمار الوحش أو الطير، ويصفون أحياناً أدوات الصيد من كلاب وصقور ورماح وخيول،(٢) وكان عبد الحميد الكاتب قد نقل الطَّرْدِيَّات من الشعر إلى النثر حيث كتب رسالة وصف فيها رحلة صيد في البِّر. (٣)

أمَّا في الأندلس فقد أقبل كثير من أمراء بني أمية وخلفائهم على الصيد، وقد بلغ اهتمامهم به أنهم خصَّصوا خطة للصيد بالبزاة وغيرها من الجوارح، يتولاَّها بعض ثقات الأمير. (٤) وقد استمرَّ هذا التقليد متبعاً في الأندلس طوال القرن الخامس الهجري، حيث كان ملوك الطوائف وأبناء الطبقة المترفة يدربون صقورهم وجوارحهم وكلابهم على الصيد في نواحٍ مختلفة من أُشْبُونة ولَبْلَة(٥)، وجبال الشرق في الأندلس وجزر البليار. وتزخر كتب الأدب الأندلسي بأمثلة شعرية كثيرة تسجِّل مناظر الصيد وأدواته المختلفة من شواهين وبزاة وكلاب وغيرها. وكان الكُتَّاب يشتركون في رحلات

---

(١) ـ انظر: البيزرة: ص ٤، ٦، ٢٠.

(٢) ـ انظر: دائرة المعارف الإسلامية: مادة «أبو نواس».

(٣) ـ انظر: جمهرة رسائل العرب: ج ٢، ص ٥٤٤.

(٤) ـ انظر: البيان المغرب: ج ٢، ص ١٥٩، الحلة السيراء: ج ١، ص ٤١ ـ ٤٢.

(٥) ـ لبلة: في غرب الأندلس مدينة قديمة، بينها وبين إشبيلية عشرون ميلاً (انظر: الروض

الصيد[1] لذلك كان من الطبيعي أن يصفوها ويصوروا ما كان يحدث فيها، من وصف الحيوان والطير وأدوات الصيد التي كانوا يستخدمونها، وكانوا يصفون أيضاً سرورهم بالصيد وماينعمون به من سعادة.

ولقد تأثَّرت الطَّرْدِيَّات كغيرها من فنون الرسائل بطبيعة البيئة الأندلسية، فكثرت فيها التشبيهات المستمدة من بيئتهم المحيطة بهم، كما أنهم قد جدَّدوا في فن الطرد، وأكثروا من الحديث عن صيد البحر الذي كان لهم فضل السبق وعلم التجديد فيه.

ومن أشهر الطَّرْدِيَّات رسالة طويلة لابن الحَنَّاط،[2] جاءت في إطار قصصي ممتع، وفيها مشاهد مختلفة للصيد. فمنها ماجاء في وصف الصيد بجوارح الطير، ومنها ماجاء في وصفه بضواري الحيوان، ولم يقتصره على وصف صيد الحيوان والطير، وإنَّما وصف أيضاً صيد البحر، وهو لون جديد يمتاز بالطرافة والجدة، فوصف أدوات الصيد، من سفن وشباك، كما وصف الصيد من سمك وحيتان.

لقد خرج الكاتب في ثُلَّة من صحبه، فلما «توسطوا وهدأت الرُّبا، عَنَّتْ لهم أسرابُ الظِّبا» ومن ثمَّ بدأوا أن عملية المطاردة والقنص «فغادرناها بين جريح مضرّج بدمائه، وقتيل يجود بدمائه»[3].

ولما قضوا مآربهم من صيد الظباء، انقلبوا آخر الليل إلى روضة غناء، فنزل الركب للاستراحة والأكل والشرب. ويصف الكاتب الروض الجميل الفتان الذي نزلوا فيه، وماحواه من ورد وبهار ونواوير، ووصف السماء الملبدة بالغيوم، والسحاب

المعطار: ص ٥٠٧).

(١) ـ انظر: الخريدة: ج ٣، ص ٥٣٩.

(٢) ـ هو أبو عبد الله محمد بن سليمان الرغيني المعروف بابن الحَنَّاط، كان متقدماً في الآداب والبلاغة والشعر، توفي حوالي سنة ٤٣٠ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة: ص ٥٧. ، بغية الملتمس: ص ٦٧، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٣٧).

(٣) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

الثقيل والطل وتصفيق الرياح وثني الأغصان، وترجيع الطيور وشدوها، حيث يقول: «فلما قرب، وصُفَّ شواء وصهب، تعاطينا لحمًا كالعقيق، وتهادينا شحما كالشقيق، ثم قام كلٌّ إلى جواده يَمَشُّ[1] بعرفه كفّيه، ويمسح بشعبه بين عينيه، ونحن إذ ذاك بحيث تضاحك الورد والبهار، وتفاوح النَّور والأنوار، وأرضنا بمخضرِّ نبتٍ صاغ النَّور تاجه، وحاك القطر ديباجه، وسماؤنا غُدافِيَّةُ[2] الإهاب، جامعة السحاب، فماء الندى مسكوب، ورواق الطَّل مضروب، والريح تعصف، والغصن يتثنّى، والقنبرة تصرصر، والبلبل يتغنَّى . . .».[3]

لقد رسم صورة جميلة للطبيعة، حيث الأضواء والألوان التي تدل على الحياة، وجعل من الطبيعة كائناً حياً يشاركهم سرورهم ولهوهم.

ويختتم الكاتب هذا المشهد الجميل بالحديث عن مجلس الخمرة الذي أقبل عليه ورفاقه، ويصف الساقي، ويتغزل بجماله الفتان وقوامه وشعره المتدلي على خديه وثغره وخصره، ويربط بين جماله وجمال الطبيعة الفتان، يقول: «وجعلت الكأس تدور. . . غزال في كَفِّـهِ منهـا الغزالة، وهلال تحفّه من أصداغه[4] هالة، تنفَّس الصبح من طوقه، وعسعس ليل الشعر من فوقه، كأن الجُلنَّارَ من خَدِّهِ خُلِقَ، والأقحوان من ثغره سرق، ذو خصرٍ جَوَّالِ الوشاح، وبَشَرٍ كالدر بِنَهد التفاح».[5]

وتمضي هذه الرحلة من صيد البر إلى صيد البحر، فيصف ركوبهم البحر، وتصيدهم لأصناف السمك منه، وقد ركَّز على وصف الحركة ودقتها، حيث اندفعت الزَّوارق بشدة كأنها تسير بأجنحة الغربان، وتتحرك مقدماتها كأنها أعناق الغزلان، ويحسبهـا الناظرون تسير فوق مجموعات من الخيول المصفوفة، يقول: «وأقبلت

---

(١) - يَمَشُّ: يمسح يده لينظفها ويقطع دسمها (اللسان: مادة مشش).

(٢) - يقال أغدفت المرأة قناعها: أرسلته (اللسان: مادة غدف).

(٣) - الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٤) - الأصداغ: الشعر المتدلي على الخدود (انظر: اللسان: مادة صدغ)

(٥) - الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٩.

الزوارق تهفو بقوادم غربان، وتعطو[1] بسوالف غزلان، تخالها في سمائه أهِلَّةً مكسوفةً، وتحسبها فوق مائه رعيل دُهمٍ مصفوفةٍ». [2]

ويصف بعد ذلك أدوات الصيد كالشبكة والصنانير، ويصورها تصويراً رائعاً، فالصنانير شبيهة بأظفار الصقر، دقيقة الصنع، مصقولة شديدة البرق واللمعان، رقيقة حادة، يقول: «ابتدر المَلاَّحُون، فبعض إلى شباك الحرير، وبعض إلى صنانير، قد عطفها القين[3] كالرَّاء، وصَيَّرها الصقل كاللآلاء، فجاءت أحدَّ من الإبر، وأرقَّ من الشَّعر، كأنَّها صُرَد، [4] أو نصف حلقة زرد. . . » . [5]

ثم يصف ماأفاء الله عليهم من أنواع السمك والحيتان، ويرسم صورة جميلة، حيث طلعت عليهم «النِّيْنَان[6] أشباه النجوم، تُبرق بريق الصوارم المسلولة، وتلمع لمعان الذوابل[7] المصقولة، مُدَنَّرة[8] الأصلاب، مُفَضَّضة البطون، مُذَهَّبَة الأفواه، مجزَّعة العيون، تصلُّ صليل السيوف في اضطرابها، وتخطر[9] خطرات الفحول بأذنابها» . [10]

إنَّه يصف تلك الحيتان التي اصطادوها، حيث أن لها بريق السيوف، ولمعان الرماح، مشرقة متلألئة، كأن بطونها مملوءة بالفضة، وأفواهها مذهبة، وتصدر صوتاً كقرع السيوف، وتهتزُّ اهتزاز أعناق الخيول.

---

(١) ـ تعطو: تمد أعناقها متطلعة (انظر اللسان: مادة عطا).

(٢) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٩.

(٣) ـ القَيْنُ: الحداد (اللسان: مادة قين).

(٤) ـ الصرد: طائر كبير الرأس يصطاد العصافير (اللسان: مادة صرد).

(٥) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٩.

(٦) ـ النِّيْنَانُ: الحيتان (انظر اللسان: مادة نون).

(٧) ـ الذُّوابل: جمع ذابل وهو القنا الدقيق اللاصق (انظر اللسان: مادة ذبل).

(٨) ـ مُدَنَّرَةٌ: يقال دنر وجهه، أي أشرق وتلألأ كالدينار (اللسان: مادة دنر).

(٩) ـ تَخْطِرُ: تهتز وتضرب بأعناقها يميناً وشمالاً (اللسان مادة خطر).

(١٠) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

كذلك فقد وصف ابن الحنَّاط في فصل آخر من الرسالة الصيد بضواري الحيوان، حيث تحدَّث عن مطاردة كلب لقطع من الحمر الوحشية التي عنت لهم وهم يتجولون في تلك الخمائل الجميلة. لقد فتك الكلب بسرب الحمر الوحشية، وانقضَّ عليها بشراهة حتَّى إذا عثر على إحداها انقضَّ عليه بأنيابه الحادة، فكسر ظهره، وشقَّ عنه جلده، وقد أصابوا من ذلك شيئاً كثيراً، يقول: «فغشيه كالغيث، وأخذه كالليث، ففقر فقاره بشفاره، وقدَّ قميصه بأضفاره، وتلاحقنا به، وقد أكبَّ على صيده وقعد، كأنها فريسة بين ساعدي أسد، فروَّيناه من دمه، وحللنا بينه وبين أدَمِه، فتهيَّأ لنا من السوانح ماأردناه». [1]

ووصف ابن الحنَّاط الصيد بجوارح الطير، حيث وصف مطاردة باز لقطاة. [2]

وقد كتب الفتح بن خاقان أيضاً رسالة في هذا الموضوع، نجد فيها بالمثل خصائص رسائل الطِّرد، من تصوير للحركة العنيفة، وارتباط بالحالة الشعورية للصائدين، حين «سنح لهم في البسائط سانح، وارتاع من رجَّة الموكب آمِنٌ سارح، قد اتَّخذ العشب حُجْراً . . . فمرق كالسَّهم يمرُق من فوق، ومرَّ لايستمسك بواضح طريق، فتارة يسلك مستبيناً، وتارةً لايُعَرِّجُ شمالاً ولايميناً». [3]

ولقد كانت عملية المطاردة بالخيل وبجوارح الطير معاً، ويصفها بأنَّها كانت عنيفة، ولكن انتهت بمحصول وافر من الصيد، ملأوا منه حقائبهم، حيث «مازالت الجياد تباري استنانه، وذوات المخلب تُحاكي روغانه، حَتَّى غارت عليه الأرضُ قنصاً، وساقته إلينا قنصاً، فعلقته كفُّ كائدٍ، لاحبالة صائد، فأخذه صاغراً، وفم الحمام قد تعرَّض له فاغراً، فذكَّاه بشفرته، وقذف زاده في ثغرته، ومازلنا نستوفر عددها، ونقصر أمدها، حتى ملأت الحقائب، واتبعت الركائب». [4]

(١) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٣٠٣.

(٢) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

(٣) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٥٣٩، وانظر أيضاً رسالة لابن خفاجة في وصف الطرد بجوارح الطير في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٦٤٥

(٤) ـ الخريدة: ج ٣ ص ٥٣٩.

ولما قضوا مآربهم من الصيد، وقد أذكت الهاجرة شواظ لهيبها، انتقلوا إلى حدائق غناء للاستراحة والشرب.[1]

(١) - انظر: المصدر السابق نفسه: ج ٣، ص ٥٣٩.

الرَّسائِلُ الدِّيوانيَّةُ

ذكرنا سابقاً أن الرسائل الديوانية هي تلك الرسائل التي تعالج أمور السياسة العامة للدولة، من حيث الإدارة والتنظيم الداخلي والتشريع والقضاء والاقتصاد، وما إليها من مهام تتعلق بالحياة العامة وشؤون الرعية. ويظهر للباحث أن الرسائل الديوانية التي انتهت إلينا من هذا العصر قليلة جداً، ولعل ذلك يعود إلى أن كثيراً من المؤرخين قد أغفلوا هذا اللون من الرسائل، وركَّزوا على تلك الرسائل التي تعالج موضوعات بعيدة عن الدولة وأحوالها، هذا إلى جانب ضياع كثير من هذه الرسائل وعدم وصولها إلينا. ومن الملاحظ أنه قد شارك في كتابة هذه الرسائل إلى جانب كبار الأدباء والكُتَّاب والوزراء الأمراء والملوك، [1] ولاسيما أن كثيراً منهم كان من كبار الأدباء والكُتَّاب.

ومن الأغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الديوانية في هذه الفترة التولية والتعيين، ومايتعلق بتنظيم أمور الدولة وتسيير شؤون الحكم من خلال الوظائف الإدارية والقضائية التي عرفتها إمارات الطوائف.

ونجد مثالاً على ذلك فيما كتبه بُلُكِّين بن باديس بخطِّ يده إلى القاضي أبي عبد الله بن الحسن الجُذامي يُولّيه الوزارة والقضاء، وقد أشار في مطلع رسالته إلى أمر التكليف، وحدَّد الوظيفة المنوطة به وهي «إقراره على خُطَّة الوزارة، والقضاء في جميع كوره، وأنْ يَجْري من الترفيع والإكرام له، إلى أقصى غاية، وأن يُحْمَل على الجراية في جميع أملاكه بالكُوَرِ المذكورة.. وأنْ يجري في قرابته وخوْله[2] وحاشيته وعامري ضِيعه على المحافظة والبرّ والحُريّة»[3].

---

(١) ـ انظر: الخريدة: ج ٣، ص ٣٧٠، المغرب: ج ١، ص ٣٦٥، الاحاطة: ج ١، ص ٤٣٣.

(٢) ـ الخول: العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية (اللسان: مادة خول).

(٣) ـ الاحاطة: ج ١، ص ٤٣٣.

وتدل هذه الرسالة على أن رسائل التولية والتعيين كانت تصدر للوزراء والقضاة والولاة وغيرهم مبصِّرة بشؤون التنظيم الداخلي الذي تقتضيه سياسة الدولة، حيث ترسم السياسة العامة التي يجب أن يسلكها الوزير والقاضي والوالي في إدارة شؤون الرعية، وهي هنا تقوم على البِّر والحريَّة.

ومن الرسائل التي جاءت ترسم خطوط السياسة العامة الداخلية للحاكم في التعامل مع الرعية وسياستها ومداخلتها، ماكتبه ابن طاهر في تولية حاكم على إحدى جهاته، وقد افتتحها بالإشارة إلى أمر التكليف كما مرَّ بنا في الرسالة السابقة، ثم بيَّن له أنه قد اختاره لمعرفته به، وثقته بدينه، وخبرته في الإدارة، يقول: «قَلَّدْتُ فلاناً سلَّمه الله النَّظر في أحكام فلانه، وتخيَّرتُهُ لها بعد ماخَبِرتَه واستخلفته، وقد عرفته واثقاً بدينه، راجياً لتحصينه، لأنه إن احتاط سلم، وإن أضاع أثم».[1]

ثم يحدد له بإيجاز الأحكام والقواعد العامة التي يجب أن يسير في ضوئها القضاء في مجلس الحكم، ولاسيَّما أن للقضاء مكانة من نظام الدولة، لما يحققه من عدالة لاتستتبُّ الأمور بدونها، ولايتهيأ للرعية استقرار مادي ومعنوي دون أن يتوفر القاضي العادل النزيه، لهذا فإنّ عليه أن يتحرَّى الحقَّ في الحكم، وأن يقيم العدل، ويسوّي بين الخصوم، وأن يأخذ للمظلوم حقه من الظالم، يقول: «فليُقِم الحق على أركانه، وليضع العدل في ميزانه، وليسوّ بين خصومه، وليأخذ من الظالم لمظلومه، وليقف في الحكم عند اشتباهه».[2]

ومن هذه الرسائل التي استوعبت جوانب من إدارة شؤون الرعية، وتنظيم مرافق حياتها المختلفة، ما أملاه المتوكل بن الأفطس إلى كاتبه ابن خيرة،[3] بإدارة شؤون اشبونة، حيث رسم له «من وجوه الذبِّ والحماية، ومعالم الرفق والرعاية،

---

(١) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٣٧٠.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٣، ص ٣٧٠.

(٣) ـ هو أبو عبد الله بن خيرة، وزير قائد من وزراء وقواد وكُتَّاب المتوكل بن الأفطس (انظر: القلائد: ص ٤٥).

ماالتـزم الاستيفاء بعهده والوقف عند حدّه». [1] ثم حدّد مسؤولياته، وواجبات الرعية، وحقّ كلٍّ منهما، والحدود التي يجب أن يقف عندها. [2]

ومن الأغراض المهمة التي طرقتها الرسائل الديوانية، الأوامر والتوجيهات والوصايا الإدارية المختلفة، التي كان الأمراء يرسلونها إلى ولاتهم وعمّالهم وكُتّابهم في مختلف نواحي إماراتهم، وذلك حين يحسُّ الأمير بتقصير أو خيانة أو خطأ منهم. ومن ذلك رسالة كتبها أبو بكر القروي [3] عن بعض الأمراء جواباً عن كتاب ورد من بعض العمال الجهّال، يهوِّل فيه، وقد وضح فيها خطأ الوالي، ولفت انتباهه إلى الطريقة السليمة التي يجب عليه أن يتّبعها في مخاطبة من هم أعلى منه رتبة، وذلك في إطار من اللوم والتقريع، حيث يقول: «وقفنا على كتابك الذي طال فقصر، وكبر حجمه فصغر، صدَّرته بنون التَّعظيم، وسطَّرته بمجدك الحديث والقديم، وخاطبتنا فيه بالألفاظ الحجّابيّة، التي تُخاطب بها غوغاء الرعيّة، ارجع ـ أصلحك الله ـ عن هذا الأدب، وتأدّب في خطابك لذوي الرُّتب...». [4]

ومن الرسائل الديوانية التي تبصّر قضاة الدولة بشؤون القضاء عندما تعترضهم صعوبات، أو تواجههم مشكلات، ماكتبه أبو بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله بن حمدين، [5] وهي تعتبر وثيقـة هامة، ودستوراً للقضاء الأندلسي، بما حوته في ثناياها من تلك الأصول القضائية والفقهية العامة التي تتعلق بشؤون القضاء وأحوال القائمين بأعبائه.

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) ـ انظر القلائد: ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) ـ هو أبو بكر بن الحسن المرادي القروي، من كبار الفقهاء والأدباء الوافدين على الأندلس في القرن الخامس الهجري (انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٣٦٤).

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٤ م ١، ص ٣٦٥.

(٥) ـ هو محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين، كان من أهل التفنن في العلوم، حافظاً ذكياً تولى القضاء بقرطبة، وتوفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر: الصلة: ج ١، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

وقد عني بتحديد الأصول الشرعية التي يجب عليه أن يستقي منها أصول الحكم، ويسير في ضوئها في ممارسته لمهمة القضاء، ومايجب أن يتحلّى به من صفات وأمور كثيرة، حيث يقول: «فاستهدِ الله يَهْدِك، واستعن بالله يُعِنْك في صَدَرِك وورِدك، وتولَّ القضاء الذي ولّاكه الله بجدٍّ وحزمٍ، وجلدٍ وعزمٍ، وأمضِ القضايا على ماأمضاها الله تعالى في كتابه وسنَّةِ نبيه، ولاتبالِ برغمِ راغمٍ، ولاتُشفق من ملامة لائمٍ».[1]

ثم أسدى إليه عدداً من النصائح، وأوضح له كثيراً من الأمور التي يجب أن يلتزم بها في مجلس القضاء، كالمساواة بين المتخاصمين، في الوجه والمجلس، والعدل، والنظر إلى الضعيف بعين القوة والعزة والمنعة حتى يحصل على حقه، والنصح لله ولـرسوله ولجماعة المسلمين، حيث يقول: «وآس بين النَّاس في وجهك وعدلك ومجلسك، حَتَّى لايطمع قوي في حيفك، ولاييأس ضعيف من عدلك، ولايكن عندك أقوى من الضَّعيف حَتَّى تأخذ الحقَّ له، ولاأضعف من القويِّ حَتَّى تأخذ الحقَّ منه، وانصح لله تعالى ولرسوله عليه السَّلام، ولنا ولجماعة المُسلمين».[2]

ويحدّد واجبات الرعية تجاه القاضي، ويدعوهم إلى طاعته والالتزام بأحكامه، ويدعو القاضي نفسه إلى محاسبة العُمَّال والولاة، وحلِّ المشكلات التي تحصل بينهم وبين الرعيَّة بالحكمة والحقِّ، واعتماد الدليل الواضح والحجة القاطعة، حيث عهد إلى الرعية أن «يسلِّموا لك في كلِّ حقٍّ تُمضيه، ولايعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أولاً، وكلُّهم آخراً مذ صُرتَ قاضياً، سامعون منك، غير معترضين في حقٍّ عليك، والعُمَّال والرَّعيَّة كافةً سواء في الحقِّ، فإن شكت إليك بعاملٍ، وصحَّ عندك ظلمه لها، ولايتَّجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله، وإن شكا العامل من رعيَّته خلافاً في الواجب فأشكه منها، وقوِّمها له».[3]

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٦١.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٢٦١.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

والمتأمِّل في نصِّ هذه الرسالة يلاحظ بوضوح أنَّ الكاتب قد اقتبس خطوطها العامة وقواعدها الرئيسية من رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء، وهي رسالة مشهورة تعدُّ من الدساتير الدقيقة الواضحة في القضاء ومايتعلق به من واجبات وحقوق كل من القاضي والمتقاضين أمامه.(١)

ومن الأغراض التي طرقتها الرسائل الديوانية العزل عن الولاية عندما يحسُّ الأمير بخيانة أحد ولاته، أو تقصيره في أداء واجب من واجباته المنوطة به. ومن الأمثلة على ذلك رسالة المتوكل بن الأفطس إلى وزيره أبي الوليد بن الحضرمي، وقد صرفه عن الولاية لاساءته التصرف. وقد أشار فيها إلى علاقته السابقة بوزيره وثقته العظيمة فيه، ولكنه أساء التصرف وقصَّر في واجبه مما كان له أثر غير حسن سبَّب ضعف الدولة، وقلَّة احترام الناس لها، يقول مخاطباً إيَّاه: «لكنَّك كُنْتَ كالمثل السائر (شوى أخوك حتَّى إذا أنضج رَمَّد)(٣) حَتَّى أطمعت فيَّ العدوَّ، ولبست لأهل حضرتي الاستكبار والعُتُوّ، واستهنت بجيرانك، وتوهَّمت أنَّ المروءة التزام زهوك، وتعظيم شأنك، حتى أخرجت النفوس عليَّ وعليك».(٤)

ومن ألوان الرسائل الديوانية أيضاً ماكان يصدر على شكل منشورات أو بيانات عامة، توجَّه باسم الأمير إلى العُمَّال، وتتعلق بشأن من شؤون الرعية. ومن ذلك ماأورده ابن بسام من إشارات إلى عدد من الرِّقاع التي كانت تكتب على ألسنة ملوك الطوائف، وتوجَّه إلى العمّال في استعجال قبض الضرائب، وذلك لدفع الأتاوة السنوية التي يتقاضاها الأذفونش.(٥)

---

(١) ـ انظر نص الرسالة في: عيون الأخبار: ج ١، ص ٦٦، العقد الفريد: ج ١، ص ١٦.

(٢) ـ هو أبو الوليد بن الحضرمي، وزر للمتوكل بن الأفطس. فداخله تيه وعجب وتجبر كرهه من أجلها أصحاب الدولة فعزله المتوكل (انظر: المغرب: ج ١، ص ٣٦٥، النفح: ج ٣، ص ٤٥٠).

(٣) ـ يضرب لمن يفسد اصطناعه بالمن (انظر: مجمع الأمثال: ج ٢، ص ٢٤٣).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٤٦ ـ ٦٤٧.

(٥) ـ انظر المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٢٥٢.

وفي مقدمة هذه الرسائل ماكتبه إلى قواد البلاد على لسان المعتمد بن عبَّاد، حيث يقول: «الحال مع العدوِّ- قصمه الله - بيِّنةٌ لاتخفى، ومداراته - مالم تكن مضاهاته - أولى وأحرى - والتزم له في الصلح المتَّفق عليه جملة مالٍ رسم عليك منه. . . فعجِّلِ النَّظر فيه، وابعثه، بكتابٍ تجاوب على ظهره بوصوله. . .».(1)

إنَّ هذا اللون من الرسائل يكشف لنا عن عدم قدرة ملوك الطوائف على مواجهة الأذفونش وتلبية مطالبه، مما اضطرهم إلى مسايرته، والإذعان إليه، ودفع مبالغ طائلة له. وقد أدَّى ذلك إلى فرض ضرائب باهظة أثقلوا بها كواهل رعاياهم.

ويلاحظ مما سبق أن الرسائل الديوانية بجانب قيمتها الأدبية، تعتبر وثائق مهمة تكشف لنا عن بعض مظاهر التنظيم الإداري والقضائي والمالي، وأدب الراعي والرعية، ودستور الحاكم والمحكومين في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

(1) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٥٢.

الرَّسائل الإخوانية

ذكرنا فيما تقدَّم أن موضوعات هذا اللون من الرسائل كثيرة ومتعددة، وهي على كثرتها تندرج في مجموعتين، أولهما: الرسائل الإخوانية شبه الرسمية، وهي تلك الرسائل التي تحتفظ بالبعد الاجتماعي بين الكاتب والمخاطب، أي أنَّها تلك الرسائل التي يتبادلها الأمير أو الوزير مع من هم دونه في المرتبة الاجتماعية في أمور خاصة. وثانيهما الرسائل الإخوانية الذاتية، وهي التي تتناول مايدور بين الأصدقاء من عتاب وشوق وعزاء، وما إلى ذلك من العواطف.

لقد أخذت الرسائل الإخوانية في القرن الخامس الهجريِّ تزاحم الشعر وتطرق أبوابه، وليس ذلك غريباً، إذ إن معظم كبار الشعراء هم كبار المترسلين، من أمثال ابن بُرْدٍ الأصغر، وابن زَيْدُون، وابن عمَّار، وابن طاهر، وابن القصيرة، وابن أبي الخصال وغيرهم.

ولعل من المناسب أن نشير إلى أن هذا اللون من الرسائل يشكل جزءاً كبيراً مما انتهى إلينا. ولقد استطاعت هذه الرسائل أن تتناول جانباً كبيراً من العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد المجتمع الأندلسي، والتي غالباً ماتقوم على المودة والحب والصدق والوفاء، مما يعد جانباً مشرقاً من حياة المجتمع الأندلسي. وفي موضوعات الهجاء والذمِّ والاعتذار التي تعبر عن الجانب السلبي في العلاقات الاجتماعية، وهو أمر طبيعي كائن في كل مجتمع.

رسائل المديح:

احتلَّ موضوع المديح مكانة عظمى في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجريِّ. ويندرج في مجموعتين، أولهما مديح الإخاء والمودة والصداقة ومايتعلَّق بهما، والتعبير عن المشاعر الصادقة والعواطف النَّبيلة التي تجمع بين

الأصدقاء. إذ أنَّ مكاتبة الصديق كما يقول أبو محمَّد بن عبد البِّر «عِوَضٌ من لقائه، إذا امتنع اللقاء، واستدعاء لأنبائه إذا انقطعت الأنباء، وفيهما أنس تلذّ به النفس، وارتياح تنعش به الأرواح، وارتباط يتَّصل فيه الاغتباط».[1]

أمَّا النوع الثاني فيتمثل في مدح الأمراء والوزراء والتودّد إليهم على غرار ماكان يفعل الشعراء. ولقد دارت مدائح الكُتَّاب حول الصفات التي كانت تعتبر في ذلك القرن أمهات الفضائل، وهي الكرم والجود والصدق والحميَّة والشجاعة والإباء، وقد يضاف إليها فصاحة اللسان وقوة البيان.

ومَّما جاء في مدح الأصدقاء والتودّد إليهم،[1] ماكتبه أبو القاسم ابن الجدِّ، حيث ركز على الأخلاق الفاضلة والشمائل الرفيعة التي تحلَّى بها صديقه، فهو «حامل آدابٍ ومعارفٍ، ولابسٌ من خلع الفضل مطارف، ومتميِّزٌ بفضول محاسن منحت جمالها، ومتفرِّد بخواصٍّ فضائل جمعت كمالها».[2]

كذلك فقد تكشف رسائل المديح عن مشاعر الشوق والحنين إلى الإخوة والأصدقاء، وعمَّا يعانونه من غربة وفراق، وتبين أن بعد المسافة لايحول دون اللقاء، وأنَّ الزَّمان مهما طال فإنه لابدَّ من أن يجمع الله شمل الأصدقاء، ومع ذلك فإن القلوب مجتمعة متآلفة متلاقية، ومن ذلك ماكتبه أبو جعفر بن أحمد، حيث يقول مخاطباً أحد أصدقائه: «كيف لاأراقب مراقي النُّجوم، وأطالب مآقي العين بالسُّجوم، وقد أنذر بالفراق منذر، وحذَّر من لحاق البين محذِّر، وياليت ليلنا غير محجوبٍ، وشمسنا لاتطلع بعد وجوب، فلا نروع بالصداع، ولانفجع بوداع».[3]
ومَّما جاء في تصوير المشاعر والأحاسيس التي يعاني منها الكاتب نتيجة بعده عن أحبائه وأصدقائه، ماكتبه أبو بكر بن سعيد البَطَلْيَوْسي مخاطباً أبا الحسين بن

---

(١) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٤٦٠.

انظر رسالة أبي المطرف بن الدباغ في هذا الموضوع في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٩٧.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٣٠٠.

(٣) ـ القلائد: ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

سراج، وفيها تصوير دقيق لمعاني المودة والصداقة، وهي تنمّ عن شوق ولهفة إلى اللقاء، وفعل المعجزات لولا عوائق الزمان، يقول: «لولا أنَّ عوائق الزَّمان - أدام الله عزَّك - تعـوق لسـاعدت إليك نزاعي، وانقدت في حبل شوقي واطِّلاعي، ولاستبطأت السلاهب، (١) واستهجنت الجُرد (٢) اليعابب، (٣) واتَّخذت المجرَّة سبيلاً، وسُهَيْلاً دليلاً، ولامتطيتُ الأفلاك، وتترَّست بالثريَّا... هذا لو أردتُ البَّر ومقاساة السَّهل منه والوعر...» (٤)

وامتدح الكُتَّاب غيرهم من الأدباء والكُتَّاب والعلماء، ويدلُّ ذلك على مبلغ إعجابهم بالأدب والعلم وصناعة الكتابة وفضل العلماء، فلقد امتدحوا العلماء والمفكرين، وبينوا قوة بيانهم، وعذوبة ألسنتهم وروعة أقلامهم، فهذا أبو محمد بن غانم(٥) يمدح صديقه أبا الحسن الحصريَّ برسالة فيها كثير من التقدير لأدبه وعلمه، فقد وصفه بالبلاغة وفصاحة اللسان، ووضوح البيان، يقول: «ماأفصح لسانك، وأفسح ميدانك، وأوضح بيانك، وأرجح ميزانك... أيُّها السابق المتمهّلُ في ميدان النُّبل، والسامق المتطوِّل بفضائل الذكاء والفضل... أنت واحد البلاغة الذي لايُجارى، وفارس الفصاحة الذي لايُبارى». (٦)

---

(١) - السلاهب: جمع السلهب والسلهب من الخيل: الطويل على وجه الأرض (اللسان: مادة سلهب).

(٢) - الجُرَدُ: جمع أجرد: وهو الجواد قصير الشعر (اللسان: مادة جرد).

(٣) - اليعابب: جمع اليعبوب: وهو الفرس الطويل السريع، أو الجواد البعيد القدر في الجري (اللسان: مادة عبب).

(٤) - إحكام صنعة الكلام: ص ١٤٠ - ١٤١.

(٥) - هو غانم بن وليد بن محمد المخزومي، من أهل مالَقَة. توفي سنة ٤٧٠ هـ (انظر: ترجمته في: ؛ الجذوة: ص ٣٢٥ - ٣٢٦، المطمح: ص ٢٩٣ - ٢٩٤، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٥٣.

(٦) - الذخيرة ق ١ م ٢، ص ٨٥٦ - ٨٥٧، وانظر أيضاً رسالة أبي الحسن صالح بن صالح الشنتمري إلى الوزير الفقيه أبي الحسين بن سراج: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٥٧٦.

ولأبي محمد بن عبد البرّ عن المعتضد إلى أبي عمر أبيه من رسالة يشير فيها إلى مكانته بين أهل عصره، وانتشار علمه، وينعته بأنه واحد عصره، يقول: «فضلك في كلِّ قُطْرٍ كالمشاهد، وشخصك في كلِّ نفسٍ غير متباعدٍ، فأنت واحد عصرك، وقريع دهرك، علمًا بيدك لواؤه، وفضلاً إليك اعتزاؤه، وكنت كذلك والناس موفورون، والشيوخ أحياء يُرزقون، فكيف وقد درس الأعلام والكُدَى،[1] وانتُزِعَ العلم بقبض العلماء فانقضى...».[2]

ثم يشير إلى مكانته الرفيعة في نفس المعتضد، وإلى ظمأ الناس إلى علمه ومعرفته، يقول: «ولم تزل نفسي إليك جانحةً، وعيني نحوك طامحةً، انجذاباً إلى العلم ورغبةً فيه، ومنافسةً في قضاء حقوق حامليه، والنّاس عندنا إلى ماعندك ظماء، ولدينا الداء، وأنت الشفاء، فاجعل بفضلك للغرب منك نصيب الشرق».[3]

ومهما يكن من أمر فإنَّ هذه الرسائل تدلُّ على المكانة الرفيعة التي كان العلماء والمفكرون والكُتَّاب يحتلونها في المجتمع الأندلسي آنذاك، كما تدلُّ على ازدهار الحركة الثقافية والعلمية، واهتمام الأمراء بها.

وقد احتلَّ مدح الأمراء والوزراء منزلة رفيعة في رسائل المديح، حيث رسموا لهم صورة مثالية كتلك الصورة التي رسمها الشعراء، فهذا ابن خفاجة يمدح أحد الأمراء، وينعته بصفاته وشمائله الحميدة المتمثِّلة في المجد والبأس والفهم والحلم والكرم والسؤدد والعزم والحزم والإقدام، حيث يقول: «مثل الأمير ـ مِمَّن المجد من أعداده، والبأس من أجناده، والفهم من طلائعه، والحلم من طبائعه، والكرم من حلاه، والسؤدد من علاه، والعزم من خدمه، والحزم من شِيَمِهِ، والإقدام والإكرام والإنعام من صفاته، والرياسة والنفاسة والسياسة من سماته، والفضل من أخلاقه، والشرفُ من أعراقه»[4]

(١) ـ الكُدَى: جمع كُدْية، وهي الأرض المرتفعة (اللسان: مادة كدا).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٣٤.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٣٤.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٥٦٠.

لقد كشف ابن خفاجة في نهاية رسالته عن هدفه من هذا المديح، فهو يسعى إلى الحصول على صك من الأمير ليبقى في ظله، حيث يقول: «وأنا أرغب من فضله... أن يخصّني بصكٍّ كريمٍ أُحْيي به معالم شرفي، وأُباهي بمحاسنه فارط سلفي». (١)

ومدح ابن شرف القيرواني في رسالة باديس بن حَبُّوس صاحب غرناطة، وتغنّى بصفاته ومناقبه الحميدة المتمثِّلة في الكرم والحزم، وقوة البأس، ومضاء العزيمة، وسداد الرأي، ويبالغ في إثبات هذه الصفات لباديس، فيجعله يفوق على الذين عرفوا بهذه الصفات. ويشير إلى أنه صاحب علم واسع، وأنه متعلق بطلب العلم والأدب تعلقاً عظيماً، فهو أمير قد سخَّر ماله وثروته لذلك، يقول: «مُغْرىً بالأدب المهجور بل المطرود، سالياً عن المال المعشوق، بل المعبود، منفقاً للحمد الدَّفين المرسوس إلى صنوفٍ من الفضائل، وأنواع من الجلائل، لايحيط بها الوصف، ولايجمعها الرَّصف، يُغني النَّقْل الكافيُّ، والتّواتُرُ الإجماعيُّ عن تأتيتها على ألسنة الأقلام إلى أفهام الأنام». (٢)

ولأبي المُطَرِّف بن مثنى رسالة في مدح المأمون بن ذي النُّون، وذكر محاسنه «التي هي كالنُّجوم اعتلاء، والصباح انجلاء، والروض بهاء».

ويصوّره وقد حاز أعظم الفخار، ويثني على نسبه وحسبه وحلمه ومضائه وشجاعته وفضله وعدله، وما إلى ذلك من بديع الصفات والمحاسن، فهو «بحر المنن، وفخر الزَّمن، وزعيم الأنام، وكريم الأخوال والأعمام... وأحلم من فرخ الطائر، وأمضى من الحسام الباتر، ومن سجِيَّته الفضل، وسيرته العدل، وقوله الفصل...». (٣)

كذلك فقد مدح الكُتَّاب الوزراء مدحاً يماثل مدحهم الأمراء، فهذا أبو جعفر

---

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٦٠.

(٢) - الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤١٧.

ابن أحمد يمدح أحد الوزراء، ويصفه ببعد الهمة، والسعي إلى العلا، وبناء المجد، يقول: «فإنَّك اتَّخذت إلى العلا طريقاً مختصراً، خَفِيَ عن غيرك، فلا يرى له أثراً، فكلٌّ يرى أساس المجد سعيه لنفسه، واستنفاد وسعه لذاته... وأنت ـ أعزَّك الله ـ إنَّما تشيِّدُ مجدك، بأن تبذل لغيرك جهدك، وتنفق في ذلك ماعندك، وهذا طريق لايهتدي إليه إلّا عيون آرائك، وغرض بعيد لاتصميه إلَّا سهامُ إنحائك...».[1] إنَّه يجعله مفرداً في صفاته وأفعاله، وإماماً لأهل الفضائل.

إنَّ هذا اللون من الرسائل يدلُّ على أن النثر قد دخل ميدان المديح الذي كان بصورة عامة وقفاً على الشعر.

رسائل العتاب والاعتذار:

يمثِّلُ العتاب والاعتذار صورة من صور المودة والصداقة، وآية من آيات الوفاء بين الناس، وتتمثَّل رسائل العتاب في تلك الرسائل التي تدور حول عتاب الكاتب لمخـاطب في أمر ساءه منه، فأوجب عتابه له. أمَّا رسائل الاعتذار فيدبجها الكاتب عندما يقترف ذنباً، أو يرتكب جريرةً، ثم يعتذر عنها.

وتتباين صور العتاب بين اللين والرقة والقسوة والشدة، وذلك بحسب نفسية الكاتب وحالته والغرض الذي استثاره، فدبَّج رسالته فيه. وقد كانت بعض الرسائل تبدأ بالحديث عن العلاقة التي تربط الكاتب بالمخاطب، ومافيها من معاني الصداقة والمودة والألفة، ومن ذلك ماجاء في رسالة لابن بُرْد الأصغر، حيث يقول معاتباً صديقه: «اظلم لي جوُّ صفائك، وتوعَّرَتْ عليَّ أرْضُ إخائِكَ، وأراك جَلْدَ الضمير على العتاب، غير ناقع الغُلَّة من الجفاء. فليت شعري ما الذي أقْسى مهجة ذلك الوُدّ، وأذوى زهرة ذلك العهد؟ ـ عهدي بك وصلتنا تفرق من اسم القطيعة، ومودَّتنا تسمو على صفة العتاب، ونسبة الجفاء، واليوم هي آنس بذلك من الرَّضيعِ بالثَّدي».[2]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ٧٦٧.

(٢) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠١.

ومن رسائل العتاب التي تركز على المودة والألفة والصداقة أيضاً، تلك الرسالة التي كتبها ابن شهيد إلى مجاهد العامري، يعاتبه فيها على إهماله للصداقة التي كانت بينهما، بسبب انشغاله بالسياسة وتصريف أمور الدولة. وقد افتتح رسالته بتذكير مجاهد بأيام الشباب، والصلات التي كانت تربط بينهما آنذاك، وماكان من اشتغالهما بالآداب والعلوم قبل أن يفرق الزمان صحبتهما، ويحتفظ لمجاهد بمستقبل لامع، يقول: «كُنَّا قبل أن ترمي بنا النَّوى مراميها، وتُلقي الخطوب علينا مراسيها... تِرَبى صحبةٍ، وحَلِيفَيْ صَبْوَةٍ، قد تخلّينا عن الأنساب، وانتسبنا إلى الآداب، والدَّارُ إذ ذاك صِقبٌ،[1] والملتقى كثب،[2] فإذا شمخ بأحدنا مارن،[3] وثار به كمد[4] ساكن، بعتبٍ على زمن، وتقصيرٍ بإرادةٍ عن سكنٍ، تعاطينا كأس الشكوى، وتجاذبنا حبل البلوى... ثم ألقت الأيَّام علينا بكلكلٍ، وأناخت من فوقنا بجران، فنثرتنا بكلِّ فجٍّ عميقٍ، وأفقٍ سحيقٍ، نثر الدُّرر، شذر مذر، ونفحت عليك رياح السَّعد...».[5]

ثم يعاتبه على إهماله الصداقة التي كانت بينهما، حيث لم يعد يكتب له خشية أن يستفيد ابن شهيد من منصبه السامي، يقول: «فكان أول حيصتك عن الوفاء، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء، أن تركت المخاطبة، وأضربت عن المُكاتبة، خشية أن يكون كَلُّنا عليك، ورغبتنا في ما لديك»[6].

ويبعد عن ذهنه الظن بأنه يريد أن يستفيد من منصبه السامي، إذ «يأبى ذلك كرم محض، وهمة علياء مالها خفض».[7] ومع ذلك فهو مايزال محافظاً على

(١) - صِقبٌ: يقال أصقبت الدار: أي دنت وقربت (اللسان: مادة صقب).

(٢) - كثبٌ: القرب (اللسان: مادة كثب).

(٣) - المَارنُ: طرف الأنف (اللسان: مادة مرن).

(٤) - الكمدُ: الحزن المكتوم (اللسان: مادة كمد).

(٥) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٢٨.

(٦) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٢٨.

(٧) - المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٢٢٨.

معاني الود والوفاء له «وإنّما الوصل بالفؤاد لابالمداد، والإلتقاء بالحلوم لابالجسوم، فانطويت على وُدٍّ وَثَبَتُّ على صحة عقدٍ» .[1]

ويشير إلى فعل الواشين الذين أرادوا قطع مابينهما من صحبة وصداقة، ويدافع عن نفسه، ويذكر أنه سوف يأتي اليوم الذي ينصفه فيه مجاهد، ويعيد الحقَّ إلى نصابه، ويرجع ماكان بينهما من مودة وأخاء، حيث يقول: «ولقيت إخواناً لقوك، فوالذي جعل الغدر من شعارهم، والحذر من دثارهم، ماأجروا في ذكرك فضلاً على أن يجروا ذكري لك، وهم يعلمون أنَّ مرماي غير مرماهم، ومغزاي سوى مغزاهم، ويوقنون أنَّ أبعد آمالي في صديقٍ إذا سما، وأرفع رغباتي لديه إذا طمى، انفراج بابه، وانهتاك حجابه، يمتعني بإشراق وجهه، ويوردني غير بشره. . . ويضربني بسواي من أهل زمانه، ولايقلِّلُ من حظي من إكرامه، ولايهجر قسطي من لطيف اهتمامه، بعد أن يعدل القسطاس، ويميز الذَّهب من النحاس. . . لابدَّ أن تُوفى الرجال مقاديرها في أزمانها» .[2]

ومن رسائل العتاب التي نلمس فيها شيئاً من القوة والعنف ماكتبه ابن قُزْمان[3] إلى بعض إخوانه، وقد افتتحها بالحديث عن تلك الصلات الوثيقة التي كانت تربط بينهما من صداقة ومودة وأدب، حيث يقول: «ماأكثر الأشياء الجامعة لنا: أدب كروض الحزن، وَوُدٌّ كصوب المزن، وأوليَّةٌ كرم تاريخها، واتَّصلت أسانيدها، لاينكر فضلها، ولاتُذَمُّ عهودها، وأسلاف سلفت بينهم صحبة حميدة، وأذمَّةٌ وكيدة. . .» .[4]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٢٨.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠، وانظر: رسالة للمتوكل بن الأفطس إلى أخيه يحيى يعاتبه برقة ولين عندما اتّصل به أنه قدح بمجلس المنصور: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٤٩.

(٣) ـ هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان، كان أديباً لبقاً، راوية للغة والأدب، اتخذه المتوكل صاحب بَطَلْيَوس كاتباً ومشيراً، توفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر ترجمته في: الخريدة: ج ٣، ص ٤٦٥، المغرب: ج ١، ص ٩٩).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٧٤.

ويبين له أنه مايزال محافظاً على وده له، ويكشف له عن شوقه لرؤيته، فهو مازال «على تراخي المزار، وتنازح الأقطار، أُوُدُّك كلَّ الوداد، وأعتقدك أصح الاعتقاد، وألحظُك بعين الإعظام، وأقترح لقاءك على الأيام، معرفةً بسبقِك، وتوفيةً لحقِّك، وتوقاً إلى مطالعة تلك الطِّباع الرَّقيقة». [1]

ويعاتبه بعد ذلك ويلومه على مالمسه من تغيّر في معاملته له، وانصراف عن مقابلته له عندما قدّر لهما أن يكونا في مجلس واحد، حيث يقول: «إلى أن دخلت على فلان ومعه فلان، وأنت حاضرهما، فحين لمحتك عرفتك، بما كان ثبت عندي من صفتك. . . وعند أخذي لمقعدي رأيتك قد وحيت إلى من كان يليك ووحى إليك، فانثنيت وقد زويت مابين عينيك، وشمّرت أنفك ومَعَّرْتَ وجهك، وضممت إليك ثيابك، وقاربت بين أجزائك، فقلت: أراه ازدرى طلعتي، وتقذُّر هيأتي، وخشي أن أعديه بسوء حالتي. . . شيء خرقت به عادة أمثالك، وخالفت فيه سيرة نظرائك». [2]

ومن رسائل العتاب الشديد رسالة لأبي عبد الله بن البزليانيِّ، يخاطب بها صديقاً له، وقد زاره ولم يوفِّه حقَّه، مما أثار غضبه إذ عدَّ ذلك إهانة وتصغيراً لشأنه وتحقيراً لشخصه، فوجَّه إليه اللوم والعتاب الشديد، يقول: «وجئتك زائراً، فكأنِّي جئتك آملاً، وأردت مصافحتك فما مددت يداً، وطلبت معانقتك فخلتك مُقعداً، وبعد أن هممت بالنهوض أقعدك الكسل، كأنَّك خمصانة [3] أثقلها الكفل، . . . فما كان ضرَّك حين أخللت لو أجللت، وماكان يسوؤك حين ناظرت لو أجملت، وماكان ينقصك حين حكمت لو عدلت؟». [4]

ويردُّ عليه بعض التهم التي رماه بها، ويجعلها مردودة عليه، منسوبة إليه، وهو في أثناء ذلك يثأر لنفسه، ويقلل من شأن مخاطبه، حيث يقول: «ومن العجب

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٧٤ ـ ٧٧٥.
(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٧٥ ـ ٧٧٦.
(٣) ـ الخُمْصَانَةُ: المرأة الجائعة الضامرة البطن (اللسان: مادة خمص).
(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٤.

أن تنسبني إلى الشَّعوذة، وهي حصنك إذا غلبت، وتلحنّي في النُّطق وهي عادتك إذا كتبت. ولعمري لقد قُلتها ولقد جهلتها، وتركتها وماعرفتها، وكما أنَّ بركة الأشجـار في الأنوار، فكذلك بركة الأدب في الرَّسائل والأشعار، فأين رسائلك وأشعارك، ومؤلفاتك وآثارك؟ هيهات هيهات: غلبك على الحقِّ أهله، ونفاك عنه جهله». [1]

ومن رسائل الاعتذار التي نحت منحى الرقة واللين تلك الرسالة التي وجهها ابن شهيد إلى المؤتمن بن أبي عامر يعتذر إليه عن عدم اللحاق به، وذلك أن تعلقه بقُرْطُبَةَ وحبّه لها، قد حال دون ذلك، حيث يقول: «وقد كان أقلَّ حُقوقِ مولاي أن أقف ببابه، وأُخيِّمَ بفنائه، وأُهدي إليه الشُّكر غَضاً، وأنْثُر عليه المدح نَضّاً، ولكنّي ممنوع، وعن إرادتي مقموع، [2] يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير، شيء غلب صبر الأتقياء، واستـولى على عزم الأنبياء، وهو العشق... لعجوزٍ بخراء، [3] سهكةٍ [4] درداء، [5] تُدعى قُرْطُبَةَ». [6]

ولابن زيدون رسالة مزج فيها بين العتاب والاعتذار، ويبدو أنَّه كتبها وهو مختفٍ بقُرْطُبَةَ بعد هروبه من السجن، قد افتتحها بمعاتبة مخاطبه، لأنه أشفق من اتِّهامه، وتنصَّل من مشاركته في محنته، ثم أنه قد أصغى إلى من يعيب على ابن زيدون فراره من السجن، يقول: «أبدأُ من كتابي إليك، بشرح الضرورة الحافزة إلى ماصنعت، مما بلغني أنَّك صدر اللائمين لي عليه، وأول المُسفِّهين لرأيي فيه... وأوسِّطُهُ بمعاتبتك على ماكان من انفصالك عَنّي، وبراءتك أمد المحنة مِنّي...». [7]

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥.

(٢) ـ القمع: الردع والكف (اللسان: مادة قمع).

(٣) ـ بَخْرَاء: البخر: النتن يكون في الفم وغيره، يقال: بخر بخرا وهو أبخر وهي بخراء.

(٤) ـ سَهِكَةٌ: السهك: ريح كريهة تجدها من الإنسان إذا عرق، تقول: إنه لسهك الريح، وهو سهك، وهي سهكة (اللسان: مادة سهك).

(٥) ـ دَرْدَاء: يقال أنثى درداء، ليس في فمها سن (اللسان: مادة درد).

(٦) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٧) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٤٠٨.

ثم يأخذ ابن زيدون بتبرير هروبه من السجن بأدلة وحجج وبراهين، ويرد العتب عنه، ذلك أنَّ الظروف القاسية التي عاشها في السجن هي التي دفعته إلى ذلك، فلقد نُقل من أحد السجون إلى «حيث الجناة المفسدون، واللصوص المقيدون.. فلم أستطع صبراً، وعلمتُ أنّي قد أُبليت عُذراً، ولم يبقَ لي إلاَّ أن يعذرني لبيد وكاد،[1] ورأيت أنَّ العاجز من لايستبدُّ... وذكرت أنَّ الفرار من الظلم، والهرب مِمَّا لايُطاق من سننِ المرسلين».[2]

ولايقف ابن زيدون في رسالته هذه عند حدود العتاب والاعتذار، فحسب، بل يتعداهما إلى استعطاف المخاطب، وطلب يد العون والمساعدة منه[3].

رسائل التَّهنئة:

لقد كان كثير من الكُتَّاب الأندلسيين محافظين على معاني الصداقة والمودة بينهم. فإذا ماأصاب أحد الأمراء أو الوزراء أو الأصدقاء خير من اعتلائه منصباً، أو اختياره لعمل جليل، أو خلاصه من نكبة، أو وهبه الله تعالى مولوداً، هنَّأه أصحابه من الكُتَّاب وشاركوه في أفراحه.

ومن ذلك رسالة لابن خفاجة في التهنئة بالقضاء وتثنية الوزارة، وقد افتتحها بالحديث عن طبيعة التدرج في الأشياء، ليكشف لنا عن تدرج صاحبه في اعتلاء المناصب الكريمة إلى أن انتهى به الأمر إلى تولي القضاء، وتثنية الوزارة، يقول: «ومثلك من شهدت له مخايل الولاية باكتهال السّيادة، واكتهال السّعادة، وإنَّ القضاء، وإنْ شرف مرتبةً، وكرم مأثرةً ومنقبةً، ليضيق عن نصل فضلك غمده، ويغرق في بحر فخرك مَدُّه... وليهنىء الوزارة أن شدَّت بجيدك عُراها، ونيطت

(١) - إشارة إلى قول لبيد (ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر)، أي أنه أدى كل مافي طوقه، ولم يبق إلا أن ينجو فاراً من السجن.

(٢) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤١٢.

(٣) - انظر بقية الرسالة في: المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٤١٣ - ٤١٧.

بنحرك حلاها، . . . وإنّهما في تضافرهما لك وحسنهما بك لعقد ثُني بعقدٍ، وعلمان رقما في بُرْدٍ». [1]

ويبين بعد ذلك أثر اعتلائه القضاء وتثنيته الوزارة على الدين، حيث يقول: «وإنّ الدّين لمشتدٌ بك أزره، فعنانه على الرّائض صعب، وعوده على الغامز صلب». [2]

ويختتم رسالته بمدح صديقه، وبالإشارة إلى فضائله وصفاته التي جعلته أهلاً لاعتلاء هذين المنصبين الكريمين، يقول: «وقد سامَتْ الليالي ذاتك تجريباً وتهذيباً، وقوّمت قناتك أنبوباً فأنبوباً، حتّى خَلُصتَ خلوص الذّهب على اللّهب، والدّينار على النّار. . وإنَّ أفقاً أنت بدر تمامه لينطح السماء منكبه، ويزحف تحت راية الفتح والفلج[3] موكبه». [4]

ولابن طاهر رسالة يهنىء بها أحد أصدقائه، وقد ثُنّيت له الوزارة، وقد افتتحها بالإشارة إلى فرحه وسروره بهذه المناسبة، يقول: «وإنَّ بشرايَ تتابعت أنَّ هلالك في الوزارة طلع بدراً، وأنَّ نداءك بها صار شفعاً وكان وتراً». [5]

ثم هو يهنّئه ويمدحه ويشير إلى صفاته وفضائله العظيمة التي تشرّفت الوزارة باعتلائه إيّاها، يقول: «وإنّك مقلّدها من خلالك فذّاً وتؤاماً، وملبسها من صفاتك طُرُزاً وأعلاماً، حسن يقين، ومتانة دين، وطيب جذمٍ،[6] ورسوخ ورع وعلم، وأدباً كالرّوض نبّهه الصّبا، وكرماً كالغيث غمر الرُّبى». [7]

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦.
(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٥٥٦.
(٣) ـ الفلج: الظفر الفوز (اللسان: مادة فلج).
(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٥٦.
(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٦٤.
(٦) ـ الجِذْمُ: أصل الشيء (اللسان: مادة جذم).
(٧) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٦٤.

ومما كُتِبَ في التهنئة بمولود، تلك الرسالة التي كتبها أبو القاسم ابن الجدّ يهنىء فيها أحد أصدقائه بمولود وهبه الله له بعد طول انتظار، يقول: «إنَّ أحقَّ ماانبسط فيه للتهنئة لسان، وتشرَّف في ميادين معانيه بيان وبنان، أمل رُجِّيَ فتأبّى زماناً، واستُدعي فلوى عِناناً، وطاردته الُمنى فأتبعها حيناً، وغازلته الهمم فأسعرها حنيناً، ثم طلع غير مرتقبٍ، وورد من صحبة المباهج في عسكرٍ لُجُبٍ، فكان كالمشير إلى مابعده من مواكب الآمال». [1]

ويمتدح مقدم هذا المولود السَّعيد، ويبين أثر مقدمه في نفوس الناس، ومابعثه فيها من سرور وسعادة، فيا له نجم سعادة تطلع في أفق سيادة، وغصن سناء، تفرَّع من دوحة علاء، لقد تهلّلت وجوه المحاسن باستهلاله، وأقبلت وفود الميامين باستقباله، ونُظِّمَتْ له قلائدُ التهائم من جوهر المكارم». [2]

ثم يعقد مقابلة بين حال أهل المولود قبل أن يهبه الله لهم وحالهم بعده، ويبالغ في الثناء والإطراء عليهم، حيث يقول: «وماكان منبت الشرف بانفراد تلك الأرومة الكريمة إلَّا مقشعرَّ الرُّبى، مُغبَّر الثَّرى، متهافت أغصان الرِّضى، فأمَّا وقد اهتزَّ في أيكة السِّيادة قضيب، ونشأ من بيت النَّجابة نجيب، فأخلق بذلك المنبت أن تعاوده نضرته، وترفَّ عليه حبرته، ويراجعه رونقه وبهاؤه..». [3]

ويختتم رسالته بحمد الله على عظيم هبته، و «على مأأتاحه من انثناء الأمل بعد جماحه، واختيال الجذل [4] في حِلْيةِ غُرَرِهِ وأوضاحِهِ» [5].

ومن التَّهنئة بمولود ماجاء في رسالة لأبي محمد بن غانم يخاطب بها بعض

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٩٣.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٢٩٣.

(٤) ـ الجَذَلُ: أصل الشيء الباقي (اللسان: مادة جذل).

(٥) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٩٣.

إخوانه بغرناطة يهنئه «بالفارس المولود، والفرع المودود، والنجم السعيد، الذي تطلّع بأفق سمائك، وتلفّع بلفاع ضيائك، مُلّيته ولداً براً، ووفياً حراً» .[1]

ومما جاء في التهنئة بخلاص من نكبة، رسالة لأبي مروان بن حَيَّان يهنىء بها بعض العُمّال بخلاصه من نكبة، ويكشف عن سروره العظيم وارتياحه الكبير بهذه المناسبة، فكتابة عن «نفس قد أشرق وجه صباحها، وهبّت رياح ارتياحها، وسرى نفس السرور فيها، بما طلع علينا من البشائر السَّارة بخلاصك، وجميل انفكاكك ومناصك» .[2]

ثم يصوِّر حالي المخاطب في النكبة وبعدها، ويبين أثر هاتين الحالتين على مخاطبه، وعلى الناس من أهل الفضائل، إذ «بلغت قلوب الأوداء[3] الحناجر، وكادت موارد الحزن لاتكون لها مصادر، فإنّ الأيَّام عمَّت فيك باساءتها إليك، كلَّ مُنْتَسبٍ، إلى فضلٍ، متَّسم باسم نُبلٍ» .[4]

رسائل الشكوى:

لقد تناول الكُتَّاب الأندلسيون الشكوى في أغراضها المختلفة، فقد شكوا الزمان وأهله، وقلة الوفاء، وندرة الإخوان، وكثرة الفساد، وشكوا الفقر الذي لازم بعضهم، والمرض الذي ألم بهم.

وممن شكا الزَّمان وأحواله ابن التَّاكُرنِّي الذي كتب رسالة خاطب بها أبا جعفر ابن عبَّاس، يشكو إليه تقلُّب الزمان، وفساد الأحوال، وتنكر الإخوان، وكثرة المفسدين والواشين، ولقد كتب كتابه عن «نفسٍ تفيض بمائها، وتجيش بذمائها، وتشكو إلى الله عظيم أدوائها، غيظاً على تقلُّب الزَّمان، وعجباً من تنكر الإخوان، لايلفظني عجب إلاّ إلى مثله، ولاأنتقل من مستغربٍ إلاّ إلى شكله، إن أبرمت

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٢٩٥.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٥٨٤.

(٣) ـ الأوْدَاء: جمع وديد وهو المحب (اللسان: مادة ودد).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥.

حبلاً من الإخاء، نقض المفسدون مريرته، أو ملأت يديَّ بمن أعتدُّ به للشدَّة والرخاء، أفسد الواشون سريرته». (1)

ولابن خفاجة رسالة يشكو فيها فساد الأحوال، وفعل الزَّمان، ويعبّر عن لوعته وحزنه الشديد لانتثار عقد الأحباب، وذهاب أيام صفائهم، يقول: «وماتذكَّرت عطل نحر الزَّمان، من قلائد الإخوان، وكيف كرَّ الدَّهرُ فمحا محاسن تلك الصَّحيفة، وطوى طوامير تلك الشّبيبةِ، إلاَّ انقدحت بصدري لوعة، لو أنَّها بالحجر لانفطر فانفجر، أو بالنَّجمِ لانكدر فانتثر. فصِرْنَا لانتلاقى إلاَّ بالذكّر، ولانتراءى إلاَّ بالفِكرِ..». (2)

كذلك فقد شكا بعض الكُتَّاب سوء أحوالهم النفسية والصحية، وذهاب بعض أجزائهم، ومن ذلك ماكتبه أبو المغيرة بن حزم يشكو فساد حاله، وضعف بنيته، حيث يقول: «وحالي حال للسّقام، بها اتّصال، وللصحة عنها انفصال، يعين على ذلك ضعف البنية، وفساد الأهوية، والتَّخليط في الأغذية». (3)

وكتب أبو الفضل بن حَسْدَاي رسالة على لسان المنجم بـ «لاردة»(4) يشكو فيها سوء حاله، وقد ذهبت إحدى عينيه: «وجرَّعتني أحداث الدهر غُصصاً، وعدتُ مثلوماً منتقصاً، مشوَّهاً بعد اقتبال الجمال، مؤنس اليمين موحش الشمال، كأنّي شق في قفرٍ، أو حوت موسى في بحرٍ، وقد صُنتها برقعةِ خِمَارٍ أسودَ، وأدَّعي أنّي أشكو الرَّمد، وربَّما سقط فأتبعه باليد». (5)

إنَّه يصوِّر حاله ولواعج نفسه المتصدعة بوقع المصيبة تصويراً دقيقاً، يبعث الأسى والحزن في النفس.

---

(1) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٢٩.

(2) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٥٥.

(3) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ١٥٤.

(4) ـ لاردة: مدينة في ثغر الأندلس الشرقي، ابتنيت على نهر يخرج من أرض جليقية يعرف بشيقر (انظر: الروض المعطار: ص ٥٠٨).

(5) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٧٥.

رسائل الرِّثاء والتَّعازي:

تحتلُّ رسائل الرِّثاء والتَّعازي منزلة رفيعة في الرسائل الإخوانية، فهي تنمُّ عن إحساس صادق بالمصاب، وتصور لواعج النفس المتصدِّعة بوقع الفجيعة تصويراً دقيقاً. ومن الملاحظ أن أغلب رسائل الرِّثاء والتَّعازي التي انتهت إلينا تأتي في ثلاثة فواصل، هي الندب والرِّثاء والتَّعزية، ولايخلو بعضها من مقدِّمة وعظية تصور الدُّنيا التَّافهة. فقد كان كثير من كُتَّاب الرسائل يفتتحونها بالحديث عن الدُّنيا وتفاهتها، حيث يتخذ الكاتب من حادثة الموت التي يتحدَّث عنها مجالاً للتفكير في حقيقة الحياة وصروفها، وقد ينتهي به هذا إلى التفكير في معانٍ فلسفية عميقة، فإذا هو يؤكد حقيقة أن الحياة زائلة تافهة، وبعد هذه المقدمة ينتقل الكاتب إلى إظهار التفجُّع على الميت، وذكر مناقبه وخصائله، ثم ينتقل إلى العزاء والتَّرحم والدُّعاء للميت والمخاطب.

ومن الأمثلة على هذا اللون من الرسائل رسالة لابن طاهر، افتتحها بالإشارة إلى أنَّ الدُّنيا مبنيَّة على المصائب والمحن، وأنَّ العاقل من أعدَّ نفسه لذلك، بصدر رحب وقلب صلب، فلا يصيبه خور ولاضعف، وفي ذلك وعظ ودعوة إلى الصبر على شدائد الحياة ومكارهها، حيث يقول: «الدُّنيا ـ صرف الله عنك صروفها ـ على الفجائع مبنيَّةٌ، وإنَّ الحازم من وطَّن لأحداثها، وأيقن بانتكاثها فأوسعها صدراً رحيباً، وقلباً صليباً». (١)

ثم يشير إلى المتوفَّى، ويعبّر عن تفجُّعه وأسفه عليه، وحزنه الشديد لهذا المصاب الأليم، حيث كتب رسالته «والدمع محدور، وقد حُمَّ قضاء، ونفذ مقدور، بوفاة الولد الطَّيب المبارك أبي عبد الله ابننا، وقرّة أعيننا». (٢)

وينتقل بعد ذلك إلى تأبينه، فيصف مآثره ويعدد محامده، فيقول بأنَّه «كان مرجواً في الأبناء، معدوداً في النجباء، للسّيادة مرشحاً، وبالفضائل موشحاً، ينهلُّ

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٧٨.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٧٨.

الخير من أعطافه، ويعجب الدَّهر من أوصافِهِ، أكرِمْ بِهِ مِن سَلِيلٍ»(١).

ويحاول أن يخفّف من مصيبة مخاطبه ولوعته، فيختتم رسالته بالإشارة إلى قضاء الله وإرادته التي قضت بفناء الناس، يقول: «ولكن يأبى الله إلاَّ مايُريد، فأسعد بجواره، ونعم السَّعيد». (٢)

ولأبي عمر الباجيِّ رسالة بعث بها إلى ابن أبي عامر يعزّيه في ابنه المعتز، وقد افتتحها بتصوير الفاجعة وفداحة المصاب، وجلال الرزء، ويشير إلى مشاركته والد المتوفى حالة الحزن والمأساة، يقول: «أذهلتني فجأة الخطب، وتركتني طائر القلب واللبِّ، وقد رماني ساعدُ الزّمان حين رماك، وأصماني سهمه كما أصماك، وثارت إليَّ فجائعه من حيث ثارت إليك... أيُّ رزء ماأفظعه في القلوب، وأيُّ خطبٍ ماأشنعه في الخطوب، وأيُّ مصاب ماأحقَّه بالأسى». (٣)

ثم يلجأ إلى التخفيف من لوعة مخاطبه وشجونه، ويدعوه إلى التسليم لله والرضا بقضائه، والصَّبر على امتحانه احتساباً للأجر فلقد «أنعم الله عليك بنعمى متّعك بها ماشاء، ثم صنع في بعضٍ ماشاء، فإن تقابل بالاحتساب قدره النَّازل، وبالتفويض قضاءه العادل، فأحرِ بحزنك أن يعود سروراً، وبصدعك أن يكون بثواب الله مجبوراً». (٤)

ويلاحظ الباحث أن رسائل الرِّثاء والتَّعزية التي كان يصوغها الكُتَّاب على ألسنة الأمراء، كانت تجمع بين المديح والرِّثاء، فتصوّر المخاطب صاحب عزيمة قوية، وقلب ثابت وعلم واسع، وما إلى ذلك من الفضائل والصفات. ومن ذلك رسالة لأبي محمد بن عبد البِّر عن علي بن مجاهد العامري إلى ابن أبي عامر في التَّعزية

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ٧٨ - ٧٩.

(٣) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٤) المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ١٨٩ - ١٩٠.

بوفاة أحد أبنائه. وقد افتتحها بمدحه والثناء عليه، مبيناً أن رجلاً مثله يتّصف بأصالة الرأي، وسعة العلم وجلال القدر، حري به أن لايتأثر بهذا المصاب، حيث يقول: «لو استغنى ـ أعزَّك الله بالصبر، وأيَّدك بالنَّصر ـ أحد عن التَّعزية، واكتفى مصاب عن التَّسلية لأصالة رأي وسعة علمٍ، وجلالة قدرٍ، وجزالة نفسٍ، وشدّة كظمٍ، لكنت أنت الغنيَّ عن ذلك، لإحاطة علمك بتقلُّب الأيام، وتصرُّف الأحوال، وارتفاع قدرك عن أن يملأ الزمان صدرك، وتبلغ المحن صبرك، فأنت أصلب عوداً من أن تروعك المصائب، وأشدُّ من أن تضعضعك النَّوائب».[1]

ثم يخفف عنه ويدعوه إلى الصبر احتساباً للأجر، حيث يقول: «لئن جلَّ الخطب، وعظم الكرب، فالثواب بقدر المصاب، والعطية بحسب الرَّزية وإنَّما الأجر بالصَّبر، والجزاء مع العزاء».[2] ويختتم رسالته بقوله: «إنَّ كلَّ خطبٍ ماعداك يسير، وكلَّ رزء إذا تخطّاك حقير».[3]

ومما يلاحظ أن هناك نوعاً آخر من رسائل الرِّثاء الَّتي ازدهرت في الأندلس، وهو العزاء في المحارم. ويشكِّلُ رثاء المرأة سلسلة متواصلة الحلقات في الأدب الأندلسي، من هنا فإننا نجد عدداً من الكُتَّاب الأندلسيين يعزّون في الأمهات والزوجات والأخوات.[4]

ومن الأمثلة على ذلك رسالة لأبي محمد بن عبد البر إلى بعض أصدقائه يعزّيه في والدته، وقد افتتحها بالحديث عن الدَّهر وتقلباته، والأيام وتصرفاتها، فهي «تُحلي وتُمِرُّ، والأقدار تسوء وتُسِرُّ، والرزايا تَتَطرَّف وتتحيَّفُ، والمنايا تستدرجُ وتتخطَّفُ».[5]

ويذكر بعد ذلك المتوفية، ويعبِّر عن حزنه وتفجُّعه مشاركةً لصديقه، حيث

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٢٢.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٢٢.

(٤) ـ انظر: ابن عميرة: ص ٢٣٣.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٨.

يقول: «واتَّصل بي وفاة الوالدة، المرجوِّ لك دعوتها، المبلوَّة بركتها، فساءني يعلم الله، أن يطرق خطبُ حِمَاك، ويطأ رُزْءٌ ذَراك، مشاركةً لك في المُهمِّ، ووقوعاً معك تحت الحادث المُلِمِّ». (١)

ثم هو يعزّيه، ويدعوه إلى الصبر واحتمال المصاب، إذ أنَّ الموت حقٌّ يشملُ النَّاس جميعاً، لهذا فهو يرجو «أن تشدَّ له عزائم عزائك، وتحمله على كبد احتمالك، وتقلب إليه مِجَنَّ اصطبارك، وتذكي عليه قبس اعتبارك، فتعلم كثرته وجموحه، وتذكر شموله وعمومه، وتستشعر أنَّه عرف لانكر،وعوان لا يكر، فتتأسَّى بكثرةِ الباكين، على الهالكين، وتتعزَّى بسرعة اللاحقين، على السابقين». (٢)

ومن رسائل الرِّثاء الطريفة تلك الرسائل التي تجمع بين التَّعزية والتهنئة، وهي على غرار ماكان يفعله الشعراء، والرسائل في هذا الميدان نادرة، ولعل ذلك يعود إلى أن الإجادة في هذا الميدان، مّما لايتاح لكل كاتب،ممّا لايتاح لكل شاعر. (٣) ومن أشهر الرسائل الأندلسية في ذلك ماكتبه أبومحمد بن عبد البرّ. ويلاحظ أنه قسَّم رسالته إلى قسمين، أولهما في الرِّثاء، وثانيهما في التهنئة، وقد افتتح رسالته بالحديث عن تقلُّب أحوال الدَّهر، وتناوب مساءته ومسراته «فمن عِبرةٍ تفضي إلى عِبرةٍ، ومن مساءة تعقب بمسرَّةٍ، ومن محنةٍ تفتُّر عن محنةٍ، ومن ترحةٍ تقلع عن فرحةٍ». (٤)

ولهذا فإنَّ على الكُتَّاب المختصين المشاركة «في كلِّ ما ناب من حزن، وثاب من حُسن، قد جرت بها العوائد، واستوى فيها الغائب والشاهد، فتلك تُرعى بالدعاء والتهنئة، وهذ تُتَلَقّى بالإطراء والتَّعزية»(٥).

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٨.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٨ ـ ٢١٩، ويجد الباحث أمثلة اخرى من رسائل التعزية في المحارم، انظر رسالة لأبي القاسم بن الجد يعزّي بها أحد أصدقائه بوفاة زوجته في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣١٧.

(٣) ـ العمدة: ج ٢، ص ١٥٥.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٦.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٦.

ويدعو بعد ذلك لمخاطبه بأن يجعل الله «أيام مَسَرَّاتك الأكثر إسعاداً، وأوقات تهنئاتك الأوفر أعداداً».[(1)]

إنَّه يتخذ من هذا الدعاء وسيلة للانتقال إلى المديح والتهنئة بتقلد أحد الأمراء مقاليد الأمور ببلنسية بعد وفاة صاحبها، وما الأمر إلَّا «مُلْكٌ تردَّد في عنصر، وَخَاتِمٌ تَنَقَّلَ من خِنْصِرٍ، وقد سَدَدْتَ - أيَّدك الله - ثَلْماً، وشفيتَ كَلْماً وَسُمْتَ الخطوبَ رَغْمَاً، وأوسَعْتَها هَمّاً»[(2)].

رسائل الشَّفَاعة والوصايا:

وهي تلك الرسائل التي تكتب إلى الرؤساء والوجهاء في حقِّ الكُتَّاب والشعراء والقوَّاد وغيرهم من مختلف الطبقات والأصناف، يدعونهم فيها إلى معونتهم ومساعدتهم والأخذ بيدهم. لقد استخدم كثير من الكُتَّاب المشهورين مكانتهم وقدرهم وأقلامهم في إعانة ذوي الحاجات على قضاء حاجاتهم، فكثرت الوصايا والشَّفاعات التي كانوا يوجهونها إلى الأمراء والوزراء وغيرهم.

ومن الملاحظ أن هذه الرسائل غالباً ماكانت تبدأ بمقدمة في مدح الإخاء والمودة، ثم الإشارة إلى الاحترام المتبادل والصلات القوية التي تربط بين الكاتب والمخاطب، والانتقال بعد ذلك إلى موضوع الشفاعة أو التوصية. وتختتم الرسالة بتوجيه الحمد والشكر إلى المخاطب.

وفي مقدِّمة رسائل الشفاعة تلك التي كتبها ابن شرف القيرواني إلى المظفَّر بن الأفطس، يشفع بها لرجل كان قد أُخِذَ بوشاية عنده. وقد افتتحها بالتعبير عن شوقه لرؤيته وحنينه للالتقاء به، وعن معاني المودَّة التي تربط به، يقول: «كتبت وشوقي إلى شرف لقياه، وشبم سقياه، شوق القارظين[(3)] إلى سكونٍ وسكنى...

(1) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٦.

(2) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(3) ـ القَارِظَان: مثنَّى القرظ: وهو شجر يدبغ به، وقيل هو ورق السلم يدبغ به الأدم، والقارظُ الذي يجمع القرظ، ومن أمثال العرب (لايكون ذلك حتى يؤوب القارظان) وهما رجلان أحدهما

واعتلاقي[1] بذكره اعتلاق مالك وعقيل،[2] وقفا نبك بالملك الضليل... لي رغبة إلى مفاخره، وتطارح بين يدي مآثره، وإدلال على سماحة سجاياه».[3]

ويكشف بعد ذلك عن السبب الذي من أجله أنشأ هذه الرسالة، فقد طلب إليه شيخ من أهل بلده أن يشفع له لدى الأمير، ذلك أنَّه أُخِذَ بوشاية عنده، فأبعده عن وطنه وأهله، يقول: «وذلك أنَّ شيخاً يفناً[4] قصد فنائي، فبكى حتَّى بَلَّ بفضل دموعه ردائي، ومنعه الشَّوق بشجاه، من الكلام على ماارتجاه، ثمَّ ذكر أنَّه كاسِبُ نُسَيّات، وأبو بنين وبنيّات... ووصف أن بغاةً بغوه، وحسدةً آذوه، وتنصَّل من ذنوبٍ قرفوه بها، ومولاي أعلم بصدقها من كذبها».[5]

ويشير ابن شرف إلى أنَّه قد رقَّ لذلك الشيخ الذي تاب عن ذنوبه، وندم عليها، وأظهر حرصاً شديداً، وتعلقاً كبيراً بأهله ووطنه، فيصوّر لنا نفسيته تصويراً مؤثراً، إنَّه يعاني من الغربة والتشرد، ولعل ذلك ممَّا كان يعاني منه ابن شرف أيضاً، يقول: «ولم يُظْهر حِرْصاً إلَّا في الميتةِ الأهليّة والتربية الوطنيَّة، فبكى - علم الله - مع بَاكٍ، وشكا منّي إلى شاكٍ، وذو الشَّكوى يرحم الشَّكوى، لعلمه بمرارة البلوى».[6]

ولهذا فإنَّ ابن شرف يعبِّر عن أمله في تحقيق رغبته بالعفو عن هذا الشيخ، هذا مع إيمانه بعدل المظفر، يقول: «ولاشكَّ أنَّه سيبلغه تفضل المظفَّر بالالتفات إلى ذكري، والعناية ببعض أمري.. وبودّي لو تكلَّفت بآماله، وجمعت بينه وبين أطفاله... إلَّا أنّي - أيّده الله - لاأُوثر مُرادي على مُراده، ولاأشاركه في العلم بأهل

من عنزة، والآخر عامر بن تميم، خرجا ينحيان القرظ ويجتبيانه - فلم يرجعا، فضرب بهما المثل (انظر اللسان مادة قرظ).

(١) - يقال: علق الشيء علقاً وعلق به علاقة وعلوقاً أي لزمه (اللسان: مادة علق).

(٢) - مالك وعقيل: نديما جذيمة (اللسان: مادة ردف).

(٣) - الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٤) - اليفن: الشيخ الكبير (اللسان: مادة يفن).

(٥) - الذخيرة ق ٤ م ١، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٦) - المصدر السابق نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٩٥.

بلاده، إلّا أن يتفضّل بالأحسن الأجمل، عليّ وعلى أبي جعدة نهشلٍ[1] فيعود ـ أيّده الله ـ بفضيلة الإيثار، ويكسبني في النّاس أطيب الأخبار والآثار».[2]

ومن الرسائل في هذا الباب أيضاً رسالة كتبها أبو محمد بن عبد البّر شافعاً وراغباً في «إقالة عثرة عبدٍ من عبيد الدّولة، باخعٍ[3] بحقّ الطاعةِ، خاضعٍ لعزّ القدرة، ماتٍّ بسبب القرابة واللُّحمة».[4]

ويشير إلى أنّ ذلك القائد قد علم بمكانة أبي محمد ومنزلته الرفيعة التي يحظى بها لدى الأمير، ولهذا فقد اتخذه شفيعاً له، حيث يقول: «وقد اتَّخذني سبباً إلى علائه، وسُلَّمًا إلى سمائه، إذ علم أنّي لدولته ـ خلّدها الله ـ وليٌّ، وبدرٌ نعمته غَذِيٌّ، وفي كنفها رَبِيٌّ، ووثق أنّ مثلي من دعاته في القطر الشاسع، وأشياعه في البلد النازح، لايُرَدُّ إذا رغِبَ، ولايُصَدُّ إذا طلب، ولايحرم إذا شفع».[5]

ويشير بعد ذلك إلى أنّه لايعترض على الحكم الذي اتخذه الأمير ضدّ هذا القائد، بل هو يسلم بسياسة الأمير، ويقرّ بعدالة الحكم الذي اتخذه، ومع ذلك فهو لاييأس من صفح الأمير، حيث يقول: «سَلّمتُ بسياسة الدّولة التي منها يستملي الدهر إذا أملى حُكمًا، وعنها يقتبسُ الزّمان إذا ارتأى عزماً، وعلمتُ أنّ لكلّ أجلٍ كتاباً، ولكلّ أمدٍ حساباً، ثمّ لم أيأس من عطفات الملك الأجلّ إذ كان كرمه أكرم شافعٍ إليه، وأنجح وسيلةٍ لديه، يناجيه بلسانِ الشفاعةِ، ويلثم بين يديه بساط الضّراعةِ».[6]

وحَتّى يستدر عطف الأمير فيقبل شفاعته، يشير إلى الأعمال الكثيرة والخدمات

---

(١) ـ كنية الرجل المشفوع له.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٩٥.

(٣) ـ أي بالغ في قهر نفسه واذلالها بالطاعة (اللسان: مادة نجع).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٨.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٨.

(٦) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

الجليلة التي أدَّاها القائد للدولة، وتفانيه وإخلاصه في الدِّفاع عنها، ومقارعة خصومها، فهو «سهمٌ من سهام تلك الدَّولة، على أعدائها، وسيف مسلول دون من يليها من نواحيها وأرجائها، ويقارع من صادَّها، ويعاند من حادَّها». (١)

ويختتم رسالته بالتعبير عن أمله في أن يقبل الأمير شفاعته في هذا القائد، فيحقق رغبته في العفو عنه، فالعيون ناظرةٌ، والآذان مُصيخةٌ، والأعناق مُتطلِّعةٌ، والنفوس متشوِّقةٌ، إلى مايكون من الملك الجليل من مقابلة شفاعتي - إن شاء الله - بالقبول». (٢)

وهناك رسالة كتبها ابن الجبير(٣) إلى قاضي الجماعة بِقُرْطُبَةَ محمد بن حَمْدِين يشفع في قريب له سجن من غير ذنب. وهي لاتخرج عن هذه الخطوط العامة التي تحدَّثنا عنها وأوردنا الأمثلة لها. (٤)

ومن رسائل الوصايا التي كتبت بحق كبار الأدباء الأندلسيين تلك الرسالة التي كتبها أبو الفضل بن حَسْدَاي إلى ابن عَمَّار عنايةً بابن الحداد، وقد ابتدأها بمدح ابن عَمَّار، وذكر فضائله ومايتَّصف به من علو الهمة وسماحة وسعة صدر وكرم مما جعله مقصد العلماء والأدباء، يقول: «وقد أصبحت بفضل الله، حلية الزَّمان، ومفخر الأوان، ومسمى عيون الأفاضل والأعيان، بما نزعت به من كرم الخلائق، وسموّ الهمم السَّوابق، ومازلت - أدام الله عزَّك - تجلو على المتوسلين إليك صفحات البشر، وتُنزلهم في ذَراك عرصات الإجمال والبّر، فتجني ثمراتِ المجد، وتنشق نفحات الشّكر والحمد». (٥)

---

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٩.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١. ص ٢١٠.

(٣) - هو أبو محمد بن حسن المعروف بابن الجبير، ذكر ابن خاقان أنه كان معاصراً له، وأن حرفة الأدب نالته (انظر: القلائد: ص ١٥٤، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٢).

(٤) - انظر الرسالة كاملة في: القلائد ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٥) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٦٨.

وينتقل بعد ذلك إلى موضوعه الأصيل، وهو العناية بابن الحدَّاد الذي كان واحداً من أولئك الذين أرادوا أن يقصدوا بلاط الأمير لفضائله ومكارمه العظيمة، ومع أنَّه يدرك أن ابن عمَّار «أعلى ملحظاً، وأزكى تيقظاً» من أن يغيب عليه مكان ابن الحدَّاد، فإنَّه يعددُ مناقبه ومحاسنه، إذ لم يعاشر أبو الفضل «أكبر منه في البّر والصّلة، ولاأقوم بحقيقة الوُدِّ والخلّة، ولاناسم أطيب منه نفساً، ولاأمتع أنساً، نفاسة خِيْم ،(١) صادرةً عن شرف أروم» .(٢)

ولهذا فهو يرغِّب ابن عمار في أن يقربه منه ويحسن إليه ويعتني به، يقول: «وأنت خليقٌ بالاستكثار من جانبه والإجمال في معونة مطالبه» .(٣)

ولأبي المُطرِّف بن الدَّباغ رسالة يوصي فيها برجل ركبه دينٌ، إذ أنه كان قد وقع في أسر النَّصارى، فدفع في الفداء جميع مافي يديه. وقد افتتح ابن الدَّباغ رسالته بمدح المخاطب والثناء عليه، وذكر جميل فضائله، حيث يقول: «فقد عقد الله على الخير سريرتـك، وصَحَّـحَ في ابتغـاء الأجر بصيرتك، فما تُدعى إلى حسنةٍ إلَّا وأنت سابِقٌ إليها، وموفٍ بسعدك عليها» .(٤)

ويبيّن له حال هذا الـرجـل الـذي يوصيه به فهو «رجلٌ من الثَّغر ووجوه الأطراف، امتحنته الأيَّام في النِّعم، أوان الشَّيخ والهرم، وابتلته بِذُلِّ الأسر، وطول الشَّقاء في دار الكفر، وبحسب حاله في الثروة، ومكانه من النَّجدة، اشتُطَّ عليه، وأُخذ منه في الفداء جميع مافي يديه، وارتهن أولاده في بقايا بقيت عليه» .(٥)

ولهذا فهو يستثير نوازع الخير في نفسِ مخاطبه ليمدَّ يد العون والمساعدة لهذا الرجل احتساباً للأجر، وتفرداً بجمال الذِّكر، يقول: «وأنت بفضلك تحملها في

---

(١) ـ الخِيْمُ: الشيمة والطبيعة والخلق والسجية (اللسان: مادة خيم).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٦٨.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٦٨.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٦٨.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٣١١.

مالك، ولا يضيق عنها حالك، حتّى تفوز وحدك بأجرها، ولا يسهم لغيرك في ذخرها، وتنفرد بجمال الذِّكر في خبره».[1]

وهناك نماذج كثيرة من الوصايا وهي لاتخرج عن هذه الخطوط العامة التي تحدثنا عنها، وأوردنا الأمثلة لها.[2]

رسائل الهجاء:

تعبِّر رسائل الهجاء عن تلك العداوة القوية وعاطفة السخط والغضب والحقد والعداوة تجاه شخص أو جماعة يبغضها الكاتب، أي أنَّ الهجاء يتخذ شكلين هما: هجاء فرديٌّ، عندما يكون المهجو فرداً، وهجاء جماعيٌّ عندما يكون المهجو جماعة.

ويجد الباحث في رسائل الهجاء أنّ الكُتَّاب الأندلسيين سلكوا ثلاثة أساليب تختلط أحياناً وتتمايز أحياناً أخرى، فمِنْهُم من يركِّز على الصّفات الحسيّة للمهجو كالشكل وأعضاء البدن والحركات والنطق، فيرسم له صورة ساخرة مضحكة تنتقصُ من قدره وتحطُّ من شأنه. ومن الكُتَّاب من يتناول الصفات المعنوية للمهجو والتي تخل بكرامته، وتشكِّل المطاعن والنقائض في شخصيته، فهو ينكر عليه فخره، ويسلبه كلَّ مكرمة فينعته بالغدر والخيانة والجبن، والقصور عن مكارم الأخلاق، وما إلى ذلك من الصفات التي يعتبرها العربي عاراً كبيراً. ومنهم من يتناول الصفات العلمية والثقافية، فيتجاهل معرفة المهجو، ويحطُّ من ثقافته، وينكر عليه علمه.

ومهما يكن من أمر فإنَّ رسائل الهجاء ترتبط ارتباطاً وثيقاً برسائل السخرية والتَّهكم، وبرسائل النقد الاجتماعي والسياسي، فهي تعرض لكثير من معاني الهجاء، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ومن رسائل الهجاء الجماعي التي تركِّز على الصفات المعنوية رسالة لأبي عامر ابن الأصبيليِّ كتب بها إلى ذي الوزارتين أبي محمد بن أبي الفرج، يعرِّفه ما لقيه من

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣١١.

(٢) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٥٠٦، ق ٣ م ١، ص ٦٠، ق ٣ م ١، ص ٣١٢.

رؤساء أهل شَنْتَمرِيَّةَ ويذمُّهم، حيث يصفهم بأنهم قد فاقوا الناس في الحمق وضعف العقل، وقلة القدر والخسة والحقارة والجبن والبخل، ويشتدُّ في هجائهم والسخرية من صفاتهم، فيتَّهمهم بأنهم قد ناموا عن المكارم والمثل العليا، يقول: «والله لقد جُبْتُ البلاد، وبلوت العباد، فلا شكَّ عندي ولامرية، أنَّ أرذل النَّاس أهل شَنْتَمَرِيَّةَ، الأوغاد الحثالة، معادن الخساسة والنَّذالة، أخلاق اللُّوم، وروايح الثُّوم، أحلامَ البغال، وأقفاء النِّعال، قومٌ شغلتهم الوراعةُ والطماعةُ عن التَّحلِّي بالجود والشجاعة، ناموا عن المكارم، وتجنَّبوا أخلاق الأكارم». [1]

ومن ذلك أيضاً رسالة لأبي عبد الله بن شرف يهجو فيها جماعة ويحطُّ من صفاتهم المعنوية ويسلبهم كل مكرمة، فينعتهم بالغدر والخيانة، وعدم الوفاء، إنَّهم «إخوان أخون من السَّراب للعين. . . وأشدُّ من طالب دين، على صفر اليدين، ليس فيهم نفع، ولادفع، إن استنصرتهم خذلوك، وإن سئلوا إسلامك بذلوك». [2]

أمَّا رسائل الهجاء الفردي فجاء كثير منها يركِّز على الصِّفات العلمية والفكرية التي تنتقص من قدرة الإنسان، وتحطُّ من شأنه، حيث ينعت الكاتب المهجو بالجهل في أمور الكتابة وأصولها، وأسس البلاغة والبيان، والضعف في اللغة، ومن ذلك رسالة الحُصري التي خاطب بها ابنَ الطُّراوة النحويّ، وهي رسالة فظيعة الهجاء، مركَّزة الهجوم، تنمُّ عن عداوة شديدة، كانت بعد صداقة متينة، ويتهمه فيها بالجهل وادعاء العلم، حيث يقول: «وممَّا أضحكني مِلء فيَّ، وأطاشني وليس الطيش فيَّ، هذا المُتنحوي المنتخوي، سقط إلى دانِيَّة، وطمع في الأجادل، وإنْ كان أضعف من العنادل، فعاد ذَمْرَ[3]، وإن كان زمراً. [4] أيُّها المموه بجهله والمدَّعي العلم وليس من أهله، سكرت فصحوك لا يُجديك، اعترف بذنبك قبل صرعك على جنبك. . وزعم هذا الأهوج الأعوج أنه لم يعرف رسمي، ولا سمع باسمي، كأنَّما

(١) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٣١٠.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٩٣.

(٣) ـ الذَّمْرُ: اللوم (اللسان: مادة ذمر).

(٤) ـ الزَّمْرُ: يقال رجل زمر: قليل المروءة (اللسان: مادة زمر).

ولد بالأمس، أو بعث من الرمّس، أو عَمي عن الشّمس، لو علم قدر نفسه لم يجهل العلم، ولو أراد السّلامة لألقى السّلم»[١].

ومن الرسائل التي تركّز على الانتقاص من مقدرة المهجوّ الفكرية والبيانية، ماكتبه ابن شرف القيرواني في هجاء أحد الكُتّاب، حيث يتهمه بالنقص في آلة العلم والكتابة والعجز عن اللحاق بالكُتّاب المبرزين، فهو «ماعرف قط، كيف البرية والقطُّ،[٢] ولانسخ قطُّ سَطْرَاً، إلاَّ مسخ منه شطراً، ألفاظه ملحونة، ومعانيه ملقونة، ومقاصده خفيَّة مكنونة. . . يخاطب العدوَّ مخاطبة الوَليَّ. وتُقِرُّ كُتُبُه بما فيها من الفساد، بأنَّه قُرَّة عيون الأعداء والحُسَّاد»[٣].

ومن الرَّسائل التي جاءت تركِّز على الصّفات الحسيَّة للمهجو ماكتبه أبو عامر ابن الأصيلي في ذمِّ رؤساء جزيرة شُقْر، حيث رسم لهم صورة ساخرة تثير الضحك والاستهزاء، ومن ذلك وصفه لأحدهم بأنه «تقعدد في مرتبة الحجَّاج،[٤] لاينقصه من الخلافة إلاَّ التَّاج، يختال اختيال ذي الرُّعين،[٥] ويتوهَّمُ أنَّه وُلِّيَ الحرمين، يُذِلُّكَ إذ يحترم، ولايُكلِّم إلاَّ حين يبتسم. .»[٦].

ويشتدُّ في هجاء هذا الوزير حَتَّى يقول إنَّ الأقلام قد اتَّفقت على النيل منه وذمه، وأنها من حقارته تكتب هجاءه في الجلود المسلوخة، وقشر البطيخ، يقول: «وتخالفت الرِّقاع في جرحه، فواحدةٌ من بدنةٍ[٨] مسلخة، وأخرى من جلدة بطِّيخة»[٨].

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) ـ القطُّ: القطع (اللسان: مادة قطط).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٩٢.

(٤) ـ الحجاج بن يوسف الثقفي.

(٥) ـ ذو الرعين: ملك من ملوك حمير (انظر: جمهرة أنساب العرب: ص ٤٣٣).

(٦) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٧) ـ البَدَنُ، الوعل المسنُّ، وهو يريد هنا جلد الوعل المسن (انظر: اللسان: مادة بدن).

(٨) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٣١١.

الفصل الثالث

الخصائص الفنيَّة واللغوية لأدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجريِّ

كما تطوَّر أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري من حيث الموضوعات والأغراض، فقد تطوَّر من الناحية الفنيَّة أيضاً. ولعل أهم مظهر من مظاهر هذا التطوُّر التأثر بأساليب النثر المشرقي ومذاهبه الفنيَّة المختلفة. فقد وجدت طرائق سهل بن هارون، والجاحظ، وبديع الزَّمان الهمذاني، ورسائل أبي العلاء المعري، ومقامات الحريري، وغيرهم من كُتَّاب القرن الرابع الهجري طريقها إلى كُتَّاب الأندلس، حتَّى لقد كانت نماذج أدب الرسائل الأندلسيَّة لاتكاد تختلف اختلافاً واسعاً عن النماذج الأصيلة التي تكوَّنت لهذا الأدب في المشرق.[1]

وقد لاحظ النقاد الأندلسيون هذا التنوُّع في أساليب الكتابة الأندلسية وتراوحها بين عدة مذاهب فنيَّة مشرقية، فرصدوا ذلك، وبيَّنوا أصوله وطرائقه وأساليبه، بخبرة ودراية، ووضعوا مصنَّفات قائمة بذاتها عالجت «صنعة الكلام»، وكشفت مظاهر هذا التطوُّر الفني الذي أصاب النثر الأندلسي ككتاب «إحكام صنعة الكلام» للكلاعي[2] الذي يعتبر من كبار نقاد الأندلس في القرن السادس الهجري.

وقد ظهر في القرن الخامس الهجري عدد من النقاد الأندلسيين الذين وضَّحوا آراءهم في أصول الكتابة وطرائقها، وكان في مقدِّمتهم ابن شُهَيْدٍ الَّذي أفصح عن منهج نقدي قويم في تبيّن أصول الكتابة الفنية وتطوّرها من عصورها الأولى إلى عصره، حيث قال: «لكلِّ عصر بيان، ولكلِّ دهرٍ كلام، ولكلِّ طائفةٍ من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة، وضرب من البلاغة... ألا ترى أنَّ الزَّمان لمَّا دار كيف أحال بعض الرَّسم الأوّل في هذا الفنِّ إلى طريقة عبد الحميد وابن المُقَفَّعِ، وسهل

(١) ـ انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٣١٨ ـ ٣٢٠.

(٢) ـ أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي (انظر ترجمته وأخباره في: التكملة: ج ٢، ص ٤٦٨، المغرب: ج.١، ص ٢٤٢، النفح: ج ٣، ص ٥٥١).

ابن هارون، وغيرهم من أهل البيان، فالصنعة معهم أفسح باعاً. ثمَّ دار الزَّمان دوراناً، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس،[1] ومحمَّد بن الزَّيات،[2] وابني وهب[3] ونظرائهم، فرقّت الطِّباع، وخفَّ ثقل النفوس، ثمَّ دار الزَّمان فاعترى أهله باللطائف صلف، وبرقَّة الكلام كلف، فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع، وشمس المعالي[4] وأصحابهما».[5]

كذلك قد أفصح بعض النقاد عن آرائهم حول تميّز بعض الكُتَّاب بطرائق فنيَّة خاصَّة بهم. فهذا ابن حزم يوضِّح رأيه في ابن شُهَيْد وابن درَّاج القَسْطَلِّيّ اللَّذين تميزا بطرائق ابتدعاها لنفسيهما عن كُتَّاب الأندلس، حيث يقول في ابن شُهَيْد: «وله من التصرُّف في وجوه البلاغة وشعابها، مقدار يكاد ينطق بلسان مركب من لساني عمرو وسهل[6]»[7]. ويقول في ابن درَّاج القسطلي: «وقد كان أحدث ابن درَّاج

(١) - هو أبو اسحق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول (١٧٦ - ٢٤٣ هـ)، كان أحد الشعراء المجيدين، والكُتَّاب المبدعين، له ديوان شعر، وديوان رسائل، وكتاب الدولة، وكتاب العطر (انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ج ١، ص ٤٤، معجم الأدباء: ج ١، ص ١٦٤).

(٢) - هو محمد بن عبد الملك بن ابان بن حمزة، المعروف بابن الزيات، وزير المعتصم والواثق العباسيين، وعالم باللغة والأدب، وكان من بلغاء الكُتَّاب والشعراء، توفي سنة ٢٣٣ هـ (انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ج ٥، ص ١٩٤ - ٢٠٣، النجوم الزاهرة: ج ١، ص ٣٢٣.

(٣) - هما: أبو الفضل أحمد بن سليمان بن وهب، كاتب شاعر، من أهل بغداد، ومن بيت وزارة وفضل، له ديوان شعر، وديوان رسائل، توفي سنة ٢٨٥ هـ، وأبو القاسم بن سليمان بن وهب، وزير من أكابر الكُتَّاب استوزره المعتمد العباسي، وأقره بعد المعتضد، توفي سنة ٢٨٨ هـ (انظر ترجمتهما في: معجم الأدباء: ج ١، ص ١٣٦، وفيات الأعيان: ج ٢، ص ١٢١ - ١٢٢، فوات الوفيات: ج ١٢، ص ٤٣٤).

(٤) - هو أبـو الحسن قابوس بن وشمكير، الملقب شمس المعالي، أمير جرجان وبلاد الجبل وطبرستان، كان نابغة في الأدب والإنشاء، توفي سنة ٤٠٣ هـ، (انظر ترجمته في: اليتيمة: ج ٤، ص ٦٧، الوفيات: ج ٤، ص ٧٩).

(٥) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٣٧.

(٦) - يريد عمرو بن بحر الجاحظ، وسهل بن هارون.

(٧) - النفح: ج ٣، ص ١٧٨.

عندنا نوعاً من البلاغة مابين الخطب والرسائل». [1]

وذهب الحُمَيْدي إلى القول بأنَّ لابن درَّاج القَسْطَلِّيّ «طريقةً في البلاغة والرَّسائل، تدلُّ على اتِّساعه وقوَّته». [2]

لقد استطاع الكلاعي أن يقف على حقيقة التطوُّر الفني الذي أصاب النثر الأندلسي إلى عصره بصورة عامة، وأن يميِّز بين مذهبين سادا النثر الأندلسي في القرن الخامس الهجري بصورة خاصة. أولهما المصنوع، وسمَّاه بذلك «لأنه نُمِّق بالتَّصنيع، ووُشِّح بأنواع البديع، وحُلِّي بكثرة الفواصل والأسجاع»، [3] ومن أعلام هذا المذهب من المشارقة في القرن الرابع الهجري الصَّاحب بن عبَّاد، [4] وبديع الزَّمان الهمذاني، وأبو بكر الخوارزمي، [5] وأبو الفتح البستي، [6] وأبو الفضل الميكالي. [7]

---

(١) ـ التقريب لحد المنطق: ص ٢٠٥.

(٢) ـ الجذوة: ص ١١٠.

(٣) ـ إحكام صنعة الكلام: ص ١٢١.

(٤) ـ هو اسماعيل بن عبّاد (٣٥٦ ـ ٣٨٥ هـ)، وزير غلب عليه الأدب، وزر لمؤيد الدولة البويهي، وسمي بالصاحب لطول صحبته اياه، له رسائل وعدد من التصانيف (انظر ترجمته في: وفيات الأعيان: ج ١، ص ٢٣١، معجم الأدباء: ج ٦، ص ١٦٨).

(٥) ـ هو أبو بكر محمد بن العبَّاس الخوارزمي (٣٢٣ ـ ٣٨٣ هـ)، من أئمة الكُتَّاب، اتصل بالصاحب بن عباد، وكان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب، وله رسائل مشهور (انظر ترجمته في اليتيمة: ج ٤، ص ٢٢٣، وفيات الأعيان: ج ٤، ص ٤٠٠، الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ١٩١).

(٦) ـ هو أبو الفتح علي بن محمد البستي، شاعر كاتب من شعراء اليتيمة، توفي في بلد قرب بخارى سنة ٤٠٠ هـ (انظر ترجمته في: اليتيمة: ج ٤، ص ٣٤٥، وفيات الأعيان: ج ٣، ص ٣٧٦).

(٧) ـ هو أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، أمير من أهل خراسان، كان من الكُتَّاب الشعراء، توفي سنة ٤٣٦ هـ (انظر ترجمته في: اليتيمة: ج ٤، ص ٤٠٧، فوات الوفيات: ج ٢، ص ٤٢٨).

ومّمن سار على مذهبهم من أهل الأندلس في القرن الخامس الهجري أبو عامر ابن شُهَيْدٍ، وأبو بكر بن القصيرة، وأبو محمد بن عبد الغفور، وأبو القاسم بن الجدِّ، وأبو محمَّد بن عبدون. [١]

أمّا المذهب الثاني فهو المرصَّع، وسمّاه بذلك «لأنه رُصِّع بالأخبار والأمثال والأشعار وآيات[٢] القرآن الكريم، وأحاديث النبي عليه السّلام، إلى غير ذلك من النّحو والعروض، وحلِّ أبيات القريض». [٣]

ومن أعلام هذا المذهب من المشارقة أبو العلاء المعرّي، [٤] ومّمن جمع هذا المذهب بين لدونة الفرع ومتانة الأصلِ ابن خفاجة، ومّمن أربى في هذا المذهب على كثير من أعلام الكتابة وفرسانها في الأندلس أيضاً أبو بكر سعيد البَطَلْيَوْسي. [٥]

ويظهر للباحث من آراء النقّاد المتقدِّمين، ومن نصوص أدب الرسائل في الأندلس أنَّ الكُتَّاب الأندلسيين لم يبتدعوا لأنفسهم مذهباً فنياً جديداً في النثر العربي يمكن أن يضاف إلى المذاهب الفنية المختلفة التي عرفها النثر في المشرق. [٦] بل لقد كان الكاتب منهم يجمع في رسالته بين المذاهب الفنية المختلفة، إذ لم يكن يلتزم بأسلوب معين، وإنّما كان يعجب بكل جيد من كلِّ مذهب، ويختار مايراه مناسباً من كلِّ مذهب فني شاع في عصره أو قبله.

ومهما يكن فقد اهتم أعلام الكتابة في الأندلس بمحاكاة كتّاب المشرق ومضاهاتهم في أدب الرسائل، فهذا ابن زيدون قد احتذى في رسالته الهَزْلية حذو الجاحظ في رسالة التربيع والتّدوير، كما اقتفى ابن بُرْد الأصغر أثر سهل بن هارون

---

(١) ـ انظر: ابن بسَّام وذخيرته: ص ١٩٥.

(٢) ـ وردت في النص المنقول (وروايات).

(٣) ـ أحكام صنعة الكلام: ص ١٣٥.

(٤) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ١٣٤.

(٥) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ١٣٧، ١٤٠.

(٦) ـ انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٣٢٠.

في رسالته في تفضيل أهبْ الشاء على مايفترش من الوطاء، حيث حاكى فيها رسالة سهل إلى أبناء عمِّه التي يحتجُّ فيها للبخل احتجاجاً قوياً، ويذمُّ فيها الكرم ويمدح البخل ويثني عليه.[1]

وعارض أبو المغيرة بن حزم رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب وُدَّه، بعد أن عَذَّر، وبقل وجهه وأزهر.[2] وعارض البديع أيضاً أبو محمد بن عبدون في إحدى رسائله، والأديب أبو مروان عبد الملك بن شماخ[3] في رسالة موشَّحة له عارضه بها في طريقته، وضربها على قالب سبيكته.[4]

وكان من مظاهر اهتمام الأندلسيين بأعلام الكتابة في المشرق أن نظروا إلى كُتَّابهم على نحو مانظر المشارقة إلى كُتَّابهم أيضاً. فقد نقل أنَّ الصَّاحب بن عبَّاد كان يقول: «كُتَّاب الدُّنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد،[5] وأبو القاسم ابن يوسف،[6] وأبو إسحق الصَّابي، ولو شئت لقلت الرابع، يعني نفسه!!».[7] وقد جرى ابن بسَّام مجراه في الحديث عن كُتَّاب الأندلس حيث نُقِلَ عنه أنَّه قال: «كُتَّاب العصر ورؤساء النثر أربعة: كلاعيَّان وفهريَّان. أمَّا الكلاعيَّان: فأبو بكر بن

---

(١) - انظر الرسالة في: البخلاء: ج ١، ص ٣٣.

(٢) - انظر الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٤٠.

(٣) - هو أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شماخ، كان ممن لقيه ابن بسام، ونقل عنه في كتاب الذخيرة (انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٢٧).

(٤) - انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ٢، ص ٦٩٦.

(٥) - هو أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد، وزير، من أئمة الكُتَّاب، كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم، قال عنه الثعالبي: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد، توفي سنة ٣٦٠ هـ (انظر ترجمته في: اليتيمة: ج ٢، ص ١٨٣، الوفيات: ج ٥، ص ١٠٣).

(٦) - هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وزير من الكُتَّاب الشعراء، خدم في دولة عضد الدولة البويهي، ولدى بعض أولاده، توفي سنة ٣٨٨ هـ (انظر اليتيمة: ج ٢، ص ٣٦٩، الكامل: ج ٩، ص ١٤٤).

(٧) - اليتيمة: ج ٢، ص ٢٩٢.

القصيرة، وأبو محمد بن عبد الغفور، وأمّا الفِهريّان: فأبو القاسم بن الجدّ، وأبو محمد بنُ عبدون». [1]

وعلى الرَّغم من أنَّ الأندلسيين قد حاكوا المشارقة في أدب الرَّسائل، إلَّا أنَّ أحداً لايستطيع أنْ ينكر أنَّ هناك جوانب ابتكار سبق الأندلسيون المشارقة إليها، ووسعوا بها ميادين أدب الرسائل، وقد وضَّحنا ذلك في حديثنا عن اتِّجاهات أدب الرَّسائل وموضوعاته. كما أنَّ هناك خصائص فنية ميَّزت رسائلهم عن رسائل المشارقة، حيث استطاعوا أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم، وأن يفتنوا بها بما أوتوه من موهبة فذة، وذوق جميل وأصيل، حتى لتبدو بعض رسائلهم وكأنها شعر منثور لاينقصه غير الوزن والقافية ليكون شعراً. وسيظهر ذلك واضحاً في حديث الباحث عن السِّمات والخصائص الفنيَّة واللغوية لأدب الرسائل من حيث البناء الفني، والألفاظ وزخرفتها، والمعاني والتَّعبير عنها.

---

(١) - إحكام صنعة الكلام: ص ١١٧.

البناء الفني

البدء والعرض والختام:

لم يحفل الكُتَّاب الأندلسيون احتفال المشارقة بمطالع الرسائل وخواتيمها، ولهذا اتخذت رسائلهم في بنائها شكلاً فنياً جديداً، يختلف في بعض جزئياته عما ألفناه في الرسائل المشرقية التي تبدأ في الغالب بالبسملة، والتحميد والصلاة على الرسول الكريم.[1] فصارت رسائلهم على اختلاف موضوعاتها وأغراضها تخلو في الغالب من الاستفتاح المعروف، وتبدأ بالدعاء للمرسل إليه،[2] أو بالمنظوم،[3] أو بالدُّخول في الموضوع مباشرة،[4] أو بتمهيد يتفاوت بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار[5] تبعاً لتنوّع مقامات المرسل إليهم، واستخدام الألقاب التي تتناسب ومن يكتب إليه أميراً أو وزيراً أو صديقاً.

---

(١) - انظر: البيان والتبيين: ج ٢، ص ٦، ٦٢، زهر الآداب: ج ١، ص ١٩٧، صبح الأعشى: ج ٦، ص ٢٧٥، النثر الأندلسي: ص ٣٥٩.

(٢) - انظر: القلائد: ص ١٩٠، الذخيرة، ق ٢ م ١، ص ٣٤٨، ٣٦٤، ق ٣ م ٢، ص ٥٤٦، ٨٠٠، الخريدة: ج ٢، ص ٧٥، ج ٣، ص ٥٥١.

(٣) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٩٣، ق ٢ م ١، ص ٨٢٧، ق ٣ م ٢، ص ٥٦١، ٧٢٣، ٨٠١، ٨٠٨، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٢، ٣٠٨.

(٤) - انظر: القلائد: ق ١ م ١، ص ٣٠٩، ق ٢ م ١، ص ٣٤٢، ق ٣ م ١، ص ٢٠١، ٢٧٩، ق ٣ م ٢، ص ٥٥٠.

(٥) - انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٩٦، ٢٨٦، ق ٣ م ١، ص ٢٧٨، أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢١، ٢٩، الحلل الموشية: ص ٤٥.

ومن الأمثلة التي تبدأ بالدعاء إلى المرسل إليه، قول أبي عبيد البكري مهنئاً المعتمد بن عبَّاد بانتصار المسلمين في معركة الزَّلاقة «أطال الله بقاء سيِّدي، ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، وهنَّأ مامنحه من فتحٍ ونصرٍ واعتلاء وقهرٍ».[1] وقول أبي الفضل جعفر بن شرف القيرواني: «أطال الله بقاء الوزير الجليل الأمجد الأوحد، أعلى مرتقاه في العزِّ».[2]

وكانت بعض الرسائل تخلو من المقدِّمات، وتبدأ بالموضوع مباشرة.[3] ومن ذلك قول أبي محمد بن عبد البِّر مخاطباً أحد إخوانه: «وقفت على ماحددته من مقابلة السِّفرين المشتملين على فنون الآداب وصناعة الكتاب، وطرق الخطاب. . .».[4]

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ الأمر لايعني خلو الرسائل تماماً من مقدمات الاستفتاح، ذلك أن الباحث يجد أنَّ هناك عدداً من الرَّسائل لاتخلو من البسملة ومقدمات الاستفتاح، حيث تبدأ بالبسملة، والصَّلاة على الرسول الكريم، كبعض رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، وخاصة رسائل الاستنجاد بالمرابطين، كقول المعتمد بن عبّاد في رسالة يستصرخ بها يوسف بن تاشفين، ويستميله لنجدة الأندلس: «بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم، وصَلَّى الله على سيِّدنا مُحمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا. . إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدِّين. .».[5]

ويظهر ذلك أيضاً في بعض رسائل الشوق والوجد الديني، كقول ابن أبي الخصال في إحدى رسائله إلى المقام النَّبوي والحجرة الشريفة، وقد افتتحها بالبسملة والصَّلاة على الرسول الكريم قائلاً: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، وصَلَّى الله على سَيِّدنا محمَّد وآله. . . إلى الرؤوف الرَّحيم الرَّسول الكريم. . . .».[6]

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٣٥.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٨٨٢.

(٣) ـ انظر الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٧٧، ق ٣ م ٢، ص ٧٥٤.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠١.

(٥) ـ الحلل الموشية: ص ٤٥.

(٦) ـ أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢١، وانظر أيضاً في: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨٦، أزهار الرياض: ص ٢٩.

ولايجد الباحث لبعض الرسائل مقدمةً أو تمهيداً، وخاصَّةً في المراسلات بين المسلمين والصليبيين، وإنَّما تقتصر المقدمة على عبارة من فلان إلى فلان، كما جاء في رسالة ردَّ بها المعتمد بن عبَّاد على الأذفونش عندما هدَّده وتوعَّده، يقول: «من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله إلى الطَّاغية الباغية أذفونش...». (١)

أمَّا التخلُّص من المقدِّمات إلى الغرض، فكان على وجهين، الأوّل هو ابتداء الخطاب، أي أن يبدأ الكاتب بذكر ألفاظ، أو عبارات تدلُّ على ابتدائه بالخطاب، كقوله: كتبت، وكتابي، وكتابنا، وخطابي، وأمَّا بعد، (٢) ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة كتبها أبو المُطرِّف بن الدَّبَّاغ مخاطباً بها بعض إخوانه، واصفاً روضة غَنَّاء من تلك الرِّياض التي كان يتردَّد عليها، يقول: «كتابي هذا من وادي الزيتون، ونحن مختلفون ببقعةٍ اكتست من السندس الأخضر». (٣) ومن ذلك أيضاً قول أبي عبد الرحمن بن طاهر مخبراً الوزير أبا عبد الملك بن عبد العزيز بسقوط أحد المعاقل الإسلامية بِقُونْكَةَ كتبت ـ أعزَّك الله ـ والحدُّ فليل، والذِّهن كليل.. بما حدث: «من عظيم الخرق»(٤).

وهناك رسائل أخرى مشابهة لما أوردناه، (٥) كقول أبي بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين إلى أهل مكناسة: «أمَّا بعد، أصلح الله من أعمالكم مااختلَّ، وأصلح من وجوه صلاحكم مااعتلَّ». (٦)

أمَّا الوجه الثاني للتخلص من المقدمات إلى الغرض المقصود، فهو ردُّ الجواب،

---

(١) ـ الحلل الموشية: ص ٤٠.

(٢) ـ انظر: إحكام صنعة الكلام: ص ٧٨.

(٣) ـ النفح: ج ١، ص ٥٣٤.

(٤) ـ القلائد: ص ٦٥.

(٥) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٥٨، ٦٦، ١٠٥، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٧، ق ٣ م ١، ص ١٧٣، الخريدة: ج ٣، ص ٣٧٢، ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٦٠، ٤٨٢.

(٦) ـ القلائد: ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

أي أن يذكر الكاتب أنَّه يردُّ على كتاب المرسل إليه، كقوله: ألقي، وورد، ووصل، ووافاني.[1] ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عامر بن مسلمة في رسالة كتبها عن المعتضد بن عبَّاد إلى الوزير أبي حفص الهوزني، يردُّ فيها على رسالته التي يصف فيها نكبة المسلمين في بَرْبُشْتَر، ويحضُّه فيها على الجهاد لإنقاذ الأندلس: «وردني كتابك الأثير المقابل بين النثر البليغ والنَّظم البديع».[2] وقول أبي المطرف بن الدَّبَّاغ مخاطباً بعض إخوانه «ورد لك كتاب خِلته للطفه سماءً، وتوهمته من خِفَّته هباءً».[3]

وقد يداخل الكاتب بين ابتداء الخطاب، وردِّ الجواب، كقول أبي بكر بن القصيرة في رسالة كتبها إلى أبي القاسم بن الجدّ يعتذر فيها عن عدم التقائه به، وقد قربت المسافة بينهما: «كتبت ولسان القلم يتلعثم، وقدم الكلم يتأخر أكثر ممَّا يتقدَّم، هيبةً لانتقادك.. ووصل إلَّي - وصل الله اعتلاءك، وأثَّلَ مجدك وسناءك - خطابك الكريم...».[4]

وقد يحدّد الكاتب تاريخ كتابة رسالته، فيقول يوم كذا، أو وافق يوم كذا، ويبدو ذلك واضحاً في بعض رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، وخاصة في الرسائل التي تصف المعارك، وتتغنَّى بانتصارات المسلمين فيها.

ومن الأمثلة على ذلك ماكتبه أبو بكر بن القصيرة مخبراً بانتصار المسلمين في معركة الزَّلاقة، حيث يقول: «كتبت صبيحة يوم السَّبت الثَّالث عشر من رجب، وقد أعزّ الله الدّين، وأظهر المسلمين...».[5]

ومن ذلك أيضاً ماكتبه المعتمد بن عبَّاد مخبراً بهذا النصر «كتابي هذا من المحلَّة

---

(١) - انظر: إحكام صنعة الكلام: ص ٧٩.

(٢) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١١٨.

(٣) - القلائد: ص ١٠٧، وانظر أمثلة اخرى في: القلائد: ص ٥٧، ١٠٥، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٤٨، ٨٥٥، ق ٣ م ١، ص ٢١٦، الحلل الموشية: ص ٣٦، ٥٠.

(٤) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٩٦.

(٥) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٤١.

المنصورة يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب، وقد أعزَّ الله الدِّين وفتح (للمسلمين) الفتح المبين. . . ». [1]

وقد لانجد هذا التحديد في بعض الرسائل التي تصف المعارك، وتتغنَّى بانتصارات المسلمين، ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عبد الرحمن بن طاهر في رسالة بعث بها عندما أسر في أحداث بلنسية «كتبت منتصف صفرٍ، وقد حصلنا في قبضة الأسر. . . ». [2]

ونجد ذلك أيضاً في بعض الرسائل الوصفية، كقول أبي المُطَرِّف بن الدَّباغ يصف يوماً ممطراً: يومنا يوم تجهَّم محيّاه، ودمعت عيناه. . . »، [3] ومثال ذلك أيضاً قول ابن بُرْدٍ الأصغر في وصف يوم ممطر أيضاً: «اليوم يوم بكت أمطاره، وضحكت أزهاره. . ». [4]

وكـان بعض الكُتَّاب الأندلسيين يختتمون رسائلهم بالدعاء للمرسل إليه والسَّلام عليه. ومن ذلك قول ابن الحنَّاط في ختام رسالة كتبها على لسان البهار إلى المقتدر بن هود: «والله يمتعك برياض الآداب تجتني أزهارها، وتنتقي خيارَها. . . ». [5] ومن ذلك أيضاً ماورد في رسالة كتبها أبو القاسم بن الجدِّ في العناية بأحد الأدباء «والله يُبقيك لهذا الشأن، تُذيع أسراره، وترفع مناره بعزَّته. . ». [6] وقول المعتمد بن عبَّاد في ختام رسالة يستصرخ بها يوسف بن تاشفين لنجدة المسلمين في الأندلس: «والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته». [7]

---

(١) ـ النفح: ج ٤، ص ٣٦٩.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٩١. وانظر أمثلة اخرى في: المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٣) ـ القلائد: ص ١٠٨.

(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠٢.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٩٦.

(٦) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٣١١.

(٧) ـ الحلل الموشية: ص ٤٦.

الجمل الدّعائية والمعترضة:

لقـد أكثر الكُتَّاب الأندلسيون من استعمال الجمل الدّعائية والمعترضة في رسائلهم بصورة عامَّة، ذلك أنَّ هذا اللون من الجمل يعتبر أصلاً من أصول التَّعبير الأدبي لدى الكُتَّـاب في المشرق والأنـدلس، وتقوم عليه الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها.[١]

ويقصد الباحث بالجمل الدعائية الجمل والعبارات التي تعبّر عن التعظيم لله تعالى، أو المتضمنة دعاء للمرسل إليه بالعزِّ والسعادة وامتداد السلطان وطول البقاء والتوفيق،[٢] أو التي تدعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظ المسلمين، ويصون معاقلهم من الأعداء، أو تدعو على العدو بالهزيمة والفناء، وما إلى ذللك من المعاني.[٣] أمَّا الجمل المعترضة فيقصدبها تلك الجمل والعبارات التي ترد بين الكلام، وغالباً ماتكون دعائية.

وتبـدو ظاهـرة الجمـل الدّعائية بوضوح في معظم اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته، وخاصَّة في الرَّسائل الإخوانية.[٤] ومن الأمثلة على ذلك قول ابن خفاجة مخاطباً أحد إخوانه: «أطال أيُّها السَّيِّدُ بقاءك، كما وصل عزَّتك وارتقاءك، وأسنى مرتبتك.. وأعلاك، كما أسنى مناقبك وجلالك..»،[٥] وقول أبي عبيد البكري مهنئاً الوزير أبا بكر بن زيدون بتوليه الوزارة: «أسعد الله بوزارة سيِّدي الدُّنيا والدين، وأجرى لها الطَّير الميامين، ووصل بها التأييد والتمكين، والحمدُ لله على أمل بَلَّغه...».[٦]

---

(١) ـ انظر: إحكام صنعة الكلام: ص ٨١.

(٢) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٨٢ ـ ٨٧.

(٣) ـ انظر: القلائد: ص ٥٨، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

(٤) ـ انظر: القلائد: ص ٦٦، ٦٨، ١٠٩، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٩٣، ٨٢٨، ق ٢ م ١، ص ٢٩٦، ق ٣ م ١، ص ٢٨٣، ٣١٠، الخريدة: ج ٣، ص ٥٤٥.

(٥) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٥٥١.

(٦) ـ القلائد: ص ١٩١.

ولعل من أبرز موضوعات الرسائل الإخوانية التي تكثر فيها الجمل الدّعائية، التّعازي والمراثي، حيث تتضمّن عبارات دعائية كثيرة تدعو إلى الصبر والجلد واحتمال المصاب[1]، احتساباً للأجر والثّواب، ولعلهم أرادوا من وراء ذلك التخفيف من وقع المصاب على المخاطب، وإدخال الطمأنينة إلى قلبه.

ويلاحظ الباحث أنّ رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين تزخر بالجمل الدّعائية كدعوة الله أن يحفظ بلاد المسلمين، وأن يصونها من الأعداء، وأن يعيد مااغتصب منها، أو أن يؤيد الله قادة الإسلام وينصرهم. كذلك تزخر بالجمل الدّعائية التي تدعو على العدو بالهزيمة والفناء.[2] ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة أبي عبد الله بن أيمن التي يستصرخ فيها يوسف بن تاشفين لإنقاذ الأندلس: «ولّما كان نور الهدى ـ أيّدك الله ـ دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصّلاح معالمك وجب أن تُستدعى لما أعضل من الداء... فقد كانت طوائف العدوّ المُطيفة بها ـ أهلكهم الله ـ عند إفراط تسلّطها واعتدائها، تُلاطف بالاحتيال.. ومن قبل هذا ماكنت خاطبتك ـ أيّدك الله ـ بالنّازلة في مدينة قورية ـ أعادها الله ـ وأنّها مؤذنة الجزيرة بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء... ثم مازال ذلك التخاذُلُ يتزايد... حتّى حصلت في يد العدوّ ـ قصمه الله ـ مدينة سُرْتَة[3]»[4].

ويلاحظ الباحث أن صيغ الجمل الدّعائية تقل في كثير من الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي، وخاصّة في رسائل الشكوى من الزّمان وفساد الأحوال، وفي

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٨٩ ـ ١٩٠، ٣١٨، ق ٣ م ١، ص ٧٩، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٢، ٣١٤.

(٢) ـ انظر: القلائد: ص ٥٨، الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٤.

(٣) ـ سُرْتَةُ: مدينة متوسطة القدر، حسنة البقعة، كثيرة الخصب، بينها وبين شقورة مرحلتان كبيرتان (انظر: نزهة المشتاق: ١٧٥، ١٩٦).

(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

وصف الترف والمجون، والنقد الاجتماعي.[١] وكذلك الحال في الرسائل الدينية، ولعل مرد ذلك أن أسلوب هذه الألوان من الرسائل يميل إلى تقرير الأشياء، وإيراد الحقائق والقواعد والأصول في الموضوعات والمعاني المختلفة.

وتكاد تخلو الرسائل الدِّيوانية على اختلاف موضوعاتها وأغراضها من الجمل الدّعائية، باستثناء الرسائل التي كانت تصدر على شكل منشورات وبيانات عامة، حيث تضمنت بعض الجمل الدّعائية. ومن ذلك ماورد في إحدى الرسائل التي كتبت على لسان المعتمد بن عبَّاد إلى قوّاد البلاد لجمع الضرائب، حيث يقول: «الحال مع العدوِّ - قصمه الله - بيِّنةٌ لاتحتاج إلى جلاء.. وكان - فلَّ الله حدَّه، وفضَّ جنده - قد اعتقد الخروج في هذا العام إلى بلادنا - عصمها الله - بأكثف من جموعه في العام الفارط».[٢]

وكما يلاحظ فإن صيغ الجمل الدّعائية التي وردت في هذا اللون من المنشورات تشبه ماورد في رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين.

التَّنويع بين الشعر والنثر:

لقد كان الكُتَّاب الأندلسيون يضمِّنون رسائلهم أبياتاً وقصائد شعرية، وذلك حسب مايقتضيه حال الخطاب، ومايلائم سياق الرسالة وظرفها الخاص. وقد أبدعوا في ذلك حتَّى لو نثر شعرهم لكان قريباً من نثرهم، ولو نظم نثرهم لكان شبيهاً من شعرهم. وكانوا يفعلون ذلك للتدليل على مايسوقونه من معان، أو للتأكيد على مايبسطونه من أفكار، ولم يحظ بهذه الميزة إلاَّ الكُتَّاب المبرزون والمبدعون، كما يشير إلى ذلك الكلاعي بقوله: «كان المجيد (منهم) كثيراً مايُضمِّنُ رسائله أشعاره وأشعار غيره».[٣]

---

(١) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٧، ٤٢٠، ٤٣١، ق ٤ م ١، ص ١٨٩، ١٩١، ١٩٢، الخريدة: ج ٢، ص ٢٢٥.

(٢) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٥٢.

(٣) - إحكام صنعة الكلام: ص ٧١.

ويظهر من قول الكلاعي أنَّ تضمين الشعر والتمثل به كان على صورتين، أولاهما الاستشهاد أو استفتاح الرسائل بأبيات شعرية لشعراء آخرين، الغالب من المشارقة. وكان الكاتب يخالف بين قافية الشعر والسَّجع الذي قبلها لِيُعْلم بذلك أنَّ الشِّعر ليس له. (١) وثانيتهما تضمين رسائلهم أبياتاً أو قصائد شعرية من نظمهم. وكان الكاتب يوافق بين قافية الشعر والسَّجع الذي قبلها لِيُعْلم بذلك أنَّ الشِّعر له. (٢)

وتتفاوت اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته في احتوائها لظاهرة التنويع بين الشعر والنثر. وأكثر ماتتضح هذه الظاهرة في موضوعات رسائل المفاضلات والمفاخرات، وفي موضوعات الرسائل الإخوانية.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي المُطَرِّف بن الدَّباغ في رسالة مدح فيها أبا محمد ابن عبد البِّر، ووصفه بعلو الشأن في الشعر والنثر، وبنبل الأخلاق، وقد ضمنها أبياتاً من شعره في الموضوع ذاته، فجاءت ملائمة لسياق الرسالة وظرفها الخاص، يقول: (٣)

طلقُ الجبينِ وفيه فضلُ مهابةٍ ... يُغْضي لها ذو المقلةِ الشَّوساء
وإذا تناولتِ الرِّقاعَ بنانُهُ ... أنْسَتْكَ طرزَ الوشي في صنعاء
وله إذا شاء النظام غرائبُ ... لاتدَّعيها فطنةُ الشُّعراء

وقد اتَّسمت الرسائل الشعوبية (٤) بظاهرة تضمين الشعر والتمثل به، وخاصة

---

(١) - انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٧١، ويجد الباحث أمثلة على ذلك في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤١٤، ٥٣١، ق ١ م ٢، ص ٨٣٣، ق ٣ م ١، ص ٢٣٢، ص ٢٥٨.

(٢) - انظر: إحكام صنعة الكلام: ص ٧١، ويجد الباحث أمثلة على ذلك في: البديع: ص ٥٧ - ٦٥ - ٦٧، القلائد: ص ٦٥، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣١١، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٢، ج٣، ص ٥٥٢.

(٣) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣١٧.

(٤) - انظر: ص ١٤١ - ١٤٦ من سياق هذه الدراسة.

أشعار المشارقة،[1] وذلك لزيادة قيمتها الأدبية، وللتدليل على ما يذهبون إليه من معانٍ، ولتأكيد مايطرحونه من أفكار. وقد استغلَّ كثير من الكُتَّاب قوة الشعر في تكثيف المعنى وتركيزه في جمل قليلة قد تغني عن تفصيل النثر، حيث كانوا يجمعون أفكارهم ومعانيهم ويركِّزونها في بيت أو بيتين. فبعض فصول رسالة أبي الطَّيب القروي تركِّز على معنى واحد هو الافتخار بما يتمتع به العرب من قوة وبأس، وساق على ذلك شواهد وأمثلة كثيرة، وذكر مخاطبه ابن غَرْسِيةَ بماضي فتوحات المسلمين وانتصاراتهم على القياصرة والأكاسرة، ولقد لخَّص افتخاره وركزه بقول[2]:

إنّـا إذا ما فئةٌ نَلْقَـاهَـا نردُّ أُولاهـا على أُخْـراهـا
نردُّهـا دامـيةً كُلاهَـا قَد أَنْصَفَ القَـارةَ[3] مَنْ رامـاهـا

ومثل هذا الأمر نجده في فصول كثيرة من فصول الرسائلِ الشعوبية.[4]

وتظهر سمة التنويع بين الشعر والنثر أيضاً في بعض رسائل النقد الأدبي، وخاصة في رسالة التوابع والزوابع التي حرص صاحبها على أن يضمنها نماذج من أشعار المشارقة ليدلّل على رأيه في عدد من الكُتَّاب والشعراء المشارقة والأندلسيين.[5]

كما تتضح هذه الظاهرة الفنيَّة في بعض موضوعات الرسائل الوصفية كالرَّبيعيَّات والرَّوضيات والزَّهريَّات والثمريَّات، ووصف مطر بعد قحط، ووصف الرِّحلات والطَّرْدِيَّات.[6]

---

(١) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٢٦، ٧٤١.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ٢، ص ٧٢٣.

(٣) - الْقَارَةُ: هم بنو الهون بن خزيمة، وهم بطن معروف من العرب، سموا قارة لاجتماعهم والتفافهم، لما أراد الشداخ أن يفرقهم في بني كنانة، وهم رماة الحدق في الجاهلية، وفي اشتهارهم بالرمي والاصابة ضرب المثل: «قد أنصف القارة من راماها». (انظر: مجمع الأمثال: ج ٢ ص ١٠٠، جمهرة أنساب العرب: ص ١٨٨ - ١٩٠).

(٤) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٧، ٧١٢، ٧١٨، ٧٢٨، ٧٣٠، ٧٣٢، ٧٣٧.

(٥) - انظر: رسالة التوابع والزوابع: ص ٩٤، ٩٦، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧.

(٦) - انظر: البديع: ص ٢٩، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٥٤، ق ١١٣، ص ٤٤٤، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨، ٣٠٨.

وتكاد الرَّسائل ذات الاتجاه السياسي، وبعض الرَّسائل ذات الاتجاه الاجتماعي، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، والرَّسائل الدِّيوانية تخلو من ظاهرة التَّنويع بين الشعر والنثر.[1] وكذلك الحال في الرسائل الدينية باستثناء رسائل الشوق والوجد الديني التي تتضمَّن في الغالب أبياتاً شعرية كثيرة، أو تختتم بقصائد طويلة في نفس المعنى.[2]

ولعل عدم التنويع بين الشعر والنثر في هذه الموضوعات يعود إلى أنَّها لاتحتاج إلى الشعر، أو أن الحاجة إلى الشعر فيها قليلة.

ولم يقف الأمر عند التنويع بين الشعر والنثر، بل عمد بعض الكُتَّاب إلى حلِّ معقود الشعر وإدخاله في منثور عباراتهم ببراعة وإتقان وبصياغة مقاربة للمنظوم.[3]

فقد نثر الكاتب أبو المغيرة بن حزم كثيراً من معقود الشعراء، وضمَّنه إحدى رسائله الإخوانية قائلاً: «ومن بني ساسانَ كسرى حَفَّتْ به مرازِبُها، لكنَّهُ أمير من وراء سجفٍ، يسعى بلا رجلٍ ويصولُ بلا كفٍّ»[4].

وهذا محلول من قول أبي الطيب المتنبي، حيث يقول:[5]

وما الموتُ إلَّا سارقٌ دَقَّ شَخصُهُ   يصولُ بلا كفٍ ويسعى بلا رِجلِ

وهو معنى متداول مشهور، وهو في نثر الأندلسيين ونظمهم كثير.[6]

---

(١) ـ انظر: القلائد: ص ٥٨، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٧٩، ٦٣٦، ق ٢ م ١، ص ٢٧٢، ٢٧٨، ق ٢ م ٢، ق ٣ م ١، ص ٤١١، ق ٤ م ١، ص ١٨٩، ١٩١، الخريدة: ج ٢، ص ٢٢٥، الحلل الموشية: ص ٣٦، ٤٥.

(٢) ـ انظر: أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٦٢، ق ٢ م ١، ص ٣٤٩، ق ٢ م ٢، ص ٦٨٣، ٧٧٩، ق ٣ م ١، ص ١٦٥، ٢٤٢.

(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م١، ص ١٥٧.

(٥) ـ ديوان أبي الطيب المتنبي: ج ٣، ص ١٧٥.

(٦) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٥٨.

ونثر الكاتب أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البَطَلْيَوْسي شعراً ضمَّنه إحدى رسائله إلى الوزير أبي الحسين بن سِراج، يصف فيها شوقه وحنينه إليه، حيث يقول: «سلام حبيبٍ على الحسن بن وهبٍ والعراق، وإنْ بكيت عنّي مع إخواني فطالما كُنْتُ أُعيرُ الدُّموعَ للعشَّاق».[1]

وفي هذا القول ألفاظ محلولة من معقود قول أبي تمام:[2]

سلامٌ ترجِفُ الأحشاءُ مِنْه ... عَلَى الحَسَنِ بنِ وَهْبٍ والعراق
عَلَى الْبَلَدِ الحبيبِ إليَّ غوراً ... ونجداً والْفَتَى الحُلوُ المذاق

ومن قول الشريف الرضي:[3]

وَابكِ عَنِّي فطالما كُنْتُ مِنْ قَبْلٍ أُعِيرُ الدُّمُوعَ للعُشَّاقِ

ونثر الكاتب أبو الحسن صالح الشَّنْتَمريُّ بيتاً من الشّعر وضمَّنه رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه، يقول: «إنَّا لله، لقد غرقتُ من غِشِّكَ في بحرٍ عميقٍ، وامتُحِنْتُ منكِ بعدوٍّ في ثياب صديقٍ».[4] وهذا القول لفظ محلول من بيت لأبي نواس:[5]

إذا امْتَحَنَ الدُّنْيا لبيبٌ تكشَّفتْ ... له عَن عدوٍ في ثيابِ صَديق

ومهما يكن من أمر فإنَّ الباحث يرى أنَّ هذا التَّنويع بين الشعر والنثر دليل من الكُتَّاب الأندلسيين على قدرتهم على الجمع بين المنظوم والمنثور، ولاغرو في ذلك إذ كان كبار كُتَّاب الأندلس هم أنفسهم كبار شعرائها المرموقين من أمثال ابن زيدون، وابن شهيد، وابن عبدون، وابن حزم، وابن برد الأصغر، وابن طاهر وغيرهم.

كما يعدُّ الجمع بين المنثور والمنظوم في الرسالة محاولة لجلب انتباه القارىء،

---

(١) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ٢، ص ٧٥٥ ـ ٧٥٦.
(٢) ـ ديوان أبي تمام: ج ٢، ص ٤٢٥.
(٣) ـ ديوان الشريف الرضي: ج ٢، ص ٧٩.
(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٥٧٨.
(٥) ـ ديوان أبي نواس: ص ٩٨٣.

ودفع السأم والملل عنه. ويظهر للباحث أن تضمين الرسائل أشعار المشارقة يجعل للرسالة قيمة كبيرة في نظر الأندلسيين من جهة، ويكشف عن مدى تقديرهم وإعجابهم للمبرزين من شعرائهم.(١)

وهناك ميزة أُخرى كان الباحث قد أشار إليها فيما تقدَّم وهي قدرة الشعر على تكثيف العاطفة وتركيزها، فهو خلاصة الانفعال، وتعبير عن الإحساس الصَّادق الذي يتلاشى في بعض جوانب النثر.

الاقتباس والتضمين:

لقد حرص الكُتَّاب الأندلسيون على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما حرصوا على تضمين رسائلهم الأخبار والأمثال والحكم إلى غير ذلك من مصطلحات اللغة والنحو.

وقد كان للقرآن الكريم والحديث الشريف أثر كبير في أساليبهم، فهما مثال البيان والفصاحة لدى الكُتَّاب عامة. وقد شملت ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف معظم موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، إذ لم يقتصر الأمر على الرَّسائل الدينية وغيرها من الرَّسائل ذات الطابع الدِّيني كرسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، بل تعدَّى ذلك إلى موضوعات الرسائل ذات الاتجاه السياسي، وموضوعات الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي، والمفاخرة بين السيف والقلم، والرسائل الوصفية، والرسائل الإخوانية والدِّيوانية، إلى جانب موضوعات الهجاء والفكاهة.

وقد كان اقتباسهم من القرآن الكريم والحديث الشريف على وجهين: أولهما إيراد الآيات والأحاديث الشريفة بصيغتها ولفظها، وثانيهما إيرادها دون النص عليها بصيغتها.

(١) ـ انظر: النثر الأندلسي: ص ٣٧٥.

ويبدو الوجه الأول أكثر وضوحاً ووجوداً في رسائل الشوق والوجد الديني، وفي رسائل الزُّهد والوعظ(1)، وفي موضوع الخصومات والاضطرابات السياسية،(2) ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين،(3) ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة أبي الحفص الهَوْزَنِيّ التي وجهها إلى المعتضد بن عبَّاد يحثه فيها على الجهاد لإنقاذ الإسلام من الخطر الذي يتهدّده في بَرْبُشْتَرْ، حيث يقول: «كأنَّ الجميع في رَقْدَةِ أهل الكهف، أو على وعدٍ صادقٍ من الصَّرفِ والكشف، وأنّى لمثلها بالدِّفاع عن الحريم، ولمَّا نتمثل أدب العزيز الحكيم في قوله: ﴿ولولا دفع الله النَّاس بعضهم ببعضٍ لفسدت الأرض﴾،(4) وقوله تعالى: ﴿لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ، وَبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجِدُ، يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً، وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ ينصُره﴾،(5) ومن أين لنا دفعهم بالكفاية أو كيف، ولم نمتط إليهم الخوف، ونساجِلْهُم السَّيف».(6)

كذلك يكثر استخدام هذا اللون من الاقتباس في الرَّسائل التي تتسم بالطابع السياسي كرسائل الخصومات والاضطرابات السياسية، ورسائل النقد السياسي والدعوة إلى وحدة الصف. ومن الأمثلة على ذلك قول البزلياني في رسالة كتبها عن أحد الأمراء إلى صاحب شَاطِبَةَ يدعوهما فيه إلى نبذ الفرقة وتوحيد الجهد لمواجهة الخطر الصليبي، يقول: «ولم يخفَ عليكما في صَلاحِ ذَاتِ البين من الفوز بخير الدّارين، والانتهاء إلى حدود الله، والتأدُّب بأدبه، والإئتمار بأمره، فإنه يقول عزَّ من قائل: ﴿وأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾،(7) وقال ﷺ: (وَلاَتَقَاطَعوا

(1) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٥٢، رسائل سياسية إخوانية أندلسية، الإسكوريال (٤٨٨)، ورقة ٦٥ - ٦٦.

(2) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٧ - ٦٣٩، ق ٣ م ١، ص ١٤٢، ٢٣٥ - ٢٣٦، ٣٣٧ - ٣٦٦.

(3) - انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٧٤ - ١٧٦، الحلل الموشية: ص ٣٦، ٤٠، ٤١، ٤٧، ٤٨.

(4) - سورة البقرة، آية ٢٥١.

(5) - سورة الحج، آية ٤٠.

(6) - الذخيرة ق ٢ م ١، ص ٨٤.

(7) - سورة الأنفال: آية ١.

ولاتحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا وكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخواناً وَعَلَىَ طَاعَتِهِ أعواناً[1] . .) .[2]

أمَّا الوجه الثاني للاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، فيقوم على اقتباس معاني القرآن الكريم والحديث الشريف وإيرادها ضمن نصوص الرسائل. ويظهر ذلك بوضوح في مختلف موضوعات الرسائل الدينية[3].

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن أبي الخِصَال في رسالة كتبها إلى المقام النبوي والحجرة الشريفة، وقد أورد فيها كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة بمعانيها دون لفظها، كقول: «إلى الرّؤوف الرّحيم، الرّسول الكريم، خطيب الأنبياء، وإمامهم في اليَوْم المشهود.. الّذي ليس على الغيب بضنين... الّذي جُعِلَتْ له الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأُنْزِلَ عليه القرآن هدىً ونوراً»[4].

ففي قوله خطيب الأنبياء، وإمامهم في اليوم المشهود اقتباس من قول الرسول الكريم: «وأنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا»[5]، وفي قوله: «ليس على الغيب بضنين» اقتباس من قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ على الغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[6]، وفي قولـه: : «جُعِلَتْ له الأرض مسجـداً وطهوراً» اقتباس من الحديثص الشريف «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً[7]، أُنْزِلَ عليه القرآن هدىً ونوراً، اقتباس من قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليْكُم نُوراً مُّبيناً)[8].

(١) - وردت صيغة هذا الحديث في الفتح الكبير على النحو التالي: (لاتَحَاسَدُوا، ولاتناجشوا، ولاتباغضوا، ولاتدابروا، ولايَبِعْ بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخواناً. .» ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٢) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٣٨.

(٣) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٩٢ - ٤٩٣، ق ٢ م ١، ص ٢٨٦، رسائل سياسية إخوانية أندلسية الإسكوريال (٤٨٨)، ورقة ٦٥ - ٦٦.

(٤) - أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢١ - ٢٢.

(٥) - انظر: شرح القاري: ج ١، ص ٤٣٩، المواهب اللدنية: ج ١، ص ١٤٠

(٦) - سورة التكوير، الآية ٢٤.

(٧) - الجامع الصغير: ج ١، ص ٢٢٧.

(٨) - سورة النساء، الآية ١٧٤.

وكما ضَمَّن الكُتَّاب الشِّعر في رسائلهم، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، فقد ضَمَّنوها الأمثال والحكم والأخبار السابقة ومصطلحات النحو العروض. وتكاد تظهر هذه السِّمة في معظم موضوعات أدب الرسائل وأغراضه. ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عامر التاكرني في رسالة منتقداً فيها سياسة أحد الأمراء وداعياً إلى الوحدة ونبذ الخلاف: «ومن العجب قولك: اقدح لي أُضيءْ لك،[1] ولقد قدحنا لكم فأظلمتم... فيا للمسلمين تعالوا إلى التعاون، واتفقوا ولاتفرَّقوا... وقد ناديتُ إن أسمعت، ونصحت بقدر مااستطعت، فإن وافقت قبولاً ولقيت تأويلاً جميلاً، فإن الخير عتيد... وإن كان للهوى سلطانٌ، وللتعسف عدوانٌ، فأخلق بالأمة العزم أن يتدرعها مُدرِكٌ لايضامُ، ومِحربٌ لا ينام..»[2].

ويلاحظ أن الأمثلة في هذا النَّص نوعان، أولهما أمثال نثرية كقوله: «اقدحِ لي أُضيءْ لك»، وهو عكس للمثل «أضيءْ لي أقدح لك»،[3] وقوله: «قد ناديتُ إن أسمعتُ» وهو من المثل «قَدْ أسمعت لو ناديت حياً».[4] وثانيهما أمثال شعرية نثرها الكاتب كقوله: «فأخْلِقْ بالأمة العزم أن يتدرعها مُدرِكٌ لايضام، ومحرب لاينام» وهو من قول أبي الطيِّب المتنبي:[5]

لاافْتِخَارٌ إلاَّ لِمَنْ لايُضَامُ ... مُدْرِكٍ أو مُحَارِبٍ لاينَامُ

ومن الأمثلة على احتفال الكُتَّاب بذكر الأمثال والحكم وأخبار السابقين، قول ابن شرف القيرواني في رسالة بعث بها إلى المظفَّر بن الأفطس معبراً فيها عن شوقه وحنينه إليه: «كتبتُ وشوقي إلى شرف لُقياه، وشيم سُقْياه، شوق القارظين[6] إلى

(١) ـ انظر: مجمع الأمثال: ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) ـ الذخيرة ق ٣ م ١، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩.

(٣) ـ مجمع الأمثال: ج ١، ص ٢٠٥.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٢، ص ١٠٦.

(٥) ـ ديوان المتنبي: ج ٤، ص ٢١٥.

(٦) ـ هما: قَارِظَان كلاهما من عنزة، الأكبر منهما يذكر بن عَنَزَة، والأصغر هو رُهم بن عامر بن عَنَزَة، كل منهما خرج يطلب القَرَظَ، ولم يعد، وفيهما يضرب المثل: «حَتَّى يَؤوب القَارِظَان» (انظر: مجمع الأمثال: ج ١، ص ٢١١، فصل المقال: ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤).

سكـونٍ وسكنى، والقيسـين،[1] إلى ليلى ولُبنى،[2] واعتلاقي بذِكره اعتلاق مالكٍ بعقيلٍ،[3] وبلال بشامة وطفيلٍ[4] . . . والله ببلوغ الأمل خيرُ كَفيلٍ».[5]

كذلـك فقـد حفلت الـرسـائـل الشعـوبية بالاقتباس من الحكم والأمثال، وبالإشارة إلى الأحداث الماضية، ففي رسالة ابن غَرْسِية تكثر الإشارة إلى مانسب إلى العرب من أوهام ومفاهيم، كقوله: «ليس بالسفساف كفعل نائلة وإساف،[6] أصْغِرْ بشأنكم، إذ بزق خمرٍ باع الكعبة أبو غبشانكم[7]، وإذ أبو رغالكم[8]، قاد فيلَ

---

(١) ـ هما قيس بن الملوح صاحب ليلى، يضرب به المثل في الحب، (انظر: ثمار القلوب: ص ٨٦، فوات الوفيات: ج ٣، ص ٢٠٨، الأغاني: ج ٢، ص ٥) وقيس بن ذريح صاحب لبنى (انظر: الأغاني: ص ١٧٤، فوات الوفيات: ج ٣، ص ٢٠٤).

(٢) ـ هما ليلى بنت المهدي بن سعيد أم مالك من بني كعب بن ربيعة صاحبة المجنون «قيس بن الملوح» (انظر: الأغاني: ج ٢، ص ١٢، النجوم الزاهرة ج ١، ص ١٧٠، أعلام النساء: ج ٤، ص ٣٠٨) وليلى بنت الحباب الكعبية صاحبة قيس بن ذريح ثم زوجته فمطلقته، قيل أنها ماتت قبل قيس فرثاها ومات بعدها بأيام (انظر: الأغاني: ج ٩، ص ١٩٧٥، فوات الوفيات: ج ٣، ص ٣٠٤، أعلام النساء: ج ٤، ص ٢٧٦).

(٣) ـ هما مالك بن فارج بن مالك من بني القين من أسد نديم جاهلي، كان هو وأخ له اسمه عقيل من خاصة جذيمة الأبرش الأزدي ملك العراق، نادماه أربعين سنة، قيل لم يعيدا عليه فيها حديثاً (انظر: ثمار القلوب: ص ٢٤، الأعلام: ج ٦، ص ١٤١).

(٤) ـ هما جبلان مشرفان على مجنة وهي بريد من مكة، عندما هاجر المسلمون إلى المدينة كان بلال يحن إليهما (انظر: معجم ماستعجم: ج ٣، ص ٨٩٢، الروض المعطار: ص ٣٩٦).

(٥) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٦) ـ يزعمون أن نائلة بنت سهل واساف بن عمرو، فجرا في الكعبة، فمسخا حجرين ثم عبدتهما قريش (انظر: شروح سقط الزند: ق ٤، ص ١٣١٥).

(٧) ـ أبو غبشان هو المحترش من بني حليل بن حبشبة، باع الكعبة بزق خمر من قصي بن كلاب (انظر: جمهرة أنساب العرب: ص ٢٣٦).

(٨) ـ كان أبرهة عامل النجاشي على اليمن قد عزم على أن يهدم البيت، ومر في طريقه على ثقيف بالطائف، فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة (انظر شروح سقط الزند: ق ٥، ص ١٩٧٩).

الحبشة إلى حرم الله . . .» .[1]

وحفلت رسائل الفكاهة بالأمثال والحكم وأخبار السابقين، وأقوال الصالحين، إلى جانب الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، ويظهر ذلك واضحاً في رسـالـة ابن زيدون في التَّهكم بابن عَبْدُوس، وفي رسالتي ابن بُرْد، رسالة النخلة ورسالة تفضيل أُهُب الشاء على مايُفْتَرَش من الوطاء .[2]

ويكثر اقتباس الكُتَّاب من التراث الثقافي الإسلامي في مختلف موضوعات أدب الرسائل وأغراضه. ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة أبي بكر بن القصيرة التي وجَّهها على لسان يوسف بن تاشفين إلى قاضي الجماعة أبي عبد الله بن حمدين، وهي من الرِّسائل الدِّيوانية التي ترسم دستور القضاء في الأندلس، وقد استمدَّ الكاتب خطوطها العامة وقواعدها الأساسية من أصول مشرقية، ففي قوله: «وآس بين النَّاس في وجهـك وعـدلك . . . ولايكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحقَّ له، ولاأضعف من القـويِّ حَتَّى تأخـذَ الحقَّ منـه . .»،[3] اقتباس من رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء،[4] واقتباس من خطبة أبي بكر الصديق في المسلمين عند توليه الخلافة .[5]

كذلك فقد استوحى ابن بُرْدٍ الأصغر رسالته الهَزْلية الفكاهية في النخلة من قصة عُرْقوب، وقد وضَّحنا ذلك في حديثنا عن موضوعات أدب الرسائل.

ومن أمثلة الرسائل التي ضمَّنها الكُتَّاب بعض مصطلحات النحو واللغة قول

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧١٢.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٨ ـ ٥٣٥.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٢٦١.

(٤) ـ انظر الرسالة في: البيان والتبيين: ج ٢، ص ٤٨ ـ ٥٠، عيون الأخبار: ج ١، ص ٦٦، العقد الفريد: ج ١، ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٥) ـ انظر الخطبة في: تاريخ الرسل والملوك: ج ٣، ص ٢٢٤، سيرة ابن هشام: ج ٤، ص ٣٤٦ ـ ٣٤١.

ابن خفاجة في رسالة بعث بها إلى أحد إخوانه، وقد كانت بينهما مقاطعة فاتفق أن ولي ذلك الصديق حصنا، فخاطبه ابن خفاجة قائلاً: «أطال الله بقاء سيِّدي، النَّبيهة أوصافه، النَّزيهة عن الاستثناء، المرفوعة إمارته الكريمة بالابتداء، ماانْحذفتْ ياء (يرمي) للجزم، واعْتَلَّت واوُ (يغْزُو) لموضع الضَّم! كتبْتُ عن وُدٍّ قَدُمَ هُوَ الحال لم يلحقها انتقال. . . » . [1] فقد حفل هذا النص على قصره بعدد كبير من المصطلحات النحوية واللغوية.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الباحث يستطيع القول بأنَّ النثر العربي في الأندلس في القرن الخامس الهجري قد استوعب ظاهرة الاقتباس والتَّضمين التي تعدُّ سمة أصيلة في النثر العربي في مختلف مراحله، وهي تدلُّ على سعة ثقافة الكُتَّاب الأندلسيين، ولاغَرْوَ في ذلك إذ أن أغلبهم كانوا من الفقهاء والعلماء.

الإيجاز والإطناب:

لم تكن نصوص أدب الرسائل على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب، فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرِّسالة والظرف الذي كتبت فيه وعاطفة المرسل، وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّ سمة الإطناب تظهر في معظم موضوعات الرسائل وأغراضها في الأندلس في هذا القرن. ومردُّ ذلك أن هذه السمة تتيح لمنشىء الرسالة أن يظهر مهارته الفنيَّة وثروته الفكرية والثقافية، فيسرف في عرض المسائل والقضايا التي يريد أن يوضحها، لاسيما أن الإطناب يقوم على بسط المعاني وتكرارها بعبارات متعددة، تهدف إلى تأكيد الفكرة وتوضيحها.

ولعلّ ميل الكُتَّاب الأندلسيين إلى السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد، وحرصهم على التنويع بين الشعر والنثر، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتضمين رسائلهم الأمثال والحكم، وحل المنظوم، قد دفعهم إلى الإسهاب والإطناب، لأنَّ عناصر هذا الترصيع تتطلب التمهيد لها بما يناسبها من المعاني المنثورة، كما تتطلَّب التعليق المناسب عليها. [2]

(١) - ديوان ابن خفاجة: ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٢) - النثر الأندلسي: ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

ويجد الباحث الإطناب واضحاً في كثير من موضوعات الرسائل ذات الاتجاه السياسي(١) كرسالة أبي محمد بن عبد البرِّ التي كتبها عن المعتضد بن عبَّاد إلى رؤساء الأندلس حول بطشه بولده، وقتله، لأنه تطلَّع إلى انتزاع المُلْكِ من يد والده،(٢) ورسالة البِزلْيَانيِّ في دعوة صاحبي شَاطِبَةَ إلى التعاون وتوحيد الصف لمواجهة خطر الصليبيين.(٣)

كذلك تظهر سمة الإطناب في بعض موضوعات الرسائل الاجتماعية كوصف الترف والمجون،(٤) والشَّكْوَى من الزَّمان وفساد الأحوال.(٥) ومن ذلك قول أبي الفضل البغدادي: «وكُنْتُ مررتُ ببلادٍ... نبعت بين أهلها عيون الخيانة والبهتان، وضعف حبلُ الدِّيانة فيهم والإيمان، فجنحوا إلى جحود النِّعم والكُفران، وتوسَّعوا في مطاوعة الظُّلم والعدوان...».(٦)

فهو يريد أن يصوِّر فساد الأحوال واختلال الأمور في بعض جوانب المجتمع الأندلسي، فساق المعنى مكرراً بعبارات مختلفة.

كما تظهر سمة الإطناب في موضوعات رسائل الجهاد والصِّراع مع الصليبيين،، فوصفُ النَّكباتِ والحضُّ على الجهاد والاستنجاد بالمرابطين لإنقاذ الأندلس، يتطلب الإطناب وزيادة التوضيح لاستثارة نخوة المخاطب وعزيمته، وتحريك نوازع الخير والجهاد في نفسه لتدبُّر الأمر، ودفع العدو، والثأر للمسلمين

---

(١) - يجد الباحث أمثلة لرسائل مختلفة في: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٢٧٢، ٦٣٧، ق ٢ م ٢، ص ٥٤٥، ق ٣ م ١، ص ١٦٩، ٢٣٦، رسائل سياسية وإخوانية أندلسية / الإسكوريال (مخطوط ٥٣٨)، ورقة ١١٨.

(٢) - انظر الرسالة في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٣٧ - ١٤٣.

(٣) - انظر الرسالة في: المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٦٣٧ - ٦٤١.

(٤) - انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٣٢ - ٤٣٤، ق ٤ م ١، ص ١٢٨.

(٥) - انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤١٠ - ٤١٨.

(٦) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤١١.

والدفاع عن حوزة الدِّين.[1]

كما أن التهديد والوعيد يصدر غالباً عن عاطفة قويَّة ثائرة، تكشف عما يحسُّ به المسلمون من قوة وبأس واعتداد، مما يستدعي حشد كثير من المعاني التي تقود إلى الإسهاب والإطناب.[2] ونلاحظ ذلك أيضاً في رسائل وصف المعارك والتغنِّي بالانتصارات حيث تصدر عن عاطفة قوية نتيجة الفرح والسرور بالانتصارات.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عبيد البَكْري في رسالة بعث بها إلى المعتمد بن عبَّاد يهنئه فيها بانتصار المسلمين بالزَّلاقة: «فتوحٌ أضحكت مبسم الدَّهر... فغدا الدِّين جديداً، والإسلام سعيداً، والزَّمان حميداً، وعمود الدِّين قائماً، وكتاب الله حاكماً، ودعوة الإيمان منصورةً..».[3]

فهو يريد أن يبيِّن عظم هذا الفتح وصداه في نفوس المسلمين، وما جلبه من فوائد جمة عادت بالخير على الإسلام والمسلمين، وقد ساق لذلك معاني مكررة بألفاظ مختلفة.

وتظهر سمة الإطناب أيضاً في بعض رسائل الشوق والوجد الديني كرسالة ابن أبي الخصال،[4] ورسالة ابن السيِّد البَطَلْيَوْسي[5] إلى المقام النبوي والحجرة الشريفة.

كما تظهر في بعض رسائل المفاضلات والمفاخرات بين الأزهار والورود كرسالة

---

(1) - انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٨٤ - ٨٦، ق ٣ م ١، ص ١٧٥ - ١٧٨، الحلل الموشية: ص: ٤٥ - ٤٧.

(2) - انظر: الحلل الموشية: ص ٣٨ - ٣٩، ٤٠ - ٤١، رسائل سياسية وإخوانية أندلسية: الإسكوريال (مخطوط ٤٨٨)، ورقة ٤٩ - ٥٣.

(3) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٣٥ - ٢٣٧.

(4) - انظر الرسالة في: أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢١ - ٢٢.

(5) - انظر الرسالة في: رسائل سياسية وإخوانية أندلسية / الإسكوريال (مخطوط ٤٨٨)، ورقة ٦٥ - ٦٦.

ابن بُرْدٍ الأصغر في وصف خمسة من الأزهار وتفضيل الورد عليها، ورسالة أبي الوليد الحميري في الرَّدِّ على ابن بُرْدٍ الأصغر في تفضيل الورد على سائر الأزهار.(١) وفي المفاخرة بين السيف والقلم،(٢) وفضائل البلدان،(٣) وفي الرسائل الشعوبية،(٤) وفي رسائل النقد الأدبي.(٥)

ومثل هذا الإطناب نجده أيضاً في رسائل الفكاهة كرسالتي ابن بُرْدٍ الأصغر: رسالة البديعة في تفضيل أهب الشاء على مايُفْتَرَش من الوطاء، ورسالة النخلة،(٦) ورسالة ابن زيدون في السخرية بابن عَبْدُوس التي تزخر باستعمال المترادفات وتكرار المعاني، كقوله: «أيُّها المصاب بعقله، المورط بجهله، البيِّن سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، السَّاقطُ سقوط الذُّباب على الشَّراب، المتهافت تهافتَ الفراش في الشِّهاب. . .».(٧)

وكذلك الحال في عدد من موضوعات الرسائل الوصفية كالزَّرْزُوريَّات(٨)، ووصف الرِّحلات،(٩) والطَّرْدِيَّات(١٠) ومايجري مجراها من الرسائل الوصفية.

ويظهر الإطناب في عدد كبير من موضوعات الرسائل الإخوانية كالمديح

---

(١) ـ انظر الرسالتان في: البديع: ص ٥٢ ـ ٦٧.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٨.

(٣) ـ انظر: رسائل ابن حزم: ج ٢، ص ١٧١ ـ ١٨٢.

(٤) ـ انظر رسالة ابن غَرْسِيَة والرُّدُود عليها في: الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٥ ـ ٧٥٥.

(٥) ـ انظر: رسالة التوابع والزوابع، ترسل الفقيه الكاتب: ورقة ٢٨ ـ ٣١.

(٦) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٨ ـ ٥٣٥.

(٧) ـ سرح العيون: ص ٣.

(٨) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩، ق ٢ م ٢، ص ٧٥٨ ـ ٧٦٠.

(٩) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٢٧ ـ ٤٣٧ ـ الخريدة: ج ٢، ص ٣٠٨ ـ ٣١٢.

(١٠) ـ انظر: الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٨، ج ٣، ص ٥٣٨ ـ ٥٤٠.

والمــودة، [1] والعتـاب والاعتـذار، [2] والتهنئـة [3] والشكـوى، [4] والشّفـاعـات والوصايا [5] وغيرها.

وتميل بعض الرسائل الدِّيوانية إلى الإطناب، وخاصَّة الرسائل التي تبصِّر ولاة الأقاليم وقضاة الدولة وكُتَّابها بشؤون التنظيم الإداري الذي تقتضيه سياسة الدولة الداخلية، كرسالة أبي بكر بن القصيرة التي كتبها على لسان يوسف بن تاشفين إلى قاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله بن حمدين[6]. وكذلك رسائل اللوم والتقريع والعزل عن الولاية كرسالة المتوكل بن الأفطس إلى وزيره أبي الوليد ابن الحضرمي، حين صرفه عن الولاية لإساءته التصرُّف[7].

وتظهر سمة الإيجاز في كثير من موضوعات النقد الاجتماعي، [8] ورسائل الزهد والوعظ، والتحميدات والتسبيحات، [9] وفي عدد من الرسائل الوصفية كالزّهريات

---

(1) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨، ٤١٣ ـ ٤١٨، ق ٣ م ١، ص ٣١٦ ـ ٣١٧، ٤١٠ ـ ٤١٣، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٠.

(2) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠، ق ٢ م ٢، ص ٧٧٤ ـ ٧٧٦، تمام المتون: ص ٢٢ ـ ٢٩.

(3) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(4) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٣٠٠، ق ٣ م ١، ص ٤٧٥ ـ ٤٨٥.

(5) ـ انظر: القلائد: ص ١٥٨ ـ ١٥٩، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٦.

(6) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(7) ـ انظر: القلائد: ص ٤١.

(8) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٧٩، ق ٤ م ١، ص ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢.

(9) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٤٩١ ـ ٤٩٣، ٥٤٩، ق ١ م ٢، ص ٨٥٢، ق ٣ م ٢١، ص ٢٢٥، ٢٧٧.

والثمريات[1] ووصف الظواهر الطبيعية العامّة كيوم مشمس، ونهار ممطر،[2] ووصف الحيوان.[3]

وقد تكون بعض الرسائل موجزة لاتتعدّى بضع كلمات، كردِّ يوسف بن تاشفين على الأذفونش، حين بعث إليه رسالة يتهدَّده فيها، ويتوعَّده بشرِّ العواقب، وقد أمر يوسف بن تاشفين أن يُكْتَب له على ظهر كتابه «جوابك ياأذفونش ماتراه لا ماتسمعه، إن شاء الله».[4] وأتبع الكتاب ببيت أبي الطيب المتنبي:[5]

ولاكُتْبُ إلاَّ المَشْرَفِيَّةُ والقنا ولارُسُلٌ إلاَّ الخَمِيسُ الْعَرمْرَمُ

لقد كان الأذفونش متغطرساً في رسالته التي بعث بها إلى أمير المسلمين،[6] ولم يكن أنسب من الردِّ عليه بهذه الصيغة المختصرة المعبرِّة عن ثقة المسلمين بالانتصار على الصليبيين، والدَّالة على تصميمه على اللقاء لنصرة الإسلام والمسلمين.

ومهما يكن من أمر فإنَّ الكُتَّاب الأندلسيين كانوا يراعون ظروف إنشاء الرسائل، ومناسبة الإطناب والإيجاز فيها لمقتضى الحال.

---

(١) ـ انظر: البديع: ص١١٣، ١٢٩، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٥٥، ق ٣ م ٢، ص ٧٦١.

(٢) ـ انظر: القلائد: ص ١٠٦، ١٠٨، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠٢.

(٣) ـ انظر: مطمح الأنفس: ص ٣٠٧، اليتيمة: ج ٢، ص ٥٤، الذخيرة: ق ٣ م١، ص ٢١٤، ٣٦٤، الخريدة: ج ٣، ص ٤٧٢.

(٤) ـ الحلل الموشية: ص ٤٣.

(٥) ـ ديوان المتنبي: ج ٤، ص ٧٠، وقد ورد فيه:

ولا كُتْبَ إلا المشْرَفِيَّةُ عندي.. (ووزن صدر البيت في الروايتين مختل).

(٦) ـ انظر: الحلل الموشية: ص ٤٢ - ٤٣.

الألفاظ وزخرفتها

سهولة الألفاظ وجزالتها:

لقد كان الطابع العام والسّمة الغالبة على ألفاظ أدب الرسائل في الأندلس في هذا القرن، السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد والغرابة والوحشية، وغيرها من الصفات التي تخلّ بفصاحة الكلمة مما تعارف عليه أهل البلاغة، من تنافر الحروف، ووحشية الألفاظ، ومخالفة القياس.(1)

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكُتَّاب الأندلسين استعملوا من ألفاظ المشارقة وتراكيبهم في التعبير عن موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، مايناسب حياتهم وحاجاتهم النفسية والعاطفية والفكرية والسياسية وبيئتهم الطبيعية، فاختفت الألفاظ الوحشية والغريبة التي كان يستخدمها الكُتَّاب المشارقة، لأنها لم تعد تناسب المجتمع الأندلسي وذوقه الأدبي.(2)

ويجد الباحث طابع السهولة في الألفاظ في موضوعات الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي، كالشّكوى من الزّمان وفساد الأحوال، ووصف الترف والمجون.(3) ومن الأمثلة على ذلك قول أبي المطرّف بن الدبَّاغ في وصف مجلس لهوٍ وطربٍ عقده صحبه

---

(1) - انظر: المثل السائر ج ١، ص ١٦٨ - ١٩٢.

(2) - انظر: إشبيلية في القرن الخامس الهجري: ص ٨٥.

(3) - يجد الباحث أمثلة على ذلك في: القلائد: ص ١٠٨، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ١٦٠، ق ١ م ٢، ص ٧٦١، ق ٢ م ٢، ص ٥٩٤، ٧٥٦، ق ٣ م ١، ص ٤٣١، ق ٣ م ٢، ص ٥٤٢، ق ٤ م ١، ص ١٢٨، الخريدة: ج ٢، ص ٢٢٥، ٢٩٨.

في إحدى الرِّياض و قد انتظم الشملُ. «في مشاهد جمعت أشتات الأنس، واحتفلت من منى النَّفْس، وتناولت الرَّاح من يدِ القمر والشمس، بين بساتينٍ نشرت عليها تُشْتَرُ ألويتها، وأهدت إليها صنعاء أوشيتها. . . ونحن نُوفي كلَّ مكانٍ منه ا طيباً، ونشاهدُ منظراً عجيباً، ولاندعُ أن نُعَرِّسَ في كلِّ مغنى، وندير الكأس على كل معنى، ولامثل يوم الدَّير وصبوحٍ وصلناه، والنواقيس حولنا تضرب، ونحن نطوف بالصَّليب ونلعب، وذلك المزنَّر يسقي ونشرب، ومغنّياًيغنّي ونطرب. . »[1].

فلقـد جاءت ألفـاظ هذا النص سهلة ومفـرداته واضحة معبرّة عمّاً يشعر به الكاتب من فرح وسرور ونشوة وطرب.

ونجد مثل هذه السهولة في الألفاظ والوضوح في المفردات في رسالة كتبها ابن شرف القـيرواني على لسـان محبـوس، حيث يقـول: «لأن لنا قوم وخشنت، ورقوا وغلظت، فأصلحت نقمتك ماأبطرته نعمة سواك، وأدَّبت غلظتك من يسحب عن هوى غير هواك، فاطلاق بامتنانٍ، وتسريح بإحسانٍ، أو نزلٍ من حميمٍ، وتصلية جحيم»[2].

كذلـك تتَّسم أغلب موضـوعـات الـرسـائـل الـدينية بالسهـولة والوضوح، كالتَّحميدات والتَّسبيحات، والزُّهد والوعظ.[3] ومن الأمثلة على ذلك قول الفقيه أبي عُمَر أحمد بن عيسى الإلْبيريّ في رسالة يعظ فيها أبا العباس بن العريف ويحضُّه على فعل الخير: «أمَّا بَعْدُ، وفَّقك الله لما يرضيه مِنْكَ عملاً، ويرضيك منه جزاءً، فإنَّ للدُّنيا حرثاً والنَّاس زارعون، وكلٌّ في معاده، يأكل من حصاده، وذو الجاه يسأل في الآخرة عن جاهه، كما يُسأل ذو المال عن ماله. . . وقد أحوجت الأيام إلى جاهك، وأغنت القناعة عن مالك، فاتخَّذ عندي اليوم يداً، تجدْها عند الله مضاعفةً غداً. . . »[4].

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٢) ـ الخريدة: ج٢، ص ٢٢٥.

(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٤٩، ق ١ م ٢، ص ٨٥٢، ق ٣ م ١، ص ٢٧٧، المغرب: ج ١، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٤٨.

ونجد مثل ذلك أيضاً في فصول التَّحميدات والتَّسبيحات لابن بُرْدٍ الأصغر. (١)

وتتَّسم موضوعات الرسائل الإخوانية في: المديح والمودة، والعتاب والاعتذار، والتَّهنئة، والشكوى، والرثاء والتَّعازي، والشَّفاعات والوصايا بالسهولة والوضوح وبالابتعاد عن صعب الألفاظ وغريبها. (٢)

ومن الأمثلة على ذلك قول الأعمى التُّطِيليِّ في رسالة كتبها إلى أبي الحسن بن بَيَّاع(٣): «يا عمادي الَّذي شفَّ قدره على الأقدار، شفوف الضُّحى على الإبدار، وسرى ذكره بأطيب الأخبار مسرى النَّسيم بالأزهار، وامتزج حمدُه وشكره بالأسماع والأبصار... كتبتُها عن جنانٍ بلقائك صَبٍّي، ولسانٍ بشكر آلائك رطبٍ، وشاهد سريرةٍ، وإعلامٍ لأوليائك نهْب... وعندي من القول بإمامتك، والحرص على سلامتك، والشكر لأياديك، ومنافسة أهل القطر فيك، ما لا يسعه نظم ولا نثر، ولا يحيط به عدٌّ ولا حصرٌ..»(٤).

فلقد جاءت ألفاظ هذه الرسالة كألفاظ غيرها من الرسائل الإخوانية سهلة واضحة معبِّرة عن العواطف الصادقة، والمشاعر المخلصة التي تربط بين الإخوان والأصدقاء.

ونجد مثل ذلك أيضاً في رسالة كتبها أبو الفضل جعفر بن شرف القيرواني في العناية برجل نُكِبَ: «ومن زكاة الجاه التي هي من الفروض، وأداء المفروض، مشاركة موصله جارنا القديم، وصديقنا الحميم، له هناك أطلال رسمها داثرٌ، وجدُّها

---

(١) - انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٢) - انظر: القلائد: ص ١٥٨، ١٦٤، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٥٥، ق ٢ م ١، ص ٢٨٩، ٢٩٣، ق ٢ م ٢، ص ٧٧٤، ق ٣ م ١، ص ٧٨، ٢٩٧، ٤٦٨، ق ٣ م ٢، ص ٥٥٤، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٢، ج ٣، ص ٤٦٠.

(٣) - هو علي بن بيَّاع السبتي، ورد ذكره عرضاً في الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٧٦.

(٤) - الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٣٠ - ٧٣١.

عاثرٌ، يرجو تجديد خرابها وتعمير يبابها، (١) وإليك إسناده، وعليك اعتماده، ومن كان منك بعينٍ فقد أوى إلى ركنٍ، واعتصم بحصنٍ، فلك الفضلُ في تصديق أراجيه، وإظهار جميل الرَّأي فيه» . (٢)

وتكاد تكون معظم الرسائل الوصفية سهلة الألفاظ واضحة المفردات في: الـرَّبيعيات، والـرَّوضيات، والـزَّهـريات، والثَّمريات، ووصف هطول المطر بعد القحط، ووصف الحيوان، ووصف الرِّحلات . (٣)

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الحنَّاط في وصف أحد المتنزَّهات الجميلة وقت الربيع : «ونحن إذْ ذاك بحيث تضاحك الوردُ والبَهَار، وتفاوح النَّوْرُ والأنْوارُ، وأرضُنا بمخضر نبتٍ صاغ النَّـوْرُ تاجـه، وحـاك القطر ديباجه، والرِّيحُ تصفق، والغصنُ يتثَّنى، والقنبرة تصرصر، والبلبل يتغنَّى . . . » . (٤)

فلقد جاءت ألفاظ هذه الرسالة سهلة واضحة منسجمة مع غرضها، معبرِّة عن سمات الجمال في يوم من أيام الرَّبيع البهيجة، ودالة على ماكان يحسُّ به الكاتب من فرح وسرور عظيم بسحر الطبيعة .

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قول أبي جعفر بن أحمد، وقد أُهدي إليه ورد: «زارنا الوردُ بأنفاسك، وسقانا الأنس من كاسِكَ، وأعاد لنا معاهد الأنس جديدة وزفَّ إلينا من بنات البرِّ خريدةً، فاحمرَّ حتَّى خلته شفقاً، وابيضَّ حتى أبصرته من

---

(١) - أرْضٌ يَبَابٌ، أي خراب (اللسان: مادة يبب).

(٢) - الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨٦٩.

(٣) - انظر أمثلة على سهولة الألفاظ وبعدها عن الغرابة في الرسائل الوصفية في: البديع: ص ٨، ٢٢، ١١٣، القلائد: ص ١٠٣، مطمح الأنفس: ص ٣٠٧، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٥٤، ٥٠٢، ق ٢ م ١، ص ٢٨٩، ق ٣ م ١، ص ٢١٤، ٣٦٤، ق ٣ م ٢، ص ٥٤٥، ٧٦١، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨، النفح: ج ١، ص ٥٣٤.

(٤) - الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨.

النُّور فلقاً، وأرِجَ حتَّى كأنَّ المسك من ذكائه، وتضاعف حتَّى قلتُ الورد من حيائه، فليتصور شُكري في مرآه». (١)

ولا يجد الباحث في هذا النصِّ، وفي أغلب نصوص الرسائل الوصفية صعوبة في الألفاظ أو غرابة في المفردات.

كذلك فقد اتَّسمت الرسائل الديوانية بسهولة الألفاظ ووضوحها، وبالابتعاد عن التعقيد والغرابة في موضوعات التولية والتعيين، والتوجيهات والوصايا الدِّيوانية وغيرها. (٢)

ويلاحظ البـاحث أنه على الرَّغم من أنَّ طابع السهولة والوضوح في الألفاظ والمفردات قد شمل معظم موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، إلَّا أنَّ بعض نصوص الموضوعات يتَّسم بصعوبة الألفاظ وغرابتها وتوعُّرها، وخاصَّة في عدد من موضوعات الرسائل الدينية كالشوق والوجد الديني، (٣) ورسائل الزَّرْزُوريَّات. (٤) وبعض رسائل الفكاهة كرسالة ابن زيدون الهَزْلية وغيرها. (٥)

ومن الأمثلة على غرابة الألفاظ وصعوبتها في الرسائل الفكاهية، قول أبي عبد الله بن مسعود في رسالته التي خاطب بها ابنه إذ توجَّه إلى المغرب، وقد بلغه أنه خلع عذاره، حيث طرح عليه فيها أسئلة يدرك استحالة الإجابة عنها: «كيف كان مَخْلَصُكَ من تلك البلاد الوبئة، وكيف رأيت مدينة يونس* وجنَّةَ إرَم، والبركان المُؤْنس..

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٥٦.

(٢) ـ انظر: القلائد: ص ٤٥ ـ ٤٦، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٦١، الخريدة: ج ٣، ص ٣٧٠، الاحاطة: ج ١، ص ٤٣٣.

(٣) ـ انظر: أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢١ ـ ٢٩.

(٤) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٧.

(٥) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٥٥٠.

(*) ـ كان الباحث قد عرف بهذه اللفظة ومايليها في موضوع الفكاهة.

فأين منك الحيَّة النضناض،[1] وسليك بن السُّلكة،[2] والبرَّاض[3] . . ».[4]

إنَّ هذا النصَّ يتضمن ألفاظاً كثيرة تتَّسم بالغرابة، وتحتاج إلى تفسير وإيضاح ممَّا يستدعي مراجعة المصادر وكتب الأدب والتاريخ والمعاجم الجغرافية لمعرفة معانيها ومدلولاتها.

ومن الأمثلة على صعوبة الألفاظ وغرابتها في رسائل الزَّرْزُوريَّات، قول أبي الحسين بن سراج مخاطباً بعض أهل عصره، يشفع لرجل يُعرف بالزُّرَيْزير: «ويصل بك ـ وصل الله علوَّك ـ وكبت عدوَّك، شخص من الطُّيور يعرف بالزُّرَيْزِر، أقام لدنيا أيام التَّحسير[5]، وزمان التبلُّغ بالشَّكير[6]، فلمَّا وافى ريشه، ونُبت بأفراخه عشوشه، أزمع عنَّا قُطوعاً[7]، وعلى ذلك الأفق اللدن تدلّياً ووقوعاً[8] . . . »[9].

إنَّ هذا النص على صغره مليء بالألفاظ الغريبة الخاصة بالطيور من تحْسِير وتذكير وقطوع ووقوع.

---

(١) ـ الحية النضناض: هي الحية التي لاتستقرُّ في مكان (اللسان: مادة نضنض).

(٢) ـ هو سُلَيْك بن عمرو، وقيل ابن عمير بن يَثْربي، والسُّلَكة أمُّه، وهو أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم العدَّائين في العصر الجاهلي (انظر أخباره في: الشعر والشعراء: ج ١، ص ٢٨١، الأغاني: ج ٢، ص ٣٤٦).

(٣) ـ هو البَّراضُ بن قيس الكناني، كان يضرب المثل بفتكه، وقد قامت حرب الفجار بين بني كنانة وقيس عيلان لأنه قتل عروة الرَّحال (انظر أيام العرب في الجاهلية: ص ٣٢٦).

(٤) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.

(٥) ـ التَّحْسِير: إلقاء الريش الضعيف (اللسان: مادة حسر).

(٦) ـ الشَّكير: صغار الريش (اللسان: مادة شكر).

(٧) ـ القُطُوع: يقال الطير تقطع قطوعاً، إذا جاءت من بلد إلى بلد في وقت حرٍّ أو برد (اللسان: مادة قطع).

(٨) ـ الوُقُوع: يقال وقع الطير يقع وقوعاً نزل عن طيرانه (اللسان: مادة وقع).

(٩) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٧.

واتّسمت بعض نصوص موضوعات أدب الرسائل وأغراضه بالجزالة، ولايقصد بالجزالة في الألفاظ أن يكون وحشياً متوعّراً، بل يقصد بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته كما يذكر ابن الأثير.[1]

ولم تقتصر هذه الصفة على الموضوعات التي تعارف عليها أهل البلاغة من وصف مواقف الحروب والخصومات والاضطرابات السياسية والنقد السياسي، والدعوة إلى وحدة الصف، والحضّ على الجهاد والتّهديد والوعيد واللوم والتقريع،[2] وإنّما تعدّى ذلك إلى موضوعات أخرى كالطَرْدِيّات والمفاضلة بين السيف والقلم، والرّسائل الشعوبية، وفضائل البلدان، والنقد الأدبي.[3]

ومن الأمثلة على ذلك رسالة ابن الحنّاط في وصف الصيد ومطاردة كلب لقطيع من الحمر الوحشية، حيث يقول: «ومازلنا في ذلك نتحول على تلك المنازل، ونتجول في تلك الخمائل، حَتّى ثار من حُمرها أفراد حِرَانَ،[4] كأنهُنَّ أولاد غزلان، قد جمع الأجل منها ما افترق، وأخرجها من كُلِّ نفق، فأخذت في الهرب، وأخذنا في الطَّلب، إثر كُلِّ روّاع ينعطف انعطاف البرّة، ووثّابٍ يجتمع اجتماع الكرة... ثم أشْلينا[5] كلباً حللناه من ساجوره،[6] وخَلَّيناهُ إلى مسروره... من القُبِّ[7] الطَّامحة العيون،

(١) ـ المثل السائر: ج ١، ص ٢٦٨.

(٢) ـ انظر: المثل السائر: ج ١، ص ٢٦٨.

(٣) ـ يجد الباحث أمثلة مختلفة على رسائل تتّسم ألفاظها بالجزالة والمتانة في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٣، ق ٢ م ٢، ص ٧٠٥ ـ ٧٥٥، ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي الخصال: ورقة ٢٩، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٧، الحلل الموشية: ص ٣٦ ـ ٤٢، رسائل سياسية وإخوانية أندلسية / الإسكوريال (مخطوط ٤٨٨)، ورقة ٤٩ ـ ٥٣، رسائل إخوانية أندلسية، ورقة ٣٩.

(٤) ـ حِرَان: جمع حَرون، وهي الدابة التي لاتبرح أعلى الجبل من الصيد (اللسان: مادة حرن).

(٥) ـ أشْلَيْنَا: أشْلَى دابته أراها المخلاة لتأتيه، والمراد هنا أرى الصيد لكلبه ليطلبه (اللسان: مادة شلي).

(٦) ـ الساجُور: القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب (اللسان: مادة سجر).

(٧) ـ القبُّ: جمع أقب، يريد أنه في اندفاعه أسرع وأمضى من الخيل الضامرة المقوسة الظهور، وهي أسرع جرياً (اللسان: مادة قبب).

الهُرْت[1] اللاحقة البطون، معرق في نجابته، معمّ مُخْوِلٌ في فراهته، فغشيه كالغيث، وأخذه كالليث، ففقر فقاره بشفاره، وقدَّ قميصه بأظفاره، وتلاحقنا به وقد أكبَّ على صيده وقعد، كأنهَّا فريسة بين ساعدي أسدٍ، فروَّيناه من دمه، وخلَّينا بينه وبين أدمه. . . »[2].

فألفاظ هذه الرسالة تتميز بالجزالة والمتانة على الرَّغم ممّا تتَّسم به من سهولة ووضوح وبعد عن التعقيد والغرابة. ونجد مثل هذه الجزالة والمتانة في الألفاظ في رسالة كتبها المعتمد بن عبَّاد رداً على رسالة تهديد ووعيد بعث بها الأذفونش، حيث يقول: «أمَـا تعلمُ أنّا في العدد والعديدِ، والنَّظرِ السّديدِ، ولدينا من كماة الفرسان، وحماة الشجعان، يوم يلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا الكبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار. . . »[3].

ومهما يكن من أمر فإنَّ الباحث يستطيع القول بأنَّ ألفاظ الرسائل الأندلسية كانت منسجمة مع موضوعاتها وأغراضها ومعانيها، فكانت تتَّسم بالسهولة والوضوح في الـرسـائـل الدِّينية والإخوانية والدِّيوانية والوصفية، وتميل إلى المتانة والجزالة في الرسائل ذات الاتجاه السياسي، ورسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، وفي أغلب رسائل المفاضلات والمفاخرات وفي رسائل النقد الأدبي، وتجنح إلى الغرابة والتعقيد في رسائل الزَّرْزُورِيَّات وبعض ررسائل الشوق والوجد الديني ورسائل الفكاهة.

السَّجْعُ:

أخـذ الكُتَّـاب الأندلسيون بالكتابة المتأنِّقة، وأكثروا من استعمال المحسنات البديعية في رسائلهم على نحو ماكان يفعل الكُتَّاب المشارقة. وقد كان السَّجْعُ أكثر هذه المحسِّنات البديعية شيوعاً، وهو سمة زخرفية لفظية تختصُّ باللفظة المركبة في جملة

---

(١) ـ الهرت: سعة الشدق (اللسان: مادة هرت).

(٢) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٣) ـ الحلل الموشية: ص ٤٠.

تتوافق فيها بعض فواصل الكلام المنثور على حرف واحد.[1] وقد حمده الكلاعي إذ لاوَجْهَ لذمِّه إلّا أنْ يدلَّ على التَّكلُّف،[2] وعده ابن الأثير ميزة محمودة، وإلَّا لو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم.[3]

ولقد أجاد الكُتَّاب الأندلسيون في استعمال السَّجْع، وحذقوا مواطن الروعة والجمال فيه، لكنهم لم يتابعوا السَّجْعَ المشرقي، ولم يدونوا رسائلهم بأسلوب السَّجْع الذي شاع في المشرق في القرن الخامس الهجري، بل عنوا باستعمال الأسلوب المترسّل من السَّجْع الرشيق، ولعل مرد ذلك حرصهم على مايحققه من تنغيم موسيقي، وإيقاع صوتي، ومايضفيه من رونق لفظي جميل.

وعلى الرَّغم من أن الكُتَّاب الأندلسيين في القرن الخامس الهجري كانوا كلهم يسجعون،[4] إلَّا أنهم كانوا يتفاوتون بينهم في استعمال السَّجْع وتزيين الكلام به، ويختلفون في مقدرتهم بين الإجادة والتقصير. ولعل سبب ذلك تفاوتهم في التكوين الثقافي والكفاءة الفنية، واختلافهم في الأحوال والظروف النفسية والبيئية، إلى جانب اختلاف الموضوعات التي يعالجونها.[5]

ويلاحظ الباحث أن الكُتَّاب الأندلسيين قد مالوا إلى الاعتدال في استخدام السجع، فلم يسرفوا في استخدامه، ولم يتفننوا في اصطياده، وقد جروا في هذا المجال مع مايتفق وطبعهم ومقدرتهم الثقافية، وماهم من كفاءة في تحسين المعنى أو ابتكاره أو توليده في أثواب جديدة في الصياغة. وفي هذا مايدلُّ على أن أساليب الكُتَّاب كانت أقرب إلى العفو والطبع، حيث ورد السَّجْع في رسائلهم عفو الخاطر، غير متكلِّف، قصير الفقرات.

---

(١) - انظر: المثل السائر: ج ١، ص ١٩٢.

(٢) - انظر: إحكام صنعة الكلام: ص ٢٢٧.

(٣) - انظر: المثل السائر: ج ١، ص ١٩٣.

(٤) - انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٣٢٥.

(٥) - انظر: النثر الأندلسي: ص ٤٥٤.

ويلاحظ البـاحـث أن السَّجْـع يكثـر في الرسائل ذات الاتجاه السياسي على اختلاف موضوعاتها وأغراضها.[1] ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عمر بن القَلَّاس[2] في رسالة عن المستعين بن هود إلى مجاهد العامري، يدعوه فيها إلى التعاون، ويحضُّهُ على نبذ الفرقة والاختلاف: «كدَّر نعمتنا، وصفو المعيشة عندنا... ماتردُ به الأنباء، من الوحشة الواقعة بينك وبين المنصور[3] ـ أيَّدكما اللهُ ـ مما لويستطيع الفداء له بكلِّ عِلقٍ غَالٍ، ومعالجة التيائه بكُلِّ نفيسٍ غالٍ، لما تأخَّر عن ذلك أحد، ولاقَرَّ على غيره خلد، رغبةً في الألفة بينكما وحرصاً على تمام النِّعمة للمسلمين فيكما، فأنتما فئة الإسلام، وعمدة الأنام، ومتى اضطرب حبل، وانصرم منكما وصل، فشمل الكلِّ شتيت، ووصـل الجميع مبتـوت... فالله الله من الدِّين أن يألم بكما، والحرمة أن تذهب بينكما...».[4]

فلقد ظهر السَّجْع واضحاً في جميع عبارات الرسالة، ونوَّع الكاتب في فواصله ولم يجرِ فيه على حرف واحد.

كذلك تزخر الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي بألوان السَّجْعِ وفنونه في مختلف موضـوعاتها وأغراضها، كالشَّكْوَى من الزَّمان وفساد، الأحوال والنقد الاجتماعي، ووصف الترف والمجون.[5] ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة لأحد الكُتَّاب[6]

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٧٨ ـ ٥٧٩، ق ٢ م ٢، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٩، ق ٣ م ١، ص ١٥٤ ـ ١٦٥، ق ٤ م ١، ص ١١ ـ ١٢.

(٢) ـ هو أبو عمر بن القَلَّاس، ناثر مجيد، ومحسن معدود في كُتَّاب بني هود، وله ترسيل كثير (انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤١٨ ـ ٤٢٢، ٤٢٤ ـ ٤٢٦).

(٣) ـ هو المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر صاحب بلنسية: المعروف بالمنصور الصغير وقد سبق التعريف به.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤١٩.

(٥) ـ يجد الباحث أمثلة على ذلك مختلفة تزخر بألوان السَّجْعِ وفنونه في: القلائد: ص ١٠٨، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٥٣، ق ٣ م ١، ص ٤٣٢، ٤٣٤، ق ٤ م ١، ص ١٨٩.

(٦) ـ لم يذكر ابن بسام اسم هذا الكاتب، ولم يعثر الباحث على النص في المصادر الاخرى.

يشكو فيها الزّمان وفساد الأحوال، حيث يقول: «وأيّ أمانٍ، من زمانٍ، يدبُّ دبيب العربان، ويثبُ وثوب الأفعوان، ما أمكنها إمكان، وعنَّ لها مكان، ويسعى بالنميمة بين الفروع والأرومة، وهيهات أن تُصْطَفى حية رقشاء ليِّنٌ مَسُّهَا، قاتلٌ سمُّهَا، يهوي إليها الجاهل، ويحذرها العاقل...».(١) ويظهر في هذا النص أن التَّنويع في فواصل السَّجْع قد أضفى عليه صفات الجمال والرقة والوضوح، مع البعد عن الثقل والتكلّف والصنعة.

ونجد مثل هذا السَّجْع القائم على التَّنويع في الفواصل والبعد عن التكلّف في رسالة لابن شرف القيرواني ينتقد فيها أحد القادة، حيث يقول: «إذا الحَرْبُ دعت أبطالها، وزُلْزِلَتْ الأحشاء زلزالها، نخب مابين جنبيه، وغَابَ السَّوادُ من عينيه. مهزمةٌ لجنوده، ومهدَّة لعُدّته وعديده. يوسع أعذار الفرار، ولايرى على الجُبناء من عارٍ. بيناه في أوَّل الرَّعيل ضارب، إذا به وراء السَّاقةِ هاربٌ...».(٢)

وتسير رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين على نهج الرسائل الأخرى، من حيث التزام السجع القائم على التَّنويع في أكثر جملها وعباراتها. ومن الأمثلة على ذلك قول أبي الأصْبَغ بن الأرْقَم في رسالة عن علي ابن مجاهد العامري إلى المعزِّ بن بَاديس، يصف فيها المصائب والنكبات التي حلَّت بالمسلمين في الأندلس: «ومما وجبَ التعريفُ به ماعمَّ أقطار ثغرنا، وغشيَ مجامع أفقنا، من تمالؤ النَّصارى وتضافرهم من كلِّ أوْب إلينا، بجمعٍ لاعهد بمثله، ملأ الفضاء، وطبَّقَ الأرجاء، وشغلنا بالفتنة بيننا عن تخفيف وطأتهم، وتضعيف سورتهم، فطمسوا الآثار، وجاسوا خلال الدِّيار، موفورين لامانع منهم، ولادافع لهم، إلَّا التفاتة الله تعالى لأهل دينه، بأنْ أقلَّ فائدتهم، وخَيَّب مرامهم، وأطاش سهامهم...».(٣)

ونجد مثل هذا السَّجْع في رسالة لأبي عبيد البكري يهنىء فيها المعتمد بن عبَّاد بانتصار المسلمين في الزَّلاقة، حيث يقول: «فتوح أضحكت مبسم الدهر...

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٥٥.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٤ م ١، ص ١٩٠.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٣.

فذكرها زادُ الرَّاكب، وراحة اللاغب،[1] ومتعة الحاضر، ونقلة المسافر، شملت الغمة، وجبرت الأمة. . . ».[2]

فلقد اتَّسمت هذه الرسالة وغيرها من رسائل الجهاد والصِّراع مع الصليبيين بالسَّجْع المناسب المعبِّر بوضوح وجلاء عن صدق العواطف وعمق المشاعر.

كذلك فقد أكثر الكُتَّاب من استخدام السَّجْع في الرسائل الإخوانية، ذلك أنَّ طبيعة موضوعاتها تتطلب اهتماماً كبيراً بالعبارات، وصياغة متقنة للتعبير عن العواطف الجيَّاشة والمشاعر المخلصة.

ومن أمثلة السَّجْعِ في الرسائل الإخوانية ماورد في رسالة القاضي أبي عبد الله ابن حمدين في مدح أبي مروان بن شمَّاخ[3] والشَّفَقِ والغَسقِ، ولوامع الفلق، إنَّك لصاحب الرَّاية، ومحرز الغاية، زعيم حلبة البيان، وفارس ذروة الإحسان، لتعط القوس باريها، وتُمنَحُ المنحةُ ذويها». وإنَّ للمتعاطي ذلك المضمار أن يُبايع بيدِ الصَّغار، وينبذ بأزمَّة مقادير الأقدار. . . ».[4]

ومن الأمثلة على السَّجْع القائم على التَّنويع في الفواصل وقصر الفقرات في الرسائل الإخوانية أيضاً، ماورد في رسالة لابن عَبْدون بعث بها إلى أحد إخوانه، حيث يقول: «وإنْ كانت القلوب تتناجى على البعاد، بألسن الوداد، وتتراءى على الفراق، بأعينِ الوفاق، فَرُبَّما أحوجت دواعي الأيام إلى المفاوضة بالأقلام، لضرورةٍ لابدَّ من الإيضاح عنها، والخروج شفَاهاً منها. . . ».[5]

---

(١) ـ اللاغِبُ: يقال فلانٌ ساغِبٌ لاغِبٌ أي مُعْيٍ (اللسان: مادة لغب).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٣) ـ هو الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شمَّاخ، ذكر ابن بسام أنه أحد من شافهه وذاكره وأنشده شعره (انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٨٢٧).

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٨٣٦ ـ ٨٣٧.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٨١.

أمَّا ظاهرة السَّجْع في الرسائل الدِّيوانية فإنها بارزة أيضاً، ولاتقلُّ عن درجة وجودها في الرسائل الإخوانية، حيث تظهر في عدد كبير من رسائل التولية والتعيين، ورسائل الأوامر والتوجيهات والوصايا الدِّيوانية، ورسائل اللوم والتقريع وغيرها.(١)

ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة وجهها المتوكل بن الأفطس إلى ابنه العبَّاس وكان والياً على يَابُرَةَ،(٢) حين فرَّ منه بعض أهلها إلى المعتمد بن عبَّاد منافسه، وفيها يعاتبه ويلومه على ماصدر منه، حيث يقول: «واتَّصل ماكان من خروج فلانٍ عنك، ولم تتثبَّتَ(٣) في أمره، ولاتحقَّقت صحيح خبره، حين فَرَّ عن أهله ووطنه، والعجلة من النُّقصان، وهذا الذي أوجبه إعجابك بأمرك، وانفرادك برأيك، ومتى لم ترجع عمَّا عوَّدت به نفسك، أريح نفسي من شغبِكَ...».(٤)

ويجد الباحث أمثلة وشواهد كثيرة على انتشار ظاهرة السَّجْع في الرسائل الدينية، ورسائل المفاضلات والمفاخرات، ورسائل الفكاهة على اختلاف موضوعاتها وأغراضها،(٥) مما يصعب إيراده في هذا البحث.

وعلى الرَّغم من أن السَّجْع جاء في أغلب نصوص أدب الرسائل مسايراً للطبع والذوق قائماً على التنويع في فواصل الجمل والعبارات، حيث لم يسرِ الكاتب على وتيرة واحدة، ولم يلتزم حرفاً واحداً في جميع الفواصل، وإنَّما كان ينوِّع بين حرف السَّجْعَة. إلَّا أنَّ الباحث لم يعدم نصوص بعض الرسائل التي احتوت سَجْعاً متكلَّفاً، يجافي الطبع والذوق، ويثقل على اللسان والسمع. ومن الأمثلة على ذلك رسالة أبي بكر

(١) - انظر: القلائد: ص ٤٥، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٦٠، ق ٢ م ٢، ص ٦٤٦، ٦٤٧، ق ٤ م ١، ص ١٦٥، الخريدة: ج ٣، ص ٣٧٠.

(٢) - يابرة: مدينة من كور باجة الأندلس (انظر: الروض المعطار: ص ٦١٥ - ٦١٦).

(٣) - وردت في النص المنقول (تثبت).

(٤) - المغرب: ج ١ ص ٣٦٥.

(٥) - انظر: البديع: ص ١١٣، ١٢٩، القلائد: ص ١٠٣، ١٠٨، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٣٦، ٥٢٣، ق ١ م ٣، ٦٤٥، ق ٢ م ١، ص ١٩٤، ٣٤٧، ق ٣ م ١، ٤٧١، ٤٧٢، ق ٣ م ٢، ص ٥٤٣، ٧٠٧ - ٧٥٥، أزهار الرياض: ج ٤، ص ٢١ - ٢٩.

ابن سعيد البَطَلْيَوْسي في صفة الزَّرْزُور[1]، ورسالة ابن زيدون الهَزْلية التي يسخر فيها بابن عبدوس، حيث يقول: «وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا في طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك، والضَّحاك استدعى مسالمتك، وجذيمة الأبرش تمنَّى منادمتك...».[2]

فلقد سار ابن زيدون على وتيرة واحدة، والتزم حرف الكاف في جميع فواصل الكلام. ويظهر للباحث أن ابن زيدون قد قصد إظهار هذا التكلّف والتصنّع قصداً، وذلك للمبالغة في الاستهزاء بمنافسه ابن عَبْدوس.

الازدواج:

لقد كان الازدواج من المحسِّنات اللفظية التي استخدمها الكُتَّاب لتنميق رسائلهم وتحسينها. وقد جاء اهتمامهم به ملازماً للاهتمام بالسَّجْع لأنه ذو علاقة وثيقة به، بل هو قسم من أقسامه. إذ لم يكن الكُتَّاب يلتزمون حرفاً واحداً في جميع فواصل الجمل والعبارات، وإنَّما كانوا ينوِّعون بين حروفها، فإذا اقتصر هذا التَّنويع على سجعتين اثنتين تكونان على حرف واحد كان ذلك ازدواجاً، في حين يكون السَّجْعُ على فاصلتين أو أكثر.[3]

وقد عدَّ أبو هلال العسكري الازدواج من حميد صفات النثر «إذ لايحسن منثور الكلام، ولايحلو حتى يكون مزدوجاً، ولاتكاد تجد لبيلغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج، لكان القرآن، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات، فضلاً عما تزاوج في الفواصل منه...».[4]

ويبدو للباحث أن سمة الازدواج قد ظهرت في كثير من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، شأنها في ذلك شأن سمة السَّجْع، حيث تكثر صور الازدواج في

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٥٨.
(٢) ـ سرح العيون: ص ٣.
(٣) ـ انظر: التبيان في علم البيان: ص ١٧٢ ـ ١٧٣، حسن التوسل: ص ٢٠٦ ـ ٢١٤.
(٤) ـ كتاب الصناعتين: ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣.

أكثر نصوص الرسائل الإخوانية من مديح ومودة وتهنئة وعتاب واعتذار وتعاز وشفاعات ووصايا ومايجري مجراها.(١)

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عمر الباجي في جواب عن كتاب عتاب: «المودّات ـ أعزّك الله ـ إنّما تثبت دلائلها، وتصحُّ مخايلها، بمضمرات الفؤاد، لابمزوّرات المداد، وبمعتقدات الحقائق، لا بمعهودات البطائق...».(٢)

حيث تظهر سمة الازدواج واضحة في تشابه كل فاصلتين، بقوله: «بمضمرات وبمزوّرات، الفؤاد والمداد، وبمعتقدات ومعهودات، الحقائق والبطائق».

ومثال ذلك نجد أيضاً في رسالة لابن عَبْدُون خاطب بها أبا القاسم بن الجدِّ، بقوله: «ياحامل يراعي الأعظم، ومعوِّل انقطاعي الأقوم، ومعقل امتناعي الأعصم، ومن لازال جنابه للأمطار رضيعاً، وبابُهُ للأوطار شفيعاً... سلام الله وروح رُحماه، ونفح سُقياه، عليك من رَوْضَةِ نَجْدٍ...».(٣)

حيث يحفل هذا النص على صغره بعدد من صور الازدواج والجمل المتشابهة في فواصلها، كقوله: «يراعي وانقطاعي، الأعظم والأقوم، للأمطار وللأوطار، رضيع وشفيع، روح ونفح، رُحماه وسُقياه...

وكما يلاحظ فإنَّ هذا الازدواج قد أعطى العبارات والجمل نغماً مؤثراً، وأضفى عليها إيقاعاً موسيقياً بليغاً يدلُّ على قدرة الكاتب على تأليف المفردات المناسبة، وتحقيق الانسجام بينها، مما يخدم المعنى المقصود، ويبرزه في ثوب الرِّقة والجمال وقوة التأثير.

وتكثر صور الازدواج في أكثر موضوعات الرسائل الوصفية خاصة في الرَّبيعيات، والرَّوضيات، والزَّهريات، ووصف مطر بعد قحط، ووصف الحيوان،

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٤١، ٦٥٦، ق ٢ م ١، ص ١٨٩، ٣٠٣.
(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ١٩٢.
(٣) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٧٥ ـ ٦٧٦

ووصف الليل والرياح، والزَّرْزُورِيَّات وغيرها.[1]

ومما ورد من الازدواج في الرسائل الوصفيَّة قول أبي القاسم بن السّقاط في وصف يوم ممطر: «يومنا - أعزَّك الله - قد نُقِّبت شمسه بقناع الغمام، وذُهِّبت كأسه بشعاع المدام، ونحن... من بواسم الزَّهر، في لطائم العطر، ومن غُرِّ النُّدمان، بين زهر البستان، ومن حركات الأوتار، خلال نغمات الأطيار... فرأيك في مصافحة الأقمار، ومنافحة الأنوار...».[2]

إنَّ هذه الصورة الجميلة المعبِّرة بدقة ووضوح: عن جمال الطبيعة الصامتة والصائتة، تزخر بعدد كبير من صور الازدواج المناسب للذوق والطبع، والمتمثل بقوله: بقناع وبشعاع، الغمام والمُدام، بواسم ولطائم، الزَّهر والعطر، حركات ونغمات... وما إلى ذلك من الصُّور المتوالية.

كذلك نجد مثل هذا الازدواج في رسالة لأبي القاسم بن الجدِّ عارض فيها رسالة أبي الحسين بن سراج في صفة الزُّرَيْزِيْر، حيث يقول: «حَسُنَتْ لك ياسيِّدي أبا الحسين ضرائب الأيام، وتشوَّقت نحوك غرائب الكلام، واهتزَّتْ لمكاتبتك أعطاف الأقلام، وجادت على محلِّك ألطافُ الغمام...».[3]

لقد تضمَّنت هذه الرسالة عدداً كبيراً من صور الازدواج، والجمل المتشابهة في فواصلها، والبعيدة عن التكلف والصنعة.

وتظهر سمة الازدواج في بعض رسائل المفاضلات والمفاخرات بين الأزهار والورود، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن حَسْدَاي مخاطباً النَّرْجس على لسان رجل ظريف من خواصِّ الأمير: «ياأيُّها الزَّهر الفارد، والنَّوْرُ الشارِدُ، السَّاجر بحدقه

---

(١) - يجد الباحث أمثلة على ذلك في: البديع: ص ١١٣، القلائد: ص ١٠٣، ١٣٤، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٧، ق ٣ م ١، ص ٤٠٥، ق ٣ م ٢، ص ٧٩٢.

(٢) - القلائد: ص ١٧٤.

(٣) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٨.

وأجفانه، الناظر بورقه وأغصانه، الباهر بورقه وعقيانه مَا لي أرى قُضُبَكَ غبراً ذابلةً . . . » . [1]

فقد تضمَّن هذا النص عدداً من صور الازدواج التي أعطت الجمل والعبارات نغماً موسيقياً جميلاً ، وقد تمثَّل ذلك بقول الكاتب : الزَّهْرُ والنَّوْرُ، الفارد والشَّارد، بحدقه وبورقه، أجفانه وأغصانه . . .

ومع أنَّ الازدواج ظاهرة فنية واضحة في كثير من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، إلَّا أنَّ الباحث لم يعدم بعض النصوص التي قلَّ فيها هذا اللون من المحسِّنات اللفظية، وكثر فيها السَّجْع كالرسائل ذات الاتجاه السياسي، والرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي، والرسائل الدينية، ورسائل النقد الأدبي والرسائل الدِّيوانية .

ومهما يكن من أمر، فإنَّ صور الازدواج التي ظهرت في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، وردت موافقة للطبع، ومناسبة للذوق ومساهمة في إبراز المعنى بصورة جميلة مؤثرة. وقد اختلط فن الازدواج بفن السَّجْع في كثير من المواضع حتى طغى الأخير عليه، وذلك للعلاقة القويَّة بينهما كما ذكرنا فيما تقدَّم .

الجناس :

كان الجناس من الألوان الزخرفية[2] التي استعملها الكُتَّاب الأندلسيون لتزويق كلامهم وتنميقه. ويلاحظ الباحث أنَّ عنايتهم بالجناس كانت أقلَّ من عنايتهم بالسَّجْع . وقد تباين استعماله وتفاوت بحسب الأغراض والموضوعات، ولعلَّ مردّ ذلك حرص الكُتَّاب على الابتعاد عن التكلُّف، واكتفاؤهم بالسجع والازدواج، ومايحدثانه من تنغيم وموسيقى وإيقاع يعوض عن استخدام الجناس .

ويظهر فنّ الجناس بوضوح في بعض موضوعات الرسائل الدينية كالشوق والوجد الديني والوعظ والزهد. ومن الأمثلة على ذلك قول أبي محمد بن مسعود في

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٧١ .

(٢) ـ عن الجناس : انظر: كتاب الصناعتين: ص ٣٢١ ـ ٣٣٦، المثل السائر: ج ١، ص ٢٤٦ ـ ٢٦٤، حسن التوسل: ص ١٨٣ ـ ١٨٩ .

مقدمة رسالة زهدية: خاطب بها ابنه: «فَازَ يابُنيَّ مَنْ تَحَصَّن بالعفاف، وتبلَّغ بالكفاف.. ولَشَدَّ يابُنيَّ ماأوغلت في البلاد... وتورَّطت موحش المجاهل، وتورَّدت آجن المناهل...».[1] فلقد جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين لفظي العفاف والكفاف، وبين لفظي المجاهل والمناهل.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ماورد في رسالة أبي القاسم بن الجدِّ في الشوق والوجد الديني، حيث يقول: «صَلوات اللهِ على خاتم الرُّسل... ومجليِّ الظُّلْم والظُّلَم[2]...».[3] حيث جانس جناساً ناقصاً بين لفظي ظُلْم وظُلَم.

وكذلك تظهر صور الجناس في بعض الرسائل الدِّيوانية، ومن الأمثلة على ذلك قول المتوكل بن الأفطس مخاطباً أبا الوليد بن الحضرميِّ، وقد عزله من خدمته: «ولما رأيتُ الأمر قد ضاع، والإدبار قد انتشر وذاع، أشْفَقْتُ من التَّلف، وعدلتُ إلى مايُعقبنا إن شاء الله - بالخلف..».[4] فقد جانس جناساً ناقصاً بين لفظي ضاع وذاع، وبين لفظي التَلف والخلف.

أمَّا الرسائل الإخوانية، فقد تضمَّنت بعضُ أغراضها مقادير متفاوتة من صور الجناس الناقص، وخاصة في أغراض المديح والمودة والشفاعة والعتاب والاعتذار.[5] ومن الأمثلة على ذلك قول أبي المُطَرِّف بن الدبَّاغ مخاطباً بعض إخوانه: «ياليت شعري كيف أتغيَّر على بعضي، وأمنحه قطيعتي وبغضي».[6] حيث جانس جناساً ناقصاً بين لفظي بعضي وبغضي.

---

(١) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٤٩.

(٢) - الظُّلْم: الجور، والظُّلَم جمع ظُلْمه وهو ذهاب النور (اللسان: مادة ظلم).

(٣) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨٨.

(٤) - الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٤٦.

(٥) - انظر: القلائد: ص ١٧١، الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٩٣، الخريدة: ج ٣، ص ٤٥١، ٤٧٧، ٥٤٨.

(٦) - الخريدة: ج ٣، ص ٣٩٢.

ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة لأبي عبد الله بن خلصة في المديح، يقول: «أيّ برٍّ ـ أعزّك الله ـ يعارض به بِرُّك، وقد عرض في المكارم بَرُّك وبحرك. . . أم أيّ عُرْفٍ يكون جزاء عُرفك، وقد عَمَّ الخافقين رَيّاً عَرْفَكَ(١)». (٢) حيث جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين الألفاظ: بِرّك وبَرّك، وعُرْفك وعَرْفك.

وتظهر في عدد من الرسائل الإخوانية صور من الجناس التام. ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة لأبي مروان بن شَمَّاخ خاطب فيها الفقيه أبا عبدالله بن حمدين «وإني ـ أعزَّ الله الفقيه ـ وإن كان أوطأني الله منها أوطاني، وأعطاني منها أعطاني. . . لغريب فيها بين الأحبة والأهل. . . ». (٣) فقد جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين لفظي أوطأني وأوطاني، وبين لفظي أعْطَاني وأُعْطَاني.

وتتفاوت مقادير صور الجناس في الرسائل الوصفية، وأكثر ما تظهر في الرَّبيعيَّات، والرَّوضيَّات، ووصف هطول المطر بعد القحط. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة لأبي حبيب الحميريّ يصف فيها خيريّاً أُهْدي إليه، حيث يقول: «لانِدَّ له إلاّ النَّدُّ، (٤) ولامَسْك له إلاّ المِسْك. (٥) وقد قبضته مشغوفاً به، مُستَلِذاً بِقُرْبِهِ متعجِّباً من حُسن اختياره، لاستتاره باستهتاره، تحت جناح الظَّلام لِيَسْلَمَ من الجُنَاح(٦). . ». (٧) حيث جانس الكاتب بين النِّد والنَّد، المَسْك والمِسْك، جَنَاح وجُنَاح وغيرها.

ومن ذلك أيضاً ماورد في رسالة لأبي جعفر بن الأبَّار(٨) في وصف الرَّبيع

(١) ـ العُرْف: الجود، والعَرْف الرائحة (اللسان: مادة عرف).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٢٤.

(٣) ـ الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٧٢٩.

(٤) ـ النِّد: المثل والنظير، والنَّد: ضرب من الطيب (اللسان: مادة ندد).

(٥) ـ المَسْك: الجلد، والمِسْك: ضرب من الطيب (اللسان: مادة مسك).

(٦) ـ جَنَاح الظلام: جانبيه، والجُنَاح: الميل إلى الإثم (اللسان: مادة جنح).

(٧) ـ البديع: ص ١١٣.

(٨) ـ هو أبو جعفر أحمد بن محمد الخولاني الإشبيلي أحد شعراء المعتضد المحسنين المتقنين، توفي

ومشاهده الجميلة، حيث يقول: «وبُرْد الأرض خضر، فوَّفَ من الزَّهر بمثل الأنجم الزُّهر[1] والرِّياض راضيةٌ من الحيا، متبرِّجةٌ بعد الحياء أهدت لها المُزنُ دِرَرَهَا، فأبْدت يواقيتها ودُرَرَها[2]. . »، [3] حيث جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين الألفاظ: الزَّهر والزُّهر، الحْيا والحَياء، دِرَرها ودُرَرها.

وتظهر صور الجناس في عدد من رسائل المفاضلات والمفاخرات، كالرَّسائل الشعوبية، والمفاخرة بين السَّيف والقلم، وفضائل البلدان، إذ أن المجال مجال مفاخرة وتنافس وتغن بالمآثر والفضائل، وإنكار لكلِّ عيب أو منقصة، وفي هذا الموطن يحسن استخدام المحسِّنات البديعية لتحسين الكلام وتنميقه.

ومن الأمثلة على ذلـك ماورد في الرسائل الشعوبية قول ابن عَرْسِيَةَ مفتخراً بقـومـه، ومقللاً من شأن العرب: «شُدِهوا برَنَّات السَّيوف عن رَنَّات الشَّنوف، [4] وبالنَّفير عن النَّقير[5]. . . وبالخَبِّ عن الخب، [6] وبالشَّليل عن السَّليل، [7] وبالأمر والذمر[8] عن معاقرة الخمر والزمر». [9]

سنة ٤٣٣ هـ (انظر ترجمته في: الجذوة ص ١١٥، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٣٥، المغرب: ج ١، ص ٢٥٨.

(١) ـ الزَّهَر: جمع زَهْرَة، وهو نَور كل نبات، والزُّهْر: جمع زُهْرة وهو البياض النيّر (اللسان: مادة زهر).

(٢) ـ الدِّرَر: جمع دِرَّة والدِّرَّة في الأمطار: أن يتبع بعضها بعضاً، والدُّرَر: جمع دُرَّة: وهي اللؤلؤة العظيمة (اللسان: مادة درر).

(٣) ـ البديع: ص ٦٨.

(٤) ـ الشّنوف: جمع شنف وهو القرط الأعلى (اللسان: مادة شنف).

(٥) ـ النَّفير: الخفوف إلى الحرب، والنَّقير: الوعاء الذي يتخذ فيه النبيذ ويريد هنا النبيذ نفسه (اللسان: مادتا نفر ونقر).

(٦) ـ الخب: ضرب من العدو، والخب: الخداع: (اللسان: مادة خبب).

(٧) ـ الشَّليل: الدرع: والسَّليل: سنام البعير (اللسان: مادة شلل وسلل).

(٨) ـ الذمر: الحض والحث (اللسان: مادة ذمر).

(٩) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٩.

فهـذا النصُّ على قصره يحفـل بعدد كبير من صور الجناس الناقص، حيث جانس الكاتب بين الألفاظ: رَنَّات ورَيَّات، السّيوف والشّنوف، النَّفير والنَّقير. . .

ومما ورد في المفاخرة بين السيف والقلم قول ابن بُرْدٍ الأصغر على لسان السيف: «إنَّ الملوك لتبادر إلى دَرْكي وتُلْحفني[1] بخلل كحُلل[2] وحَمائل كخمائل. . .». [3] فقد جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين الألفاظ: خِلل وحُلَل، حمَائِل وخمَائِل. . .

ومما ورد في فضائل البلدان قول أبي المغيرة بن حَزْم في مقدمة رسالته التي رد بها على ابن الرَّبيب القيرواني: «ومازلت أتَنسَّمُ ذِكْرَك، فأترسَّمُ قَدْرَك، وأسمع خبرك، فأرى خُبرُك [4] حَتَّى أرادت الأيام كشف السرِّ. . .». [5] حيث جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين لفظي خَبَرك وخُبْرك.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الباحث يستطيع القول بأنَّ انتشار فن الجناس في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، كان أقلَّ من انتشار فني السَّجْع والازدواج، وأنَّ معظم صور الجناس كانت من نوع الجناس الناقص.

---

(١) - تُلْحفني: تغطيني (اللسان: مادة لحف).

(٢) - الخلل: جمع خلة وهي بطانة يغشى بها جفن السيف وتنقش بالذهب وغيره، والحلل: الوشي والحبر والخز والقز والحرير (اللسان: مادتا خلل وحلل).

(٣) - الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٥.

(٤) - الخَبَر: النبأ، والخُبْر: العلم والمعرفة (اللسان: مادة خبر).

(٥) - الذخيرة: ق ١ م ١: ص ١٣٧.

التَّعبير عن المعاني

لم يقتصر اهتمام الكُتَّاب الأندلسيين على اللفظة المفردة، بل تعدَّى ذلك إلى الاهتمام بالجمل والعبارات، فقد عملوا على زيادة الانسجام بين اللفظة المفردة والجملة، بحيث ظهرت أشكال التعبير منسجمة في ألفاظها وعباراتها مع معانيها بوضوح وتأثير.(١)

ويلاحظ الباحث أنهم اعتمدوا على عدد من الأدوات لإخراج عباراتهم بأسلوب جميل مؤثر. ومن هذه الأدوات الخيال والصورة البيانية، إضافة إلى عدد من المحسِّنات البديعية، كان من أبرزها الطباق والمقابلة.

الخيال والصورة البيانية:

يعتبر الخيال من أبرز الوسائل التي استخدمها الكُتَّاب لتكوين صورة بيانية معبرة.(٢) ولم يقتصر الخيال على موضوع معين من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، وإنَّما شمل عدداً كبيراً منها، فلقد كان الخيال من أبرز الخصائص الفنية لرسائل المفاضلات والمفاخرات. وهو خيال واسع متأثر بالحكايات والأساطير من حيث إدارة الحديث على ألسنة غير الإنسان.

ولقد تمثَّل هذا الخيال في رسالة المفاضلة بين الأزهار وتفضيل الورد عليها لابن بُرْد الأصغر،(٣) وفي رسالة أبي الوليد الحميريِّ في تفضيل البَهَار،(٤) وفي رسالة أبي عمر

---

(١) ـ انظر: النثر الأندلسي: ص ٤٨١.

(٢) ـ انظر: الأسلوب: ص ١٩٥ ـ ١٩٧، في النقد الأدبي: ص ١٧٥

(٣) ـ انظر: البديع: ص ٥٢ ـ ٥٥.

(٤) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٥٨ ـ ٦٧.

الباجيِّ التي كتبها على لسان البَهَار يشكو فيها الوردَ للمقتدر بن هود، عندما تعدَّى عليه واغتصب رئاسته.[1] وفي رسالة ابن حَسْدَاي التي أجرى الحوار فيها بين النَّرْجِس ورجل ظريف من خواصّ الأمير.[2]

لقد تصوَّر الكُتَّاب في كثير من هذه الرسائل وقوف الأزهار والورود في مجالس تنادت إليها، وأجروا حواراً على ألسنتها. فقد وقف كلُّ نَوْر حضر هذه المجالس يدافع عن نفسه، ويفتخر بصفاته، ويؤدِّي شهادته، ويدلي بوجهة نظره.

وقد سرت هذه المفاضلات والمفاخرات كما تقدَّم إلى السيف والقلم، فكتب ابن بُرْدٍ الأصغر رسالة أقامها على المفاخرة بين السيف والقلم في تعداد الصفات والمحاسن.[3]

كذلك يظهر عنصر الخيال واضحاً في رسالة التوابع والزوابع التي كتبها ابن شهيد في إطار قصصي خيالي مبتكر،[4] أراد من ورائه أن يظهر موهبته وعبقريته، وأن يتغنَّى بفضائله، ويشيد ببلاغته، وينال من خصومه، وينافح عن أدبه أمام خصومه وحسَّاده الذين انتقصوا أدبه وبلاغته.[5] ولعلَّ هذه الأمور مجتمعة هي التي حملته على الطيران حول ديار الجن على ظهر جواد سار به كالطائر.[6]

وليس أدلُّ على قوة الخيال في رسالة التوابع والزوابع من اختيار الميدان الذي دارت عليه أحداث هذه القصة، وطريقة استدعاء التابع،[7] وفي وصف الجواد، حيث نحسُّ الجو الأسطوري والخيالي وهو «يجْتَابُ الجوَّ فالجوّ ويقطع الدَّوَّ

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٨.

(٤) ـ انظر: الأدب الأندلسي: ص ٣٧٧، الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه: ص ٦٤١.

(٥) ـ انظر: التوابع والزوابع: ص ٧٠.

(٦) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٩١.

(٧) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٨٩ ـ ٩٠.

(٨) ـ الدَّوّ: الفلاة (اللسان: مادة دوا).

فالدَّوِّ(٨)، حتَّى الْتمحتُ أرضاً لا كأرضنا، وشارفتُ جَوّاً لا كجوِّنَا»[1].

كذلك يبدو في استدعاء تابع أبي تمام «فانفلق ماء العين عن وجهِ فتىً كفِلقة القمر، ثم اشتقَّ الهواء صاعداً إلينا من مَعْرِها حتَّى اسْتَوَى معنا».[2]

كذلـك فقـد كان الخيال من العناصر الأساسية التي استعان بها الكُتَّاب في التعبـير عن المعـاني في الرسائل الوصفية، وخاصة في رسائل وصف الطبيعة. فقد أضفـوا على مظاهر الطبيعة المختلفة من خيالهم مايجسِّمها ويشخِّصها، فبعثوا فيها الحياة والحركة، وخلعوا عليها المشاعر الإنسانية.[3]

واستعـان الكُتَّـاب بالخيال في رسم صورهم الفنية في رسـائـل الفكاهة.[4] ويلاحظ الباحث أن الخيال قد تخلَّل بعض الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي، ورسائل الجهاد والصِّراع مع الصليبيين والرسائل الإخوانية،[5] وذلك بدرجات متفاوتة ومتباينة.

وكان الخيال عند الكُتَّاب الأندلسيين مبنياً على التصوير البياني الذي يعتمد على إيراد الصور والتشبيهات والاستعارات المختلفة اعتماداً كبيراً. وقد تنوَّعت مصادر هذه الصور البيانية وتعدَّدت. وكانت البيئة الأندلسية من أهم هذه المصادر وأبرزها، حيث أمدَّت الكُتَّاب بالأخيلة والتشبيهات والاستعارات الغزيرة.

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن حيان، وقد شبَّه انقضاض جيش المعتمد بن عبَّاد بقيادة ابنه سراج الدَّولة على جيش المأمون بن ذي النُّون بانقضاض الكوكب

(١) ـ التوابع والزوابع: ص ٩١.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٩٨.

(٣) ـ انظر: البديع: ص ٨، القلائد: ص ١٠٣، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٠٥، ٥٠٢، ق ٣ م ٢، ص ٥٤٣، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨.

(٤) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ١٩٢، ٢٢١، ٥٣٢، ق ١ م ٢، ص ٦٤٥، سرح العيون: ص ٣ ـ ٤.

(٥) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م١، ص ٨٥، ق ٢ م ٢، ص ٨٦٠، ق ٣ م ٢، ص ٨٨٢.

الساري في السرعة والقضاء على كلٍّ ما يقع عليه، يقول: «ومتَّعك بها مَنَحَك من يُمْنِ طائره على عَدوِّك، وسعده اللذين بهما، انقضَّ على عدوِّك، انقضاض الكوكب الساري، فخسف به وبجمعه». (١)

ويقدِّم أحد الكُتَّاب في رسالة كتبها عن يوسف بن تاشفين إلى تميم بن المعزِّ ابن باديس صورة مشرقة لجند المرابطين الذين جازوا البحر لنجدة المسلمين في الأندلس، حيث شبههم بالأسود في الشجاعة والإقدام، وبالسِّباع في الحدَّة والغضب، وشبَّه تشوقهم للقاء بأعدائهم والفتك بهم بتلمّظ الفهود وتشوّقها للفتك بفريستها، وشبَّه صوتهم بزئير الأسود في جلجلته، يقول: «وجوزنا للعدوِّ أسوداً ضاريةً، وسباعاً عاديةً، شيباً وشباباً، بسواعد قوية، وقلوب في سبيل اللهِ نقية، يتلمَّظونَ تلمظَ الفهودِ، ويزأرون زئيرَ الأسود». (٢)

كذلك فقد قدَّم أبو الفضل جعفر بن شرف القيرواني صورة مشرقة لأحد الوزراء استوحاها من البيئة الأندلسية الجميلة، حيث شبَّه الوزير بالمطر في غزارة عطائه وعمومه، وبالقمر في أشعته وتبديده للظلمات، يقول: «الوزير كالمطر الجود يملأ الحياض، ويُنْبِتُ الرِّياضَ، بل كالقمر يقذفُ بالنُّور، ويَذْهَبُ بالدَّيجُور». (٣)

ولم يقتصر استلهام الكُتَّاب الأندلسيين لصورهم البيانية من البيئة الأندلسية على البرِّ، بل استلهموا صورهم من البيئة البحرية أيضاً، كقول ابن بُرْدٍ الأصغر في وصف المداد والقلم وأدوات الكتابة: «المداد كالبحر، والقلم كالغوَّاص، واللَّفْظُ كالجَوْهَرِ، والقِرْطَاسُ كالسِّلْكِ»(٤).

وقد تكون الصورة البيانية مستوحاة من حياة الناس وعاداتهم الاجتماعية والأدوات الحضارية التي يستعملونها. ومن الأمثلة على ذلك قول أبي الحفص

---

(١) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٨٠.

(٢) - رسائل سياسية وإخوانية أندلسية (الإسكوريال ٤٨٨): ورقة ٤٩.

(٣) - الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٨٨٢.

(٤) - المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ٤٩٦.

الهَوْزني: «والحَرْبُ في اجتلائها حسناء عروس تطّبي الأغمار بزّتهُا، وفي بنَائِهَا شمطاء عبوسٌ تخْتَلي الأعمار غِرَّتهَا».[1] حيث صوَّر الحرب في اجتلائها بأنهَّا العروس التي تستميلهم وتغريهم، وصوَّرها في بهائها بالشمطاء العبوس التي تفزع.

ومن ذلك أيضاً قول أبي المغيرة بن حزم في وصف ملامح رسول أرسله إلى ابن عبَّاس: «فعهدي بجبينه كالصحيفة الصَّقيلة، وخَدِّهِ كمرآة الغريبة، ولسانِهِ كمخراقِ لاعبٍ».[2] فقد استمدَّ الصورة البيانية من الأدوات الحضارية التي استعملها الأندلسيون، فشبَّه جبينه بالصحيفة في جلائها، وخدَّه بالمرآة في صفائها، ولسانه بمخراق اللاعب في حدَّته وطوله.

وكان من مصادر الصورة البيانية في موضوعات أدب الرسائل وأغراضه القرآن الكريم. فقد استوحى أبو الحسن الهَوْزني آي الذكر الحكيم عندما قال في وصف حال المسلمين في الأندلس: «كأنَّ الجميعَ في رَقْدةِ أهْلِ الكهفِ».[3]

ومن ذلك أيضاً قول أبي جعفر بن أحمد: «وإنَّ الذي بَيْنَكُمْ وبَين الهلكة لأقصرُ من إبهام الحبارى،[4] في يوم تُروْنَ فيه سُكارى، وما أنتم بِسُكَارى، ولكنْ عذابُ اللهِ الواقعُ[5].».[6]

حيث شبَّه حال الأعداء، ومايصيرون إليه من ذهول، ومايدبُّ في قلوبهم من رعب عند التقائهم بالمسلمين بالسُّكارى. وهي صورة مستوحاة من القرآن الكريم.

وقد تكون الصورة مستوحاة من التاريخ العربي الإسلامي القديم، ومن الأمثال والحكم. فقد استعار ابن شُهَيْد كثيراً من أعلام التاريخ الإسلامي في وصف

(١) - الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٨٥.
(٢) - الذخيرة: ق ١ م ٢، ص ٦٤٨.
(٣) - المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ١، ص ٨٤.
(٤) - انظر: مجمع الأمثال: ج ٢، ص ١٢٨.
(٥) - انظر: سورة الحج: الآية ٢.
(٦) - الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٦٨.

الثعلب عندما صوَّر دهاءه وفتكه، حيث يقول: «أدْهَى من عمرو،[1] وأفتك من قَاتِلِ حُذَيْفَةَ بن بَدْرٍ». [2]

واستعار أبو جعفر بن أحمد من الأمثال العربية، عندما صوَّر مابين الكُفَّار وهلاكهم على يد المسلمين بأنه أقصر من إبهام الحبارى، حيث يقول: «وإنَّ الذي بَيْنَكُم وبَين الهلكة لأقصرُ من إبهام الحبارى». [3]

ولقد اعتمد الكُتَّاب في صورهم على عنصر التَّشخيص والتَّجسيم، وذلك بإلباس المعاني صوراً حَيَّة، وخلع الصفات الإنسانية على المنعوتات، وبثِّ الحياة والحركة والنشاط فيها.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي المغيرة بن حزم مصوراً سحر الطبيعة الأندلسية وقت الربيع، ومشخصاً عناصرها في صور إنسانية مشرقة «فالأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها، وتقلّدت سِخابَها. . . والأشجارُ قَدْ نشرت شعورها، وهزَّت رؤوسها، والدُّنيا قد أبدت بشرها، وأماطت عُبوسها». [4]

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قول أبي الفضل جعفر بن شرف القيرواني مصوراً فتح بلنسية: «وأقبل الفتحُ في لُمَّةِ التأييد، يرفلُ في ثوبِ النَّصر الجديد». [5] حيث رسم للفتح صورة مشرقة، وجسَّمه تجسيماً حَيًّا، فتخيله رجلاً أقبل مبتهجاً يجر ذيله متبختراً مزهواً بنفسه في موكب عظيم.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قول أبي محمد المصري[6] مصوراً الموت الذي

(١) ـ يريد عمرو بن العاص.

(٢) ـ اليتيمة: ج ٢، ص ٥٤.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٦٨.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ١ م ١، ص ١٥٤.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ٢، ص ٨٦٨.

(٦) ـ هو أبو محمد عبد الله بن خليفة القرطبي، المعروف بالمصري لطول إقامته بمصر، اشتهر بالطب، وكان كثير النادرة حاضر الجواب توفي سنة ٤٩٦ هـ (انظر ترجمته في: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٣٤٢، الخريدة: ج ٢، ص ١٩٣، المغرب: ج ١، ص ١٢٨).

أصاب أهل مالقة على يدي المعتمد بن عبّاد، ومجسماً إيّاه في صورة إنسانية: «أصبتهم في منزلٍ عالٍ... دون... مايدفع عنهم ريبَ المنونِ، أكفُّ الرَّزايا تُصافحهم، وجنوبُ المَنَايا تُضاجِعُهُم». [1]

ولقد ظهر الجانب الحسِّي للصورة البيانية على هيئات وصور متعددة، كان من أبرزها الصورة الحركية[2]، حيث استعان الكُتَّاب بالحركة في رسم صورهم البيانية. ومن الأمثلة على ذلك قول ابن خفاجة واصفاً الطبيعة بعد الصحو: «أذن الله تعالى للصَّحو أن يُطْلِعَ وينشرَ صحيفَتَهُ، فقشعتْ الريحُ السَّحابُ، كما طوى السِّجلُّ الكِتابَ، وطفقت السَّماءُ تخلعُ جلبابَها، والشَّمسُ تحطُّ نِقَابها، وانطلقت الدُّنيا كأنَّها عروسٌ تجلَّتْ، وقد تَحلَّت...»[3].

فقد قدَّم الكاتب صورة بيانية جميلة قائمة على الحركة، حيث استطاع من خلال تشبيهاته واستعاراته، ومن خلال الأفعال التي اختارها أن يصوِّر كلَّ شيء في الطبيعة متحركاً.

ونجد مثل هذه الصورة القائمة على الحركة في قول ابن الحنَّاط واصفاً الصَّيد: «وأقبلت الزوارق تهفو بقوادم غربانٍ، وتعطو بِسَوالف غزلانٍ... تحسبُها فوق مائةِ رعيلٍ دُهْمٍ مَصْفُوفَةٍ». [4]

فلقد وفِّق الكاتب في تصوير الحركة التي نحسُّها في اندفاع الزوارق بقوة تحاكي خفقان أجنحة الغربان، وتحرك أعناق الغزلان، وارتجاج مجموعات الخيل المصفوفة.

وتظهر الصورة اللونية في عدد من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، حيث

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ٣٤٤.

(٢) ـ يجد الباحث أمثلة على ذلك في: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠٢، ق ٢ م ١، ص ٢٩٠، ٢٣٦، ق ٣ م ٢، ص ٥٤٦، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٥٤٣.

(٤) ـ الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٩.

استعان الكُتّاب بالظواهر اللونية المختلفة لتلوين صورهم البيانية.[1] ومن الأمثلة على ذلـك قول أبي جعفـر بن أحمـد في وصف الـورد: «فمن ورد كتوريد الخدود. . . وبنفسجٍ حَكَى زُرْقَ اليواقيت، وبقيَّة النَّار في أطراف كبريتٍ، وياسمين يذكِّرُ بالخدود البيض».[2]

فلقد حشد الكاتب في هذه الصورة عدداً من الألوان، فالورد أحمر، والبنفسج أزرق، والياسمين أبيض.

واستعـان ابن الخنّـاط بالألوان في رسم صورة مشرقة للحيتان حيث يقول: «النِّينانِ أشباه النُّجُوم. . تبرقُ بريقَ الصَّوارمِ المسلولةِ وتلمعُ لمعانَ الذَّوابل المصقولة، مُدَنَّرة الأصلاب، مُفَضَّضة البطون، مُذَهَّبَة الأفواه. . .».[3] فيرى الناظر في هذا النصّ تلألؤ النجوم، وبريقَ السّيوف، ولمعانَ الرِّماح، وإشراقَ الدَّنانير. . .

الطباق:

يعتبر فنُّ الطباق من أهم المحسِّنات البديعية التي استعملها الكُتَّاب في ميدان عنايتهم بالمعنى، واهتمامهم بالجمل التي تعبِّر عنه، وتترجم مشاعرهم وعواطفهم. وقد أجمع أهل البلاغة على أنَّ الطباق في الكلام، هو الجمع بين المعنى وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من أبيات القصيدة. وهو نوعان طباق إيجاب، إذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظاً ومعنى. وطباق سلب إذا تحقَّق التضاد بوجود اللفظ ومنفيه في الكلام.[4]

---

(١) ـ انظر: البديع: ص ٨، القلائد: ص ١٠٣، ١٠٦، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٥، ٤٦٩، النفح: ج ١، ص ٥٤١.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٦١.

(٣) ـ الخريدة: ج ٢ ص ٣٠٠.

(٤) ـ انظر: التبيان في وجوه البيان: ص ١٧٠ ـ ١٧٢، كتاب الصناعتين: ص ٣٠٧ ـ ٣٢١، حسن التوسل: ص ١٩٩ ـ ١٠٢.

ويظهر للباحث أن صيغ الطباق تظهر بدرجات متفاوتة في نصوص أدب الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها، فهي تكثر في عدد من الرسائل الدينية. ومثال ذلك ماورد في رسالة لابن بُرْدٍ الأصغر في التحميدات والتّسبيحات، حيث يقول: «الحمدُ لله الذي علا وقهر، وبطن وظهر، وبحكمته قدَّر وأمر، وبعدله قدَّم وأخَّر». (١) فلقد طابق الكاتب بين عَلاَ وقَهَرَ، بَطَنَ وظَهَرَ، قدَّم وأخَّر.

وتظهر صور الطباق أيضاً في عدد من رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، (٢) ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عبد الله بن أَيْمَن في رسالة كتبها على لسان المتوكل بن الأفطس مصوراً حال المسلمين في الأندلس: «ولم يزلْ دأبُها التشطُّطَ والعناد، ودأبُنا الإذعان والانقياد، حَتَّى استُصفي الطريف والتّلادُ، وأتى على الظّاهر والباطن النَّفادُ». (٣) حيث طابق الكاتب بين ألفاظ: التشطُّط والإذعان، الانقياد والعناد، الطَّريف والتَّلاد، الظاهر والباطن.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قول أبي عبيد البكري في رسالة يمدح بها المعتمد ابن عبَّاد ويهنِّئه بانتصار المسلمين بمعركة الزَّلاقة: «نصر الله أعلامه، ففي البرِّ تُحَلُّ وتُعقَدُ، وعضد حسامه فبالقسط يُسَلُّ ويُغمَدُ... ميت حقٌّ أحياه، وحيٌّ باطلٍ أرداه». (٤)

فهذا النصُّ على قصره يحفل بعدد كبير من صور الطباق كقوله: تُحَل وتُعْقَد، يُسلُّ ويُغْمَدُ، ميت وحيّ، حقّ وباطل، أحْيَاه وأرْدَاه.

كما ترد صور الطباق في كثيرٍ من الرسائل الوصفية، وخاصة في الرَّبيعيَّات

---

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٩١.

(٢) ـ يجد الباحث أمثلة على ذلك في: القلائد: ص ١١٠، الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٤ ـ ٦٥٦، ق ٣ م ١، ص ١٠١، ١٠٢، ق ٣ م ٢، ص ٨٦٨ ـ ٨٦٩، المعجب: ص ٢٢٩.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٤.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٣٦.

والرَّوضيَّات، ووصف مطر بعد قحط، ووصف الحيوان، والزَّرْزُورِيَّات والطَّرْدِيَّات.[1]

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة لأبي محمد بن عبد البرّ في وصف أذني غزال، حيث يقول: «وينصبهما إذا أوجس، ويثنيهما إذا أنِسَ...»[2]. فلقد طابق الكاتب بين لفظي ينصبُهما ويثنيهما، وبين لفظي أوْجَس وأنِسَ.

وترد صور الطباق في عدد قليل من موضوعات الرسائل الإخوانية وخاصة في رسائل المديح والمودة والتَّهاني والعتاب والاعتذار والرِّثاء والتَّعازي.[3]

ومن الأمثلة على ذلك ماجاء في رسالة لأبي بكر بن قُزْمَان في عتاب أحد أصدقائه، حيث يقول: «فربَّما تلاقينا، وكأنَّا ماتراءينا، لاكلام ببنت شفةٍ، ولا إيماء بطرف أنملةٍ، واللوم في هذا كلُّه يسقط عنيٌّ كما يضيق العـذر عنك، بقضيَّة سُنَّة الإسلام في السَّلام، في أنيّ ألقاك رَاكباً وأنا ماشٍ، وأنت بحمد الله طائر، وأنا ـ ولاكفران بالله ـ واقع، وعلى الطائر، أن يغشى أخاه... وإنْ طمح بك، وحَطَّ من قدري عندك، إدبار الأمر عني، وإقباله عليك، ففيها مافيها، ومأأرضاها لك طريقةً».[4]

فلقد طابق الكاتب بين الألفاظ: كلام وإيماء، يسقط ويضيق، راكب وماش، طائر وواقع، طمح وحط، إدبار وإقبال.

ومن ذلك أيضاً ماورد في رسالة لابن عَبْدون يعاتب فيها أحد أصدقائه، حيث يقول: «سلامٌ على مَنْ نظر بقلبه لابعينه، وحكم بيقينه لابظنّه، ونطق بعقله لابهواه،

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠٢، ق ٢ م ١، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٤، ٣٤٩، ق ٣ م ١، ص ٣٦٥، ق ٣ م ٢، ص ٦١٤، الخريدة: ج ٢، ص ٣٠٢.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٤.

(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣، ق ٢ م ٢، ص ٧٧٨، ٨٠١، ق ٣ م ١، ص ٢١٨.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٧٧٨.

وأخـذ من دُنْياه لأخـراه، ولم يتسفزّهُ قال ولاقِيل. . .». [1] حيث طابق الكاتب بين الألفاظ: قلبه وعينه، يقينه وظنّه، عقله وهواه، دنياه وأخراه.

ويظهر للباحث أن أكثر صور الطباق التي ظهرت في نصوص أدب الرسائل، كانت من نوع الإيجاب الذي يقوم على اختلاف الكلمة لفظاً ومعنىً. ولعل مردّ ذلك أن طبـاق الإيجاب يتّسم بالسهولة، وهذا مما ينسجم مع طبع الكُتّاب الأندلسيين وذوقهم، وميلهم إلى السهـولـة والـوضـوح، والابتعـاد عن التكلُّف والصنعة بقدر المستطاع. [2] وهناك ميزة أخرى تبرر كثرة استخدام هذا اللون من الطباق في الرسائل هي أنه أدعى إلى تزيين الكلام وتنميقه، لأن فيه تنويعاً في الألفاظ، مما يجلب انتباه السامع، ويدفع السأم والملل عنه.

المقابلة:

كان فنُّ المقابلة من أبرز الوسائل التي اعتمدها الكُتّاب الأندلسيون في مجال عنايتهم بتزيين المعاني وتحسين العبارات. [3] وترد صيغ المقابلة في بعض موضوعات الرسائل ذات الاتجاه السياسي، كقول ابن بُرْد الأصغر في رسالة يخاطب فيها أحد المتمرِّدين الذين عادوا إلى رشدهم: «فمهّدنا لك الترّغيب لتأنس إليه، وظللنا لك الترّهيب لتفرق منه»، حيث قابل الكاتب بين جملتي فمددنا الترغيب لتأنس إليه، وظللنا لك الترهيب لتفرق منه. [4]

ونجـد مثـل هذه المقـابلة في رسالة للبزلْيانيّ في تصوير نتائج اختلاف كلمة المسلمـين وافتراق شملهم، حيث يقول: «واتّصل بي ماوقع بينكما وبين المُظفَّر أبي محمّد من التّنازع حَتّى خَشيتُ. . . أن يتمادى بكم اللجاج، ويتعاصى من أموركم العلاج». [5]

---

(١)- المصدر السابق نفسه: ق ٢ م ٢، ص ٦٨٠.
(٢) - انظر: النثر الأندلسي: ص ٥١٠ - ٥١١.
(٣)- عن فن المقابلة انظر: كتاب الصناعتين: ص ٣٣٧ - ٣٤٠، حسن التوسل: ص ٢٠٢ - ٢٠٦.
(٤)- الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠٠.
(٥) - المصدر السابق نفسه: ق ١ م ٢، ص ٦٣٨.

وتـرد صور المقـابلة في الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي[1] أيضاً، كقول أبي الفضل البغدادي مصوراً اختلال الأمور، وتدهور الأحوال وانعدام الأمن في بعض مناطق الأندلس: «وقد نضبت في رباعها مياه الأمانة والأمان، ونبعت بين أهلها عيون الخيانة، والبُهْتَان. . . ». [2]

فقد قابل الكاتب بين جملتي نَضبَتْ في رباعها مياهُ الأمانة، والأمان، ونبعت بين أهلها عيون الخيانة والبُهْتَان.

كذلـك فقـد ظهـرت صورة المقـابلة في بعض رسـائـل الجهاد والصِّراع مع الصليبيين.[3] ومثال ذلك قول ابن عَبْدون مخبراً أمير المسلمين بفتح مدينة شَنْتَرِين: «وجمع في هذه الجزيرة شمل الإسلام، بعد انصرامه وانبتاته، وقطع غيل الإشراك بعد انتصابه وثباته». [4] فقد قابل الكاتب بين حالي الإسلام والكفر بعد هذا الانتصار.

ومثال ذلك أيضاً قول أبي بكر بن القصيرة في وصف حال المسلمين في بلاد الأنـدلس ومـاأصـابهم من ذلٍّ وهـوان: «وَلَمْ يزل دأبهـما الإذعان والانقياد، ودأب النَّصارى التَّسلُّطَ والعناد». [5]

حيث قابل الكاتب بين جملة دأبهما الإذعان والانقياد، ودأب النَّصارى التَّسلُّط والعناد.

ومثـال ذلـك أيضاً قول ابن القلَّاس في رسالة يتحدَّث فيها عن نتائج أحد انتصارات المسلمين في الأندلس: «إنَّ أولى النِّعم بأن يُتَحَدَّث عنها حديث اعتمادٍ لِشُكْرها. . . نعمة خَصَّت الدِّين، وعَمَّت المسلمين، وأعْلت للإسلام يَداً، وفَتَّتْ من الشرِّكِ عَضُداً، وشَدَّت من الإيمان سنناً، وأوهت من الكُفَّار رُكْنَاً. . . ». [6] فهذا

(١) ـ الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٣، ق ٣ م ١، ص ٣٢.
(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤١١.
(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٧٨ ـ ٢٣٥ ـ ٢٣٦، ق ٣ م ٢، ص ٨٦٨ ـ ٨٦٩.
(٤) ـ المعجب: ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٥) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٤٨.
(٦) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٢١.

النص على صغره يحفل بعدد، من صور المقابلة.

وترد صور المقابلة في بعض موضوعات الرَّسائل الدِّينية. ومن الأمثلة على ذلك قول أبي القاسم بن الجدِّ على لسان من صدر عن بيت الله الحرام «صلوات الله على خاتم الرُّسل، وناهج السُّبُل، وناسخ جميع المِلَلِ».[1]

فقد قابل الكاتب بين جملتي ناهج السُّبُلِ، وناسخ جميع المِلَل.

ومن ذلك أيضاً قول ابن شرف القيرواني في وصف حياة الزُّهاد: «زُهَّادٌ تركوا العرض، وأصابوا الغرض، اقترحوا الغَنا، واطَّرحوا الغِنَى، رفضوا المُزايل، وطلبوا الطايل، وأعرضوا عما يَبيدُ، وأقبلوا على مايُفيدُ...».[2]

فالنَّاظر في هذا النَّص يجد أنه بعددٍ كبير من صور المقابلة.

ومع أنَّ صور المقابلة تقل في رسائل المفاضلات والمفاخرات، إلَّا أن الباحث لايعدم عدداً من هذه الصور في الرَّسائل الشعوبية، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن غَرْسِيَةَ: «هم القياصرة والأكاسرة، مُجُدٌ نُجُدٌ،[3] بُهَمٌ لارعاة شُويهاتٍ ولا بهَم،[4] شغلوا بالماذيّ[5] والمرّان[6] عن رعي البُعْران، وبجلب العزِّ عن حَلْبِ المعز».[7]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٨٦.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٨٧.

(٣) ـ نُجُدٌ: جمع نجد وهو الرجل الشجاع الماضي فيما يعجز عنه غيره، ومُجُدٌ: جمع مجد هو كرم الإباء خاصة (اللسان: مادة مجد).

(٤) ـ بُهَمٌ: جمع بهمة، وهو الفارس لايدري من أين يؤتى لشدة بأسه، والبَهَمُ: جمع بهمة، وهي الصغير من أولاد الغنم (اللسان: مادة بهم).

(٥) ـ المَاذِيُّ: السلاح كله من الحديد، وقيل الحديد كله الدرع، والمغفر، والسلاح أجمع (اللسان: مادة مذي).

(٦) ـ المرَّان: الرماح الصلبة اللَّدنة (اللسان: مادة مرن).

(٧) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٢، ص ٧٠٦.

فقد قابل الكاتب بين حياة العرب القدامى في ظل الإبل والشاء، وحياة القياصر والأكاسرة في ظل السيوف والرماح.

كذلك تقل صور المقابلة في الرسائل الوصفية. وقد يجد الباحث بعض الصور في الرَّسائل التي تصف هطول المطر بعد القحط، ومايتعلق بهما من نتائج على حياة الناس ومشاعرهم، ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عمر الباجيِّ: «إنّ لله.. عطايا جامعةً للفضل، ومنحاً... يجعلها لِقَوْمٍ صَلَاحاً وخَيراً، وعلى آخرين فساداً أو ضيراً». وقوله بعد سقوط المطر «وآثار الجزع ممحوَّة، وسُوَرُ الحمدِ متلوَّة».[1] حيث قابل بين جملتي يجعلها لقوم صلاحاً وخيراً وعلى آخرين فساداً وضيراً، وقابل بين جملتي آثار الجزع ممحوَّة، وسُوَرُ الحمد متلوَّة.

---

(١) ـ القلائد: ص ١٠٣.

الفصل الرابع

أشهر كُتَّاب الرسائل في الأندلس
في القرن الخامس الهجري

لقد حظي أدب الرَّسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري بعدد كبير من الكُتَّاب، كان من الممكن أن يقوم هذا الفصل على التعريف بهم ودراستهم. لكن الباحث وجد أنَّ بعض هؤلاء الكُتَّاب ـ الجديرين بالدراسة ـ قد كُتِبَ عنهم، وأُلِّف فيهم كابن شُهَيْد،(١) وابن بُرْدٍ الأصغر،(٢) وأبي عبد الوهاب بن حَزْم،(٣) وابن زَيْدُون.(٤)

ولقد وجد الباحث إلى جانب هؤلاء الكُتَّاب كُتَّاباً آخرين، رأى أن يدرس ثلاثةً منهم، هم: ابن الدَّبَّاغ، وابن عَبْدالبر، وابن طَاهر. فهؤلاء الكُتَّاب الثلاثة يستحقُّون الدراسة والتعريف والتتبع لرسائلهم، لأنَّهم في رأي الباحث لايقلُّون عمَّن ذكرهم سابقاً من كُتَّاب الأندلس في القرن الخامس الهجري. وربَّما كانت قلة ما احتفظت به المصادر من رسائلهم سبباً في بقائهم بعيدين عن دائرة البحث والدراسة.

فهم يمثِّلون أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري بجميع اتجاهاته وموضوعاته. فابن الدَّباغ كان يغلب على رسائله الاتجاه الاجتماعي، وقد جاءت معظم رسائله مملوءةً بالشكوى من الزمان واضطراب الأحوال، وقد جرت بعض رسائله مجرى القصص والحكايات.

---

(١) ـ انظر: ابن شهيد الأندلسي: حياته وآثاره / شارل بلّا، ابن شهيد الأندلسي: حياته وأدبه / حازم خضر، تاريخ الأدب الأندلسي: ص ٢٧٠ ـ ٣٠٢، النثر الفني: ص ٣٧٧ ـ ٣٨٦.

(٢) ـ انظر: بلاغة العرب في الأندلس: ص ١٤٨ ـ ١٥٩.

(٣) ـ انظر: الأدب الأندلسي: ص ٥٨٣ ـ ٥٩٠، تاريخ الأدب الأندلسي: ص ١٤٥ ـ ١٥٠، النثر الفني: ص ٢٦٥ ـ ٢٧٤.

(٤) ـ انظر: ابن زيدون / شوقي ضيف، ابن زيدون / علي عبد العظيم.

أمَّا ابن عَبْـدالبـرِّ فقـد غلب على رسائله الاتجاه السياسي، والحديث عن الصَّداقة وتهادي الوُدّ، وامتاز بأوصافه النادرة. في حين اشتهر ابن طاهر بالحديث عن الجهاد والصِّراع ضد الصليبيين.

ولقد جارى هؤلاء الكُتَّاب أترابهم كُتَّاب الأندلس، في الأخذ بالمثل الأعلى السائد، والسَّير على مقاييس العصر الأدبية.

ابن الدَّبَّاغ

حياته :

هو أبو المُطَرِّف عبد الرحمن بن فاخر بن الدَّبَّاغ،(١) نشأ في سرقسطة وترعرع فيها.(٢) ولمَّا كان قد اشتهر بالبلاغة والفصاحة فقد أعْلى أمير بلاده المقتدر بن هود مكانه، وقرَّبه منه، وقلَّده الوزارة والكتابة. إلاَّ أنه حدثت جفوة بينه وبين المقتدر بن هود اضطرته إلى الفرار إلى إشْبيلِيَة.(٣)

وكان سبب هذه الجفوة كما يذكر ابن الدَّباغ في رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه عقب فراره، أن المقتدر بن هود كان قد خرج في جيش كثيف للقاء عدوه، فاتَّفق أن كان ابن الدبَّاغ قد تخلَّف عن اللحاق، ولم يكن في من لقي المقتدر بن هود من لفيف الكُتَّاب وأعيان الوزراء والأصحاب، فاشتدَّ غضبه على المتخلفين، ونذر إن قفل أن يصنع بهم ويفعل... وقدَّر اللهُ أنْ غنم وفُتِحَ على يديه وعاد... واتَّفق أن جلس بعد أيام من عودته في مجلس الذَّهب بقصره، وعليه سيما الغضب والرَّهْبَة، وسأل عن ابن الدَّبَّاغ، فكان لشقاوه حظه غائباً عن المجلس، فقيل له ليس بحاضر، فاندفع من فوره وأقسم بالأيمان المغلظة أن يعزله عن خدمته وأن لايبقيه في بلده. ولقد استحوذ على الحاضرين البَهْتُ وملكهم السكوت، وحاول أحدُ الوزراء أن يخفف من

---

(١) ـ انظر ترجمته وأخباره ورسائله في: القلائد: ص ١٠٦ ـ ١٠٩، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥١ ـ ٣١٧، الخريدة: ج ٣، ص ٣٨٧ ـ ٣٩٣، المغرب: ج ٢، ص ٤٤٠، المسالك: ج ٨، ص ٢٢١، النفح: ج ١، ص ٥٣٤.

(٢) ـ لم تذكر المصادر تاريخ ولادته، ولم توضح نشأته ومراحل حياته الأولى، وجوانب ثقافته (انظر: الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٢٥١، الخريدة ج ٣، ص ٣٨٧، المغرب: ج ٢، ص ٤٤٠).

(٣) ـ انظر: القلائد: ص ١٠٦، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥١.

وطأة الأمر فذكَّر المقتدر بن هود بحِلْمِه وسعة صدره، إلا أنَّه ضجرَ أشنع من الأولى، وشدَّ اليمينَ بأُخرى.[١]

ومن أسباب هذه الجفوة أيضاً أنه كان قد بلغ المقتدر بن هود أقوال عن ابن الدَّبَّاغ، منها تتبعُ حركاته وأخباره، وتحريف ماكان يشاهده في مجلسه من آثاره وأخلاقه.[٢]

وقد خَشيِ ابن الدبَّاغ عاقبة الأمر، واستطاع الهرب، وظل مختفياً عدة أيام في شَنْتَمرِيَّة،[٣] إلى أن تيقن أن المقتدر بن هود لن يصفح عنه، فولَّى وجهه شطر المعتمد ابن عبَّاد فأكرمه وأجزل قراه، وقرَّبَهُ إليه، واتخَّذه كاتباً له، واستعان به في المسائل السياسية، فقد اتخذه سفيراً بينه وبين المتوكِّل بن الأفطس عندما كان مقيماً بِيَابُرَةَ، حين حاول أخوه المنصور بن الأفْطَس سَلْبَ الحكم منه في صدر سنة ٤٦١هـ.[٤]

ولم يفلح ابن الدَّبَّاغ في مكانه الجديد بإشْبِيلِيَةَ، فقد تشادَّ مع ابن عمار، فرَغِبَ المعتمد بن عبَّاد في حَسْمِ ذلك بين يديه، فأبى ابن الدَّبَّاغ عليه، ثم اجتمعا بعد ذلك في مجلس أنس وهو دون رأيه، مما أوْغَر عليه صدر المعتمد، فأمر بنفيه، وقد صادف ذلك أن بلغ ابن الدَّبَّاغ أنه قُدِحَ فيه بمجلس المعتمد، وقُرِفَ بشيء أقلقه، ذلك أنه كان يعاني الخضابَ، ويثابرُ عليه، فقال بعضهم فيه:[٥]

خضابٌ لَعَمْرُكَ لاَ لِلْنِسَاء ... وَلَكِنَّهُ لِفحولِ الرِّجالِ

فخاطبه بشعر قال فيه:

يُهانُ بحمصٍ عزيزُ الرِّجالِ ... ويُعْزَى إليهِمْ قبيحُ الفَعَالِ
ويُعْزَى ذوو النَّقْصِ من أهْلِهَا ... بتلطيخ أعْرَاضِ أهْلِ الكَمالِ

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٦٩.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٧٢.

(٤) ـ انظر القلائد: ص ١٠٦، الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٠، ق ٣ م ١، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

ويقال أن المعتمد غضب بسبب هذا الشِّعر، فوقَّع على ظهر رقعته بهذين البيتين: [١]

شعُرت فَجِئْتَ بِعَينْ المُحَال وَمَا زلتَ ذا خطلٍ في المَقَالِ
مَتَى عزَّ في حمصَ غيرُ العَزيز أو ذَلَّ غيرُ الذَّميم الفَعَالِ

فلما بلغ سَمْعَهُ هذان البيتان أخذه الخوف، ولم يأمن البقاء في إشْبيلِيَة، فرحل إلى المتوكل بن الأفْطَس ببَطَلْيَوْس، حيث رحب بقدومه ترحيباً حاراً، وأكرمه وأعجب به وقرَّبه إليه. [٢] ولم تحدد المصادر تاريخ قدوم ابن الدَّبَّاغ إلى بَطَلْيَوْس، إلاَّ أن الباحث يرجح أن يكون ذلك في أواخر سنة ٤٦٤ هـ، إذ يذكر ابن بسَّام أنَّه قدم إلى بَطَلْيَوْس بعد أن استوثق الأمر للمتوكل، وكان ذلك بعد وفاة أخيه المنصور سنة ٤٦٤هـ. [٣]

ولم يوفق أبو المُطَرِّف في موطنه الجديد، إذ لم يسلم من الحسد والمنافسة، فقد تضايق أبو عبد الله بن أيمن وزير المتوكل وكاتبه من قدوم أبي المُطَرِّف بن الدَّبَّاغ، وخاف أن يصبح وزير المتوكِّل وكاتبه المقدَّم، فاشتعلت بينهما نار البغضاء، ولمَّا تصاعدت رحل ابن الدبَّاغ عن بَطَلْيَوْس، [٤] وخرج منها إلى بلده سرَقُسْطَةَ ليكون مع ولده وأهله، فبات ليلة في بعض حدائقها، فطرقه عدو له وطعنه بمدية أردته قتيلاً. [٥] وقد أغفلت المصادر ذكر تاريخ وفاته. ورثاه آنذاك ابن عَبْدُون بأبيات تشفُّ عن وُدٍّ، وتدلُّ على كرم صحبة. [٦]

لقد اتَّصف ابن الدَّبَّاغ بالفضل والنبل كما يذكر ابن بسَّام، [٧] كما اتَّسم برفعة

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٣، ديوان المعتمد بن عباد: ص ١٣٤.
(٢) ـ انظر: القلائد: ص ١٠٦، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٣.
(٣) ـ انظر الدخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٠، ق ٣ م ١، ص ٢٥٢.
(٤) ـ انظر: الذخيرة: ق ٢ م ٢، ص ٦٥٣، المغرب: ج ٢، ص ٤٤٠.
(٥) ـ انظر: القلائد: ص ١٠٦، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٣، الخريدة: ج ٣، ص ٣٨٧.
(٦) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٣.
(٧) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٥٣.

النفس، وعلو الهمة، والبعد عن ذلّ الطمع، والرغبة في مساعدة ذوي الحاجات وإقالة عثراتهم.

وتشير الرسائل التي كان يتبادلها ابن الدَّبَّاغ مع إخوانه وأقرانه من الوزراء والكُتَّاب إلى أنَّه كان مخلصاً وفياً لأصدقائه مقدراً لجمائلهم وفضائلهم عليه.(١)

ولقد عصفت الحياة الاجتماعية المضطربة بابن الدبَّاغ، حتَّى «كَأَنَّ الرَّزَايا لم تُخْلَق لأحدٍ سواه»(٢)، فلم يفلح في كل مكان حل لكثرة الوشاة والحسَّاد، مما دفعه إلى الضرب في الآفاق والتَّجوال في البلاد طلباً للراحة والاستقرار النفسي، ولهذا فقد عاش في خوف مستمر وقلق دائم، وكثرت شكواه من الزَّمان ونوائبه.

وعلى الرَّغم مما تقدَّم، فقد كان ابن الدَّبَّاغ مؤمناً بالله متوكِّلاً عليه، مسلماً له الأمر، ويظهر للباحث من خلال رسائله أنه مال في أواخر حياته إلى الزُّهد والتَّنسُّكِ.(٣)

وقد جاءت رسائل ابن الدبَّاغ ممثلةً لحياته الخاصة من جهة، وللحياة الاجتماعية المضطربة في المجتمع الأندلسي في القرن الخامس الهجري من جهة ثانية.

رسائله:

ضمَّ كتاب الذخيرة لابن بسَّام قدراً كبيراً من رسائل ابن الدبَّاغ في ذمِّ الزَّمان وأهله وتعذّر آماله فيه، وعدداً من رسائله الإخوانية والوصفية. أمَّا المصادر الأخرى التي ترجمت له، فقد اقتصرت في الأغلب على بضعة رسائل لاتخرج عما ذكرته الذخيرة، إن لم تكن منقولة عنها. ومما يؤسف له أنه لم ينته إلينا من رسائله الدِّيوانية شيء على الرَّغم من أنَّه كتب عن ثلاثةٍ من أمراء الطوائف.

---

(١) - انظر: القلائد: ص ١٠٧، ١٠٨، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٨١، ٢٩٣، الخريدة: ج ٣، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٢) - المغرب: ج ٢، ص ٤٤٠.

(٣) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٨٣.

أمَّا الموضوعات التي تناولها ابن الدبَّاغ في نصوص رسائله الَّتي انتهت إلينا، فكانت الشَّكوى من الزَّمان، ووصف النكبات والمحن والمصائب، والنقد الاجتماعي والوعظ والدَّعوة إلى الزُّهد، والقصص والحكايات، ووصف الطبيعة، إلى جانب عدد من موضوعات الرسائل الإخوانية، كالمديح والثَّناء والشكر والوصايا والشفاعات.

لقد أكثر ابن الدبَّاغ من شكوى الزمان وذمّه وتعداد مظالمه، وحقَّ له ذلك، إذ إنَّ عنده من الدَّهر ما «يهد أيْسرُهُ الرواسي، ويفتِّتُ الحجرَ القاسي». (١) وهو يقطع حياته «في شدائد لاتنثني، وسكرات غمٍّ لاتنجلي، ونكد أخلاقٍ لايشوبه ابتهاج، وضيقِ أحوالٍ لايتخلَّلُها انفراج». (٢)

ولقد أبدع ابن الدبَّاغ في وصف ماللبين والأسى بقلبه من جرح وآثار، وللشوق بين جوانحه من وقود وأوار، ولاغرو في ذلك، فالشكوى كما يقول في إحدى رسائله: «مَـذْهَبٌ يجول فيه القول كلَّ مجالٍ، وينثال عليه الكلام، أيَّ انثيالٍ، وتتأتَّى به الألفاظ لازدواجها، وتتراءى المعاني في معرض إنتاجها». (٣)

حتى إنَّه صار من العجب أن ينوي ابن الدبَّاغ في رسائله «أن تكون الشَّكوى خالية، وبزينة التَّجمُّل حالية، ولسان الحال تأبى إلاَّ أن تبوح بمضمر السرِّ، وتكشف عن حقيقة الأمر». (٤)

ويرى ابن الدبَّاغ أن الزَّمان قد وقف له موقف الغريم، وخصه بمصائبه ونوائبه من دون العالمين: «ولستُ أشكو إلاَّ زماني وقعوده بجدّي، وقبيح آثاره عندي، فإنَّه وإن كان على الكُلِّ عادياً، وللجميع بكأس مكروهه ساقياً، فيخصُّني بمزيَّة حرمان، ويتوخَّاني بفضله عدوان، ويجعلني نصب سعيه وغرض رَمْيِهِ، ومكان أذيته وبغيه...». (٥)

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٧.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٦٥.

(٣) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٥.

(٤) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٥٥.

(٥) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.

ولقد حال الزمان دون تحقيق مرامي ابن الدبَّاغ النَّبيلة وبلوغ آماله الجليلة، وأراه من أحداثه عجائب، ومن خطوبه مصائب تسجم الدموع وتحطم الضلوع، يقـول: «كتـابي عمَّـا عهـدتـه من قعود الأيَّام بجانبي، اعتراضها عليَّ في وجوه قصـدي، ومقـابلتها بالخيبة والحرمان سعيي وجهدي، بل ما تنفكُّ تتلاعب بي تلاعب العابث، وتستطيل عليَّ استطالة العائث...»[1].

ويستغرب ابن الدبَّاغ في رسائله تصاعد العداوة والشحناء بينه وبين الزمان، حيث يقول: «حتَّى كأنيّ أبْدَيت له معايب، وأدرتُ عليه دواير، ودللت العالم على جوره في الحكم، وتطبّعه في الظُّلم»[2].

وعلى الرَّغم مما تقدم، فإنَّ ابن الدبَّاغ يرى أن سُنَّةَ الله قضت بأن يكون ديدن الحياة حرمـان الإنسان الذكي وحظوة ذي الجهل الفاسد، يقول: «فسبحان الله! جعل الدُّنيا دار كربٍ ومحنةٍ لِكُلِّ ذي لبٍّ وفطنةٍ، ومقام تَنَعُّمٍ وتَرَفٍ، لِكُلِّ ذي خِسَّةٍ ونطفٍ،[3] وسبحان من ابتلى فيها ذوي الفضل والنُّهى بِكُلِّ قَعِط[4] بنفسه.[5]

ولقد اتَّخذ ابن الدبَّاغ من شكوى الزَّمان ونُوَبه مجالاً لتصوير انحراف أهله وقلَّة وفـائهم وخيانتهم وجحودهم للفضل وتقلبهم. فلقد قَلَب الزَّمان محاسنه مساوىء وأصار أولياءه أعداء، وقابل حُبَّه ببغض، ولاقى ثقته بخيانة، وواجه إحسانه بإساءة، حتَّى غدوا كأنهما فرسـا رهـان «يجـدُ نوائِبـاً وأُجيدُ صبراً»، ومن أجلها قلب محاسني مساوي، وأوليائي أعادي، وقصدي بالبغضة من جهة المِقَةِ، واعتمادي بالخيانة من حيث الثِّقة، فقِسْ بهذا على ماسواه، وعارض به ما عداه... وأجني الإساءة من غرس إحْساني...»[6].

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦١.
(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٥٩.
(٣) ـ النَّطَف: العيب أو الفساد (اللسان: مادة نطف).
(٤) ـ القَعِط: الذليل (اللسان: مادة قعط).
(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦٥.
(٦) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٧.

ويوجِّه ابن الدبَّاغ نقداً لاذعاً لأهل الزَّمان وبنيه، إذ أنَّه أدرك أن مايحدث في الزَّمان من الاختلال واضطراب الأحوال ليس لعيب في الزمان أو لقصور منه، ولكن ناتج عن انحراف أهله وجهلهم واختلال موازينهم وانتشار الباطل بينهم، حيث يقول: «فاعجب ياسيِّدي لأممٍ ضحكت من جهلها الأمم، وغلطت في مالاتغلط فيه النَّعَم، إلى أن نفقت عندها المحالات والأهذار،[1] وبطلت بسببها القيم والأقدار،[2] ولهذا فإنَّه يقول بأنه «يحق أن يستغرب وفاء الصَّديق في زمان الغدر والمذوق[3]»[4].

ولقد تباينت مواقف ابن الدبَّاغ من مصائب الزَّمان ونوائبه، فتارة يلاقيها غير مكترث ولاعابىء بها، ويفعل لها فعل من يلبسُ للأحوال لبوسها، ولايحفلُ بنعم الأيام وبؤسها، حيث يقول: «أنا في هذا الوقت بحُكم الزَّمان، نعم مستودع الهوان، أضحكُ لِمَن شتم، وأعتذرُ إلى من ظلم، وأُغضي لمن همَزَ ولمَزَ، وأتعامى على من أشار، وأتلقَّى المكروه والأذى، بطلاقة التَّقبُّل والرِّضى»[5].

ولاغرو في ذلك فمثل ابن الدبّاغ «إن ابتُليَ صَبرَ، وإنْ أُوذي شكر، أو أسخطته الأقدار تجمَّلَ، أو حمِّل مالا يستطاع تحمَّل..»[6].

ويذكر ابن الدبَّاغ في رسائله أن مما يشدُّ من عزيمته ويقوي من صلابته قوة إيمانه بالله، وتفويضه أمره في كل حالة إليه، فهو لايُحدث أمراً إلَّا لحِكمَةٍ بالغةٍ، يقول: «والحمد لله الّذيَ يَبْتَلي لِيرَى كيف الصَّبر، ثم يُنعم ليرَى كيف الشُّكْرُ، حَمْدَ

---

(1) - الأهْذَار: جمع هَذَر وهو الكلام الذي لا يُعْبَأ به، ويقال هَذَر كلامه هَذْراً، أي كثر في الخطأ والباطل (اللسان: مادة هذر).

(2) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٩٦.

(3) - المَذُوق: الكذب والنفاق (اللسان مادة مذق).

(4) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٩٠.

(5) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦٣.

(6) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٦٣.

متوكِّلٍ عليه، مفوِّضٍ أمره في كُلِّ حالةٍ إليه» .[1]

وعندما يشتدُّ بابن الدبَّاغ البأس ويسيطر عليه القنوط، يتمنى الموت وانقضاء العمر، فلعله آنذاك ينعم بالراحة وهدوء البال، حيث يقول: «فما أصنعُ وقد أبَى القضاء إلاَّ أن أقضي عمري في بُوس ولا أنْفَكُّ من نحوس، ويَالَيْتَ باقيَهُ قد انصرم، وغائب الحِمام قد قَدِمَ، فعسى أن تكون بعد المَمات راحة من هذا النَّصبِ، وسلوة عن هذه الخُطوب والكُرَبِ. . » .[2]

وتـارة أخرى يلجأ ابن الدبَّاغ إلى اعتزال النَّاس فراراً من أذاهم وشرورهم بعدما خبره فيهم من غدر وخيانة وكذب ونفاق، ويستعيض عنهم بالكتب يقطع بها وقتـه، ويبدِّد وحشته ويؤنس وحدته، يقول في رسالة كتبها جواباً على رسالة لأحد إخوانه يطلب فيها لقاءه: «وصلت رقعتك ـ أعزَّك الله ـ تستدعي المؤانسة. . . غير أنَّ رغبتك صادفتني ولي من الكُتب جُلساء تُؤنسُ في الوحدة، وتسليٍّ من الكربة. . . تُحْمَدُ عقباها، ولا تتوقع أذاها، وقد رضيت اليوم بها قَسْماً»[3].

وتارة رابعة يلجأ ابن الدبَّاغ إلى الضرب في الآفاق والتَّجوال في البلدان طلباً للراحـة والاستقـرار، حيث يقـول: «وقـد عَلِمْتَ مادخـل الشَّرق من الاختلال، واضطراب الأحوال، وأنّ الحزم داعٍ إلى التَّحوُّلِ عنه والانتقال. . . » .[4]

ولقد ضمَّن ابن الدَّبَّاغ رسائله في الشكوى من الزَّمان وذمِّ بنيه الدعوة إلى الزهد والتَّنسُّك، وقدَّمَ فيها الموعظة والحكمة لمخاطبيه، ولعل مردّ ذلك طبيعة حياته وكثرة المحن والمصائب التي حلَّتْ به، ومعاناته من الناس في زمن الغدر الذي اتَّسم بقلة الوفاء وتنكُّر الإخوان، وكثرة المفسدين والوشاة الحاسدين، وقد دفعه ذلك إلى الميل إلى الزهد والتنسُّك في أواخر حياته، وإلى حضِّ الناس على الابتعاد عن ملذَّات الحياة

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦٢.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٥٨.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٩٣.

ومبـاهجهـا الـزائفـة، ومن ذلك قوله في رسالة خاطب بها صديقه ابن حَسْدَاي: «ولاتتعبَّدْ للدُّنيا بخدمتها في كُلِّ الأحوال، فما أشبه إدبارها بالإقبال، وكثرتها بالإقلال...»[1].

وماكان ابن الدبَّاغ ليعظ الناس قبل أن ينخلع من ترف الحياة وملذاتها، ويبرأ من الضلالة، ويظهر ذلك في رسالة خاطب بها بعض إخوانه، وقد وصف لهم حاله بعـدمـا خبر لطائف الزهد، ووجوه النُّسك ومحاسنه، حيث طاب غذاؤه وأفاق من جنون العُقَار، واستراح من سُقْم الخمرة، وخلص مما تجلبه من الهواجس والأوهام، فبلغ به السرور مبلغاً، وأصبح بنعمة من الله متجددة، يقول: «وأنا ـ أبقاكُم اللهُ ـ فيها بحال من طاب غذاؤه، وحَسُنَ استمراؤهُ، وصحا من جنون العُقار، واستراح من مضض الخمَّـار، وزايلتـه وسـاوسـه من الخباط وهواجِسُهُ، لا أبيتُ بليلةِ الشَّئِس[2]، ولاأقـوم كالـذي يتخبَّـطه الشَّيطان من المَسِّ، بل أنـام ملء جفـوني نوم مسـرورٍ، وأنتبه إذا انتبهتُ غير مذعـورٍ، فلتُبعـد بعدها الخمر، مابقي الدَّهر، فقد طَلَّقتُها ثلاثاً، وتركتُ الأسباب بيني وبينها رثاثاً، ولله الحمد على أن خَلَّص من حبائلها، ونَجَّى من غوائِلها...»[3].

ولهذا فهو يدعو إخوانه إلى التَّقوى والإقلاع عن الذنوب وترك البطالة والتمادي في الضلالة والفسوق، وإلاَّ فإنَّه يبرأ منهم، يقول: «وأنتم سادتي أخلاَّء النَّبيذ، برئتُ منكم كما برىء المسيح من اليهود... فلستُ أُزاحمكم عليها بمنكبٍ، ولاأُوافقكم فيهـا على مَذْهَبٍ... شاركتكم ياسـادتي ـ أعزَّكم الله ـ نعمة الله المتجدِّدة قبلي، وأعلمتكم بمبلغ سروري وجـذلي، فإنْ كنتم قد خصَّكم منه ـ جلَّ وعزَّ ـ بمثلها عرفتمـوني بها لنتسـاوى في الشّكـر، وإن كنتم على الحـال الَّتي تركتكم عليها من البـطالـة، والتَّـمادي في الضلالة، فأعفوني من جوابٍ بصفتها، فلست أتطلَّع إلى معرفتها»[4].

---

(١) ـ القلائد: ص ١٠٨.

(٢) ـ الشَّئِس؛ القَلق (اللسان: مادة شأس).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

لقد رسم ابن الدبَّاغ لإخوانه قواعد السلوك الاجتماعي المستقيم الذي أصبح يسير عليه، ودعاهم إلى التزام سبل الهداية والرشاد دعوة خالصة، وحضَّهم على الابتعاد عن متع الحياة وملذاتها.

وقد اتَّصل بموضوع الشكوى من الزَّمان وذمِّ أهله عند ابن الدبَّاغ مدح الأقران من الوزراء والكُتَّاب والثَّناء عليهم وتوجيه الشكر إليهم لصلتهم به، واعتماده عليهم، ومؤازرتهم له في محنه، وسعيهم لخلاصه من نكباته.

وقد ركَّز ابن الدبَّاغ في مدحه وشكره على مايتمتع به مخاطبوه من كرم وإباء وحمية وشرف ومجد ونخوة وعلو هِمَّة. وبعد نظر، وبلاغة قول، وحسن منطق وما إليها من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة.

ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة خاطب بها ابن حَسْدَاي، وقد بلغه سعيه في خلاصه من نكبته، وقد افتتح رسالته بالإشادة بفضائله، والتَّغني بمحاسنه، وبالغ في ذلك مبالغة كبيرة، إذ جعل فضائله تظهر في كل يوم عجائب، وتُطْلِعُ من ألطاف البرّ غرائب «تُنْسى لها محاسنُ من تقدَّم، وتُسْتَبْعَدُ معها مآثر من تهمّمَ، حَتَّى كأنَّ الجميل لم تُعْرَفْ قبل طرائقه، واللُّطف لم تُفهم بعد دقائقه، إلى أن أتى من ذلك سُنناً وبدائع لايزال مِثْلُها لأولي الفضل شرائع، وأنوارها في فلك الفضل سواطع...». (١)

ولقد أكثر ابن الدبَّاغ من شكر أولئك الوزراء والكُتَّاب والإخوان الذين لم يقصِّروا في بَذْلِ المعروف إليه، والوقوف بجانبه في محنه. وقد عبرَّ في ذلك عن عجزه وعدم اقتداره على إيفائهم حقهم من الثناء والإطراء، ومن ذلك قوله: «أيُّ حمْدٍ يفي بمننٍ لك تُسْلِفُهـا ابتداء، وتُتابِعُها ولاء، بلا وجوب يقتضيها، ودون سببٍ يستدعيها؟ بعيد عليَّ ذلك أنْ تقوم لذلك قُدْرَتي أو تبلغه استطاعتي...». (٢)

ومن ذلك أيضاً قوله مخاطباً أحد إخوانه: «وبودِّي لو أغربت في الشُّكر، إغرابك في الشِّعر، واقتدرت على الجزاء، اقتدارك على الإطراء، حتَّى أصل إلى

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٨١.

سبقك، وأقضي بعض حَقِّك، وإذا كُنْتُ أقصِّرُ ولاأقْدِرُ، فأنت بفضلك تتجاوز وتعْذِرُ. . » .[1]

وقد كشف ابن الدبَّاغ في مدائحه عما يكابده من الشوق والحنين إلى الأصدقاء والإخوان. ومن ذلك ماورد في رسالة خاطب بها الوزير أبا الفتوح،[2] وقد افتتحها بتصوير مشاعره وأحاسيسه الصادقة نحوه، فمنذ أن سمع عن فضائله الجليلة وفعاله الحميدة، وهو يتشوَّق إلى اللقاء به، ويرغب في خلته، حيث يقول: «مازلتُ ـ فَسَحَ اللهُ لك أيهُّا الوزير الأجلُّ غاية الأمل ـ منذ سمعت فضائلك تُذْكرُ، ومناقبك تُنْشرُ، وَسُـوَرَ سرْوِك تُتْلَىَ، ومحاسن فعالك تجُلى، أحنُّ إليك حنينَ كَلِفٍ، وأتشوَّقُ نحوك تَشوُّقَ شَغِفٍ، وأستمنح الأيام خلَّتك. . . » .[3]

ثم هو يشير إلى صلته وسعيه لخلاصه من نكبته، وكيف أنَّه تمنَّى أن يفيد منه، ويعود مرة أخرى إلى مدح أبي الفتوح وشكره والثَّناء عليه، وهو لايستغرب من أبي الفتوح هذا السعي والوُدَّ لأنَّه «فعلُ من حوبي بالسعادة، وأُنشيء على السِّيادة، حَتَّى فَرَغَ من المجد ذراه، واستولى من كُلِّ فَضلٍ على مداه. . . » .[4]

ويختتم رسالته باستعطاف أبي الفتوح، وهو يتمنى عليه أن يتمَّ سعيه إلى عقد الصِّلة بينه وبين المنصور بن الأفطس، حيث يقول: «وأنا أرغب أن تتناول مابدأت من ذلك فتتمَّه، ولاتحلَّ من عقد الوصلة يدك أو تحكمه. . . » .[5]

ولقد عاتب أبو المُطَرِّف بن الدبَّاغ بعض إخوانه الذين ابتعدوا عنه، وتنكَّروا له، لما حلَّ به، فلم يفكروا في صلته ولا بمكاتبته، وتراجعوا عن مخاطبته، ولم يوفوا

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٨٢.

(٢) ـ ترجم له الباحث فيما تقدم.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٧٧.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧٨.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧٨.

بحقِّ الصداقة. وتتباين صور عتاب ابن الدبَّاغ لإخوانه بين اللين والرِّقة[1] والقسوة والشدَّة،[2] وذلك بحسب نفسيته وظروفه الخاصة.

وكان ابن الدبَّاغ يفتتح رسائل العتاب في الأغلب بالحديث عن العلاقة التي تربطه بمخاطبه، ومافيها من معاني الوُدِّ والصَّداقة والألفة، والحنين والشوق. ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة وجهها إلى صديق له يعاتبه فيها على إهماله للصداقة والصحبة التي بينهما، وقد افتتحها بقوله: «ولئن كانتِ الأيام تُنْسيكَ، فالأماني تدنيك، ولئن كنتَ محجوباً عن الناظر، فإنَّك مصوَّرٌ في الخواطر، أُناجيك بلسان الضمير، وأُعاطيك سلافَ السرور، وأداعبك مداعبة الحضور، وأُجاذِبُكَ فضولَ اللعب، وأبلغ معك إلى حَدِّ الطرب، حتى أسكِّنَ شوقي إليك، وأقضيَ وطري منك..».[3]

ثم هو يعاتبه على إهماله للصداقة التي بينهما، وعدم شعوره بواجبات الصحبة لانشغاله باللهو وغيره، يقول: «وأنت في كلِّ حال لاتشعر، وذاهل لاتذكر، ولاتقطع زمانك إلاَّ بحظيرة حولك تصنعها، وخيمةٍ ترفعها، فإذا تَمَّ لك هذا اللهو، تداخلك الزهو، وشمخ بأنفك البأوُ...».[4]

ويختتم رسالته بالقول بأن لقاءهما بعيد إن لم يفكر مخاطبه بالودِّ على نحو مايفكر ابن الدبَّاغ، يقول: «فمَتَى نلتقي على حالٍ، ويتفقُ مذهبنا في وصالٍ؟! هذا لعمري بعيد، اللَّهُمَّ إن كان من الدَّهر حِلْم، واكتهال السِّنِّ نوم، ونجومُ الشَّيب قد طلعت من الغدائر، وعمايات الصِّبا قد انجلت عن البصائر، فتذكر من الوُدِّ ماأذكرُ، وتفكِّرُ في النأي كما أفكِّر».[5]

---

(١) ـ يجد الباحث أمثلة على ذلك في: القلائد: ص ١٠٧ ـ ١٠٨، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦٠.

(٢) ـ يجد الباحث أمثلة على ذلك في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨، الخريدة: ج ٣، ص ٣٩٢.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٣٠٩.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٣٠٩.

ويلمس الباحث في هذه الرسالة رقة وليناً ينمان عن صداقة أكيدة ومحبة أصيلة .

وعلى الرَّغم مما أصاب ابن الدبَّاغ من مصائب ومحن، فإن ذلك لم يمنعه من كتابة الرسائل وتوجيهها إلى الرؤساء والوزراء والقضاة في حقِّ الشُّعراء والكُتَّاب وغيرهم، يدعوهم فيها إلى إعانتهم ومساعدتهم ومدِّ يد العون إليهم. بل يظهر للباحث أنَّ هذه المصائب والمحن التي ألَّمت بابن الدبَّاغ قد دفعته إلى استغلال مكانته وقدره، واستخدام قلمه في إعانة ذوي الحاجات على قضاء حاجاتهم، فكتب عدداً من الوصايا والشفاعات. (١)

ويلاحظ الباحث أن ابن الدبَّاغ كان يفتتح أغلب رسائله في موضوع الوصايا والشفاعات بمقدِّمة في مدح المخاطب وذكر فضائله ومحاسنه، أو بذكر تقلُّبات الزَّمان وكثرة المحن والمصائب. وهو يتَّخذ من هذه المقدمة وسيلةً لاستدرار عطف المخاطب واستثارة نوازع الخير في نفسه لمساعدة صاحب العلاقة. وينتقل بعد ذلك إلى موضوع التَّوصية أو الشفاعة، ويختتمها بتوجيه الحمد والشكر إلى المخاطب.

ومن الأمثلة على ذلك رسالة كتبها عناية برجل كانت قد حلَّتْ به مصيبة ذهبت بجميع ماله مما اضطره إلى سؤال الناس. وقد افتتحها ابن الدبَّاغ بالإشارة إلى تقلّب الأيام وتغيُّرها على أهل الفضل وأن فَهْمَ مخاطبه ومعرفته يغنيان عن الإطالة في شرح ذلك، حيث يقول: «معرفتك بتقلّب الأيَّام بذوي الفضل، وحُكْمِهَا فيهم بغير السَّويَّة والعدل، تُغني عن عرض ذلك عليك، وتقريره إليك». (٢)

ثم ينتقل بعد ذلك للحديث عن موضوع رسالته، وبيان حال الرجل الذي يوصي به إذ يقول: وفلان ممَّن عرفت حاله في الثَّروةِ والمنعة، ورتبته في الجاه والرفعة، لكن أساءت إليه بعد الإحسان، وامتحنته بأنواع من الامتحان، حَتَّى ذهبت بجميع وفره، واضطرته إلى بني دهره...». (٣)

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٩ ـ ٣١٤.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٣٠٩.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٣٠٩.

ثم هو يستثير نوازع الخير في نفس مخاطبه ليساعد هذا الرجل ويمدَّ له يد العون «قصدك مُستجيراً من عثرته، ومثلك بادر إلى مشاركته، وحضَّ على إسلاف البرّ إليه، ورغب في وضع الصَّنائعِ لديه...».[1]

ولقد شارك ابن الدَّبَّاغ غيره من الكُتَّاب الأندلسيين في وصف سحر الطبيعة الأندلسية في أيَّام الرَّبيع، حيث وصف مفاتنها ومواطن الرَّوعة فيها.[2] كما وصف بعض الظواهر الطبيعية كيوم ممطر[3] ونهار مضيء.[4] وقد تناول الباحث كثيراً من رسائل ابن الدبَّاغ في هذا المجال عند حديثه عن وصف الطبيعة الصامتة.

كذلك وصف ابن الدبَّاغ مجالس الأنس واللهو والطرب، التي كان يعقدها وصحبه في الرياض الأندلسية الجميلة، التي كان يتردد عليها ويلجأ إليها ليستريح من صخب الحياة وضجيجها، بعد التَّطواف والتَّجوال الطويل في بلاد الأندلس.

ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة وجهها إلى أحد أصحابه يستدعيه فيها لحضور مجلس أنس وطرب عقده ابن الدَّبَّاغ وصحبه في إحدى الرِّياض. وقد وصف له ماهم فيه من نعيم وسرور، وماضمَّه مجلسهم من ندامى ترتاح لهم النفوس، وماحواه من ألحان شجية، وأنوار بهيجة، وخمرة صافية وغيرها، حيث يقول: «وتمنينا أن يتبلَّجَ صُبْحُك من خلال فُروجه.، وتحلَّ شَمْسُكَ في منازل بروجه، فيطلع علينا الأنس بطلوعك، وتهديه بوقوعك، ولن تعدم نوراً يحكي شمائلك طيباً وبهجةً، وراحاً تخالها خلالك صفاء ورقةً، وألحاناً تثيرُ أشجان الصَّبِّ، وتبعثُ أطراب القلب، وندامى[5] ترتاح إليهم الشَّمُولُ، وتتعطَّرُ بأرجهم القبول... ويقصر بمجالستهم الليل الطَّويل»[6]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٩.

(١) ـ انظر: النفح: ج ١، ص ٥٣٤.

(٣) ـ انظر: الخريدة: ج ٣، ص ٣٩١.

(٤) ـ انظر: القلائد: ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٥) ـ وردت في النص المنقول (ندى من).

(٦) ـ القلائد: ص ١٠٩.

ومن موضوعات الوصف النادرة التي تناولها ابن الدَّبَّاغ الكتب، حيث وصف فضـل الكتب، وبيَّن فوائدها وأهميتها، ودورها في حياة الناس، فهي «تُؤنسُ في الـوَحْـدَةِ، وتسلِّي من الكُـرْبَةِ، وتجلو صدأ الخواطر، وتفتح عيون البصائر، وتحلو للمجتني ثمارها، ويمتع ناظر المتأمِّل نُوَّارُهَا..». (١)

ثم يذكر أنّ للكتب من الفوائد، الغريبة والمنافع العجيبة مِمَّا لايجده في الناس، فهي «تستـدنيك إنْ نأيت، وتستعـطفُـك إن ولّيت، وأغـرب من ذلك أنَّك تحمد عُقْبَاها، ولاتتوقَّعُ أذاها». (٢)

لقـد قدَّم ابن الـدبَّاغ وصفاً رائعاً لفوائد الكتب ومنافعها، وبثَّ في الكُتُبِ مشاعر الأحياء وصفاتهم. ويدلُّ هذا الوصف على مبلغ اهتمام الأندلسيين بمختلف جوانب الثقافة والعلم وخاصَّة الكتب.

ولابن الدبَّاغ رسالة يصف فيها ضيق المكان الذي لجأ إليه بعد أن هرب من سرَقُسْطَةَ، حيث وصفه وصفاً دقيقاً يبعث على الأسى والحزن، ويكشف عما يعانيه من قلق واضطراب، يقول: «فرقُ مابين المكان الَّذي وردتُ عليه، وبين القبر الَّذي مآل الإنسان إليه، أن المُقيم به والسَّاكِنَ فيه يُدْفَنُ حَيّاً، ولايعلم من نُور الدُّنيا شيئاً». (٣)

ثم يصف الحالة التي آل إليها، وهو مقيم في هذا المكان، فهو يعاني من الوحدة والوحشة، لأنه لم يجد صديقاً يجاذبه الكلام، ويقطع بمناجاته الأيام، وليقطع وقته،

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٩٠.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٩٠.

(٣) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧٤.

فقد أقبل على اللعب بالشطرنج والنّرْد تارة، وعلى مطالعة كتب الأسماء والأساطير تارة أخرى، وعلى عدِّ الحصى ورميها تارة ثالثة، يقول: «وأنا مُنْذُ احتلاله. . . ألعبُ بشطرنج ونَرْد، وتارةً أُطالع أخبار بشر وهند، (١) واخرى أيضاً أظلُّ ردائي فوق رأسي قاعداً أعدُّ الحصى جاهِداً، وأرمي بها صادراً وارداً. . .» . (٢)

ولقد كان لابن الدبَّاغ رسائل تجري مجرى القصص والحكايات القصيرة، وقد كشف فيها عن طبيعة العلاقات والأوضاع التي كان يعيشها ويحياها الوزراء والكُتَّاب في ظل الأمراء في الأندلس في هذا القرن. وكشف في بعضها الآخر عن جانب من جوانب الحياة التي كان يعيشها أبناء المجتمع الأندلسي، وخاصَّة أبناء الطبقة المترفة.

ومن الأمثلة على ذلك، هذه الرسالة التي يتحدَّث فيها ابن الدبَّاغ عن نفسه ويورد خبر نكبته، ويشرح حاله مع المقتدر بن هود. وقد افتتحها بمقدمة وصف فيها مايعانيه من أسىً ولوعة، وما يلاقيه من اضطراب وقلق نتيجة ماحلَّ به، حيثُ يقولُ مخاطباً صديقاً له: «فإنَّه يخاطبك فيه مَنْ كان ميتاً، ولم يكد يُبْعَثُ حَيّاً، ومَنْ هلك هُلْكَ عَادٍ، وليس على ثِقةٍ من معادٍ» . (٣)

ولهذا فهو يدعو صديقه إلى أن يقنع بما يتفقُ من وصف، ويعذَر الخاطر إن لم يسمح له بحرف. (٤)

ثم سرد له خبر خروج المقتدر بن هود بجيوش كثيفة إلى غاية له، وماكان من سخطه على الكُتَّاب والوزراء والأصحاب الذين قعدوا عن الخروج معه، وتخلَّفوا عن توديعه. فقد توعَّدهم بشرِّ العواقب إن رجع. . .

ثم نقل إليه ماجرى في مجلس المقتدر بن هود بعد عودته منتصراً، حيث يقول: «جَلَسَ بعد أيَّامٍ من صدره في مجلس الذَّهب، وعليه سيما الغضب والرَّهب، والنَّاسُ

(١) ـ راجع هذه القصة في: شرح مقامات بديع الزمان: ص ٤٤٩.
(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٧٤.
(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧١.
(٤) ـ انظر المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧١.

يستعيذون بالله من بؤسه، لما رأوا من فرط عبوسه، ثم قال: أين فلان؟ فكُنْتُ للشقاوة غائباً عن المكان، فقيل ليس بحاضرٍ، فاندفع من فوره وأقسم بالغموس[١] أن أعزل عن خدمته، ولا أبْقى في بلدته، فاستحوذ على الكُلِّ البهتُ، وملك جميعهم السَّكتُ، وحضرت أحد الوزراء بديهة تراجع بها شيء من ذهنه، فتجاسر بعض التَّجاسر عليه، وذكَّره بالكظم، واسترجعه إلى سجيَّته من الحلم، فضجر أشنع من الأولى، وشدَّ اليمين بأخرى، فانقطعت أسباب الرَّجاء...»[٢].

ثم يصف وقع الأمر في نفسه، ويصوِّرُ حاله تصويراً يبعث على الأسى والحزن، فعندما سيق الخبر إليه، وقع مغشياً عليه حَتَّى رأى الموت بأمِّ عينه، يقول: «وسبق إليَّ ذلك النبأ الفظيع، ثم تلاه الأمر الشَّنيع... وأذكر لك مابقي في ذِكري وثبت في ذهني، وسقطت مغشياً عليَّ، وعاينت الموت جادّاً إليَّ، وشاهدت نفسي وهي تخرج، ورأيت روحي وهي تعرُجُ، وبقيتُ لا أُقلقل ولا أُزعج، كالمُستَضْعَفِ أحاطت به غلبة...»[٣].

ثم يصف خروجه إلى شَنْتَمَريَّة، ويصوِّر حاله فيها كحال أهل قبور النقمة، فهو يعاني من العذاب، ويتقلَّبُ في الظلمة، وتعرض عليه أعماله، حيث يقول: «ثم خرجتُ مع هذا كُلِّه على رغمي إلى شَنْتَمَريَّة، وهي القبرُ إلاَّ أنها من قبور النَّقْمَة لا من قبور الرَّحمة، وأنا الآن فيه أتعذَّبُ بغُمَّتِهِ، وأتقلَّب في ظُلْمَتِهِ، وتُعرضُ عليَّ أعمالي، ولاأدري إلى حيثُ يكونُ مآلي...»[٤].

ويختتم رسالته بدعوة صديقه إلى أن يرقَّ له، وأن يبكي عليه، بدمع هام، وأن يلبس عليه الحداد، يقول: «هذا ياسيِّدي بعضُ ماتحصَّل في هذه الأحوال، بما جرى عليَّ من الشَّدائِد والأهوال، فرقَّ الآن لأخيك رقَّةَ راحمٍ، وابكِ عليه بدمعٍ هامٍ

(١) - اليمين الغَمُوس: التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، وقيل: هي التي لااستثناء فيها (اللسان: مادة غمس).

(٢) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٧٢.

(٣) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧٢.

(٤) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

وساجمٍ، وتقطَّع إشفاقاً، واستشعر انطباقاً، والبسْ عليه أغبر إن لم تلبس حداداً . . . » .[1]

لقد قصَّ ابن الدبَّاغ على صديقه رحلة الشقاء التي بدأها من سرَقُسْطَةَ ولم تنته إلَّا بوفاته. ومهما يَكُن فإنّه لايخفى على الباحث في أسلوب هذه الرِّسالة ظاهرة الحوار التي نجدها في مجلس المقتدر بن هود، وظاهرة سرد الأخبار والأحداث وهما عنصران مهمَّان من عناصر القصة.

ومن الأمثلة على رسائل ابن الدبَّاغ التي تجري مجرى القصص والحكايات أيضاً، رسالة تتعلق بوصف يوم من أيام الأثرياء من أبناء الطبقة المترفة في المجتمع الأندلسي، ومايتعلق به من مظاهر الترف والبذخ واللهو والمجون.

وقد افتتح رسالته بمقدمة ذكر فيها مناسبة كتابته للرسالة، فهو يعاتب فيها صديقه لانشغاله عن صلة الأصدقاء بالدنيا ومسراتها، حيث يقول: «لشدَّ ماألهتك الدنيا أبا عليٍّ بإقبالها، وشغلتك بأحوالها، فما تفكِّر في صِلةٍ، ولاتبتدىء بمكاتبةٍ أو تراجِعُ عن مخاطبةٍ . . . » .[2]

ثم انتقل لوصف مجريات يوم من أيام صديقه في إطار قصصي، حيث يقول: «وزمانُك كلُّه مُقَسَّم في أشغالٍ، ومرتب على أحوالٍ، تنامُ بالضحى مثقلاً من السكر، وتململ على فراشك إلى الظهر، حتَّى يتكرر رسول فلان، فيوقظك من المنام . . . ثم تركبُ وتجدُ المائدة موضوعةً، والأيدي لإبطائك مرفوعةً، فتدنو من الطَّعام بكسلٍ، وأنت شاك من بقايا خُمارٍ أو ثملٍ، وتخدشُ من الخبز بظفرك، وتأكلُ شيئاً لطيفاً على قدرك، ثم تستلقي وتتمدَّدُ . . . وتستحضرُ جَنَّانَكَ فتسأله عن الجنّة من سقاها، والروضة إن كان رواها . . . وبينا أنت في ذلك يستأذن عليك وكيلك في ضياع الإنزال، فتأذنُ له في الدُّخولِ ثم تستفهِمُهُ متى أقْبَلَ، وأيّ شيء عمل، وكم جمع، وما زرع، وتعلّلُ بهذه العلل والأخبار، حتَّى تنقضي بقيةُ النهار، ثم تنشطُ

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٧٣.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

لتستدفعَ شربَ الماء، في ودٍّ أحد الرؤساء، وتقيمَ من بعدُ دستَ الأنس، حتَّى تعود في مثل ذلك الأمس . . » .(1)

لقد قص ابن الدبَّاغ في هذه الرسالة أحداث ومجريات يوم من أيام الأثرياء في الأندلس، وعرض لكثير من العادات الاجتماعية كالنوم والأكل والعناية بالمتنزهات والجنائن، واستخدام الوكلاء في إدارة المزارع، ومجالس اللهو والشراب وما إليها.

ولاتخلو هذه الرِّسالة من روح فكاهية تظهر بوضوح في تلك الصور التي رسمها ابن الدبَّاغ لأحوال صديقه وحركاته في فترات مختلفة من اليوم. ومن ذلك قوله مصوِّراً طريقة تناوله الخبز: «فتدنو من الطعام بكسلٍ . . . وتخدشُ من الخُبز بظُفْركَ» ، وقوله مصوِّراً حالة صديقه بعد الأكل: «ثم تستلقي وتتمدّد، وتتثاءب وتتوسَّدُ . . . » .(2)

فلقد رسم ابن الدبَّاغ صوراً طريفةً ضاحكةً، قصد من ورائها السخرية بصديقه والتهكم عليه، وتوجيه النقد إليه، إذ أن انشغال صديقه بالحياة وملذَّاتها حال دون صلة الأصدقاء وتأدية حقوقهم، كما يقول في خاتمة رسالته: «فمتى تتفرغُ مع هذا للصَّديق، وكيف تَتَمكَّن من قضاء حقوقٍ؟!» .(3)

وعلى الرَّغم من أنَّ قول ابن الدبَّاغ هذا يمثِّلُ موقفاً خاصاً إزاء صديقه، إلاَّ أنَّه يمثِّلُ أيضاً مظهراً من مظاهر النقد الاجتماعي الموجَّه إلى أبناء الطبقة المترفة في المجتمع الأندلسي.

الخصائص الفنية لرسائله:

لقد أثنى الذين ترجموا لابن الدبَّاغ على براعته الفنيَّة، وقدرته على الصياغة، فقد وصفه الفتح بن خاقان بأنَّه أحد «المشتهرين بالبلاغة، المقتصرين على حسن التناول في كل إراغة» .(4)

---

(1) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٨.

(2) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٨.

(3) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٣٠٨.

(4) ـ القلائد: ص ١٠٦.

وذكر ابن بسّام أنّه «جرى السِّحر الحلالُ بين قلمه ولسانه»،[1] أمّا العماد الأصفهاني فقد وصفه «بالاشتهار بالبلاغة، والاقتصار على حُسن البلاغ في كلّ إراغة».[2]

ومهما يكن من أمر، فإنَّ الباحث يستطيع القول من خلال رسائل ابن الدبّاغ التي انتهت إلينا بأنّه قد جارى أترابه كُتّاب الأندلس في الأخذ بالمثل الأعلى السائد، والسير على مقاييس العصر الفنية، من حيث البناء الفني للرسالة، واختيار الألفاظ، والتعبير عن المعاني.

فلقد أكثر ابن الدبّاغ من استخدام الجمل الدّعائية والمعترضة في رسائله، ومن الأمثلة على ذلك قوله: «في حالي ـ أعزّك الله ـ عجب للمتعجب»،[3] وقوله: «فتوهَّم ـ جعلني اللهُ فداك ـ صورتي إن صحّ لك توهُّم»،[4] وقوله: «مازلت ـ فسح الله لك أيهُّا الوزيرُ الأجلُّ غاية الأمل ـ مُنْذُ سمعت فضائلك تُذكرُ».[5]

ومن الخصائص الفنيَّة لأسلوب ابن الدبّاغ التنويع بين الشعر والنثر، حيث كان يفتتح رسائله أو يضمّنها أو يختتمها بأبيات من أشعاره أو من أشعار غيره، وذلك حسب مايقتضيه حال الخطاب، ومايلائم سياق الرسالة وظرفها الخاص.

ومن الأمثلة على ما افتتح به إحدى رسائله من شعره، قوله مخاطباً بعض إخوانه:

«تَـرحَّـلتُ عَنْكُـمْ لي أمـامـي نَظْرَةٌ   وعشرٌ وعشرٌ نَحْـوَكُـمْ مِنْ ورائِـيَا

ولكنهَّا نظرةٌ من خلال عبرةٍ، والتِفاتةُ إثْر زَفْرةٍ...».[6]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥١.

(٢) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٣٨٧.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦٨.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧٢.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧٧، ويجد الباحث أمثلة اخرى في الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٩٠، ٢٩١، ٣١٢، ٣١٤، الخريدة: ج ٣، ص ٣٩٠.

(٦) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٠٠.

ومن الأمثلة على رسائله الَّتي اختتمها بقصائد من شعره رسالة خاطب بها أبا محمد بن عبد البرِّ، حيث اختتمها بعدد كبير من الأبيات في نفس معنى الرسالة مضمونها.[1]

ومن الأمثلة على تضمينه رسائله أشعار غيره، قوله في رسالة كتبها في موضوع العناية: «ولولا ثقتي بالرأي الجميل، والمعتقدالكريم النَّبيل، لوقفت عند قدري، وماتعدَّيتُ طوري، حَتَّى يكون هو- أيَّده الله - السابق إلى مايُغني عن إنشاد: :[2]

وفي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وفيك فَطَانَـةٌ سكُـوتي بَيَانٌ عِنْـدَهـا وخِطَابُ
وَمِثْلُكَ مَنْ الْوسِيطَ فُؤادُهُ فَكَلَّمـةُ عَنيِّ وَلَمْ أتَكَلَّم

وكان ابن الدبَّاغ في الأغلب ينسب الأبيات التي يستشهد بها إلى أصحابها، ومن الأمثلة على ذلك قوله: «وقاتل اللهُ الحطيئة في قبره، فلشدَّ ماغرَّ بقوله:[3]

مَنْ يَفْعَلْ الخيرَ لايعدم جوازِيَهُ لايَذْهَبُ العُرْفُ بَينْ اللهِ والنَّاسِ

. . . أنَا واللهِ اغتررتُ به، وفعلت خيراً فعدمت جوازيه. . ».[4]

وقد نثر ابن الدبَّاغ كثيراً من معقود الشعراء، وضمَّنه رسائله[5] كقول: «فعسى أن تكون بعد المهات راحةٌ من هذا النَّصب، وسلوة عن هذه الخطوب والنَّوب، فدع بنا هذا التشكّي، فالدَّهرُ ليس بمعتبٍ من يجْزَعُ، وما في الأيَّام رجاء ولامطمعٌ».[6]

وفي هذا القول لفظ محلول من معقود قول أبي ذؤيب الهذلي:[7]

---

(1) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣١٧.

(2) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣١٤، والبيتان من قصيدتين مختلفتين للمتنبي: ديوانه: ج ١، ص ٣٢٤، ج ٤، ص ٢٧٢.

(3) - ديوان الحطيئة: ص ٧٧.

(4) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥٨.

(5) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦٠، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣٠٧.

(6) - القلائد: ص ١٠٧

(7) - ديوان الهذليين: ق ١، ص ١.

أمِـنَ المَـنُـون ورَيْبِـهـا تتـوجَّـعُ والـدَّهـرُ ليس بمُـعـتِـبٍ مَنْ يجْزَعُ

وقـولـه أيضـاً: «لـو نال منيً ذو حرمةٍ تغرَّبْتُ، أو أخذ مني من فِيْهِ إنسانية ماباليتُ، ولكن المحنة بأوغاد تدقُّ عن المجازاة مقاديرها، والبلية بذبابٍ يحميها من أن تُنَال مقاديرها». [1]

فقد حلَّ هذا من قول إبراهيم بن العباس الصُّولي في محمد بن عبد الملك بن الزيَّات: [2]

نجـا بك لُؤْمُـكَ مَنْجَى الـذّبـابِ حَمَتْـهُ مقـادِيرُهُ أن يُنَـالا

وقد حرص ابن الدبَّاغ على الاقتباس من القرآن الكريم، فكان يورد بعض الآيات بصيغتها ولفظها، ومن ذلك قوله في رسالة كتبها في موضوع الوصايا: «ولا استبطأت من طولِ مَوْلَاي وفضله، ولكن ليس للمرء من عملٍ، في قوله عَزَّ وجَلَّ (خُلِقَ الإنسانُ من عَجَل)[3]. . . .» [4].

وكـان يورد، بعض الآيات بمعناها دون لفظها، ومن ذلك ماورد في قوله: «وردني لك كتـاب. . . فضضتـه عن أسـطر فيها سواد، لم ينحصل منه مستفاد، فتعوذتُ بربِّ ذلك الفلق، من شر ذلك الغسق[5] . . .» [6].

واحتفل ابن الدبَّاغ بذكر الأمثال والحكم والأخبار من الجاهليَّة حَتَّى عصره. ومن ذلك ماورد في قوله: «هات ياسيدي عتبك وعتابك، واشحذ للملام شفارك

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦٠.

(٢) ـ ديوان ابراهيم بن العباس الصُّولي: ص ١٦٣.

(٣) ـ سورة الأنبياء: الآية ٣٧.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣١٤.

(٥) ـ انظر: سورة الفلك: الآيتان: ١ و ٣.

(٦) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٣٩٠.

وحرابك، تجذْني لاحتمالك عوداً[1] بجنبيه جُلَب،[2] وعليه من قراعِ الدهر نُدَب...».[3]

ففي هذا القول اقتباس من المثل «أصْبرُ من عوْدٍ بِدَفَّيه الجُلَب».[4]

ومن ذلك أيضاً ماورد في رسالة خاطب بها بعض إخوانه يحضُّهم على الزُّهد، وترك ملذات الحياة، حيث يقول: «فهنيئاً لكم تَنَفُّسَ أنفاسها، وتعاطي أكواسها... وموتوا سُكْرَاً، ولاتعصوا لشاربها أمْراً، واتخِّذوا الحُسْنَ[5] في دينها نَبِيَّاً».[6]

ومن ذلك أيضاً قوله: «وأنا منذ احتلاله... تارةً أطالعُ أخبار بِشرْ وهند...».[7]

ولقد أخذ ابن الدبَّاغ بالكتابة المتأنقة، وأكثر من استعمال المحسّنات البديعية والمعنوية. ومن أبرز المحسّنات البديعية التي اهتم بها السَّجْع القائم على تنويع الفواصل، وقصر العبارات، ونلمح هذه السمة في قوله: «كتابي، وأنا كما تدريه، غَرَضٌ للأيَّام ترميه، ولكنّي غير شاكٍ لآلامها،[8] لأنّ قلبي في أغشيةٍ من سهامها، فالنَّصل على مثله يقع، والتَّألمُ بهذه الحالة قد ارتفع، كذلك التَّقريع إذا تتابع هان، والخطبُ إذا أفرط في الشدَّة لاَنَ...».[9]

---

(١) ـ العَوْدُ: الجمل المسن (اللسان: مادة عود).

(٢) ـ الجُلَب: آثار الدّبر (اللسان: مادة جلب).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦٤.

(٤) ـ جاء في فصل المقال أن هذا المثل لحلحلة بن قيس بن أشيم الفزاري (انظر: ص ٤٩٨).

(٥) ـ يريد الحسن بن هانىء (أبا نواس).

(٦) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٨٣.

(٧) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٧٤.

(٨) ـ وردت في الذخيرة «ولكني غير شاك من آلامها» انظر: ق ٣ م ١، ص ٢٥٦.

(٩) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

أمَّا الجناس فيبدو في قوله في رسالة يعاتب فيها ابن حَسْدَاي: «وكنت عهدتُكَ لا تمنع من مداعبة من يُداعبك، ولا ترفع عن مراجعة من يُخاطبك، فمن أين حدث هذا التَّعالي، وماسبب هذا التَّغالي...». (١) فقد جانس بين لفظي: التَّعالي والتَّغالي جناساً ناقصاً.

ومن المحسِّنات المعنوية التي اهتم بها ابن الدبَّاغ، الطِّبَاق، ومن الأمثلة على ذلك، ماورد في رسالة جاوب بها بعض إخوانه، حيث يقول: «وإن أفاتتني من السُّرور برؤيتك غُنماً، ولك أنت أحفلُ الشُّكر، فيما تلَطَّفت به من البرِّ، فاختر إخواناً يجاروني في الذمِّ والمديح، ويساعدوني على الحَسَنِ والقبيح». (٢) فقد طابق ابن الدبَّاغ بين لفظي: الذَّم والمديح، ولفظي الحَسَن والقَبِيح.

ومن ذلك أيضاً ماورد في رسالة بعث بها إلى أحد إخوانه يخبره بانكشاف الغُمَّة، وقُرْب العفو عنه، حيث يقول: «وهذا هو المعهودُ منه تعالى في أن يديلَ من الضرَّاء بالسرَّاء، وينقل من الشدَّةِ إلى الرَّخاء..». (٣) حيث طابق بين الألفاظ: الضرَّاء والسرَّاء، الشِّدَّة والرَّخاء.

(١) ـ القلائد: ص ١٠٧.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٩١.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٩٤.

ابن عبد البرِّ

حياته :

هو أبو محمَّد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البرِّ بن عاصم النَّمري،[١] من أهل قرطبة. كان والده أبو عمر يوسف بن عبد البرّ إمام الأندلس وعالمها في عصره.[٢]

وعلى الرَّغم من أنَّ أبا محمد بن عبد البر ولد لأب يعدُّ من كبار رجال الأندلس، فقد صمتت المصادر عن كثير من جوانب حياته، فلم تذكر تاريخ ولادته ومكانها، كما لم تتحدث عن نشأته ومراحل حياته الأولى.

ويظهر للباحث أنَّ أبا محمَّد بن عبد البرِّ اشتهر أول الأمر بالكتابة في بلاط مجاهد العامري بدانية، حيث كان والده قد هاجر إليها بعد قيام فتنة قرطبة.[٣] وقد حظي أبو محمد بمكانة رفيعة في بلاط مجاهد العامري، وحلَّ من كُتَّابه «محلَّ القمر من النُّجوم».[٤] وبقي أبو محمَّد عبد البر بدانية بعد وفاة أميرها مجاهد العامري، وتولى ابنه علي الحكم سنة ٤٣٦ هـ،[٥] فكتب عنه عدداً كبيراً من الرسائل.

---

(١) ـ انظر ترجمته وأخباره وأدبه في: الجذوة: ص ٢٦٨، القلائد: ص ١٨٠ ـ ١٨٣، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٥ ـ ٢٢٦، ق ٤ م ١، ص ١٧٤ ـ ١٧٥، ١٨٠ ـ ١٨١، الصلة: ج ١، ص ٢٧٩، بغية الملتمس، ص ٣٥٤، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣، البيان المغرب: ج ٣، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٨، المعجب: ص ٦٧، المسالك: ج ٨، ص ٢٤٦، العبرج ٣، ص ٢٥٥، شذرات الذهب: ج ٣، ص ٣١٦، النفح: ج ١، ص ٥٩٧ ـ ٦٠٠.

(٢) ـ انظر: المطمح: ص ٢٩٤، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٧.

(٣) ـ انظر: مقدمة كتاب بهجة المجالس.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٥.

(٥) ـ انظر: بغية الملتمس: ص ٤٧٥.

ولمَّا كانت شهرة أبي محمَّد قد طبقت الآفاق، وسارت ببلاغته الرُكبَانُ، فقد تَبَارى ملوك الطوائف في استقدامه إلى بلاطاتهم وكان في مقدِّمتهم المعتضد بن عبَّاد الذي كان يستحثه على القدوم إلى إشبيلية. (١)

ومهما يكن من أمر، فقد ترك أبو محمَّد بن عبد البرِّ دانية، ورحل إلى بلاط المعتضد بإشْبيلِيَة، فقرَّبه منه، وأعلى مكانته واستوزره، وجعله كاتبه ولسانه لدى أمراء الطوائف. (٢)

ولاتذكر المصادر تاريخ قدومه إلى إشْبيلِيَة، إلاَّ أنه يظهر للباحث أنَّه كان موجوداً فيها سنة ٤٤٩ هـ أو سنة ٤٥٠ هـ، ذلك أن أقدم رسالة انتهت إلينا مما كتبه على لسان المعتضد كانت رسالته إلى رؤساء الأندلس في قتله لابنه اسماعيل، حيث يذكر ابن عذارى أنَّ هذه الحادثة كانت سنة ٤٤٩ هـ،(٣) أمَّا ابن بسَّام فيذكر أنها كانت سنة ٤٥٠ هـ. (٤)

كذلك فقد كان أبو محمَّد بن عبد البرِّ موجوداً في إشْبيلِيَة سنة ٤٥٤ هـ، إذ كتب رسالة على لسان المعتضد إلى ابن شرف القيرواني يستحثّه فيها على القدوم إلى إشْبيلِيَة، حينما وفد على الأندلس في حدود سنة ٤٥٤ هـ. (٥)

ويظهر أن أبا محمَّد لم يوفّقْ في إشبيليه بسبب من الحسد والمنافسة فقد تضايق من قدومه أبو الوليد بن زيدون وزير المعتضد بن عبَّاد، الذي جهد كلَّ جهد في إراقة دمه، فوشى به إلى المعتضد، وزعم أنه يطعن في الدولة. (٦) وكاد المعتضد أن يبطش بأبي محمَّد لولا أنَّه أدار الحيلة والتمس على الخلاص الوسيلة، «فألقى عصا التَّسيار،

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٥، إعتاب الكتاب: ص ٢٢١.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٥، دول الطوائف: ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) ـ البيان المغرب: ج ٣، ص ٣٣٤.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٤٣ ـ ١٤٨.

(٥) ـ انظر: الذخيرة: ق ٤ م ١، ص ١٧٤، معجم الأدباء: ج ١٩، ص ٣٨.

(٦) ـ انظر: إعتاب الكتاب: ص ٢٢١.

وأخـذ في اقتنـاء الضياع والـديار، حتى ظنَّ عبـادٌ أنّه قد رضي جواره، واستوطن داره». [1] وبقي الأمر كذلك حتَّى سعى أبو عمر بن عبد البرِّ إلى خلاص ابنه، فَقَدِمَ من شرق الأندلس إلى إشبيلية، وهو حينئذ يتردد بين بلنسية وشاطبة، وعندما دخل على المعتضد نادى رافعاً صوته: ابني يامعتضد، ابني يامعتضد، فشفَّعه فيه، وأطلقه له، وانصرفا عنه محفوفَين بالإكرام والتقدير. [2]

وأخذ أبو محمَّد بن عبد البرِّ بعد ذلك ينتقل بين إمارات الطوائف، وكتب عن أكثر ملوكها[3]، إلى أن توفي بدانية. وقد أجمع أغلب المؤرخين على أنه توفي قبل أبيه، فقد ذكر الحُميدي أنَّه توفي بعد الخمسين وأربعمائة[4]، وتبعه في ذلك الضَّبيُّ[5]. وذكر ابن بشكوال أنه توفي سنة ٤٥٨ هـ[6]، إلَّا أن ابن بسَّام يذكر أنَّ وفاته كانت سنة ٤٧٤ هـ[7].

ويرجح الباحث ماقاله ابن بشكوال فهو أقرب إلى الدقة، ذلك أنَّ أبا محمد ابن عبد البرّ كان حياً سنة ٤٥٤ هـ كما ذكرنا فيما تقدَّم.

وتشير المصادر إلى أنَّ أبا محمَّد كان من أهل الأدب البارع، والبلاغة الرائعة، والتقدُّم في العلم والذكاء، [8] وتدلُّ رسائله على أنه كان واسع الثقافة، مطلعاً على التراث العربي الإسلامي منذ الجاهلية حتى عصره، [9] ولاغرو في ذلك، إذ كانت الثقافة العامة شرطاً أساسياً من شروط الكتابة في عصره.

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٦.

(٢) ـ إعتاب الكتاب: ص ٢٢١، المغرب: ج ٢، ص ٤٠٢.

(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٦.

(٤) ـ الجذوة: ص ٢٦٨.

(٥) ـ بغية الملتمس: ص ٣٥٤.

(٦) ـ الصلة: ج ١، ص ٢٧٩.

(٧) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٦.

(٨) ـ انظر: الجذوة: ص ٢٦٨.

(٩) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٨، ١٥٤، ١٧٤، ٢٠٢، ٢٢٠.

رسائله :

لقد قضى أبو محمَّد بن عبد البرِّ شطراً كبيراً من حياته متنقلاً بين مختلف إمارات الطوائف، فكتب عن مجاهد العامري، وابنه علي والمعتضد بن عبَّاد وغيرهم. وانتهى إلينا مما كتبه عنهم رسائل كثيرة غلب عليه الطابع السياسي. كما كتب في وصف المحن والنكبات التي حلَّت بالمسلمين، وفي الحضِّ على الجهاد ضد الصليبيين.

ولمَّا كان أبو محمَّد بن عبد البرِّ يُكْثِرُ من اصطناع الإخوان واتِّخاذ الأصدقاء في الإمارات التي كان يحلُّ فيها، فقد كتب عدداً كبيراً من الرسائل الإخوانية، جاء أغلبها في الصداقة وتهادي الوُدِّ، وتبادل العواطف والمشاعر وما يتَّصل بها من مدح الإخوان وتعزيتهم والشفاعة لهم والشكوى إليهم.

كما امتاز أبو محمَّد بأوصافه النادرة لبراعة الكُتَّاب وبلاغة المنشئين، وفي وصف بعض الأدوات الحضارية، والحيوانات الأندلسية النادرة.

وقد ذكر الحُمَيْديُّ أن الناس جمعوا رسائل أبي محمَّد بن عبد البرِّ في ديوان كبير،(١) وقد اطَّلع ابن بسام على هذا الديوان ونقل منه.(٢)

وقد تناول أبو محمَّد بن عبد البرِّ في رسائله كثيراً من الاضطرابات والفتن والخصومات السياسية التي اشتعلت بين ملوك الطوائف، وما كان من انتصاراتهم المزعومة على بعض إخوانهم في الدين. كما سجَّل أبو محمد بعض الأحداث السياسية والتاريخية التي شهدتها الإمارات الَّتي كان يتنقل بينها.

ومن أشهر رسائله في هذا الباب تلك الرسالة التي كتبها على لسان المعتضد بن عباد إلى رؤساء الأندلس في وصف المؤامرة التي حاكها ضده ابنه اسماعيل، وماكان من قتل المعتضد له، وكان أبو محمد قد كتبها ارتجالاً بين يدي المعتضد، وبحضور عدد كبير من الوزراء والكُتَّاب، فجاءت قطعة من البلاغة الرفيعة والأدب العالي،

---

(١) ـ الجذوة: ص ٢٦٨.

(٢) ـ الذخيرة: ص ١٩٧.

شهد الناس على إثْرِهَا لأبي محمد بأنَّه آيةٌ من آياتِ فَاطِرِه.(١)

ومن هذا الضرب من الرسائل أيضاً رسالة كتبها عن مجاهد العامري إلى المعتضد بن عباد مهنئاً إياه بأخذ شَلْب وذواتها، ومعبراً عن مبلغ فرحه وسروره بانتصار المعتضد على البربر.(٢) ومن ذلك أيضاً رسالته التي كتبها على لسان علي بن مجاهد إلى المنصور الصغير يعلمه بغدر أخيه حسن.(٣)

كذلك فقد تناول في رسائله ذات الاتجاه السياسي العلاقات الطيبة التي كانت تربط بين بعض أمراء الطوائف، ومن الأمثلة على ذلك رسالة كتبها إلى المظفر بن الأفطس على لسان علي بن مجاهد العامري، يتحدَّث فيها عن الصلات الوثيقة التي تربط كلاً من مجاهد العامري والمظفَّر على الرَّغم من بعد الشقة بينهما، حيث يقول: «وماتشتَّتَ لنا بحمد الله، شملٌ ولاانقطع بنا حبلٌ، ولاغبَّ بيننا وَصْلٌ، بل نحن على ثلج تواصُلٍ، يقتضيه التشاكل والتآلف، ونهجِ تداخلٍ يستدعيه التعاقد والتحالف... وقد نظمتنا من الأحوالِ المشاكلة والأسباب الواشجة ماكلانا له مُراعٍ، وإلى قضاء الحقِّ فيه، وحفظ الحظِّ منه ساعٍ...».(٤)

وفي ظل الظروف العصيبة التي عاشها المسلمون في الأندلس في القرن الخامس الهجريِّ، كان أبو محمَّد أحد أولئك الكُتَّاب الذين نهضوا بدورهم السياسي الصادق والمتمثِّل بإثارة نفوس الأمراء، وتوجيههم إلى توحيد الصف، وتعبئة الجهود وقطع دابر الفتنة لمواجهة الخطر الذي يهدِّد الوجود الإسلامي بالأندلس.

ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة جوابية كتبها إلى أحد أمراء الأندلس، وقد افتتحها بالإشارة إلى كتاب مخاطبه الذي «يحضُّ على ماأمر الله به من الأُلفَةِ،

---

(١) - انظر الرسالة في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٣٧ - ١٤٣، البيان المغرب: ج ٣، ص ٣٤٣ - ٣٤٧.

(٢) - انظر الرسالة في: القلائد: ص ١٨٢.

(٣) - انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٦٩.

(٤) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٦٦.

واتِّفاقِ الكلمة، وإطفاء نار الفتنة وجمع شمل الأُمَّةِ في هذه الجزيرة المُنقطعة عن الجماعة». [1]

ثم هو يمتدح مسعى مخاطبه وجهوده بهذا الشأن، حيث يقول: «فـلله رأيُك الأصيل، وسعيك الجميل، ومذهبك الكريم، وغيبك السَّليم!! وما أصدق ميلك، وأهْدَى دليلك، وأوضح في سبيل البرِّ سبيلك». [2]

ويختتم رسالته بالإشارة إلى انتهاجه نهج مخاطبه عندما رأى ما حلَّ بالمسلمين ولاحت له عاقبة أمرهم، يقول: «كنتُ ـ عَلِمَ الله ـ جانحاً إلى ماجنحتُ إليه، ويلوحُ لي مايلوحُ إليك، من أنَّا على طرفٍ إلَّا ماكفى الله، وعلى قِلَّةٍ إلَّا ماوقى اللهُ». [3]

ولقد أكثر أبو محمَّد بن عبد البرِّ في رسائله الإخوانية من الحديث عن الصداقة وتهادي الوُدِّ، وتبادل العواطف والمشاعر والأشواق، وكان أبو محمد يحلِّلُ في رسائله نشأة الصداقة والمحبة بين النَّاس، ويعدِّد أسبابها وعواملها، ويشير إلى أن «توقَ النفس إلى استصفاء الفضلاء، واقتناء مودَّات الأوفياء، أقوى أسباب الارتباط، وأدعى أبوابِ الاختلاط». [4]

ويدرك أبو محمَّد أنَّ المرء لايصحب من الأقران إلَّا من يشاكله، إذ «محالٌ أن تنجذب نفس إلى من ليس لها به أُنسٌ، أو يكلف ضميرٌ، بِمَن ليس له منه حظٌّ موفور...». [5]

ويشير أبو محمد في موضع آخر إلى أنَّ النَّاس قد يتراسلون فيما بينهم «وإن لم تتقدَّم مباسطة، ولاسلفت مخاطبة، لأسباب تصل أهواءهم، وأحوال تجمع آراءهم،

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧٣.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٧٣.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٧٣.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩٢.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩٢.

فتأتلف قلوبهم، وتعود ذات بينهم كأنْ لم تزل ملتئمةً، وتلوح قواعد مؤاخاتهم كأنْ لم تبرح مستقرّةً مستحكمةً. . .» .(١)

ويرى أبو محمَّد أن الصَّداقة والمحبة الخالصة هي التي تخلو من جميع الأسباب المتعلقة بالمنافع وتبادل المصالح المادية، حيث يقول في رسالة خاطب بها بعض إخوانه: «وقد تخلَّت مخاطبتي لك من الأسباب إلَّا من سبب المحبَّة فيك، والمعرفة بجميل مذهبك ومساعيك، والرغبة في اقتناء خُلَّتك، وادِّخار صداقتك، لما شُهِرَ من أحوالك الجميلة وظهر من خلالك النَّبيلة. . .» .(٢)

ويذكر في رسالة أخرى الأسباب التي دفعته إلى خطب ودِّ مخاطبه، وطلب إخائه، حيث يقول: «وقد دعاني إلى الأخذ بحظٍّ من إخائك، والاكتتاب في ديوان أودَّائك وأصفيائك، سببان: أحدهما ماأرجَ إليَّ من طيب أخبارك، وجُليَ عليَّ من محاسن آثارك، وقُدِّر لديَّ من فضائلك التي تقتاد إليك النفوس بأزمَّة ودادها، وتقف عليك خالصَ اعتقادها. . . والسبب الآخر مكانك من سيّدنا الملك الأعظم ـ أدام الله رفعته، وثبَّت وطأته ومكَّن سُلطانه ودولته ـ وحظُّك الرفيع من أثرته، وحالك المشكورة في خدمته. . .» .(٣)

إنَّه يرى أن الفضائل العليا والمحاسن الجميلة والهمم الرفيعة هي الأصل في جلب المحبة بين الناس.

ويتَّصل بموضوع الصداقة الشوقُ إلى الإخوان والتَّطلع إلى سماع أخبارهم، ومدح صفاتهم والثَّناء عليهم. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة خاطب بها أبا المطرّف بن الدبَّاغ، وقد افتتحها بالتعبير عن مشاعره الصادقة نحوه وشوقه إلى سماع أخباره، يقول: «فأنا إلى أخبارك مُتطلِّعٌ، ولآثار الصَّديق

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٩١.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩٢.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩١.

المخلص من النَّفس موقع، وقد علم علاّمُ الغيوب شغل بالي بك، واقتضائي الأيام لك، ماتقتضيه لنفسك وذاتك، من آمالك وإرادتك. . . ». (١)

ثم هو يعبِّر عن إعجابه بصديقه وبما يتمتع به من طيب السجايا والشيم، ومايتحلىَّ به من الوفاء والأدب والذكاء، يقول: «إذا اتَّفق للمرء وفيٌّ يصادقه، وسريٌّ يوافقه، وأديب يجاذبه أهداب الآداب، وأريب يناهبه لباب الألباب، فقد ظفر بالأخ الأسنى. . . وأرى أن قد ظفرت منك بذلك المطلوب الذي هو في حَيِّز العدم». (٢)

إنَّه يرسم صورة مثالية للصديق الوفي المخلص والأديب الذكيِّ. ولقد أكثر أبو محمَّد من مدح أصدقائه وذكر صفاتهم ومحاسنهم، ومن ذلك قوله مخاطباً أحد أصدقائه: «إنْ أخذتُ في ذكر فضائلك، أو عطَّرت كلامي بطيب شمائلك، فلسان الأيام بها أفصح، ولها أشرح، وإن عدلت إلى وصف ماأعتقده فيك، وأضمره وأطويه من ودادي لك وأنشره، فشاهدُ ضميرك به أنطق، وعنه أصدقُ. . . ». (٣)

ولقد حافظ أبو محمد بن عبد البرِّ على معاني الصداقة والمودَّة، فلم يترك فرصة تسنح لإزجاء التهنئة دون أن ينتهزها. ومن الأمثلة على ذلك رسالة بعثها إلى أحد أصدقائه وقد اعتلى منصب الوزارة. افتتحها بالدعاء للوزير والثناء عليه، يقول: «أطال الله بقاء الوزير الأوحد، الخطيرَ الأمجد، مسروراً بسموِّ الأحوال والرُّتب، معصوماً من طوارق الأحداث والنُّوَبِ». (٤)

ثم هو يعبِّر عن صدى اعتلاء صديقه الوزارة في نفسه، ويكشف عن مبلغ سروره وفرحه، حيث يقول: «ولما طلع البشيرُ عليَّ بتصيير الوزارة إليه، ودور رحى الخلافة عليه، . . أخذتني هزَّة الجذل والارتياح، وأسفر لي وجهُ الأمل والاقتراح، فانتشيت من فرحٍ وطربٍ، ونيل مرادٍ وأربٍ. . . ». (٥)

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٤.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩٥

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٧.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٧.

ثم يختتم رسالته بتهنئة الوزارة بتصييرها إلى صديقه، ويتَّخذ من ذلك وسيلة لمدح صديقه وبيان فضائله ومحاسنه، يقول: «وقد تعيَّن عليَّ أن أهنِّىء بالوزارة، بل هي المهنَّأةُ بمصيرها إليه، وظهور رسمها عليه، فهو المُعَدِّل لحدودها وسيرها، المُحسِّنُ لوجوهها وصورها، المُبيِّن لحُجولها وغُررها، لازال سيِّدنا زيناً للدُّول والممالك، ونوراً في المواطن والمسالك. . .». [1]

كذلـك عني أبـو محمَّد بن عبد البرِّ بتعزية إخوانه عندما يثكلون بفقد عزيز لديهم. ومن الأمثلة على ذلك رسالة أطنب فيها وأبدع، وقد افتتحها بإظهار التفجُّع على المتـوفَّى، وذكـر وقـع المصيبة في نفسه، ومايعاني من أسى ومايكابده من حزن، حيث يقول: «كتبتُ عن قلبٍ يقشعرُّ، ونفسٍ بين ضلوعها لاتستقرُّ، لخبر الرُّزء الهاجم، والنَّبـأ الشَّنيع الكـالم، بوفاة الحاجب عزِّ الدولة سيدي. . . فيا لها حسرةً مأأنكاها للنفوس، وجمرةً مأأذكاها في القلوب وروعةً مأأفتَّها في الأعضاد، ولوعةً ما أحرَّها على الأكباد. . .». [2]

ومع ذلك فإنَّ أبا محمَّد بن عبد البرِّ يؤمن بأنَّ الموتَ «أمرٌ يعمُّ ولا يخصُّ، كلُّ نفسٍ لها جارع، وفيها كارع، فمن مبتدر يعاجل، ومنتظر يتناول»[3].

ويحاول أبو محمَّد أن يخفِّف من وقع المصيبة في نفس مخاطبه، إذ يرى أن مثله ممن عظم قدره وتقدم في الأيام خبره أرجح علماً من أن يسلمه العزاء إلى التهالك، أو تغلبـه الأرزاء على التـماسـك، يقول: «وأنت أعلم بالأيام وصروفها، والأرزاء وصنـوفهـا، والأنفس ومـآلهـا، والأجسـام واضمحلالها. . . من أن يغلبك الجزع والتهالك، وينزع بك الجلد والتَّماسك، فأنت بالأزمان خبير، وبالأحوال بصير». [4]

إنَّه يتَّخذ من مدح مخاطبه وذكر محاسنه ومعارفه وسيلة للتخفيف من وقع المصيبة

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٩.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٩.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٩.

عليه. وهو يدعوه إلى التجمُّل بالصبر وترك الحزن لأن فيه «إحباط الأجر، وإسخاط الرّبِّ».[1]

ولقد استخدم أبو محمَّد بن عبد البرِّ جاهه وقلمه في إعانة ذوي الحاجات على قضاء حوائجهم، فكتب عدداً من الرسائل التي خاطب بها رؤساء الأندلس في حقِّ عدد من القـوَّاد والكُتَّاب والشعراء وعامَّة النَّاس يدعوهم فيها إلى إعانتهم والأخذ بيدهم والصفـح عنهم. ومن الأمثلة على ذلك، رسالة كتبها يشفع بها لرجل كان غضب عليه أحـد الأمراء. وقد افتتح رسالته بمقدمة وصف فيها حال المشفوع له وحال أسرته وصفاً يبعث على الحزن والأسى، وذلك ليعطف عليه «عطفة الماجد، ويحنـو عليه حُنـوَّ الوالدِ، على فراخٍ كزغبِ القطا، وعيالٍ ليس منهنَّ إلا المفجَّعة الحـرَّى، دمـوعُهـا تنهلُّ كالسَّحاب، وضلوعها تلتهب بنار الاكتئاب، قد شملهم الفِرار، ونبا بهم القرار، وعوِّضوا بالبؤس من النَّعيم..».[2]

إنَّه يحرِّك في نفس مخاطبه نوازع الخير لمساعدة هذا الرجل والعفو عنه ورعايته، يقول: «فإنْ لم يستوجب المذكور الرعاية لنفسه، فليرعه لأصله ومغرسه، وإن لم يرق لذاته فليرقَّ لبنيه وبناته، وأهله وعوراته..».[3] ويضرب له أمثلة مختلفة من التاريخ العربي على الصفح والعفو.

ومن موضـوعـات الرسائل الإخوانية النَّادرة التي تناولها أبو محمَّد الاستمناح والطلب. وقد قلَّ أن نجد لها مثيلاً في أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري. فلقد كتب أبو محمد رسالة إلى المنصور الصغير يطلب إليه تقليده منصِباً رفيعاً في دولته، ويرجو أن يقرِّبه من رحابه، ويزيد من عنايته به، وقد سلك فيها مسلك الشعراء في طلب الرفد والعطاء، حيث افتتحها بذكر مفاخر مخاطبه ومحاسنه ومكارمه وشمائله وأفضاله عليه، يقول: «إنيّ ـ أيَّد الله الملك الكريم ـ لمَّا أضاءت لي

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٢٠.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٢.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٣.

أهِلّةُ مفاخره في سماء الفخار، وأشرقت شموس مكارمه على مفارق الأحرار، وأبصرت شمائله الزُّهر تثير من الهمم كامنها، ومحاسنه الغُرَّ توقظُ من الآمال نائمها، تيقنت أن بحقٍّ انقادت له القلوب بأعنّتها، وتهادت إليه النُّفوس بأزمَّتها. . . ». (1)

ثم يشير إلى قدومه إلى حضرة المنصور وأمله في أن يدنيه من رحابه، ويزيد من عنايته به، ولاسيما أنه قد قصد حضرته دون غيره، يقول: «فآليتُ أن لا أُلِمَّ إلاَّ بحماه، ولاأحطَّ رحلاً إلاَّ في ذَرَاه، علماً بأنّه نَثَرةُ الفخر، وغُرَّةُ الدّهر، فيمّمت سارياً في طالع نوره، متيمناً بيُمن طائره بأملٍ متحقِّق للربح، موقنٍ بالفلجِ والنُّجح. . . ». (2)

ويعود أبو محمَّد مرة ثانية إلى مدح المنصور وذكر فضائله ومحاسنه التي يقصر عنها لسان إفصاحه، ويعيا في بعضها بيانه وإيضاحه، ويبالغ في ذلك مبالغةً كبيرةً، حتَّى يقول: «فالقراطيس عند بثِّ مناقبك تفنى، والأقلام في رَسْمِ آثارك تحفى. . . ». (3)

ويختتم رسالته بالإشارة إلى طلبه، حيث يقول: «وإنّما أُهدي إلى مولاي خدمتي، وأضعُ في ميزان اختياره همَّتي، لأمتاز في جملة عبيده، وأشهر في خدمته وعديده»، (4) ويشفع ذلك بجملة أبيات من شعره. (5)

ولقد امتاز أبو محمد بوصف بلاغة أترابه الكُتَّاب ورسائلهم التي كانوا يبعثون بها إليه. ولاتكاد تخلو رسالة من رسائله الجوابية من هذا اللون من الوصف، فهو يفتتحها في الغالب بالإشارة إلى الرسالة الواردة عليه، ويصف انتظاره لها وشوقه إليها، وموقعها من نفسه، كما يصف بلاغتها وألفاظها ويكثر من نعتها ويتفنن في تشبيهها.

---

(1) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٦٧.

(2) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(3) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٦٨.

(4) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٦٩.

(5) ـ لقد وردت هذه الرسالة في نفح الطيب: ج ١، ص ٥٩٧، وهي مبنية على الخطاب لا على الغيبة.

ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة جوابية كتبها إلى أحد إخوانه، حيث يقول: «ومازلتُ أفضُّ كتبك عن بدائع دونها السِّحرُ، ولآلىء يُزهى بها النَّحر، وغرائب يعذب بها لو مازجته البحر، فأعترف بالتقصير، ومن ركب في الكتابة عصا قصير، أنَّى له بمطاولة من ركب عصا فقير». [1]

إنَّه يتَّخذ من ذلك وسيلة لمدح أترابه الكُتَّاب، والتعبير عن مدى إعجابه بأدبهم وبلاغتهم.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله في وصف رسالة أرسلت إليه، حيث يتفنَّنُ في وصف محاسنها وذكر فضائلها، فهي «أشهى من درك الغنى، وأعبقُ من نفحات الأنوار، غبَّ القطار، عند تبلّج الأسحار...». [2]

ولأبي محمَّد من رسالة يمتدح فيها بلاغة أحد أصحابه وفصاحته، ويعبِّرُ فيها عن إعجابه وتقديره لعلمه وأدبه، يقول: «أمَّا البلاغة فأنت ابن بجدَتها، وأمَّا الفصاحة فأنت لابسُ جلدتها، والبراعة فأنت مقيم بردتها، ولاغرو، فمن زاحم في العلم بالمنكب الأشدِّ وخطا عرصة الأدب بالباع الأمدِّ، واستولى في مضمار الركاب على الأمد، أتى من الإبداع بالعجب العجيب...». [3]

ووصف أبو محمَّد بن عبد البرِّ بعض الأدوات الحضارية التي كان يستخدمها الأندلسيون. ومن ذلك وصفه للشطرنج وأجزائه، حيث صوَّر لنا كلَّ جزء وصفاً دقيقاً. وقد افتتح رسالته بالإشارة إلى بديع صنع أجزاء الشطرنج، وجمال أشكالها، وصوَّرها كأنها جيشان يقتتلان، يقول: «كأنَّ إقليدس قسم أجزاءه، ورقَّق أشكاله وأنحاءه، يحارُ في لطيف صُنعه الوهم، ويضلُّ في كيفيّته الفهم، قسم قسمين: قسم

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٩٧.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩٨.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩٧.

أحمر، وقسمٌ كأنَّه من ناصع الجوهر، تتقابل خيله بلا فرسان، وتنقاد بلا عِنانٍ في أرضٍ مُرَبَّعة الأقطار. .». (١)

ويقف عن الرخِّ، ويصفه وصفاً جميلاً، فهو إنْ تحرَّكَ من موقعه للمجالدة والمضاربة، كالبطل المغوار الذي لاتؤمن جولته، وكالصقر في هويه، وكالأسد في صولته، يقول: «وكأنَّ الرخَّ إذا برز للمصاع، وأشهر العرصة للقراع، بطلٌ تُتَّقى حملته، ولاتؤمن جولته، يهوي هُويَّ الصقر في الجوِّ، ويصولُ صولة الأسد في الدوِّ. . .». (٢)

ويصف الفُـرْزنَ إذا تحرَّك من موقعه بالثمل الذي يترنَّحُ من شدَّة السُّكر، يقول: «وكأنما الفِرْزِنَ إذا جال متبختراً، أو مشى متكبِّراً، ثَمِلٌ يترنَّح، أو سكران يتزحزح. . .». (٣)

ويتابع أبو محمَّد وصف بقية أجزاء الشطرنج وصفاً دقيقاً يدلُّ على معرفته بأجزاء هذه اللعبة ومصطلحاتها وقواعدها.

ويكشف لنا هذا الوصف عن الأدوات الحضارية التي كان يستخدمها الأندلسيون لقتل أوقات فراغهم.

ومن موضوعات الوصف النادرة التي تناولها أبو محمَّد الغزال، وهو وصفٌ نادر المثال في أدب الرسائل في الأندلس في هذا القرن. (٤)

---

(١) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٥.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٥.

(٣) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٥.

(٤) - انظر الرسالة في الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٤.

الخصائص الفنية لرسائله:

لقد كان أبو محمَّد بن عبد البرِّ من فرسان النثر الذين نالوا شهرة واسعة في عصره، «وجمعوا التالدَ إلى الطارف».[1] وقد شهد له عدد من مؤرخي الأدب شهادات تدلُّ على أنَّه كان يحتلُّ مكانة مرموقة بين كُتَّاب عصره خاصَّة، وكُتَّاب الأندلس عامَّة، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن بسَّام من أنَّه لما أنشأ رسالته في قتل المعتضد بن عباد لابنه إسماعيل، تناغت لمة من كُتَّاب العصر في معارضتها، وقد أورد بعض من أجاب عنها، وذكر فصولاً لمن انتصف على زعمه بالمعارضه منها.[2]

وذكر الحُمَيْديُّ أنَّ أبا محمَّد كان «من أهل الأدب البارع والبلاغة الرائعة».[3] وذكر الفتح بن خاقان أنه «بحْرُ البيان الزاخر، وفخر الأوائل والأواخر، وواحد الأندلس الذي فاز بها بحظِّ الظُّهور، وحاز قصب السَّبق بين ذلك الجمهور».[4]

أمَّا ابن بَسَّام فقد ذكر أنّ كلام أبي محمَّد كلَّه رائق بديع، لايتَّسع لاستيفاء محاسنه كِتَابُ الذَّخيرة.[5]

ويستطيع الباحث من خلال رسائل أبي محمَّد التي انتهت إلينا القول بأنَّه كان أحد الذين جمعوا بين مذهبي المصنوع والترصيع اللذين عرفتهما الأندلس في القرن الخامس الهجري، وأبدع في هذا الباب.

وكان أبو محمَّد ذا براعة فائقة في انتقاء الألفاظ واختيار المعاني، فكان يميل إلى سهولة الألفاظ وبساطتها في معاني الصَّداقة وتهادي المودَّة وتبادل العواطف والمشاعر ومايجري مجراها من الموضوعات الإخوانية. ويميل إلى جزالة الألفاظ ومتانتها في الرسائل ذات الاتجاه السياسي وفي رسائل الدعوة إلى الجهاد ووحدة الصف وفي رسائل الاستمناح والطلب.

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٦.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٥٢.

(٣) ـ الجذوة: ص ٢٦٨.

(٤) ـ القلائد: ص ١٨٠.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٢٦

وكـان أبو محمَّد بن عبد البرِّ يميل إلى الإطناب، فمعظم رسائله طوال،(١) ويبدو فيها تكرار المعنى بألفاظ مترادفة، وعبارات متقابلة، وجمل متنوِّعة. ومن الأمثلة على ذلك قوله في إحدى رسائله الإخوانية: «وكنت أضرب صفحاً عن ذكر حالي معك وارتباطها، وانجذاب نفسي إليك وانبساطها، وامتزاج ذاتي بك واختلاطها، إلاَّ أني قلت: لابدَّ للنفوس من أن تظهر أفعالها، وللحقائق أن تعطي أحوالها. . .» .(٢)

ومن خصـائص رسـائله الفنية الاحتفـال بضروب مختلفـة من صيغ الجمل الدّعائية والتي كان يفتتح بها في الأغلب رسائله، أو يوردها بين كلامه. ومن الأمثلة على ذلـك مافتتح به رسالته التي خاطب بها أبا المطرّف بن الدبَّاغ، حيث يقول: «مطالعتك ـ أعزَّك الله ـ منتظرة، وصلتك مستمطرة. .»(٣).

ومن ذلك أيضاً ماورد في رسالة جمع فيها بين التهنئة والتعزية حيث يقول: «وأُنهي إليَّ من تقليدك العهد، وإمضائك العقد للنَّاصر سيّدي وأسنى عددي ـ أبقاه الله ـ على بلنسية ـ عَمَّرها الله بدوام عزِّك، وحماها باتّصال نصرك ـ مكان المعتصم ـ رحمه الله ـ . . .» .(٤)

ومن ذلـك أيضـاً ماورد في رسالة خاطب بها أبا القاسم بن خَيْرون، حيث يقول: «إذ أنت صنوُ أبي مولاي ـ مَدَّ الله علي ظلكما، وكبتَ الباغي عليكما، والحاسد لكُما ـ فكم يقرع سمعي من قول الحاسدين من خصَّ أبي مولاي بمعاداةِ أهلِ الجهل. . .» .(٥)

وكما يلاحظ، فقد كان أبو محمَّد بن عبد البرِّ يختار من صيغ الجمل الدّعائية مايلائم طبيعة الخطاب، ويناسب مقتضى الحال وسياق الرسالة.

---

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٣٥، ١٣٧، ١٦٧، ١٧٣، ١٩١.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٩٤.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٠٤.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٦.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٠١.

ومن الخصائص الفنية لأُسلوب أبي محمد بن عبد البرِّ البراعة في التنويع بين النثر والشعر. ولاغرو في ذلك إذ كان من فرسان النثر والنظم، فضلاً عن أنَّه كان حافظاً لكثير من أشعار العرب منذ العصر الجاهلي حتى عصره.[1]

وكان يفتتح رسائله أو يضمِّنها أو يختتمها بأبيات من أشعاره أو من أشعار غيره. ومن الأمثلة على رسائله التي ضمَّنها أبياتاً من شعره قوله في وصف غزال أُهْدِيَ إليه: «تخاله سهماً إذا انصاع، ومعشوقاً أُشْعِرَ برقيبٍ فارتاع، يزداد جماله إذا نُفِرَ، وتروق محاسنه إذا ذُعِرَ:

كَادَ يَحْكِـي غزالَـةَ الإنسِ لولا ... رقَّـةٌ في الـشَّـوى وَقَـرْنٌ علاهُ
أَنَـا أَهْـواه لالِشيْءَ ولـكـنْ ... كلفـاً بالـفَـتَـى الَّـذِي أهْـدَاهُ[2]

ومن الأمثلة على ماضمَّنـه أشعـار غيره قولـه في رسالة كتبها على لسان أحد الأمراء: «ووافاني كتابك العزيز، فأوَّلُ ماسرَّحْتُ طرفي في مسطوره، وأعملت فكري في منثوره، واستطار الركابُ فرحاً، وعادتْ الغمرات مرحاً، ثم أنشدت ورددت:[3]

أُهِـمُّ بشيء والـليالي كأنَّها ... تطاردني عن كَوْنِـهِ وأُطَـارِدُ
بذا قَضَـتِ الأيامُ مابـينَ أهـلهـا ... مصـائـبُ قومٍ عِنْـدَ قومٍ فوائـدُ

وعسى الله أن يعيد عهداً تجري فيه السوانح...».[4]

ويلاحظ أنَّ أبا محمَّد كان يميل إلى تركيز معاني رسائله وتكثيفها بأبيات شعرية قليلة يختتم بها رسائله. ومن الأمثلة على ذلك ماختتم به رسالة له في وصف الشَّطرنج، حيث يقول:[5]

---

(١) ـ انظر: الجذوة: ص ٢٦٨.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣) ـ البيتان للمتنبي، ديوان المتنبي: ق ٣ م ١، ص ١٧٦.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٦٧.

(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٦.

جَيْشَانِ يَقْتَتِلَانِ لا لِعَدَاوةٍ أبداً ويصطلحان لا لودادِ
أهداهُ سَعدُ الدَّولةِ النَّدْبُ الذي جَمَعَتْ محبّتُهُ عُرَى الأكبادِ

ولم يقف الأمر عند أبي محمَّد على التنويع بين النثر والشعر، بل لقد جعل الشعر مكملاً للنثر في رسائله المختلفة. ومن الأمثلة على ذلك رسالته في الاستنهاح والطلب التي خاطب بها المنصور الصغير، حيث يقول: «لقد فاز بالسَّبق من لحظتهُ عيونُ رعايتك، وكنفه حِرْزُ حمايتك، فأنت الذي أُمِنَتْ بعدله نوائب الأيام، وقويت بفضله دعائمُ الإسلام، تختالُ بك المعالي اختيال العروس، وتخضعُ لجلالتك أعزّةُ النُّفوس، بسابقةٍ أشهر من الفجر، وفطنةٍ أنور من البدر، وهمةٍ أبعدَ من الدَّهر».

ويتبعها بما يناسبها شعراً، فيقول:[1]

لقد فازَ مَنْ أَضْحَى بكم متمسكاً يمدُّ إلى تأميل عِزّكُم يَدا
سَلَكْتَ سبيلَ الفضلِ خلقاً مركباً وغيرُك لايأتيه إلاّ تجلُّدا
لِيَهْنِكُمُ مجدٌ تليدٌ بَنَيْتُمُ أَغَارَ لعمري في البلادِ وأنجدا

ومن الخصائص الفنية لأسلوب أبي محمَّد البراعة في ترصيع رسائله بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه السلام، وبالحكم والأمثال والأخبار، وحلّ أبيات الشعر. فلقد حرص أبو محمّد على ترصيع رسائله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ومن روائع الاقتباس الجميل عند أبي محمد ماأورده في رسالته التي كتبها على لسان أهل بَرْبُشْتَرَ يصف المصائب والنكبات التي حلّت بهم وصفاً مؤثِّراً يبعثُ على الأسى والحزن، حيث يقول: «فلا الأخُ يُغْني أخاه، ولا الابنُ يدعو أباه، ولا الأبُ يُدْني بنيه، (لِكُلِّ امْرِىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه)[2]».[3]

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله في الرسالة التي كتبها على لسان المعتضد في قتله لابنه إسماعيل: «وكما أن داء العرِّ قد يُعْدِي، كذلك قرين السوء قد يُرْدي، ومن

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) ـ سورة عبس، الآية ٣٧.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧٦.

اتخذ الغاوي خَديناً، عاد غاوياً ظنيناً، (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قَرِيناً)[1]» . [2]

لقد تأثَّر أبو محمد بالقرآن الكريم وأساليبه، ومما يدلُّ على ذلك قوله أيضاً في الرسالة التي كتبها على لسان أهل بَرْبِشْتَر، مِنْتَقِداً موقف المسلمين الذين تقاعسوا عن نجدة إخوانهم في الدين: «فانظروا إلى ثغورنا كيف تُهْتضمُ، وإلى أطْرافنا كيف تُخْتَرمُ . . وأنتم عَنَّا لاهونَ في غمرةٍ ساهونَ، وكأنَّا لَسْنا مِنْكُم . . »[3].

فقد أخذ قوله هذا من الآية الكريمة (الَّذِينَ هُمْ في غَمْرَةٍ ساهُونَ) . [4]

ومن الأمثلة على روائع اقتباسه من الأحاديث النبوية الشريفة ماورد في رسالة كتبها على لسان مجاهد العامري، وقد زفَّ ابنته إلى المعتصم بن صُمادح، حيث يقول: «وَلَنَا في رسول الله عليه السلام أسْوةٌ حسنة، وفيما قاله في مثل هذه قدوة يُقْتَدى بها، وسُنَّةٌ يحتذى بها . . . وقال عليه السَّلام: «إنَّما فاطمةُ بضعةٌ مِنِّي، فمن أكرمها، فقد أكرمني، ومن أهانها فقد أهانني، [5] اللهمَّ بارك لها وبارك عليها» . [6]

لقد استفاد أبو محمد بن عبد البرِّ من التراث العربي الإسلامي فضمَّن رسائله الحكم والأمثال والأخبار والإشارات التاريخية المختلفة، وقد كان يوردها بما يتفق مع مضمون رسائله وسياقها العام.

ومن الأمثلة على ذلك ماأورده في رسالة في مقتل إسماعيل بن المعتضد من صور عقوق الأبناء لآبائهم في العصور التاريخية المختلفة. [7] ومن ذلك أيضاً ماأشار إليه

(١) ـ سورة النساء، الآية ٣٨.

(٢)ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٣٩.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٤) ـ سورة الذاريات: الآية ١١.

(٥) ـ ورد هذا الحديث في فتح الباري بشرح صحيح البخاري بلفظ مختلف: «فاطمة بضعة مني، فمن أغضبني أغضبها»: ج ٧، ص ١٠٥.

(٦) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٢٨.

(٧) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٤٢.

في الأحـداث والأخبـار التاريخية في رسالة كتبها في موضوع التَّعزية والرثاء، حيث ضرب أمثلة مختلفة على الصبر على الشَّدائد والمصائب، وذلك للتخفيف على صاحبه من وقع الفاجعة، حيث يقول: «وإن كان أخذ فقد أعطى، وإن كان اخترم، فقد أبقى، وبهذا صدع عروةُ بن الزُّبير[1] رضي اللهُ عنه، عندما مُنِيَ به في أحد أبنائه، وبعض أعضائه». [2]

ومن الأمثلة على تضمين رسائله الحكم والأمثال، قوله في رسالة خاطب فيها أبا القاسم بن خيرون، حيث يقول: «ومن أطرف ماجاءت به الأيام، وتحدَّثت به الأنـام، منـاواة جاهـلٍ خسيسٍ لإمامٍ عادلٍ رئيس، لقد استنَّت الفِصال حتَّى القرعى،[3] ولاتعجبنَ لجاهلٍ علا، إنَّ البُغَاثَ بأرضنا يستنسر[4]. . ». [5]

ولقد أبدع أبو محمد بن عبد البرِّ في حلِّ معقود الأبيات الشعرية، وإدخالها في مضمون عباراته ببراعة وإتقان وبصياغة جديدة مفارقة للمنظوم، ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة خاطب بها بعض إخوانه، حيث يقول: «ورأيتك رحلتَ على أنَّ المُقَام ثلاث، فطابت لك حتَّى أتممت عشراً، بل ماأقمت إلاّ دهراً، فقد زدت على المثل، وتملَّيت مسافة الجذل، فهنيئاً لك غير منغَّص، ومزيداً غير مُنتقصٍ . . ». [6]

ففي هذا القول ألفاظ محلولة من قول أبي نواس: [7]

خَرَجْـنَـا على أنَّ المُـقَـامَ ثلاثـةٌ فَطَابَـتْ لَنَـا حَتَّى أقمْنَـا بهَا شهـراً

(١) ـ انظر في صبر عروة بن الزبير عندما فقد ابنه وقطعت رجله: الوفيات: ج ١، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٢٠.

(٣) ـ انظر: فصل المقال: ص ٤٠٢.

(٤) ـ انظر: المصدر السابق نفسه: ص ١٢٩.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٠٢.

(٦) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٠٦.

(٧) ـ ديوان أبي نواس: ص ١٤٩.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله على لسان أهل بَرْبَشْتَر: «أيّ أمانٍ في زمانٍ قلّما يخضرُّ مِنْهُ جانبٌ إلّا جفَّ جانبٌ» .(1) وفي هذا القول إشارة إلى قول ابن عبد ربه: (2)

ألا إنَّما الدُّنْيَا نضارةُ أيكةٍ إذا اخضرَّ مِنهْا جَانِبٌ جفَّ جانبُ

ومن الخصائص الفنية لأسلوب أبي محمَّد البراعة في استخدام ضروب المحسّنات المختلفة، من سَجْع وازدواج وجناس وطباق ومقابلة.

ومن الأمثلة على السَجْع، قوله في رسالة يتحدَّث فيها عن الصداقة: «وربَّما تهيَّأت الصَّداقة، وتمكَّنت العلاقة، على تنائي الدِّيار، وبُعدِ الأقطار، بالأخبار السَّائِرة، والأنباء المتواترة، ببارع مناقبهم، وباهر مذاهبهم، وجليل فضائلهم..» .(3)

ويظهر أن السَّجْع عند أبي محمَّد جاء مسايراً للطبع، والذوق، بعيداً عن الصّنعة والتكلف، قائماً على تنويع الفواصل، وقصر العبارات، مما يضفي على النص رونقاً موسيقياً جميلاً ومؤثراً.

وتظهر هذه السمة أيضاً في قوله من رسالة في التَّعزية: «فأنت سدادُ كلِّ مُلِمٍّ، وسنا كلِّ مظلمٍ، وأنا أضربُ لك الأمثال، وأعلم مع ذلك علم الحقيقة أنَّ مصابك كبير، ورُزءك أليم خطير، لايكاد يتعلّق بالجازع منه ملامٌ، ولايستمرُّ على الصَّبر منه اعتزام، فمن كرم الكريم، الجزعُ على الحميم، ومن خواصِّ القلوب، الأسف على المحبوب...» .(4)

أمَّا الازدواج فيظهر في قوله من رسالة يمدح بها المنصور بن أبي عامر: «أنْتَ

---

(1) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١: ص ١٧٤.

(2) ـ ديوان ابن عبد ربه: ص ٢١.

(3) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١: ص ١٩٦.

(4) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢٢١.

الذي لايُدانى شرفه، ولايُسامى سلفه، ولاتجُارى أعراقه، ولايُبارى إعراقه. . . »[١].

فقد زاوج الكاتب بين الألفاظ: يُدانى ويُسامى وتجُارى ويُبارى، شرفه وسلفه أعراقه وإعراقه.

ولقد كان اهتمام أبي محمَّد بفن الجناس أقل من اهتمامه ببقية الفنون والمحسِّنات البديعية. ومن الأمثلة على ذلك قوله: «إن كانت المعرفة لم تحقَّ، فكم أثرٍ أهدى من عين، وكم خبرٍ أغنى عن خُبرْ. . . »[٢] فقد جانس بين لفظي: خَبَر وخُبْر.

ومن ذلك أيضاً ماورد في قوله: «أنْتَ الَّذي . . . لاتجُارى أعراقه، ولايُبارى إعراقه»[٣].

حيث جانس بين لفظي أعراقه وإعراقه جناساً ناقصاً.

ومن المحسِّنات البديعية التي استخدمها أبو محمَّد الطِّباق، ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة كتبها عن علي بن مجاهد إلى المنصور الصغير يعلمه بغدر أخيه حسن، حيث يقول: «قد قاسمته العيش نصفين، والحياة شطرين، له النَّومُ وليَ السَّهرُ، وله الأمنُ ولي الحذر، وله الصفوُ وليَ الكَدرُ. . . »[٤].

فقد طابق بين الألفاظ: النّوم والسَّهر، الأمْن والحذر، الصَّفو والكدر.

ومن الأمثلة على الطباق أيضاً قوله: «وكتابي ـ أعزَّك اللهُ ـ طَوْراً يبسطُ يدي وطَوْراً يقبضُها، وتارةً يُرسِلُها وأُخرى يعترضها، ومرةً يُقعدُهَا، وأخرى يُنْهضُها. . . »[٥].

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٦٥.
(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩٢.
(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٦٥.
(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٧٠.
(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٩٨.

فقد طابق أبو محمد بين الألفاظ: يبسطُ ويقبضُ، يُرْسِلُها ويعترِضُها، يُقْعِدُها ويُنْهِضُها.

ومن المحسِّنات المعنوية التي اهتمَّ بها أبو محمد المقابلة بين الجمل. ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالته التي كتبها على لسان أهل بَرْبَشْتَر، حيثُ يقول: «فإنّا خاطبناكم مستنفرين، وكاتبناكم مستغيثين، وأجفاننا قرحى، وأكبادنا حَرَّى، ونفوسُنا منطبقة، وقلوبنا محترقة، على حين نشر الكفر جناحيه، وأبدى الشركُ ناجِذَيْهُ...».[1]

فلقد قابل بين حال المسلمين من جهة وحال الكُفَّار من جهة أخرى، في جمل متتالية.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله: «والكفر يضحكُ ويذكي، والدِّينُ ينوحُ ويبكي».[2] فقد قابل أيضاً بين صورة الكفر وصورة الإسلام.

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٧٤.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ١٧٧.

ابن طاهر

حياته :

هو أبـو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن إسحق بن زيد بن طاهر القيسي.[1] ينتسب إلى أسرة عربية تعتبر من أشهر الأسرات في الأندلس، كما يذكر ابن حَيَّان «آلُ طاهرٍ ذوو بيتٍ عامرٍ، وعددٍ وافرٍ، يفخرون بالعُروبيَّة، وينتمون في قيس عَيْلان».[2]

وعلى الرَّغم من أنَّ ابن طاهر ينتسب إلى طبقة رفيعة فإنَّه لم تذكر المصادر التي ترجمت له تاريخ ولادته، كما لم تذكر مكانها، وأغفلت الحديث عن نشأته ومراحل حياته الأولى. ويرجّح الباحث أنَّ ابن طاهر ولد في مُرْسِيَة في منتصف الربع الأول من القرن الخامس الهجري إذ تكاد تجمع المصادر على أنَّه توفي سنة ٥٠٧هـ، وقد نيَّف على التسعين.[3]

وكان والد ابن طاهر أبو بكر أحمد بن إسحق حاكِماً على مُرْسِيَة من قبل زهير العـامـري. وقد سار في حكمها سيرةً حسنةً، وكان فضلاً عن عراقة أسرته وتراثه الواسع من أكابر علماء عصره، ومن أغزرهم أدباً، وأبلغهم بياناً. وكان أهل مُرْسِيَةَ

---

(١) ـ انظر ترجمته وأخباره ورسائله في: القلائد: ص ٥٦ ـ ٧٠، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٤ ـ ١٠٣، بغية الملتمس: ص ٥٠، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٦ ـ ١٢٧، الصلة: ج ١، ص ٢٧٩، الذيل والتكملة: ج ٥، ص ٥٩٠ ـ ٥٩٣، الخريدة: ج ٣، ص ٣٦٣ ـ ٣٧٥، المغرب: ج ٢، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨، المعجب: ص ١٨٠، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، النفح: ج ١، ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩، ٦٧٠ ـ ٦٧١.

(٢) ـ الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٨.

(٣) ـ انظر: القلائد: ص ٥٧.

يحيطونـه بالتقـدير والمحبَّة، لما كانوا يرونه من نبيل صفاته ووفرة ماله ولين جانبه، فعمرت بلادهم بجميل سيرته، واستقام أمرهم بحسن فعاله.(١)

وكان يعاونه في إدارة بلده ابنه أبو عبد الرحمن، ولاسيَّما في أواخر حياته، إذ أصيب بالفالج، وطالت علَّته أعواماً، وتوفي سنة ٤٥٥ هـ.(٢) وقد خلف أبو عبد الـرحمن أبـاه في حكم مُرْسِيَة، حيث استقلَّ في إدارتها، وسلك سبيل أبيه، واتَّبع سيرته، وزاد عليه بفضل علم وأدب، وكانت أيامه أيام عدل ورخاء(٣).

وفي سنة ٤٧١ هـ. واجه ابن طاهر خطراً جسيماً، فقد حسده بعض كبار أهل عصره، وخاصَّة ابن عمار وزير المعتمد بن عبَّاد الذي طمع في الاستيلاء على مُرْسِيَة لنفسه، فدفع المعتمد إلى محاربة ابن طاهر، حيث ذكر له أنَّ أهل مُرْسِيَة قد كاتبوه وخـاطبـوه، وأنَّهم يستـدعـونـه إليهم، فوجَّـه المعتمد إلى مُرْسِيَة وزيره ابن عمَّار، وقائد جيشه عبد الرحمن بن رشيق فاستنزلا ابن طاهر عن ملكه واعتقلاه.(٤)

ويقال أنَّ أبا بكر بن عبد العزيز صاحب بَلَنْسِيَة آنذاك، كان قد شفع لدى المعتمد بن عبَّاد في أمر ابن طاهر، فأذن بتسريحه فسار إلى بَلَنْسِيَة ملتجئاً إلى حمايته.(٥) وفي رواية أخرى أنَّه لمَّا تمرَّد ابن عمَّار على المعتمد وحاول أن يستفرد بمُرْسِيَة نجح ابن طاهر في الفرار من سجنه بمعاونة أبي بكر بن عبدالعزيز، وسار خفية إلى بَلَنْسِيَة(٦).

ولقد كان لفوز ابن طاهر بارتداد حريته وقع طيب في نفوس الشعراء والكُتَّاب

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٧.

(٢) ـ الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٨.

(٣) ـ انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٨.
الذيل والتكملة: ج ٥، ص ٥٩٠، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٠١.

(٤) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٢٣ ـ ١٢٤، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٠١، دول الطوائف: ص ١٨١.

(٥) ـ انظر: القلائد: ص ٥٧، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٦، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٢٤، الذيل والتكملة: ج ٥، ص ٥٩١.

(٦) ـ انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٢٤، أعمال الأعلام: ص ٢٠١.

في الأندلس، فكتبوا إليه رسائل وقصائد كثيرة مهنئين بخلاصه.[1] وقد كان لابن طاهر في إعلام أمراء الأندلس بخلاصه من نكبته وشكره لهم رسائل كثيرة.[2]

ومهما يكن من أمر فقد استقرَّ ابن طاهر ببَلَنْسِيَة في كنف أبي بكر بن عبد العزيز، ثم في كنف ولده أبي عمرو بن عثمان. وعندما استولى القادر بن ذي النُّون على بَلَنْسِية سنة ٤٧٨ هـ تقرَّب ابن طاهر إليه، واستمرَّ على حاله من الكرامة والدعة، إلى أن ثار القاضي أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري، وقتل القادر بن ذي النُّون، واستولى على الإمارة سنة ٤٨٥هـ،[3] ويبدو أنَّ ابن طاهر لم يكن من أنصار هذا الانقلاب، وكان يأخذ على ابن الجحاف أنَّه سفك دم القادر، وله في ذلك أبيات يقول فيها:[4]

أيها الأخيفُ[5] مهلاً فَلَقَد جئتَ عويصا
إذ قَتَلْتَ المَلْكَ يحيى وَتَقَمَّصْتَ القميصا
رُبَّ يومٍ فيه تُجْزَى لم تجِدْ عَنْهُ محيصا

ولقد مُدَّ لابن طاهر في العمر حتَّى شهد محنة المسلمين ببَلَنْسِيَة عندما احتلَّها السيِّد الكنبيطور سنة ٤٨٨ هـ.[6] وقد وقع ابن طاهر في قبضة الأسر، كما يشير إلى ذلك في رسالة بعث بها إلى بعض إخوانه، حيث يقول: «كتبتُ منتصف صفر، وقد حصلنا في قبضة الأسر..».[7]

(١) ـ انظر: القلائد: ص ٦٦، الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٧، الذيل والتكملة: ج ٥، ص ٥٩٠.

(٢) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٣ ـ ٣٨، الذيل والتكملة: ج ٥، ص ٩٥٢.

(٣) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٩٥ ـ ٩٦، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٢٥ ـ ١٢٦، البيان المغرب: ج ٣، ص ٣٠٧.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٩٦.

(٥) ـ الأخْيَفُ: من كانت إحدى عينيه زرقاء والاخرى سوداء (اللسان: حادة خيف).

(٦) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٩١، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٢٥، أعمال الأعلام: ص ٢٠٢.

(٧) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٩١، وانظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ١٢٥. أعمال الأعلام:

ثم أُفرِجَ عن ابن طاهر بعد ذلك، ورحل إلى شاطبة، واستقر بها حيناً إلى أن تطورت الحوادث وتمكن المسلمون من استعادة بلنسية سنة ٤٩٥هـ، حيث عاد إليها ابن طاهر وقد أثقلته السنون وهدمه الإعياء والمرض، فعاش بها أعواماً أخرى في عزلة واعتكاف[١] إلى أن توفي بها سنة ٥٠٧ هـ، وقد نيَّف على التسعين،[٢] ثم سير به إلى مُرْسِيَة ودفن بها. وهناك رواية أخرى تذكر أنَّه توفيِّ سنة ٥٠٨ هـ،[٣] إلاَّ أن الفتح ابن خاقان يذكر أنَّه اشترك في تشييع جثمان ابن طاهر بمُرْسِية سنة ٥٠٧ هـ،[٤] ولعل نقل جثمانه إلى مُرْسِيَة هو الذي أوحى لبعض المؤرخين بأن جعلوا وفاته سنة ٥٠٨ هـ.

لقد كان ابن طاهر من أهل العلم والأدب والمعارف.[٥] وكان ظريف التوقيع، خفيف الروح، عذب النادرة والفكاهة،[٦] جواداً كريماً، وكان للشعراء والكُتَّاب عنده سوق نافقه، وقد انتجعه عددٌ كبيرٌ منهم، كان من أبرزهم ابن عمَّار أيام خموله[٧].

رسائله:

يظهر للباحث من خلال نصوص رسائل ابن طاهر التي انتهت إلينا أنه تناول كثيراً من موضوعات أدب الرسائل، وأغراضه، بحكم إمارته لِمُرْسِيَة، واتِّصاله بعدد كبير من أعلام السياسة والأدب، ووقوفه على كثير من الأحداث السياسية والتاريخية في عصره.

ج ٢، ص ٢٠٢.

(١) ـ انظر: القلائد: ص ٥٧، الذخيرة ق ٣ م ١، ص ١٠١، الذيل والتكملة: ج ٥، ص ٥٩٢ ـ ٥٩٣.

(٢) ـ انظر: القلائد ص ٥٧، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٠٢.

(٣) ـ انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ٢٢٥، بغية الملتمس: ص ٥١.

(٤) ـ انظر: القلائد: ص ٥٧.

(٥) ـ بغية الملتمس: ص ٥٠ ـ ٥١، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٦) ـ انظر الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥ ـ ٢٦، الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٩، أعمال الأعلام: ج ٢، ص ٢٠٢.

(٧) ـ انظر: الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٩.

فقد كتب ابن طاهر في الجهاد والصراع مع الصليبيين، وفي الفتن والخصومات السياسية، وفي الوصف، وفي موضوعات الرسائل الإخوانية المختلفة، وفي موضوعات الرسائل الدِّيوانية، وفي الفكاهة والهَزْل.

وقد واكب ابن طاهر الحروب الصليبية في الأندلس في عصر الطَّوائف منذ بدايتها، وعاش معها في كل مراحلها وتطوراتها المختلفة حتَّى انتهت بدخول المرابطين الأندلس، وخروج الصليبيين من ديار الإسلام ومعاقله.

وقد تألَّمَ ابن طاهر لما جرى «على المسلمين من نكدٍ فاضح، وتلف فادحٍ» على حدِّ قوله،[١] فعبَّر عن ذلك برسائل كثيرة في وصف النكبات والمصائب والمحن التي حلَّتْ بالمسلمين، وفي الحضِّ على الجهاد والاستنفار لإنقاذ الأندلس من الخطر الداهم.

ومن الأمثلة على رسائله في هذا الموضوع رسالة له خاطب بها بعض إخوانه من الرؤساء، وقد افتتحها بموضوع رسالته مباشرة وهو الحضُّ على الجهاد والاستنفار لمواجهة العدو الذي قدم إلى بلاد الإسلام وهو على أتم استعداد للاستيلاء عليها، إذ وثق من تراجع المسلمين واستيلاء الوهن والضعف عليهم، حيث يقول إنَّه وجب استنفار المسلمين «لأمر هذا العدوِّ الذي قد سحب في الجزيرة أذياله، وفوَّق[٢] للاستيلاء على حدودها نصاله، لَمَّا تحقَّق له أنَّ العزائم عن مقارعته ناكلةٌ، والبلاد من أعدادٍ تقاومه عاطلة...».[٣]

ثم هو يمدح رغبة مخاطبه وجهوده في الدِّفاع عن الإسلام والمسلمين، ويتخذ من ذلك وسيلة لاستثارة نخوته واستنهاض همَّته، وتحريك نوازع الجهاد في نفسه، يقول: «فبانت أصالتك وتفرُّدُ جدِّك، وتجدَّدَ الحفاظ والإنقاذ لملَّةِ الإسلام بجهدك...».[٤]

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨٦.

(٢) ـ يقال فوَّق السَّهْمَ: وضعه في الوتر ليرمي به (اللسان: مادة فوق).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨٨.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨٨.

ويرى ابن طاهر أن الجهاد أصبح واجباً على كلِّ مسلم، ويستنكر بشدة الحالة التي وصل إليها المسلمون في الأندلس، حيث يقول: «وقد تعيَّن البدار على كلِّ رئيسٍ ومرؤوسٍ، ولزم الجهاد كلَّ شريف ومشروف، وقبيح على المسلم أن يحلَّ إزاراً، ويسوَّغ من الكرى غراراً، وإخوانه المسلمون بين مشدودٍ بالإسار، أو جَزَر[1] النيوب والأظفار، تالله مافي النَّصفة أن تُسكن الظلال، وأطواق حملة القرآن الأغلالُ»[2].

لقد وَجَّه ابن طاهر نقداً شديداً لأولئك الذين تقاعسوا عن نجدة إخوانهم في الدِّين، وهو يصدر في ذلك عن عاطفة دينية صادقة. ويختتم ابن طاهر رسالته بدعوة الله عزَّ وجلَّ أو يوحِّد جهود المسلمين للدِّفاع عن حوزة بلادهم ورد العدو وإذلاله: «والله تعالى يصيرُ الأيدي في الدِّفاع يَداً، ويعيدُ العدوَّ المستأسد مهتضماً مضطهداً»[3].

كذلك شهد ابن طاهر محنة المسلمين ببَلَنْسِيَةَ على يد الطاغية الكنبيطور سنة ٤٨٨ هـ، فوصف هول المصيبة التي داهمت المدينة وبكاها بكاءً حاراً.[4] وقد عرض الباحث لهذه الرسالة فيما تقدَّم.

وشهد ابن طاهر جواز المرابطين للأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين لنجدة المسلمين ودفع الخطر الداهم الذي يتهدَّدهم. كما شهد بعض المعارك التي دارت بين المسلمين وأعدائهم، والفتوحات والانتصارات التي أحرزها المسلمون على الصليبيين. وقد أثَّرَتْ هذه الأحداث في نفسية ابن طاهر، فخلَّدها برسائله، ووصف مجرياتها ومدح أبطالها، ومن ذلك رسالة خاطب بها أحد إخوانه عندما دخل يوسف ابن تاشفين الأندلس، وقد اعتذر فيها عن عدم تمكنه من الالتقاء بيوسف بن تاشفين والجهاد في سبيل الله تحت رايته.

---

(١) ـ يقال جَزَر الشيء: قَطَعَهُ (اللسان: مادة جزر).

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨٨.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٨٨.

(٤) ـ انظر رسالة ابن طاهر بهذا الخصوص في: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٩٣.

وقد افتتح ابن طاهر رسالته هذه بإظهار السرور والابتهاج بقدوم أمير المسلمين، ومدحه بما فيه من الصفات التي تتفق مع الجهاد وما يتطلبه من صفات العدل والشجاعة، فوصفه بإمام الأندلس الذي يعدل بين الرعبة، وسيفها الذي يعمل في الأعداء، وأسدها المقيم في عرينه، وسيِّدها المعظَّم المطاع المبادر لدفع الخطر عنها، حيث يقول: «كتبتُ ـ أيَّد الله أمير المسلمين ـ وقد وافى الخبر المبهج بأنَّ الجزيرة المهتضمة ـ حماها الله ـ حلَّها إمامها العادل، وسيفُها العامل، وليثها الخادر،[1] وقرمها[2] المبادر. .».[3]

ويعبرٌ ابن طاهر عما يجول في نفسه، وعمَّا يجولُ في خواطر الأندلسيين من أفكار وأحاسيس، ومايعتريهم من شوق صادق إلى لقاء أمير المسلمين، ومابهم من تطلع إلى أن يحقق الله على يديه النصر الذي يعزُّ الإسلام ويذلُّ الكفر، حيث يقول: «فكان عندي كالماء للظمآن والنجم للحيران، فقلت: خبرٌ والله جلَّى الشكَّ من اليقين، وشفى صدور قومٍ مؤمنين، فالحمد لله ربِّ العالمين، إذ يقيم الله به للحقِّ مناره، ويحمي من الإسلام ذماره، فأنف الكبر أجدع راغم، ووجه الظلم أسفع قاتم».[4]

ولقد تمنَّى ابن طاهر أن يسعد بلقاء أمير المسلمين، وأن يقضي فريضة الجهاد تحت لوائه إلاّ أنه كانت هناك عوائق كثيرة تحول دون ذلك، وتجعله يحسُّ بأسىً عميق وحزنٍ شديد، حيث يقول: «وددت أن أُسعد بلقائه، وأستظلَّ بلوائه، وأُلمَّ بجوانبه، وأسير في كتائبه، فأنال حظاً جسيماً. . . ولولا أن العدوَّ ـ قصمه الله ـ بهذه الأقطار، يجوس خلال الديار، فلا تمكن المسالك، ولاتتوردُّ المهالك، لكنت أوَّل واردٍ مع الورَّاد، ولقضيت فرض الجهاد. . . وإنَّ العين لتفيضُ من الدَّمع، لما جَدَّت بي الأيام في القطع. . .».[5]

---

(١) ـ الخادِرُ: يقال أَخْدَرَ فلانٌ في أهْلِه، أي أقام فيهم فهو خَادِرٌ (اللسان: مادة خدر).

(٢) ـ القَرْمُ: من الرجال هو السيِّد العظيم (اللسان: مادة قرم).

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨٨.

(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٨٨.

(٥) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨٩.

كذلك فقد وصف ابن طاهر الانتصار الذي أحرزه المسلمون على الصليبيين في بَلَنْسِيَةَ سنة ٤٩٥ هـ، وتغنَّى بهذا الفتح العظيم الذي أعاد المدينة إلى حوزة الإسلام.(١)

ولقد شارك ابن طاهر في التَّعبير عن الأحداث والفتن والخصومات السياسية التي اشتعلت بين أمراء الطوائف. ومن ذلك رسالة كتبها إلى إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري مهنئاً إيَّاه برجوع أحد المعاقل إليه، وانتصاره على منافسيه.

وقد افتتح ابن طاهر رسالته بمقدمة تحدَّثَ فيها عن حال الأيام وتقلُّبها، وبين أنَّها لاتدوم على حالة واحدة، ولاتدعُ أحداً من تغيراتها، يقول: «جراحات الأيام - أيَّدك الله - هدرٌ، وجنـاياتها قدر، وليس للمرء حيلة، وإنَّما هي ألطافٌ للهِ جميلة، تستنزل الأعصم من هضابه، وتأخذُ المغترَّ بأثوابه...».(٢)

ثم يتحدَّث عن أعمال علي بن مجاهد وصفاته الحميدة، حيث يقول: «... أحمدُه عَوْداً وبدءاً على النِّعمة التي ألبسك سربالها، والفتنة التي أطفأ عنك اشتعالها، والرِّياسة التي حمى فيها حماك، وردَّ خاتمها بِيُمناك، وقد تناولته للباطل يَدٌ خشناء، فاستقـالتـه يدك الحسناء... فأقرَّ الله عزَّ وجلَّ في نصابها، وأبرزها في كمالها... ووضعت الحـرب أوزارهـا، وأخفت الأسـود أخياسها وزآرها، ومن كانت مذاهبه كمذاهبك، وجوانبه للسلامة كجوانبك، أعطته القلوب أسرارها، وأعلقته المعاقل أسوارها...».(٣)

وقد اختتم ابن طاهر رسالته بتوجيه التهنئة الخالصة إلى علي بن مجاهد بافتتاحه المعقل، وبعودته سالماً، حيث يقول: «فليهنك الإياب والغنيمة، وهما المنَّةُ العظيمة، وليكن لها من نفسك مكان، ومن شُكْر للهِ بالموهبة إسرارٌ وإعلانٌ».(٤)

---

(١) - انظر رسالة ابن طاهر بهذا الخصوص في الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢) - القلائد: ص ٥٩.

(٣) - القلائد: ص ٦٠.

(٤) - المصدر السابق نفسه: ص ٦٠.

ومن رسـائـل ابن طاهـر الوصفية هذه الرسالة التي كتبها إلى أحد الرؤساء يستدعي منه أقلاماً. وقد افتتحها بالحديث عن فضل الأقلام ومكانتها وأهميتها في حياة المجتمـع «فيها يشخص الكلام، وهي حلية البيان، وترجمان اللِّسان، عليها تفرَّعُ شِعاب الفكر، وذكرها مُنَزَّلٌ في محكم الذِّكر». [1]

ثم ينتقل ابن طاهر إلى ذكر أوصاف الأقلام الحسِّية، ومايختصُّ به القلم الجيِّد من جودة التَّقليم، وجمال اللون، وطول الأنبوب، حيث يقول: «وأُريد أن ترداد لي منهـا سبعـةً.. حسنة التَّقليم، فضيَّة الأديم. ولايعتمدُ منها إلَّا صليبها، الطوال أنابيبها». [2]

ولابن طاهر رسالة يصف فيها سيلاً عظيماً داهم مدينة مُرْسِيَة، ويبينّ عظم المصيبـة التي حلّتْ بالمدينة وأهلها، فقد داهم الناس على حين غرَّة، وهم في أول النوم، فأذهل عقولهم، وشغل أفكارهم، وجعلهم بين ماضٍ قد سُلِبَتْ ملابسه، وناجٍ أُخذ ماله، وفازعٍ فقد عزيزاً عليه، وحائرٍ لايدري ماحدث له، يقول: «فإنَّه أذهـل الأذهـان، وأشغـل الجنـان، إذ أقبـل، يملأ السَّهل والجبل، والجنوب قد اضطجعت، والعُيون قد هوَّمت للنَّوم أو أهجعت، فمن ماضٍ قد استلبه، وناجٍ قد حربه، وفازعٍ قد أثكله، وحائرٍ لايدري ماحُمَّ له، والبرقُ يجُبُّ فؤاده، والودق ينسربُ مزاده، وقد استسلم للقدر، واعتصم بحبل الله عزّ وجلّ». [3]

ومن موضوعات الوصف التي تناولها ابن طاهر جوارح الطير، فقد كتب رسالة وجهها إلى أحد ملوك الطوائف يصف فيها ثلاثةً من جوارح الطَّير التي تستخدم في الطَّرْد. فقد وصف لونها وحركاتها وقوتها ومهارتها وكثرة صيدها، حيث يقول: «كأنَّها شعلُ نارٍ، صيدها أجلّ كُلِّ صَيْدٍ، وقيدها أيَّماَ قَيْدٍ، تقلب حوادقَ مِقل، وتنظرُ نظر مختبـل، [4] وتسرعُ في الانقضاض كالوحي والإيماض، وترجعُ إلى يد وثاقها، كأنَّما

(١) ـ الذخيرة: ص ٦٥.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٦٥.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٦٣.

(٤) ـ المخْتبل: من الخَتْل: وهو تخادع عن غفلة (اللسان: مادة ختل)

أشفقت من فراقها، بمخلبٍ دامٍ، وأبهة مِقدامٍ». [1]

ولقد كانت الدعابة غالبة على ابن طاهر لايدعها بحال، فهي من طبائعه، وأجود كتاباته ماشتمل على الهَزْل. [2] وقد أورد ابن بسَّام مقتطفات قصيرة من رسائله التي تجري بميدان الفكاهة، وتنخرط في سلك الدعابة والهَزْل.

ومن ذلك هذه الرِّسالة التي خاطب بها أحد الرؤساء، وقد أدارها حول كاتبه، وفيها يقدِّمُ صورة فنيةً فكاهيةً تفيضُ بالضحك والسخرية، وقد عمد فيها إلى تتبع حركات الكاتب وشكله وضحكه، حيث يقول: «مَرَّ كاتبك السريُّ، وأمامه وزراؤه، عصابةٌ كأنهًا الحصى، وقد حَفَّف من حواجبه، وأحفى من شواربه، وهو يتفكّه، من قادمتي حمامة أيكة، كمن تصنَّع وترقَّع للقافية فلا تُواتيه...». [3]

وله رسالة يسخر فيها بصديق له حضر محاصرة شَاطِبَةَ، وهي في مظهرها الجاد الوقور تتضمن قدراً من التهكم والسخرية في إطار قصصي، حيث يقول: «ورأيت مآل الأمر بوقوع الحرب، وشروع النَّقب، وأنَّه وضعت الملاطيس، [4] فقلت الآن حمي الوطيس. فأرجو أن يُصْحِبَ الظفر، ويسعد القدر، وحُدِّثتُ أنه دُعِيَتْ «نَزَالِ» فَكُنْتَ أوَّلَ نازلٍ، فقُلتُ لِمُحَدِّثي: أجُدٌّ أنت أم هازل؟! سيِّدي أشدُّ بأساً، وأعزُّ نفساً، من أن يُرَى يوم جِلادٍ، إلاَّ على ظهر جوادٍ، فإن لبسَ زعفاً، هزم ألفاً، وإن تقلَّدَ صمصامةً، [6] لم يُبقِ هامَةً، ولكن أذكره بهذه الشَّهامةِ، قول أبي دلامة: [7]

---

(١) ـ الخريدة: ج ٣، ص ٣٦٩.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٧٢.

(٤) ـ الملاطيسُ: المناقير من حديد (اللسان: مادة لطس).

(٥) ـ الزَّغْفَ: الدِّرْع المُحْكَمة (اللسان: مادة زغف).

(٦) ـ الصَّمْصَامة: السيف الصارم الذي لاينثني (اللسان: مادة صمصم).

(٧) ـ البيت من شعر الطرماح، ديوانه ص ٦٣، وقد اختار ابن طاهر نسبته إلى أبي دلامة تهكمًا، وتشبيهاً لمن يتحدّث عنه في الجبن بأبي دلامة.

ولـو أنَّ بُرْغـوثـاً عَلَىَ ظَهْـرِ قَمْـلَةٍ يَكُـرُّ على صَفَّـيْ تميمٍ لَوَلَّـتِ»[1]

فالرسالة تنهج نهجاً قصصياً، ويعتمد فيها الكاتب على إيراد حادثة يسخر من خلالها بالشجاعة المزعومة للمخاطب، ويسلك في ذلك مسلك الوقار والجدِّ، فهو إن لبس الدرع المحكمة مثلاً قتل ألف رجلٍ، وإن تقلَّد سيفه لم يبقِ هامةَ أحدٍ.

ومن الرسائل الدِّيوانية التي كتبها ابن طاهر، وتناول فيها أمور التعيين، قوله في تولية حاكم على إحدى جهاته. وقد افتتحها بأمر التكليف، وبتحديد الوظيفة المنوطة بمخاطبه، يقول: «قَلَّدْتُ فلاناً ـ وفقه الله ـ النَّظر في أحكام فلانةٍ...».[2] ثم يبيِّن أنَّه اختاره لمعرفته به وثقته بدينه، وخبرته في الإدارة، حيث يقول: «وتخيرتُه لها بَعْدَ ما خبرتُهُ، واستخلفته، وقد عرفته واثقاً بدينه، راجياً لتحصينه، لأنَّه إن احتاط سَلِمَ، وإنْ أضاع أثِمَ...».[3]

ثم هو يحدد له بإيجاز الأحكام والقواعد العامة التي يسير في ضوئها القضاء في مجلس الحكم، ويسدي له عدداً من النَّصائح، ويحدِّدُ له عدداً من الأمور التي يجب أن يلتزم بها في مجلس القضاء، يقول: «فليقم الحقَّ على أركانه، وليضع العدل في ميزانه، وَلْيُسَاوِ بين خصومه، وليأخُذ من الظَّالم لمظلومه، وليقف في الحُكم عند اشتباهه، ولينفذه عند اتجاهه، ولايقبل غير المرضيِّ في شهادته... وليعلم أنّ الله مُطَّلعٌ على خَفياته، وسائله يوم ملاقاته».[4]

ولقد تناول ابن طاهر في رسائله عدداً من الموضوعات الإخوانية كالمديح والتودد والثَّناء والشكر، والرِّثاء والتَّعازي، والشفاعات والوصايا. فلقد كتب ابن طاهر رسائل كثيرة إلى جملة من الأمراء والوزراء الذين وقفوا معه في محنته، حيث كان يبعث إليهم برسائله شاكراً لهم مساعيهم، ومعترفاً بفضلهم، ومادحاً إيَّاهم بالنبل والوفاء

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٦٩.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ج ٣، ص ٣٧٠.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٣٧٠.

(٤) ـ الخريدة: ص ٣٧٠.

والتضحية والإخلاص. ومن الأمثلة على ذلك رسالة كتبها إلى أبي بكر بن عبد العزيز بعد وصوله إلى بَلَنْسِيَةَ، ومكوثه عنده فترة. وقد افتتحها بمدحه والثَّناء عليه وذكر صفاته الحميدة ومآثره الجميلة، حيث يقول: «من ذا يُضاهيك، وإلى النَّجم مراميك، فشأوك لايدرك، وشعبك لايسلك». [1]

ويعترف ابن طاهر بفضله عليه، ويقسم «لأعقدنَّ على علاك من الثناء إكليلاً، يذرُ اللحظ من سناه كليلاً، ولأطوقنه شرق البلاد وغربها، ولأحملنه عُجْمَ الرِّجالِ وعربها...». [2]

وكيف لايفعل ابن طاهر ذلك وقد نصره ووقف إلى جانبه وصرف عنه الظلم وألبسه المجد وأولاه البر، يقول: «وكيف لا وقد نصرتني نصراً مؤزَّراً، وصرفْتَ عَنيِّ الضيم عقيراً معفراً، وألبستني البأو بُرْداً مُسَهَّماً، وأوْليتني فضلاً متمماً». [3]

ومن الأمثلة على رسائله في موضوع المدح والثَّناء والشكر أيضاً، تلك الرسالة التي كتبها إلى ذي الرِّياستين حُسَام بن رَزِين جواباً على رسالة دعاه فيها إلى المثول بين يديه. وقد افتتح ابن طاهر هذه الرسالة بالثناء على مخاطبه وتعداد محاسنه، حيث يقول: «كُلُّ المعالي - أدامَ الله تأييدَ الحاجب ذي الرياستين - إليه ابتسامها، وفي يديه انتظامها، وعليه إصفاقها، ولَديه إشراقها....». [4]

ثم يشير إلى كتابه الذي بعثه إليه يخطبُ فيه ودادهُ ويستميل فؤاده، ويعبِّرُ ابن طاهر عن مشاعر الامتنان والتَّقدير والعرفان بالجميل، حيث يقول: «وإنّ كتابه الرَّفيع وافاني فكان كالزَّهر الجنيِّ، والبُشْرى أتتْ بَعْدَ النَّعيِّ، سرى إلى نفسي فأحياها، وسَلَّى عَنِّي خطوب الكروبِ... فلتأتينّه مِنْي بالثَّناء الرَّكائب، تحمله أعجازها والغوارب..» [5]

---

(١) - الذيل والتكمله: ج ٥، ص ٥٩٢.

(٢) - المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٥٩٢.

(٣) - المصدر السابق نفسه: ج ٥، ص ٥٩٢.

(٤) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٤٨.

(٥) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٨.

ويختتم ابن طاهر رسالته بالاعتذار عن عدم تمكُّنه من تلبية دعوة ابن رَزين في المثول بين يديه، يقول: «وفهمتُ ماأومى إليه من التَّنقُّل إلى ذراه، والورود على نداه، وأنَّى لي بذلك، وقد قيَّدتني الهمومُ، فما أستطيع نهضاً ولاأتقدَّمُ. . .». [1]

وكان الرِّثاء والتَّعازي من الأغراض التي تطرَّق إليها ابن طاهر في رسائله. ومن الأمثلة على ذلك رسالة افتتحها بالحكمة، ووصف حال الدُّنيا وحقيقتها، وأن مآل الإنسان فيها إلى الموت، حيث يقول: «الدُّنيا ـ أعزَّك الله ـ ليست بدار قرارٍ، والمرء فيها على شفا جُرْفٍ هارٍ، وإنَّما هي جسر على الطَّريق، وعدوٌّ في ثياب صَديقٍ». [2] وبعد هذه المقدمة يشير ابن طاهر إلى المتوفىًّ، ويدعو له حيث يقول: « . . . بلغتني وفاة فلانٍ ـ رحمه الله ونضر وجهه وبَرَّدَ ثَراه. . .». [3]

ويحاول ابن طاهر أن يخفف من لوعة مخاطبه، إذ أنَّه يعلم أن رجلاً في مثل صلابته وقوته لاتؤثِّرُ فيه المنايا والمصائب، يقول: «علمتُ أنَّك الجبل الذي لايرتقي الجزع ذراه، وإنْ كان سهمُ المنايا أصاب حميماً، واستلب كريماً، فقد أبقى الله بك الصَّدع مرؤوباً، والجزع مغلوباً. . .». [4]

ومن أشهر رسائل ابن طاهر في التَّعازي والرِّثاء، تلك الرسالة التي خاطب بها حُسَام الدولة يحيى بن رَزِين[5] يعزِّيه بوفاة والده، وقد جمع فيها بين التَّعزية والمدح. فقد افتتح ابن طاهر رسالته بالحديث عن حالته ووصف مشاعره، بعد أن فجع بوفاة والد صديقه ابن رَزِين، إذ اشتعلت نار الأسى واللوعة بين ضلوعه، يقول: «كتبتُ لهفان، وقد أسمع الناعي، فأضرم نار الأسى بين أضلاعي، للرزيَّة العظمى، التي رمى سهمها فأصمى، بوفاة. . .». [6] ثم يتحدَّث عن صفات ابن رَزِين ومآثره،

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ٧١ ص ٤٩.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٨٤.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٨٥.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨٥.

(٥) ـ تقدمت ترجمته.

(٦) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٧٥.

فيذكر أنَّه حاز جميع المحاسن والفضائل، وقلَّ نظراؤه، ويصوِّرُ عظم المصيبة، فقد مات بموته كثير من البشر، يقول: «بوفاة من جُمعت فيه المحاسن والخلالُ، وزال كما تزول الجبال، وقلَّ له المشابه والنَّظير، ومات بموته البشر الكثير، الحاجب ذي الرياستين أبيك، ربِّ الشَّرف الصميم، والحسب العِدِّ الكريم». [1]

ثم يدعو للمتوفى بأن يوسع الله رحمته، وأن يجعل الجنة مأواه، وأن يسقي قبره بوافر المطر، وأن ينفعه بحسن السِّيرة وجلالة القدر، وأن يجزيه جزاءً حسناً، يقول: «أوسعه الله رحماه، وجعل الجنَّة مأواه... سقى الله جدثه سبل القطر، ونفعه بحسن المذهب وجلالة القدر، وجزاه جزاء المحسنين، وأنزله دار المقامة في عليين...». [2]

لقد اتخَّذ ابن طاهر من هذا الدعاء وسيلة للانتقال إلى مدح مخاطبه وتهنئته بتقلُّد الرئاسة مكان والده، والدعوة له بطول العمر، ودوام العز وتحقيق الأماني، يقول: «وهنَّأك الله ميراثه من الرِّياسة، ومكانه العليَّ من النَّفاسة، ومنحك العمر الطويل، وأمتعك العزَّ الظليل، وساعفك بكلِّ ماتهواه الزمانُ...». [3]

الخصائص الفنية لرسائله:

لقد شهد الذين ترجموا لابن طاهر بتقدُّمِهِ في البلاغة وتفرُّده بالبيان، فقد ذكر الفتح بن خافان أنَّه «به بُدِىء البيان وخُتِمَ، ولديه ثَبَتَ الإحسان وارتسم». [4] وذكر ابن الأبار أنَّه كان «يتقدَّمُ رؤساء عصره في البلاغة والبيان». [5] وقال عنه صاحب الذَّيل والتَّكملة «أنَّه كان أحد المتقدِّمين في البلاغة بارع الكتابة فصيحاً خطيباً». [6] ولكن الضَّبيّ خالفهم الرأي بقوله «واشتهر بالنَّظم أكثر منه بالنَّثر». [7]

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ص ٧٦.

(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٧٦.

(٤) ـ القلائد: ص ٥٧.

(٥) ـ الحلة السيراء: ج ٢، ص ١١٨.

(٦) ـ الذيل والتكملة: ج ٥، ص ٥٩٠.

(٧) ـ بغية الملتمس: ص ٥١.

وكـان ابن طاهر كما يذكر ابن بسَّام يماثل الصاحب بن عبَّاد في الكتابة عن نفسه، وله رسائل تشهد بفضله وتدلُّ على نبله. وقد جمع ابن بسَّام رسائله ودوَّنها في كتاب سَمَّاه «سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر»،[1] إلّا أن هذا الكتاب من ضمن مافُقِدَ من ذخائر العرب بالأندلس.

ويلاحظ الباحث أنَّ ابن طاهر كان يهتم بالجمل الدعائية والمعترضة اهتماماً كبيراً، وكان يختار من صيغها مايلائم مضمون الخطاب، ويناسب العاطفة والمشاعر التي يحسُّ بها نحو المخاطب الذي يكتب إليه أو الموضوع الذي يتحدَّثُ عنه.

ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة كتبها في موضوع التَّعزية والرِّثاء، حيث يقول: «الدُّنيا ـ صرف الله عنك صرُوفها ـ على الفجائع مبنيَّةٌ... وكتبتُ والدّمع محدور، وقد حُمَّ قضاء ونفذ مقدور، بوفاة الولد الطّيب المبارك... كان ـ نضرَّ الله وجهه ولقاه رحمته ومغفرته، ورفع في دار المقام منزلته ـ فناهيك بأسفي عليه وتوجُّعي».[2]

ومن ذلك أيضاً ماورد في رسالة كتبها في موضوع الوصيَّة، حيث يقول: «أكرم يد ـ أعزَّك الله ـ يطوِّقها المرء جيدَ مجده.. وموصله ـ وصل الله حرمتك بالسَّلامة من نكد الأيام ـ ابن المستعين بالله ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ توسَّل بي إلى مكارمك في ترميق حالته...».[3]

وحرص ابن طاهر على تضمين رسائله الشعر، سواء أكانت هذه الأشعار من قريضه، أو من نظم غيره من الشعراء المشارقة، ومن الأمثلة على رسائله التي ضمَّنها أشعار غيره، قوله في رسالة كتبها في الدعابة والهَزْل: «وكأني أنظرُ إليك، وقد استحرَّ الجلادُ، وأدركك الإعجاب، وهان عليك الكِتَابُ، وأنت تقول، من فرط ماتصول:[4]

(١) ـ انظر: الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٢٥.
(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ص١، ص ٧٨.
(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٦٢.
(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٧٥، والبيتان للمتنبي، ديوانه: ج ٤، ص ٢٩٢.

إني انصرفتُ وأقلامي قَوائلُ لي المجدُ للسَّيف ليس المجدُ للقلمِ
اكْتُبْ بِنَا أبَداً قَبْلَ الكِتَاب بِهِ فإنَّما نَحْنُ للأسيافِ كالخدمِ

ومن الأمثلة على رسائله التي افتتحها بأبيات من شعره، قوله في رسالة يعاتب فيها بعض أقاربه، حيث يقول:

وإذا الفتى صَحِبَ التباعدَ واكتسى كِبْراً عليَّ فلستُ من أصحابه

نعم، أعاذني الله من موجدتك، ولاحرمني جميلَ رفقك وتُؤدتِكَ».[1]

ومن الخصائص الفنية لأُسلوب ابن طاهر أنَّه كان يلجأ إلى كثير من معقود الشعراء فيحلّه، ويدخله في مضمون عباراته ببراعة وإتقان، ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة كتبها إلى أحد الرؤساء يشكر له سعيه وعنايته به، حيث يقول: «ومثلك في علوِّ النّصاب، وشرف الانتساب، أعار بياني عنده بسطاً، ونصَّ عليه من اختلالي فرطاً، ودعاه إلى مايجده عند الله مُحضراً يوم القيامة، ومايبقى إلاّ الأحاديثُ والذِّكرُ».[2]

ففي هذا القول ألفاظ محلولة من قول حاتم الطائي:[3]

أماوِيَّ إنَّ المالَ غادٍ ورائِحٌ وَيَبْقَى مِنْ المال الأحاديثُ والذِّكر

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً قوله في رسالة يمدح فيها أبا بكر بن عبد العزيز ويشكر له وقوفه إلى جانبه ومساعدته له: «ولله درُّ الوزير الأجلِّ أبي بكر، جوزي بوفائه، وفسح الله له في ظلِّه وبقائه، فإنّه ماكتحل في كربتي بنومٍ، ولاتمتّع بمسرَّة في يومٍ، ولقد كانت قذى عينيه، حتّى حلَّني من وثاقها بيديه».[4]

وقد وردت صيغتهما مخالفة لما ورد هنا: (حتّى رَجَعْتُ وأقلامي قوائلُ لي..) و (اكْتُبْ نبا أبداً بَعْدَ الكتابِ به..).

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٥٣.

(٢) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٣) ـ ديوان حاتم الطائي: ص ٢١٠.

(٤) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦.

ففي هذا القول لفظٌ محلول من معقود قول إبراهيم الصُّولي: [1]

سأشــكــرُ عمــراً إن تراخــتْ منيتي أيادي لم تُمْنَنْ وإن هي جلَّت
رَأى خَلَّتي مِن حَيْثُ يخفــى مَكَــانهُا فَكــانَــتْ قَذَى عَيْنَــيْهِ حَتَّــى تجَلَّت

ومن خصـائص أسلوب ابن طاهـر الاقتبـاس من القرآن الكريم والحديث الشريف، فكان يورد بعض الآيات بصيغتها ولفظها، ومن ذلك ماأورده في رسالة يتمنَّى فيهـا أن يسعد بلقاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ويقاتل تحت لوائه، يقول: «وددتُ أن أُسعد بلقائه، وأستظلَّ بلوائه، وألِمَّ بجوانبه وأسير في كتائبه، فأنالَ حظاً جسيماً (ياليتني كُنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً[2])». [3]

وكذلك كان يورد بعض الأحاديث النبوية بصيغتها ولفظها، ومن ذلك ماأورده في رسالة يعاتب فيها بعض أقاربه، حيث يقول: «وأردفت بقوله عليه السلام، في من وصل أو قطع الرَّحم، وتركت كلامه على تفرُّده (المُسْلِمُ مَن سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ)». [4]

وكان ابن طاهر يورد بعض الآيات بمعناها دون لفظها أو يشير إليها، ومن ذلك ماورد في قوله: «الأقلام . . . ذكرها مُنَزَّلٌ في محكم الذِّكر»، [5] وفي هذا القول إشـارة إلى قوله تعالى: (ن وَالْقَلَم وَمَايَسْطُرُونَ)، [6] وقوله تعالى: (اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالمْ يَعْلَم). [7]

ومن الخصـائص الفنية لأسلوب ابن طاهر ذكر الأخبار والإشارات التاريخية

(1) - ديوان ابراهيم الصولي: ص ١٣٠.
(2) - سورة النساء: الآية ٧٣.
(3) - الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨٩.
(4) - المصدر السابق نفسه: ق ٣ م١، ص ٥٤.
(5) - القلائد: ص ٦٥.
(6) - سورة القلم: الآية ١.
(7) - سورة العلق: الآيات ٣ - ٥.

ومشاهير الرِّجال. ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة خاطب بها أحد إخوانه، حيث يقول: «وضربت المثل في صحيفة قُرَيشٍ على بني هاشمٍ الأخيار».[١]

ومن الأمثلة على ذلك ماورد في رسالة كتبها عناية بأحد الكُتَّاب، حيث يقول: «وتصفَّحت ماقُرِنَ بتلك الأسفار، من مُنتقى الأشعار، يتخلَّلها من الكلم السلسال، والمثل المنثال، ما... يفضح عمرو[٢] البيان في نزعاته، فشهِدتُ لقد أُوتي البسطة...».[٣]

ومن الخصائص الفنية لأسلوب ابن طاهر اللجوء إلى المحسِّنات البديعيَّة والمعنويَّة المختلفة، وخاصَّة السَّجْع إذ يجد الباحث أنَّ جميع رسائل ابن طاهر مبنيَّة على السَّجْع الجميل القائم على تنويع الفواصل، وقصر الفقرات. ومن الأمثلة على ذلك قوله في رسالة يعزِّي فيها بعض إخوانه: «أيُّ ذهن ـ أيَّدك الله ـ ينطاع، أم أيُّ كلام يستطاع، واللِّسان معقول، والفؤاد منقول، والدَّمع هامر، والشجو دائر، لما طرقت به الأيام، وقرع به الحِمام».[٤]

وكما يظهر فإنّ الكاتب لايلتزم حرفاً واحداً، وإنَّما ينوِّع حرف السَّجْعَة.

ومن المحسِّنات التي استخدمها ابن طاهر، الجناس.، ومن الأمثلة على ذلك قوله: «وأمَّا الفقيهُ أبو مروان فرائح في قميصه المدلوك... يحذر من الفرقة، ويقصُّ على الفرقة».[٥]

ومن ذلك أيضاً قوله مخاطباً أحد إخوانه: «وبلغ بالنَّفس التَّراقي، تأسُّفاً لبُعدك، ومحالفةً للهموم من بَعْدِكَ».[٦]

---

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٥٤.
(٢) ـ يريد عمرو بن بحر الجاحظ.
(٣) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٥٩.
(٤) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٨٠.
(٥) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٦٩.
(٦) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٥٢.

فقد جانس الكاتب في المثال الأول بين لفظي: فُرْقَة و فِرْقَة، وجانس في المثال الثاني بين لفظي بُعْدك وبَعْدك.

أمَّـا الطِّباق فيظهر في قوله: «ولله الشَّكوى، فهو أضحك وأبْكى». [1] فقد طابق بين لفظي أضْحَك وأبْكى. ومن ذلك أيضاً قوله: «وقد طَوَّقْتَني بالأديب... طوقَ الحمامة، فتنفَّست أنفاس العراق، واجتليت محاسن كالجمع بعد الفراق، ولقد لطف فيما ألَّفَ... وصرَّف المُتـأمِّل فيه بين جدٍّ وهَزْلٍ». [2] فقد طابق بين لفظي الجَمْع والفراق، وبين لفظي جدٍّ وهَزْل.

أمَّا المقابلة فتظهر في قوله من رسالة يعزِّي فيها بوفاة المقتدر ابن هود، ويذكر مناقبه: «يعزُّ الدين بمكانه، ويذلُّ الشِّركُ لِسُلطانه». [3]

فقد قابل بين جملتي: يعزُّ الدِّين بمكانه، ويذلُّ الشرّْكُ لِسُلطانه.

(١) ـ الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٨١.

(٢) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٥٩.

(٣) ـ المصدر السابق نفسه: ق ٣ م ١، ص ٨٣.

الخاتمة

يعتبر أدب الرسائل لوناً من ألوان النثر الفني الجميل، وضرباً من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالاً. ولايكاد يختلف مفهوم أدب الرسائل عند الأندلسيين عن مفهومه عند المشارقة، فالأدب في عرفهم جميعاً ينقسم إلى أصلين أساسيين: منظوم ومنثور، والمنثور فيه الخطب والرسائل، وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلان الشعر.

وقد كان أدب الرسائل من أسبق ألوان النثر الفني إلى الظهور في الأندلس، فأهل الجزيرة كانوا متمكنين من الخطابة والشعر والكتابة منذ أول قدومهم إلى تلك البلاد. وقد تطور أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري تطوراً كبيراً، من حيث الاتجاهات والموضوعات، واستطاع الكُتَّاب أن يجولوا برسائلهم في كل ميدان، وأن يعالجوا شتى الموضوعات والأغراض السياسية والاجتماعية، والجهاد والصِّراع مع الصليبيين، والمفاضلات والمفاخرات، والنقد الأدبي، والفكاهة، والديوانيات والإخوانيات وغيرها.

واقتحم الكُتَّاب على الشِّعر ميادينه وأغراضه، فكانت لهم جوانب ابتكار سبقوا المشارقة إليها، ووسعوا بها ميادين أدب الرسائل وأغراضه، فظهرت عندهم رسائل الشوق والوجد الديني لزيارة قبر الرسول الكريم ﷺ وتأدية فريضة الحج، ورسائل المفاضلات والمفاخرات بين الأزهار والورود، والمفاخرة بين السيف والقلم، ورسائل الزَّرْزُورِيَّات، ووصف صيد البحر.

وقد واكب أدب الرسائل جميع مظاهر الحياة الأندلسية، وكان انعكاساً لها

بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والفكرية والطبيعية، مما جعل له قيمة إنسانية كبيرة حفظت له حياته، وضمنت بقاءه في المصادر التاريخية والأدبية.

وكما تطوَّر أدب الرسائل من حيث الموضوعات والأغراض، فقد تطوَّر من الناحية الفنية أيضاً، وعلى الرَّغم من تأثر الكُتَّاب الأندلسيين بأساليب المشارقة وطرائقهم الفنية المختلفة، فقد كانت هناك خصائص تميزت بها رسائلهم عن الرسائل المشرقية. فقد اتَّخذت رسائلهم في بنائها شكلاً فنياً جديداً يختلف في بعض جزيئاته عما ألفناه في الرسائل المشرقية التي تبدأ في الغالب بالبسملة، والتحميد والصلاة على الرسول الكريم. فصارت رسائلهم على اختلاف موضوعاتها وأغراضها تخلو في الغالب من الاستفتاح المعروف، وتبدأ بالدعاء للمرسل إليه، أو بالمنظوم، أو بالدخول في الموضوع مباشرة، أو بتمهيد يتفاوت بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار، تبعاً لتنوّع مقامات المرسل إليهم، واستخدام الألقاب التي تتناسب ومن يكتب إليه أميراً أو وزيراً أو صديقاً. وأكثر الكُتَّاب من استعمال الجمل الدعائية والمعترضة في رسائلهم بصورة عامة، وكانوا يضمِّنون رسائلهم أبياتاً وقصائد حسب مايقتضيه حال الخطاب، ومايلائم سياق الرسالة وظرفها الخاص، وقد أبدعوا في ذلك حتى لو نثر شعرهم لكان قريباً من نثرهم، ولو نظم نثرهم لكان شبيهاً من شعرهم، وتفاوتت اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته في احتوائها لظاهرة التنويع بين الشعر والنثر.

وحرصَ الكُتَّاب على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما حرصوا على تضمين رسائلهم الأخبار والأمثال والحكم، إلى غير ذلك من مصطلحات الفقه والنحو.

ولم تكن نصوص أدب الرسائل على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب، فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة والظرف الذي كتبت فيه وعاطفة المرسل، وعلى الرغم من ذلك فإن سمة الإطناب تظهر في معظم موضوعات الرسائل وأغراضها في الأندلس في هذا القرن.

أما من حيث الألفاظ وزخرفتها فقد كان الطابع العام والسمة الغالبة على ألفاظ أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد والغرابة والوحشية، وغيرها من الصفات التي تخل بفصاحة الكلمة مما تعارف عليه أهل البلاغة، من تنافر الحروف ووحشية الألفاظ، ومخالفة القياس. كما استعملوا من ألفاظ المشارقة وتراكيبهم في التعبير عن موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ما يناسب حياتهم وحاجاتهم النفسية والعاطفية والفكرية والسياسية وبيئتهم الطبيعية فاختفت الألفاظ الوحشية والغريبة التي كان يستخدمها الكُتَّاب المشارقة، لأنها لم تعد تناسب المجتمع الأندلسي وذوقه الأدبي.

وأخذ الكُتَّاب الأندلسيون بالكتابة المتأنقة، وأكثروا من استعمال المحسنات البديعية في رسائلهم على نحو ماكان يفعل الكُتَّاب المشارقة، وقد كان السجع والازدواج والجناس من أكثر هذه المحسِّنات البديعية شيوعاً، وقد أجادوا في استعمالها، وحذقوا مواطن الروعة والجمال فيها، إلاّ أنهم مالوا إلى الاعتدال في استخدامها، فلم يسرفوا، ولم يفتنوا في اصطيادها، وقد جروا في هذا المجال مع مايتفق وطبعهم ومقدرتهم الثقافية، وما لهم من كفاءة في تحسين المعنى أو ابتكاره أو توليده في أثواب جديدة.

أما من حيث التعبير عن المعاني، فلم يقتصر اهتمام الكُتَّاب الأندلسيين على اللفظة المفردة، بل تعدّى ذلك إلى الاهتمام بالجمل والعبارات، فقد عملوا على زيادة الانسجام بين اللفظة المفردة والجملة، بحيث ظهرت أشكال التعبير منسجمة في ألفاظها وعباراتها مع معانيها بوضوح وتأثير. وقد اعتمدوا على عدد من الأدوات لإخراج عباراتهم بأسلوب جميل مؤثر، ومن هذه الأدوات الخيال والصور البيانية إضافة إلى عدد من المحسِّنات البديعية كان من أبرزها الطباق والمقابلة.

ولقد استطاع الكُتَّاب الأندلسيون أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم وأن يفتنوا فيها، حتى لتبدوا بعض رسائلهم وكأنها شعر منثور، لاينقصه غير الوزن والقافية ليكون شعراً.

الفهارس العامة

أولاً: فهرس المصادر والمراجع.
ثانياً: فهرس الأعلام.
ثالثاً: فهرس القبائل والطوائف والجماعات والأمم.
رابعاً: فهرس الأماكن والبلدان.
خامساً: فهرس الموضوعات.

فهرس المصادر والمراجع والمقالات

أولاً: المصادر:

أ ـ المخطوط منها:

١ ـ ترسل الفقيه الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال (ت ٤٥٠ هـ) الإسكوريال (مخطوط رقم ٥١٩) ـ نسخة مصورة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.

٢ ـ رسائل إخوانية أندلسية (مخطوطة بمكتبة طلعت بدار الكتب المصرية / رقم ٤٦٥٠ أدب).

٣ ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية / الإسكوريال (مخطوط رقم ٤٨٨) ـ نسخة مصورة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية.

٤ ـ رسائل سياسية وإخوانية أندلسية / الإسكوريال (مخطوط رقم ٥٣٨) ـ نسخة مصورة محفوظة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة إلأردنية.

٥ ـ مسالك الأبصار /ابن فضل الله العمري: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩ هـ):

ـج ٨، ج١١ / الإسكوريال (نسخة مصورة محفوظة في مكتبة الجامعة الأردنية.

ـج ١٠ / دارة الكتب المصرية (مخطوط رقم ٥٥٩ معارف عامة).

ب ـ المطبوع منها:

٦ ـ القرآن الكريم.

٧ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة / لسان الدين بن الخطيب: أبو عبد الله محمد ابن سعيد (ت ٧٧٦ هـ)، تحقيق محمد بن عبد الله عنان، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣ / ١٩٧٥.

٨ ـ إحكام صنعة الكلام / الكلاعي: أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تحقيق محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.

٩ ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء / القفطي: أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (٥٦٨ ـ ٦٤٦ هـ)، عني بتصحيحه محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة بمصر، (د. ت).

١٠ ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها / مؤلف مجهول: مكتبة المثنى، بغداد (صورة عن طبعة دبرنير، مجريط ١٨٦٧).

١١ ـ أخبار وتراجم أندلسية / السلفي: أبو طاهر صدر الدين أحمد بن محمد، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

١٢ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض / المقَّري شهاب الدين أحمد بن محمد المقَّري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ):

ـ ج١ ـ ج٣، أعيد طبعهما تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة، (د. ت).

ـ ج ٤ ـ ج٥، تحقيق سعيد أحمد إعراب وعبد السلام الهراس، طبعا تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الإمارات العربية المتحدة (د.ت).

١٣ ـ الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى / الناصري: أبو العباس أحمد ابن خالد بن حماد الناصري الدرعي السلاوي (ت ١٣١٥ هـ): تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري (ولدا المؤلف) مطبعة دار الكتب، الدار البيضاء، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦.

١٤ ـ أسماء خير العرب وأنسابها وذكر فرسانها / الأسود الغندجاني: أبو محمد الأعرابي (كان حياً سنة ٤٣٠ هـ)، حققه وقدم له محمد علي سلطاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١ .

١٥ ـ أشعار الشعراء الستة الجاهليين / الأعلم الشنتمري: يوسف بن سليمان ابن عيسى (ت ٤٧٦ هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩ .

١٦ ـ إعتاب الكُتَّاب / ابن الأبَّار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨ هـ)، تحقيق صالح الأشتر، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦١ .

١٧ ـ الإمامة والسياسة / ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧ .

١٨ ـ أنباه الرواة على أنباء النحاة / القفطي: أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (٥٦٨ ـ ٦٤٦ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ .

١٩ ـ الانتصار ممن عدل عن الاستبصار / ابن السِّيد البطليوسي: أبو محمد عبد الله بن محمد (ت ٥٢١ هـ)، تحقيق حامد عبد المجيد، الإدارة العامة للثقافة، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٥٥ .

٢٠ ـ أنساب الأشراف / البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود، (ت ٢٧٩ هـ)، مكتبة المثنى، بغداد، (د. ت).

٢١ ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس / ابن أبي زرع: علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي (ت ٧٢٦ هـ)، دار المنصور، الرباط، (د.ت).

٢٢ ـ البخلاء / الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)، ضبطه وشرحه وصححه أحمد العواملي وعلي أمين، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧.

٢٣ ـ البديع في وصف الربيع / أبو الوليد الحميري: إسماعيل بن عامر (ت ٤٤٠ هـ)، اعتنى بنشره وتصحيحه هنري بيريس، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤٠.

٢٤ ـ البرهان في وجوه البيان / أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب: تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحارثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٧.

٢٥ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس / الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩ هـ): دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

٢٦ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة / السيوطي: جلال الدين بن عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ): تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٤.

٢٧ ـ بهجة المجالس وأنس المجالس / ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣ هـ): تحقيق محمد الخولي، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

٢٨ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب / ابن عذارى: أبو عبد الله أحمد بن محمد المراكشي (ت ٦٩٥ هـ).

ـ ج ١، نشر وتحقيق ج. س. كولان و أ. ليفي بروفنسال، مطبوعات أ. ج. بريل، ليدن، هولندا، ١٩٤٨.

ـ ج ٢، تحقيق ج. س. كولان وا. ليفي بروفنسال، بريل، ليدن، هولندا، ١٩٤٨ ـ ١٩٥١.
ج ٣، تحقيق ا. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، (د. ت)،
ج ٤، كتب التعليقات احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

٢٩ ـ البيان والتبيين / الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠.

٣٠ ـ تاريخ ابن خلدون / ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ)، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦١ ـ ١٩٦٧.

٣١ ـ تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام / لسان الدين ابن الخطيب: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (ت ٧٧٦ هـ)، تحقيق وتعليق ا. ليفي بروفنسال، ط ٢، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

٣٢ ـ تاريخ افتتاح الأندلس / ابن القوطية: أبو بكر محمد بن عمر الأندلسي (ت ٣٦٧ هـ)، حققه وشرحه وعلق عليه عبد الإله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، ١٩٥٧.

٣٣ ـ تاريخ الأندلس / ابن الكردبوس عبد الملك بن قاسم بن الكردبوس التوزري (توفي بعد ٥٧٥ هـ)، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١.

٣٤ ـ تاريخ الحكماء وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء / للقفطي أبي الحسن جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)، مكتبة المثنى ببغداد، ومؤسسة الخانجي في القاهرة (د. ت).

٣٥ ـ تاريخ الرسل والملوك / الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠ .

٣٦ ـ تاريخ علماء الأندلس / ابن الفرضي : أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأسدي (ت ٤٠٣ هـ) : الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة، ١٩٦٦ .

٣٧ ـ تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط : القسم الثالث من كتب أعمال الأعلام / لسان الدين بن الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد (ت ٧٧٦ هـ) : تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤ .

٣٨ ـ التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن / الزملكاني : عبد الواحد ابن عبد الكريم بن خلف الأنصاري (ت ٦٥١ هـ)، تحقيق أحمد مطلوب، مكتبة العاني، بغداد، ١٩٦٤ .

٣٩ ـ تذكرة الحفاظ / الذهبي : أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨ هـ) مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٣٣ هـ .

٤٠ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك / القاضي عياض : أبو الفضلِ عياض بن موسى (ت ٥٤٤ هـ) : تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧ .

٤١ ـ التقريب لحد المنطق والمدخل إليه / ابن حزم الأندلسي : أبو محمد علي ابن سعيد (ت ٤٥٦ هـ)، تحقيق احسان عباس، مكتبة الحياة (د. ت) .

٤٢ ـ التكملة لكتاب الصلة / ابن الأبَّار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨ هـ)، عني بنشره وصححه ووقف على طبعه عزت العطار الحسيني، (د. ن) القاهرة ١٩٥٦ .

٤٣ ـ تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون / صلاح الدين الصفدي خليل ابن أيبك بن عبد الله (ت ٧٦٤ هـ): تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٩.

٤٤ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب / الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ هـ): مطبعة الظاهر، ١٩٠٨.

٤٥ ـ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس / المكناسي أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية (ت ١٠٢٥ هـ)، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣.

٤٦ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس / الحميدي: أبو عبدالله محمد بن فتوح (ت ٤٨٨ هـ) الدار المصرية للتأليف والترجمة: القاهرة، ١٩٦٦.

٤٧ ـ جمهرة أنساب العرب / ابن حزم الأندلسي أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ)، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ١٩٧١.

٤٨ ـ جيش التوشيح: لسان الدين الخطيب: أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن سعيد (ت ٧٧٦ هـ)، تحقيق وتقديم هلال ناجي، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٧.

٤٩ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل / شهاب الدين الحلبي: أبو الثناء شهاب الدين محمود بن سليمان (ت ٧٢٥ هـ)، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠.

٥٠ ـ الحلة السيراء / ابن الأبَّار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨ هـ)، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

٥١ ـ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية / مؤلف أندلسي (من أهل القرن الثامن الهجري): حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩.

٥٢ ـ الحيوان / الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ): تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٣٨.

٥٣ ـ خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء المغرب والأندلس / العماد الأصفهاني: أبو محمد صفي الدين عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٩٧ هـ): تحقيق آذرتاش وآذرنوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني ابن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧١ ـ ١٩٧٢.

٥٤ ـ دار الطراز في عمل الموشحات / ابن سناء الملك: أبو القاسم هبة الله ابن جعفر (ت ٦٠٨ هـ): تحقيق جودت الركابي، ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٠.

٥٥ ـ الدر المنثور في طبقات ربات الخدور / زينب العاملي، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٢ هـ.

٥٦ ـ ديوان الصولي / الصولي: ابراهيم بن العباس (ت ٢٤٣ هـ) الطرائف الأدبية، القسم الثاني، صححه وخرجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيله عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧.

٥٧ ـ ديوان أبي اسحق الألبيري / أبو إسحق الألبيري: ابراهيم بن مسعود التجيبي (ت ٤٦٠ هـ)، دار قتيبة / دمشق ١٩٨١.

٥٨ ـ ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي / أبو تمام: حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١ هـ)، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).

٥٩ ـ ديوان أبي نواس برواية الصولي / أبو نواس: الحسن بن هانىء (ت ١٩٥ هـ): تحقيق بهجت عبد الغفور الحذيفي، دار الرسالة للطباعة، بغداد، ١٩٨٠.

٦٠ ـ ديوان ابن حمديس / ابن حمديس: أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر، (ت ٥٢٧ هـ)، تصحيح وتقديم احسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٠.

٦١ ـ ديوان ابن خفاجة / ابن خفاجة: أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسي (٤٥١ ـ ٥٣٣ هـ)، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، القاهرة، ١٩٦٠.

٦٢ ـ ديوان ابن دراج القسطلي / ابن دراج القسطلي: أبو عمر أحمد بن محمد ابن العاص (ت ٤٢١هـ) تحقيق محمود علي مكي، ط ١، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٦١.

٦٤ ـ ديوان ابن زيدون / ابن زيدون: أبو الوليد أحمد بن عبد الله (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ)، شرح وتحقيق محمد سيد كيلاني، ط ٣، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٥.

٦٥ ـ ديوان ابن شهيد الأندلسي / ابن شهيد: أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك (ت ٤٢٦ هـ)، جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د. ت).

٦٦ ـ ديوان ابن عبد ربه / ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد (ت ٣٢٨ هـ) حققه وجمعه وشرحه محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.

٦٧ ـ ديوان الحطيئة: من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي وشرح أبي سعيد السكري / الحطيئة: جرول بن أوس بن مالك العبسي (توفي نحو ٤٥ هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٨١.

٦٨ ـ ديوان الشريف الرضي / الشريف الرضي: أبو الحسن محمد بن الحسين (ت ٤٠٦ هـ)، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٦٩ ـ ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره / حاتم الطائي: أبو عدي حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج (ت ٤٦ ق. هـ)، صنعه يحيى بن

مدرك الطائي، رواية هاشم بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق عادل سليمان (د. ن)، (د. ت).

٧٠ ـ ديوان الطرماح / الطرماح: الطرماح بن حكيم بن الحكم (توفي نحو ١٢٥ هـ)، تحقيق عزت حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٨.

٧١ ـ ديوان المعتمد بن عباد / المعتمد بن عباد: أبو القاسم محمد بن عباد ابن محمد بن اسماعيل اللخمي (ت ٤٨٨ هـ)، جمع وتحقيق رضا الحبيب السوسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٥.

٧٢ ـ ديوان الهذليين / الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب).

٧٣ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام الشنتريني: أبو الحسن علي (ت ٥٤٢ هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.

٧٤ ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة / ابن عبد الملك المراكشي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (ت ٧٠٣ هـ).
ـ ج ١، تحقيق محمد بن شريفة وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٤.
ـ ج ٢، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د. ت).
ـ ج ٥، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

٧٥ ـ رايات المبرزين وغايات المميزين / ابن سعيد: علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (ت ٦٨٥ هـ)، تحقيق النعمان عبد المتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣.

٧٦ ـ الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى / ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ)، تحقيق إحسان عباس، مكتبة العروبة، القاهرة، ١٩٦٠.

٧٧ ـ رسائل ابن حزم / ابن حزم الأندلسي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ)، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣.

٧٨ ـ رسالة التوابع والزوابع / ابن شهيد: أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك (ت ٤٢٦ هـ)، صححها وحققها بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.

٧٩ ـ الرسالة المصرية / أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٥٢٨ هـ)، نوادر المخطوطات، المجموعة الأولى، ط ٢، شركة مكتبة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٧٢.

٨٠ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار / الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤.

٨١ ـ زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر / صفوان بن ادريس: أبو بحر صفوان بن ادريس التجيبي (ت ٥٩٨ هـ)، أعده وعلق عليه عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠.

٨٢ ـ زهر الآداب وثمر الألباب / الحصري: أبو اسحاق ابراهيم بن علي ابن تميم الأنصاري (ت ٤٥٣ هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، (د. ن)، القاهرة، ١٩٥٨.

٨٣ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون / ابن نباتة المصري: جمال الدين محمد بن محمد (ت ٧٦٨ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٤.

٨٤ ـ سير النبلاء: جزء خاص بترجمة الإمام ابن حزم الأندلسي / الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩.

٨٥ ـ السيرة النبوية / ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ هـ)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٣٦.

٨٦ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية / محمد بن محمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، (طبعت بالأوفست عن الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩ هـ).

٨٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب / ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩ هـ)، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، (د. ت).

٨٨ ـ شرح ديوان المتنبي: وضعه عبد الرحمن البرقوقي / المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤ هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠.

٨٩ ـ شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني / الزرقاني: أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي (ت ١١٢٢ هـ)، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٢٩ هـ.

٩٠ ـ شرح الشفا / القاري: نور الدين علي بن سلطان (ت ١٠١٤ هـ)، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.

٩١ ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني / بديع الزمان الهمذاني: أبو الفضل أحمد بن الحسين (ت ٣٩٨ هـ)، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، (د. ت).

٩٢ ـ شروح سقط الزند / المعري: أبو العلاء أحمد بن عبد الله (ت ٤٩٩ هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨.

٩٣ ـ شعراء القيروان من أنموذج الزمان / ابن رشيق: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ)، جميع وتعليق زين العابدين السنوسي، دار المغرب العربي، ١٩٧٣.

٩٤ ـ الشعر والشعراء / ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، ط ٤، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

٩٥ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا / القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١ هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د. ت).

٩٦ ـ الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية / الجوهري: إسماعيل بن حماد، (ت ٣٩٣ هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩.

٩٧ ـ صحيح الجامع الصغير / السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ)، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط ٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩.

٩٨ ـ صحيح مسلم / مسلم: أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٠٦ ـ ٢٦١ هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥.

٩٩ ـ صفة جزيرة الأندلس: منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار / الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم، تحقيق ا. ليفي بروفنسال، (د. ن)، القاهرة، ١٩٣٧.

١٠٠ ـ الصلة / ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨ هـ)، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.

١٠١ ـ طبقات الأمم / صاعد الأندلسي: أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢ هـ)، تحقيق محمد بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف، ١٩٦٧.

١٠٢ ـ طبقات النحويين واللغويين / الزبيدي الأندلسي: أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣.

١٠٣ ـ طوق الحمامة في الألفة والألاف / ابن حزم الأندلسي: أبو محمد علي ابن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ)، حققه وصوبه وفهرس له حسن كامل الصيرفي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، (د.ت).

١٠٤ ـ العبر في خبر من غبر / الذهبي: أبو عبد الله شمس الدين محمد (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق صلاح الدين المنجد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦٠.

١٠٥ ـ «العقد / الفريد» ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد (ت ٣٢٨ هـ)، شرح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

١٠٦ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / ابن رشيق: أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ هـ)، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٣٤.

١٠٧ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات / القزويني: زكريا بن محمد ابن محمود (ت ٦٨٢ هـ)، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٦.

١٠٨ ـ عيار الشعر / ابن طباطبا: محمد بن أحمد (ت ٣٢٢ هـ)، تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٦.

١٠٩ ـ عيون الأخبار / ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

١١٠ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء / ابن أبي اصيبعة: موفق الدين أبو المعالي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨ هـ)، شرح وتعليق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

١١١ ـ فتح الباري بشرح صحيح الإمام عبد الله بن إسماعيل البخاري / ابن حجر: علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د. ت).

١١٢ ـ الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير / السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ)، مزجهما ورتبهما الشيخ يوسف النبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت).

١١٣ ـ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال / أبو عبيد البكري: أبو عبيد بن محمد بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ)، حققه وقدم له وعلق عليه احسان عباس وعبد المجيد عابدين، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٠.

١١٤ ـ فضائل الأندلس وأهلها / ابن حزم، وابن سعيد، والشقندي: ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦ هـ)، نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، القاهرة، ١٩٦٨.

١١٥ ـ الفهرست / ابن النديم: أبو الفرج محمد بن اسحق بن محمد (ت ٤٣٨ هـ)، مكتبة خياط، بيروت (د. ت).

١١٦ ـ فهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف / ابن خير: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة (ت ٥٧٥ هـ)، بعناية فرنشكه قداره زيدن وخليان ربارة طرغوة (د. ن)، ١٩٦٣.

١١٧ ـ فوات الوفيات والذيل عليها / الكتبي: محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣.

١١٨ ـ القاموس المحيط / الفيروز أبادي: محيي الدين محمد بن يعقوب (ت ٨٢٣ هـ)، دار الجليل بيروت، (د. ت).

١١٩ ـ قضاة قرطبة / الخشني: أبو عبد الله محمد بن حارث (ت ٣٦١ هـ)، تحقيق عزت العطار الحسيني، (د. ن)، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

١٢٠ ـ قلائد العقيان / ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله ابن خاقان القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩ هـ)، (د.ن)، القاهرة، ١٢٨٣هـ.

١٢١ ـ الكامل في التاريخ / ابن الأثير: علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.

١٢٢ ـ كتاب ألف باء / البلوي : أبو الحجاج يوسف بن محمد، (ت ١٢٠٧ هـ)، جمعية المعارف، القاهرة، ١٢٨٧هـ.

١٢٣ ـ كتاب الأمالي / أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦ هـ) دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت).

١٢٤ ـ كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر ـ أبو هلال العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢.

١٢٥ ـ كتاب الفلاحة / ابن بصال: أبو عبد الله محمد بن ابراهيم (من علماء القرن الخامس الهجري) نشره خوسي مارسيه ومحمد عزيمان (د.ن)، تطوان، ١٩٥٥.

١٢٦ ـ كتاب الأغاني / أبو الفرج الأصفهاني: علي بن الحسن (ت ٣٥٦ هـ)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٧ ـ ١٩٦١.

١٢٧ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون / حاجي خليفه: مصطفى ابن عبدالله (ت ١٠٦٧ هـ)، مكتبة إسلامية والجعفري تبريزي، طهران، ١٩٤٧.

١٢٨ ـ لسان العرب / ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، (د.ت).

١٢٩ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر / ابن الأثير: أبو الفتح نصر

الله الجزري (ت ٦٣٦ هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٩.

١٣٠ ـ مجمع الأمثال / الميداني: أبو الفضل محمد بن أحمد بن ابراهيم النيسابوري (ت ٥١٨ هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، (د.ت).

١٣١ ـ المحمدون من الشعراء وأشعارهم / القفطي: أبو الحسن جمال الدين علي بن يوسف (٥٦٨ ـ ٦٤٦ هـ)، تحقيق حسن معمري، اشراف شارل بلا، راجعه حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٩٧٠.

١٣٢ ـ المختار من شعر بشار / بشار بن برد العقيلي (ت ١٨٦ هـ)، اختيار الخالدين، وشرحه لأبي الطاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي البرقي، اعتنى بنسخه وتصحيحه وتعليق الفوائد عليه محمد بدر الدين العلوي، عليكره، الهند، ١٩٣٤.

١٣٣ ـ مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان / ابن بلقين: عبد الله بن بلقين بن زيري الصنهاجي (ت ٤٨٣ هـ)، تحقيق: ا. ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥.

١٣٤ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة مايعتبر من حوادث الزمان / اليافعي: عفيف الدين أبو السعادات عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨ هـ)، مؤسسة الأعلمي بيروت، ١٩٧٠.

١٣٥ ـ مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع / صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق البغدادي (ت ٧٣٩ هـ)، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥.

١٣٦ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر / المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين

ابن علي: باعتناء الأستاذين باربي دمينارو و باوه دكورتل ط ٢، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، طهران، ١٩٧٠.

١٣٧ ـ المصايد والمطارد / كشاجم: أبو الفتح محمود بن الحسين (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق محمد أسعد طلس، دار اليقظة، بغداد، ١٩٥٤.

١٣٨ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب / الداوودي محمد علي المصري (ت ٩٤٥)، (د.ن)، القاهرة، ١٩٥٤.

١٣٩ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس / ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي (ت ٥٢٩ هـ)، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة ودار عمّار، بيروت، ١٩٨٣.

١٤٠ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب / المراكشي: عبد الواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧ هـ)، تحقيق محمد علي العريان، لجنة احياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣.

١٤١ ـ معجم الأدباء / ياقوت الحموي: أبو عبد الله بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، تحقيق أحمد فريد الرفاعي، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٦.

١٤٢ ـ معجم البلدان / ياقون الحموي: أبو عبد الله بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٥٥.

١٤٣ ـ معجم الشعراء / المرزباني: أبو عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠.

١٤٤ ـ المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي / ابن الأبّار: أبو عبد الله محمد ابن عبد الله القضاعي (ت ٦٥٨هـ)، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٠.

١٤٥ ـ معجم ماستعجم من أسماء البلاد والمواضع / أبو عبيد البكري: أبو

عبيد بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ)، تحقيق مصطفى السقا، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥.

١٤٦ ـ المغرب في حلل المغرب / ابن سعيد: علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك (ت ٦٨٥ هـ)، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤.

١٤٧ ـ مفاتيح العلوم / الخوارزمي: أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٨٧ هـ)، تحقيق جرلوف فان فولتن، ليدن، ١٩٦٨.

١٤٨ ـ المقتبس في أخبار بلاد الأندلس / ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي (ت ٤٦٩ هـ)، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

١٤٩ ـ المقتبس من أنباء أهل الأندلس / أبو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي (ت ٤٦٩ هـ)، حققه وقدم له وعلق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣.

١٥٠ ـ المقتبس / أبو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي (ت ٤٦٩ هـ) ج ٥، اعتنى بنشره ب. شالميتا بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع ف. كورلينطي و م. صبح وغيرهما، المعهد الاسباني العربي للثقافة وكلية الآداب بالرباط، مدريد، ١٩٧٩.

١٥١ ـ ملحمة السيد: أول ملحمة أندلسية كتبت في اللغة القشتالية / مؤلف مجهول، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف،القاهرة، ١٩٧٠.

١٥٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة / ابن تغري بردي: أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥.

١٥٣ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء / ابن الأنباري: أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٧٧ هـ)، تحقيق ابراهيم السامرائي، وزارة المعارف، القاهرة، ١٩٥٩.

١٥٤ ـ نزهة الجلساء في أشعار النساء / السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ)، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٨ .

١٥٥ ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس / الادريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد الحسني (ت ٥٦٠ هـ)، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨ .

١٥٦ ـ نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك / ابن الدلائي : أبو العباس أحمد بن عمر (ت ٤٧٨ هـ)، تحقيق عبد العزيز الأهواني، (د. ن)، مدريد، ١٩٦٥ .

١٥٧ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المقّري : أحمد بن محمد المقّري التلمساني (ت ١٠٤١ هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨ .

١٥٨ ـ نقد الشعر / قدامة بن جعفر: أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ)، تحقيق كمال مصطفى، ط ٢ ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٣ .

١٥٩ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب / النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، (د. ت).

١٦٠ ـ نوادر المخطوطات / تحقيق عبد السلام هارون، المجموعة الثالثة، ط ٢ ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣ .

١٦١ ـ هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين / اسماعيل باشا البغدادي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٥١ .

١٦٢ ـ الوافي بالوفيات / صلاح الدين الصفدي : خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ)، ج ٢ ج ٣، باعتناء س. ديدرينج . فسبادن، ١٩٧٤ .

١٦٣ ـ الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقية: ٦٤ هـ ـ ٨٩٧ هـ / دراسة ونصوص / محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠.

١٦٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان / ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ)، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د. ن).

١٦٥ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / الثعالبي: أبو منصور عبد الملك ابن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ هـ)، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

ثانياً: المراجع:

١٦٦ ـ ابن بسام وكتابه الذخيرة / حسين خريوش، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٨٤.

١٦٧ ـ ابن حزم الأندلسي: حياته وأدبه / عبد الكريم خليفة، مكتبة الأقصى، المكتب الإسلامي، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ن).

١٦٨ ـ ابن حزم الأندلسي ورسالة في المفاضلة بين الصحابة / سعيد الأفغاني، ط ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٩.

١٦٩ ـ ابن زيدون / شوقي ضيف، ط ٧ دار المعارف بمصر، ١٩٧٥.

١٧٠ ـ ابن زيدون: عصره وحياته وآدابه / علي عبد العظيم، (د. ن) القاهرة، ١٩٥٥.

١٧١ ـ ابن شهيد الأندلسي: حياته وآثاره، شارل بلا، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٦٥.

١٧٢ ـ ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه / حازم عبد الله خضر، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٨٤.

١٧٣ ـ أبو المطرف أحمد بن عميره المخزومي : حياته وآثاره / محمد بن شريفة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ١٩٦٦.

١٧٤ ـ الأدب الأندلسي في عصر الموحدين / حكمة علي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٦.

١٧٥ ـ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة / أحمد هيكل، ط ٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.

١٧٦ ـ الأدب الأندلسي : موضوعاته وفنونه / مصطفى الشكعة، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

١٧٧ ـ الأدب العربي في الأندلس / عبد العزيز عتيق، ط ٢، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٦.

١٧٨ ـ الأدب المقارن / محمد غنيمي هلال، ط ٤، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، (د.ت).

١٧٩ ـ الإسلام في إسبانيا / لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.

١٨٠ ـ الإسلام في المغرب والأندلس /بروفنسيال: أ. ليفي، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مراجعة لطفي عبد البديع، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٩٥٦.

١٨١ ـ الأسلوب / أحمد الشايب، ط ٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.

١٨٢ ـ إشبيلية في القرن الخامس الهجري / صلاح خالص، بيروت، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

١٨٣ ـ الأعلام / خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، (د. ت).

١٨٤ ـ أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام / عمر رضا كحالة، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩.

١٨٥ ـ أوروبا العصور الوسطى / سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤.

١٨٦ ـ أيام العرب في الجاهلية / محمد أحمد جاد المولى بك، علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار الفكر، القاهرة (د.ت).

١٨٧ ـ بلاغة العرب في الأندلس / أحمد ضيف، ط ١، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٢٤.

١٨٨ ـ بلاغة الكُتَّاب في العصر العباسي / محمد نبيه حجاب، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ١٩٦٥.

١٨٩ ـ البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: عصر ملوك الطوائف / سعد إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨.

١٩٠ ـ تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة / إحسان عباس، ط ٥، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨.

١٩١ ـ تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين / إحسان عباس، ط ٥ دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨.

١٩٢ ـ تاريخ الأدب العربي / كارل بروكلمان، ج ٢، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، ط ٢، دار المعارف بمصر، (د.ت).

١٩٣ ـ تاريخ الأدب العربي في الأندلس / ابراهيم علي أبو الخشب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠.

١٩٤ ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين / يوسف أشباخ، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط ٢ ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة، ١٩٥٨ .

١٩٥ ـ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢ ـ ٨٩٧ هـ) / عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم ، بيروت، ١٩٧٦ .

١٩٦ ـ تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس / حسين مؤنس ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد، ١٩٦٧ .

١٩٧ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية / كارل بروكلمان ، ترجمة نبيه أمين عاقل ، ومنير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين، ١٩٦٥ .

١٩٨ ـ تاريخ العرب العام / ميدليول . م ، ترجمة عادل زعيتر، ط ٢ ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة، ١٩٦٩ .

١٩٩ ـ تاريخ الفكر الأندلسي / انخل جنثالث بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٥٥ .

٢٠٠ ـ تاريخ مسلمي إسبانيا: الحرب الأهلية / دوزي ، ترجمة حسن حبشي ، مراجعة جمال محرز ومختار العبادي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢ .

٢٠١ ـ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس / محمد رضوان الداية ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ .

٢٠٢ ـ تراث الإسلام / شاخت و ووزورث ، ترجمة محمد زهير السمهوري ، تعليق وتحقيق شاكر مصطفى ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت، ١٩٧٨ .

٢٠٣ ـ جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة / أحمد زكي صفوت ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة، ١٩٣٧ .

٢٠٤ ـ الحركة اللغوية في الأندلس، منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف / ألبير حبيب مطلق، بيروت، المكتبة العصرية ١٩٦٧.

٢٠٥ ـ الحياة العلمية في مدينة بلنسية الإسلامية / كريم عجيل حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٦.

٢٠٦ ـ دولة الإسلام في الأندلس / محمد عبد الله عنان، ج ١، ق ٢، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠.

٢٠٧ ـ دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي / محمد عبد الله عنان، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٩.

٢٠٨ ـ الدولة العربية في إسبانيا: من الفتح حتى سقوط الخلافة / ابراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠.

٢٠٩ ـ رحلة الأندلس / محمد لبيب البتنوني، مطبعة الكشكول، القاهرة ١٩٢٧.

٢١٠ ـ سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخه / أ. ليفي بلروفنسال، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، (د. ن)، القاهرة، ١٩٥١.

٢١١ ـ الشعر الأندلسي: بحث في تطوره وخصائصه / أميليو غيرسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦.

٢١٢ ـ الشعر في ظل بني عباد / محمد مجيد السعيد، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٢.

٢١٣ ـ الفكاهة في الأدب العربي: إلى نهاية القرن الثالث الهجري / فتحي محمد معوض أبو عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٠.

٢١٤ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف، ط ٩، دار المعارف القاهرة، ١٩٧٦.

٢١٥ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي / شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.

٢١٦ ـ في الأدب الأندلسي / جودت الركابي، ط ٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦.

٢١٧ ـ في تاريخ المغرب والأندلس / أحمد مختار العبادي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، (د.ت).

٢١٨ ـ في النقد الأدبي / شوقي ضيف، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.

٢١٩ ـ قصة الحضارة / ول ديورانت:
ـ ج ٢ م ٤، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، القاهرة، (د. ت).
ـ ج ٣ م ٤، ترجمة زكي نجيب محمد وآخرين، لجنة التأجليف والترجمة والنشر، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٦.

٢٢٠ ـ مجاهد العامري: قائد الأسطول العربي في غربي البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس الهجري / كليليا سار نيللي تشركو، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦١.

٢٢١ ـ المرابطون: تاريخهم السياسي (٤٣٠ ـ ٥٣٩ هـ) / تأليف محمد عبد الهادي شعيرة، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٩.

٢٢٢ ـ ملامح الشعر الأندلسي / عمر الدقاق، دار الشرق، بيروت، ١٩٧٥.

٢٢٣ ـ النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين / دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١.

٢٢٤ ـ النثر الفني في القرن الرابع / زكي مبارك، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٥.

٢٢٥ ـ نقاط التطور في الأدب العربي / علي شلق، دار القلم، بيروت، ١٩٧٥.

٢٢٦ ـ Geschichte der Arabischen Litteratur, c. Brockelmann, Sup. I, Leiden, Brill, 1937.

٢٢٧ ـ Les Manuscrits Arabes de L, Escurial / Hartwig Derenbourg, paris;1884 - 1923.

ثالثاً: المقالات:

٢٢٨ ـ «أخبار الغناء والمغنين في الأندلس (١٣٨ ـ ٥٣٩ هـ) / إحسان عباس مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية ببيروت، السنة السادسة عشرة، الجزء الأول، آذار ١٩٦٣، من ص٣ ـ ٢٢.

٢٢٩ ـ «الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي» / الطرابيسي أحمد إعراب، عالم الفكر، وزارة الاعلام الكويتية، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، ١٩٨١، ص ١٣١ ـ ١٧٠.

٢٣٠ ـ «التشيع في الأندلس» / محمود مكي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مدريد، العدد الثاني، ص ١٣٣ ـ ١٤٥.

٢٣١ ـ «مساهمة الأفارقة في الحياة الثقافية بالأندلس في عصر الطوائف والمرابطين» / الشاذلي بو يحيى، حوليات الجامعة التونسية، العدد العشرون، ١٩٨١، ص ٧ ـ ٤١.

٢٣٢ ـ «المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الإسلامية» / خوليان ريبيريا، ترجمة جمال محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس، الجزء الأول، ١٩٥٩، ص ٦٩ ـ ١٠١.

«Al - Bashkunish,» D. M. Dunlop, E.I. (2), Vol. 1, Leiden, Brill, 1960. - ٢٣٣

«Djillikiyya,» A. Huici Miranda, E. I. (2), Vol. 2, Leiden, Brill, 1965. - ٢٣٤

«Ibn Hazm bibliographie et panegyniste de l,Espagne Musulman, Charles pellet, Al - Andalus, No. 19, PP. 53 - 102, 1954 - ٢٣٥

ثانياً: فهرس الأعلام

«أ»

«ب»

«ت»

«ث»

«جـ»

«ح»

«خ»

«د»

«س»

«ش»

«ص»

«ط»

«ع»

«غ»

«ف»

ثالثاً: فهرس القبائل والطوائف والجماعات والأمم

«أ»

«ب»

«جـ»

«ح»

«د»

«ر»

«ز»

«ش»

«هـ»

«ي»

رابعاً: فهرس الاماكن والبلدان

«أ»

«ب»

«جـ»

«ح»

«د»

«ر»

«ز»

«س»

خامساً: فهرس الموضوعات